المركز القومى للترجمة

جيمس واترسون

فرسان الإسلام وحروب المماليك

تقديم: جون مان

ترجمة: يعقوب عبد الرحمن

مراجعة: حاتم الطحاوي

1932

فرسان الإسلام وحروب المماليك

فرسان الإسلام وحروب المماليك

تأليف: جيمس واترسون

تقديم: جون مان

ترجمة: يعقوب عبد الرحمن

مراجعة: حاتم الطحاوي

2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

واترسون، جيمس
فرسان الإسلام وحروب المماليك/ تأليف: جيمس واترسون، ترجمة: يعقوب عبد الرحمن، مراجعة: حاتم الطحاوي، مقدمة: جون مان؛
ط ١ – القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٤٢٤ ص، ٢٤ سم
١ – التاريخ الإسلامى
(أ) عبد الرحمن، يعقوب (مُترجم)
(ب) الطحاوي، حاتم (مُراجع)
(ج) مان، جون (مُقدم)
(د) العنوان
٩٥٣

رقم الإيداع: ٥٦٢٤ / ٢٠١١
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 704 - 541 - 4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة المترجم.. 9

شكر وامتنان بقلم المؤلف.................................. 13

تقديم/ بقلم: جون مان... 15

ترتيب تاريخي للأحداث الرئيسية.................................. 19

السلاطين والخانات.. 27

الخرائط.. 33

الفصل الأول: غرباء من أراض غريبة: لُغز المماليك؟............ 43

الفصل الثانى: تحت الحصار: أهل السهوب والحملات الصليبية.... 61

الفصل الثالث: الطريق إلى العرش: قصة بزوغ شمس السلطنة المملوكية.. 75

الفصل الرابع: أسطورة الراهب يوحنا: بداية حرب المغول.......... 95

الفصل الخامس: تدريبات دامية لحروب بلا دماء: بناء آلة الحرب.... 131

الفصل السادس: حلفاء مريبون وأصدقاء لا يُثق بهم: حملات بيبرس الأخيرة... 193

الفصل السابع: نمط القوة: (آل قلاوون)............................ 251

الفصل الثامن: النصر والشقاق: نهاية المماليك الصليبية فيما وراء البحار... 277

الفصل التاسع: الانتصار وخلق أعداء جدد: نهاية الإليخانات......... 307

الفصل العاشر: أعداء من الخارج وأعداء فى الداخل: ظهور العثمانيين وتيمورلنك.. 331

الفصل الحادى عشر: الانطلاق مع أشباح الماضي: سقوط السلالة الحاكمة.. 355

الخاتمة: حيل الشيطان: نهاية المماليك.................................. 405

ببليوجرافيا.. 413

قائمة بالخرائط والصور

الصور التي تظهر في نهاية الفصول تمثل شعارات النبالة للمماليـك كما تبين الرُتب والوظائف.

الخرائط

١- إلخانات المغول بعد ١٢٦٠م........................ 36
٢- مصر وسيناء........................ 37
٣- شمال بلاد الشام والجزيرة في عام ١٢٦٠م........................ 38
٤- فلسطين وبلاد الشام في عام ١٢٦٠م........................ 39
٥- الشرق الأوسط بعد تيمورلنك، عام ١٤٠٥م........................ 40
٦- الأناضول........................ 41

الصـــــور

١- الجعبة (سهم الكنانة) المنتشرة في كل الرسومات تقريبًا........................ 209
٢- قلعة الحصن........................ 210
٣- جامع دمشق الكبير........................ 211
٤- قلعة مماليك حلب........................ 211
٥- ذكريات لحياة أعداء الصليبيين (المماليك) والموجودة في إيطاليا........................ 212
٦- محراب الجامع الأزهر في القاهرة........................ 213
٧- الجنود الإنكشاريون (الينيجارية) العثمانيون كانوا أيضًا من الجنود العبيد وأيضًا رماة سهام لا يُشق لهم غبار........................ 213
٨- بوابة ضريح السلطان الناصر........................ 213
٩- أربعة من الفرسان يقفون في تناسق حول حوض........................ 214

١٠- جياد مطهمة من المدينة يتم عرضها كجوائز.......... 215
١١- عسكري مملوكي يقوم باستعراض استخدامه للنيران اليونانية.......... 215
١٢- ألعاب أكروبات على ظهر حصان بواسطة سيفين.......... 216
١٣- تدريبات غير دموية للاستعداد لمعارك دموية.......... 217
١٤- مملوك يقوم باستعراض سيف "ألب أرسلان" التقليدي.......... 218
١٥- كيفية التعامل مع الذئاب عند اصطيادها.......... 219
١٦- خندق مائي حول قلعة الحصن.......... 219
١٧- لوحة "جويا" عن هجوم مفاجئ للمماليك.......... 220
١٨- صورة للفرسان المدرعين يلبسون دروعا ثقيلة.......... 221
١٩- كانت "حلب" نقطة الدفاع الأولى عن بلاد الشام.......... 222
٢٠- مهاجمة أسوار عكا بواسطة المماليك.......... 222
٢١- منارة مسجد للمماليك الجراكسة.......... 223
٢٢- رسم تخطيطي لأمير أربعين مملوكا.......... 224
٢٣- مماليك الأمراء السلطانية كانوا من أعظم الجنود في القرون الوسطى.... 224
٢٤- القلعة – القاهرة.......... 225
٢٥- القلعة المتهدمة في "عتليت".......... 225
٢٦- قيصرية" التي قام المماليك بغزوها.......... 226
٢٧- صانع سيوف دمشقي.......... 226
٢٨- رسم لمحارب مملوكي من القرن التاسع عشر.......... 227
٢٩- سيوف عثمانية على الطراز المملوكي.......... 228
٣٠- رجل بدوي من رجال القبائل.......... 229
٣١- من معالم القرون الوسطى في القاهرة "ضريح مملوكي".......... 230
٣٢- رءوس لمبعوثين من قِبل المغول تم شنقهم على أبواب القاهرة.......... 231
٣٣- فرسان المستشفى أو الإسبتارية أو فرسان معقل قلعة "المرقب".......... 232

٣٤- كنيسة القيامة المجيدة في القدس.. 233
٣٥- بوابة على الطراز السوري التقليدي.. 234
٣٦- شرطي جركسي فارس من العهد العثماني.. 235
٣٧- صورة تعود إلى عام ١٨٨٠م لفارس جركسي.. 236

مقدمة المترجم

التاريخ!!

لماذا يجب أن نقرأ التاريخ؟ وما الفائدة التي تعود علينا من قراءة التاريخ؟

كلما رأيت أو قرأت أو سمعت كلمة "تاريخ" قفزت إلى ذهني على الفور عبارات كتبها الراحل الكبير "أحمد بهاء الدين" في مقدمة كتابه "أيام لها تاريخ" يقول فيها:

> "فأنت تستطيع اليوم أن تصطاد الفأر الذي في بيتك بنفس الطريقة التي كان يتم اصطياده بها منذ الأزل: "بمصيدة وقطعة من الجبن"، ولو كان في بيتك عشرة فئران لاستطعت اصطيادها واحدًا بعد الآخر وبنفس المصيدة وقطعة من الجبن، ذلك لأن الفئران ليس لها تاريخ، ولا تستفيد من تجربة، وهي لا تعرف مثلاً أنه في اليوم السابق دخل فأر ليأكل الجبن فأُغلقت عليه المصيدة، وهي قد تعرف، ولكنها لا تُدرك المغزى فلا تتحاشى قطعة الجبن. وعلى العكس من ذلك فإن الإنسان يعرف ما أصاب أسلافه بالأمس، أو منذ مائة سنة، ومنذ آلاف السنين".

كانت عبارات الراحل الكبير تطن في أذني طوال الشهور التي قضيتها في قراءة وترجمة هذا الكتاب. فهذا الكتاب يحكي عن فترة ذهبية في تاريخ العرب والمسلمين، وهي فترة تميزت بتحقيق انتصارات مذهلة على العديد من الجبهات، وضد إمبراطوريات وقوى عظمى في العصور الوسطى. ولم تكن تلك الانتصارات العظيمة والمتكررة وليدة الصدفة أو الحظ ولكنها كانت نتاج عمل جاد ودءوب لرجال عرفوا طريق الأسلوب العلمي للتخطيط والتنفيذ بالفطرة، وقاموا بتنمية مقدراتهم بالتدريب الشاق والعمل المستمر.

وقد وفّىَ المؤلف المماليك حقهم بموضوعية تامة سواء في قدراتهم القتالية الفذة وتنظيمهم وروح الجهاد التي تقمصتهم، وحسن تخطيطهم واستخدامهم لأساليب علمية حديثة يتم تطبيقها في عالم اليوم، مثل التجسس على الأعداء الحاليين بل وعلى الأصدقاء المرشحين للتحول إلى أعداء محتملين، واستخدام الدبلوماسية وعقد المعاهدات وتحديد شروطها بطريقة فذة، بحيث يمكن تحقيق أقصى فائدة ممكنة، وكل ذلك بالفطرة السليمة وبذكاء منقطع النظير.

وعلى الرغم من أن أعمال الدسائس والنزاعات سمة غالبة في العمل السياسي في أي عصر من العصور، فإن تلك الحقبة من العصور الوسطى اتسمت بالعنف وأعمال القسوة التي سادت في كل أرجاء الأرض، والتي لم يكن فيها مكان للضعيف، كما أن أعمال القتل لم تخف حدتها في العصر الحديث، ولكنها تنوعت بين أعمال قتل مادية ومعنوية وأصبحت أكثر أناقة وأكثر غموضًا بأسلحة أكثر فتكًا وإعلام مضلل يقوم بتبريرها أو طيها في زوايا النسيان.

ويقوم المؤلف بتبرير نزاعاتهم ودسائسهم – وعن حق– بما لاقوه من أهوال وصعوبات سواء في حياتهم المُجدبة وهم أطفال أو بيعهم وانتزاعهم من أُسرهم وانتقالهم إلى مجتمع غريب عنهم – وهذا الجانب النفسي مهم للغاية – ولا اعتقد أن المؤرخين قد أوفوا هذا الجانب حقه عند تبرير سلوكيات المماليك. فضلاً عن أن الأساليب الديمقراطية والدستورية الحديثة من انتخابات وخلافة لم تكن قد ظهرت

للوجود، وكانت الغلبة دائمًا للأقوى، أو لمن يستطيع جمع عوامل القوة في يديه. وعلى الرغم من ذلك فلا تزال هذه الأساليب القذرة هي السائدة في عالم السياسة في العصر الحديث، وإن اختلفت وسائل القوة، كما أنها لا تخلو من الدسائس والأعمال القذرة ومن عمليات القتل المعنوية بل والمادية أيضًا وحتى في عالم اليوم وفي أعتى الديمقراطيات وأكثرها رسوخًا.

كما أنهم أدركوا وبفطرتهم السليمة، وللغرابة الشديدة – ومنذ ذلك الزمن البعيد – أن الأمن القومي المصري يبدأ من بلاد الشام (سوريا ولبنان اليوم)، والعراق شمالاً، وأن حمايتهما من أي عدو يأتي من الشمال هو الحل الأمثل لحماية أمن مصر – بل وكانت تنضم إليهم إيران – حيث كان العدو دائمًا ما يأتي من الشمال سواء من المغول أو الصليبيين وغيرهم. وقام المماليك بتأمين بلاد الشام بالذات وبوسائل عبقرية عبر الكثير من الخطوط الدفاعية ونقاط المراقبة والإنذار المبكر وأعمال التجسس التي امتدت إلى قلب أراضي الأعداء سواء المغول أو الفرنجة، وكان ذلك يعطيهم فكرة شاملة عما يفكر فيه العدو قبل أن يتحرك للزحف من أراضيه، كما كان يمنحهم الأفضلية في ميادين القتال.

ويتصف مؤلف هذا الكتاب بعلمه الغزير، وبالجهد الوافر الذي بذله لجمع المادة العلمية والتاريخية لهذا الكتاب، وبالموضوعية في تحليله لكافة الموضوعات، كما أن أسلوبه الشيق وعناوين فصوله الجذابة، وسرده الشيق يجعل من قراءة المادة التاريخية متعة خالصة.

وعلى الرغم من أن هناك بعض الهنات اليسيرة في تناوله لبعض جوانب الديانة الإسلامية، والتي يمكننا تجاوزها بالنظر إلى جذوره الأجنبية، ومن ذلك استشهاده بترجمة هذه الآية القرآنية في صدر الكتاب

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

(سورة محمد – الآية ٣٥)

ودون ذكر السياق الذي وردت فيه الآية وعلى طريقة لا تقربوا الصلاة فإن الآية بمفردها يمكن أن تجعل القارئ الغربي يُدرك أن الإسلام لا يحب أن يلجأ المسلمون إلى السلم وهم أقوياء تحت أي ظرف من الظروف.

كما أورد الآتي على أنه حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم في صدر الفصل الحادي عشر:

"كل لهو باطل، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة: ترويض الرجل فرسه، وملاعبته لأهله، ورميه بين الغرضين".

ولأنه لم يسبق لي أن قرأت أو سمعت عن حديث للرسول (صلى الله عليه وسلم) بهذه الكلمات - أو بهذا المعنى فقد قمت بالاستفسار من الدكتور زهران محمد جبر - الأستاذ بجامعة الأزهر - والذي أكد لي عدم صحته.

وبدون أن أُفسد متعة القارئ بذكر الكثير من التفاصيل، فإن هذا الكتاب التاريخي الممتع قد أنصف هؤلاء المماليك الذين قدموا من سهوب آسيا واعتنقوا الإسلام كديانة لهم، ودافعوا عنه دفاعًا مجيدًا في مواجهة أخطار بالغة كانت تحيط بالإسلام والمسلمين، وكانوا سببًا في تغيير خريطة العالم آنذاك، وبالتالي حتى الوقت الحاضر.

إن انتصارات المماليك المذهلة حلم جميل كنت أعيشه ولم أود أن استيقظ منه طوال شهور ترجمتي لهذا الكتاب الشيق، ويبقى فقط أن نستخرج العِبر من رحلة نجاحاتهم المذهلة، واستمرارهم على القمة طوال قرنين من الزمان، ومن أخطائهم التي ارتكبوها حتى طواهم التاريخ بين صفحاته، ونتعلم من كل ذلك. وحتى لا يتم اصطيادنا - كما يقول الكاتب الكبير - بنفس الوسيلة الخالدة بمصيدة وقطعة من الجبن..!!

يعقوب عبد الرحمن

// شكر وامتنان

من المعتاد أن يقدم المرء شكره إلى كل هؤلاء الذين تكبدوا المشاق أثناء تأليفه لأي كتاب، ولكن القائمة هنا تضم اسمًا واحدًا فقط لهؤلاء الذين عانوا ويتوجب أن يُقدم لهم الشكر، وهي زوجتي العزيزة ميشيلي، كما أن قائمة هؤلاء الذين أدين لهم بتقديم الشكر لمعاونتهم لي تضم ميشيلي أيضًا لترجماتها التي قدمتها لي من اللغات الفرنسية والايطالية والصينية. وكما يطيب أن أقدم الشكر لبيتر فورتيدو **Peter Furtado** من مجلة "**History Today**"، والمحررة "كيت بيكر **Kate Baker**" كما أُقدم جزيل الشكر إلى "بين إيدج **Bean Edge**" و"جمي ريللي **Jimmy Reilly**" إلى مجموعة الصور والأشكال المتميزة والمنشورة في هذا الكتاب.

جيمس واترسون

مقدمة

أعتقد أن الأحداث والأشخاص المذكورة في هذا الكتاب غير معروفة لجماهير القراء في الغرب نسبيًا. ويعتبر ذلك أمرًا مخجلاً لأن هذه الأحداث وهذه الشخصيات كان لها تأثيرها الهائل في التاريخ. وهناك سبب واحد لذلك وهو قلة الموضوعات المكتوبة، على الأقل بالنسبة للكتب المتاحة للقراءة العامة، وهذه القصة ذات أبعاد متشعبة إلى حد كبير.

ففي حقبة من حقب التاريخ، كان العالم الإسلامي في الشرق الأوسط يتميز ببساطة وخصوصية عظيمة، ولكن تم تحطيم ذلك لفترة طويلة عن طريق مؤامرات المنافسين بحلول القرن الثالث عشر. فقد قامت أوروبا المسيحية بالدخول في مغامرة استغرقت مائتي عام، والتي تبدو الآن تعبيرًا سقيمًا عن التعصب الديني، حيث قام الصليبيون من العديد من الأمم بتأسيس أربع دول على طول شرقي شواطئ حوض البحر الأبيض المتوسط. وجاء المغول حينئذ للشرق الأوسط قافزين من قلب آسيا الوسطى في منتصف القرن الثالث عشر. وفي خضم هذا الغليان القومي والديني بزغ شمس عسكر المماليك، الذين كانوا عبيدًا فيما سبق ليحكموا مصر متطلعين إلى استعادة مجد الإسلام من خلال الجهاد في جبهتين. واستطاعوا في خلال ثلاثين عامًا فقط أن يُرغموا المغول على التوقف صاغرين، كما قاموا بدحر الصليبيين وإرغامهم على العودة إلى أوروبا.

ربما كان الشرق الأوسط سيمضي في طريق مختلف تمامًا، إذا لم تكن سلالة المماليك قد وصلت إلى سدة الحكم. وظلت إمبراطورية المغول محتفظة بتماسكها ووحدتها في منتصف القرن الثالث عشر، ومرتبطة برؤية وعبقرية مؤسسها "جنكيزخان" والذي كان حريًا به أن يحكم العالم بأسره، ذلك العالم الذي

كان يعني (من وجهة نظر أتباعه) أوراسيا واليابان. ولقد ظهر جليًا منذ وفاته في عام ١٢٢٧، أن ذلك كان يمكن أن يتحقق على أرض الواقع مع هجماتهم تجاه الغرب عبر جنوب روسيا في اتجاه شرق أوروبا (١٢٤١-١٢٤٢)، وإحكام قبضتهم على معظم العالم الإسلامي (١٢٥٥-١٢٦٠) حتى وصلوا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط، حيث قاموا بالاتصال بالدول الصليبية. وكان بعض الصليبيين على أتم الاستعداد للترحيب بالمغول لأنه كان يبدو عليهم أنهم أعداء ألداء للإسلام، كما استسلم آخرون لذلك الأمر، كما فعل بعض الأمراء المسلمين، وهكذا سقطت بلاد الشام. وكانت القوات المغولية في طريقها إلى الجنوب في صيف عام ١٢٦٠، قاصدة الاستيلاء على مصر. وكان النجاح في هذا الأمر سوف يعطيهم دفعة مُذهلة: الاستيلاء على إمبراطورية إسلامية ذات عاصمتين بغداد والقاهرة، والوصول إلى البحر الأبيض المتوسط، والموانئ، والحصول على خبرة بحرية، والحصول على خبرة في حروب الحصار المسلح - ثم ماذا بعد ذلك؟ بيزنطة؟ أوروبا؟ ما الشكل الذي سيكون عليه تاريخ أوروبا مع "قوبلاي خان" سيد "زانادو" والذي كان يسيطر على المنطقة الواقعة من الباسيفيكي إلى الأطلنطي؟

لا نعرف ذلك بالتأكيد لأنه ولحسن الحظ نجح المماليك في إيقاف مسيرتهم في موقعة من أشهر مواقع القتال في التاريخ في "عين جالوت" أو "عين جولايث" بالقرب من نابلس، وعلى بعد ستين كيلومترا من القدس، حيث مرج ابن عامر أو "زرعين" أمام جبل فقوعة. ولقد كان صيفًا ساخنًا. وكانت خيول المغول تعاني من نقص الماء والعلف، كما أن أعداد الجنود تقلصت حيث عاد ما يقرب من نصفهم إلى "فارس" عندما بلغهم نبأ موت الخان الأعظم "منكوخان". وبالرغم من ذلك كان المغول يستطيعون أن يكسبوا الحرب ضد معظم الجيوش في ذلك الوقت. ولكن ذلك لم يكن ممكنًا مع المماليك، والذين كان تدريبهم شديد الصرامة كما أن انضباطهم والتزامهم بفنون القتال كان يجعلهم أكثر من نِد للمغول. وكان جنود

المغول فرسان رماة سهام لا يشق لهم غبار، ولكن المماليك أيضًا كانوا كـــذلك، كما كانوا قادرين على استعمال الرماح والسيوف بمهارة تفوق المهارة التي يمكــن أن يصل إليها المغول. وقُتل المغول لآخر رجل تقريبًا في موقعة عــين جــالوت، وهي الكارثة التي قامت بتحويل الصراع المغولي- المملوكي من أجل الهيمنة إلى معضلة من الحرب الباردة والزاخرة ببعض المواقع الحربية الأكثــر دمويــة فــي العصور الوسطى وحتى نهاية عصر نظام حكم مغول فارس في عام ١٣٣٥.

كما كان المماليك أيضًا خبراء في فنون فرض الحصــار فــي الحــروب، وقادرين على نشر المقاليع بأحجام وأعداد هائلة لا يمكن تصورها في تلك العصور الغابرة في الشرق الأوسط. وتحت قيادة سلطانهم الأعظم بيبرس شــنوا هجمــاتهم الباسلة على قلاع الصليبيين حتى تلك التي استعصت على حروب صــلاح الــدين الأيوبي. وقام بيبرس بعد أن قام بإخضاع وتوحيد كل من مصر وبلاد الشام تحــت قيادته بتوجيه عدة ضربات قاصمة للصليبيين والتي أضــحى مصــيرها المحتــوم واضحًا للعيان حتى وفاته في عام ١٢٧٧، وسقطت آخر معاقل الصليبيين في أيدي المماليك في عام ١٢٩١.

برز "بيبرس" على الساحة كواحد من عباقرة القادة العسكريين في العصــور الوسطى، شديد القسوة، ومتوقد الذكاء سواء في الشئون العسكرية أو السياسية شأنه شأن جنكيزخان نفسه. وخاض العديد من الحروب وفي جبهات متعددة ضد مغــول فارس، وأرمينيا، والدول الصليبية، والنوبة. كما كان دبلوماسيًا حاذقًا، يتواصل مع بيزنطة، ومع القبيلة الذهبية (المغول الآخرين الذين يحكمــون جنــوب روســيا)، وصقلية، وإسبانيا. كما قام بشق الترع، وتشييد وتحسين الموانئ، كما حــذا حــذو المغول في إدخال خدمات البريد عن طريق رجل البريد الفــارس، وعــن طريــق الحمام الزاجل الذي يمكنه توصيل الرسائل عبر ممالكه في ثلاثة أيام. وكان يملــك من رجاحة العقل ما جعله يبادر إلى إضفاء الشرعية على ســلالته عــن طريــق

تأسيس دار للخلافة في القاهرة، وإعادة تأسيس القيادة الدينية للإسلام بعد أن قام المغول بتدمير بغداد التي استولوا عليها في عام ١٢٥٨. وكان بلا أدنى درجة من الشك رجلاً عسكريًا كاملاً خبيرًا في عمليات التجسس والملاحقة الحربية وركوب الخيل والمبارزة.

وتحت قيادة السلاطين المماليك كان هنالك جنود ملتزمون بأحكام الإسلام، ومتمسكين بمثاليات الجهاد التي تسري في العسكرية الإسلامية بشكلها المتشدد والفردي حتى عصرنا الحالي. ويصف هذا الكتاب الحقائق الاجتماعية والسياسية التي يمكن تتبع جذورها حتى نظام حكم بيبرس وأزهى فترات ازدهار حكم المماليك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

جاهدت الإمبراطورية المملوكية لقرنين آخرين بعد ذلك من أجل الاحتفاظ بقوتها بينما هي تسير في النفق الطويل المظلم نحو الانحدار. وكان الجمود والتمسك بالوسائل الحربية القديمة والفساد من الأسباب الرئيسة نحو الانهيار البطيء، ولكن في النهاية، وعلى كل حال، وبالرغم من البسالة والانتصارات التي لا نظير لها ضد الأعداء والذين كانوا دائمًا يفوقون أعدادهم المحدودة بكثير، فإنها أذعنت في النهاية للهجوم الثنائي الذي تعرضت له من منافسة اقتصادية من الاستعمار الأوروبي الجديد للمحيط الهندي، والقوة المتنامية للإمبراطورية العثمانية. وظل المماليك حتى بعد أن انضموا تحت لواء الإمبراطورية العثمانية في بدايات القرن السادس عشر النموذج المثالي للفروسية والشرف العسكري الذي كان الأمراء العثمانيون يستلهمونه في كل وقت.

وباختصار فإنه ملحمة جميلة يقدمها لنا كتاب "جمس واترسون"، يطيب لنا أن نعيشها بسلسلة أحداثها وشخوصها المدهشة.

جون مان

ترتيب تاريخي للأحداث الرئيسية (التقويم بالتاريخ الميلادي)

٦٣٢	وفاة الرسول (**محمد صلى الله عليه وسلم**).
٦٥١	استكمال الفتح العربي للشرق الأوسط وفارس على أرض الواقع.
٧١٦	شمال إفريقيا وإسبانيا تحت الحكم العربي.
٧٣٢	عرقلة التقدم العربي في أوروبا بعد موقعة (بلاط الشهداء)، واستمر توسع الإمبراطورية الإسلامية في الأراضي التركية شرقي نهر أوكسوس (جيجون لدى العرب حينئذ)، بدأ استجلاب المماليك العبيد إلى بلاد الإسلام من بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى، والولايات ذات الأغلبية المسلمة التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي السابق)، ومن بلاد القوقاز.
٧٥٠	ثورة العباسيين في بلاد فارس، حرب أهلية داخلية إسلامية. برهن المماليك الأتراك على نفوذهم الأعظم في الجيوش العربية.
٨٣٣	يقوم الخليفة المعتصم ببناء أول جيش من المماليك في العراق، وبدأ في بناء أرستقراطية عسكرية من المماليك عديمي الخبرة.
١٠٥٥	وفد السلاجقة، وهم قبائل تركية من الشرق، وأحكموا قبضتهم على الإمبراطورية الإسلامية في فارس، وأصبحوا القوة العسكرية المهيمنة في الدول الإسلامية.
١٠٧١	موقعة "ملاذكرد"، وفيها قامت قوات المماليك من السلاجقة والتركمان بدحر الجيش الميداني البيزنطي وتدميره.
١٠٩٩	الحملة الصليبية الأولى، وتم شنها تلبية لنداء البيزنطيين بعد موقعة "ملاذكرد"، وبعدها تمكنت من احتلال القدس. وكانت القوات

	التركمانية هي الوحيدة التي قاومت مقاومة فعالة مع القوات الإسلامية ضد تقدم الصليبيين. أدت هجماتهم الخيالية بالنبال إلى سحق الحملة الشعبية الصليبية، وتم تدمير قوات الحملة الرئيسية بالكامل في "ضوروليوم"، كما قاموا بالقضاء على قوات الحملة الصليبية التي وصلت في عامي ١١٠٠، ١١٠١.
١١٨٧	دمر صلاح الدين الأيوبي الجيش الميداني للصليبيين في موقعة "حطين" واستعاد القدس. ودعم قلب جيش المسلمين الذي كان يتكون من المماليك عملية الرد على الحملة الصليبية الثالثة.
١٢٤٤	موقعة غزة (موقعة الحربية) وتُلحق قوات جيش سلطان مصر المملوكي الهزيمة بالقوات المتحالفة ما بين الصليبيين وقوات المسلمين بالشام.
١٢٤٩-١٢٥٠	شنت قوات الملك لويس الرابع الصليبية من فرنسا. ولقيت هذه القوات الهزيمة على أيدي فيلق المماليك البحرية من القاهرة والتي كانت قد تمردت على السلطان، وانتزعت منه السلطة، وبذلك بدأ عهد المماليك البحرية في البزوغ.
١٢٥٨	قام المغول بغزو الشرق الأوسط، كما قاموا بنهب بغداد وقتل الخليفة.
١٢٥٩	بدأ غزو المغول لبلاد الشام: وجه المغول نداءً عن طريق هولاكو خان إلى المماليك بالاستسلام.
١٢٦٠-١٢٦٤	صرف نشوب الحرب الأهلية داخل صفوف المغول نتيجة للصراع بين "أريق بوكا"، و"قابلاي خان" من أجل منصب "الخان الأعظم" انتباه هولاكو خان عن بلاد الشام.

١٢٦٠	ينتصر السلطان قطز المملوكي على المغول في موقعة "عين جالوت"، ويضطر المغول للرحيل عن بلاد الشام. وتم قتل السلطان قطز عن طريق الأمير "بيبرس" الذي قام باغتصاب العرش.
١٢٦١	ينهزم المغول مرة أخرى في "حمص" ببلاد الشام، ويشرع بيبرس مرة أخرى في الجهاد ضدّ الصليبيين ويجعل الفوج المملوكي السلطاني قلب النمط الجديد من جيشه، ويقوم بوضع أسس الدولة العسكرية المملوكية.
١٢٦٢-١٢٦٥	بدأت قلاع ومدن الصليبيين في التهاوي تحت هجمات بيبرس، وتم الاستيلاء على مدن القيصرية، وحيفا، والناصرة. وبدأت حرب باردة من أعمال التجسس، والغارات، والحيل القذرة بين المغول والمماليك.
١٢٦٣	يقوم بيبرس بإقامة تحالف مع قبيلة المغول الذهبية في روسيا وضد هولاكو خان. وبدأت حرب حدود طويلة بين كل إليخانات المغول.
١٢٦٦	تم نهب وتدمير "سيس" عاصمة أرمينيا، وهي حليفة كل من الصليبيين والمغول بواسطة الأمير المملوكي قلاوون في حملة ماحقة.
١٢٦٨	سقطت يافا وأنطاكية في أيدي بيبرس بواسطة مهندسي الحصار.
١٢٧٠	فشلت الحملة الصليبية الأخيرة للملك لويس على تونس.
١٢٧١	سقط حصن الفرسان الأكراد في بلاد الشام في يد بيبرس. وبذل الأمير إدوارد مع قواته الصليبية الإنجليزية في بلاد الشام محاولات لعمليات مشتركة مع المغول. وفشلت خططه ولقي حتفه عن طريق فرقة الاغتيالات التابعة للسلطان بيبرس وهم الحشاشون.

١٢٧٢	قام السلطان بيبرس بإخضاع النوبة لحكم المماليك، وقام بالاشتراك مع قلاوون بإلحاق الهزيمة بالمغول في "البيرة" بالجزيرة.
١٢٧٤	تم نهب العاصمة الأرمينية بواسطة المماليك للمرة الثانية.
١٢٧٧	الحملات التي قام بها بيبرس في الأناضول وقام فيها بتدمير الجيش المغولي في موقعة الأبلستين. وتوفي بيبرس في دمشق وخلفه نجله "السعيد ناصر الدين بركة خان".
١٢٧٧-١٢٧٩	تم إيفاد مبعوثين من المغول إلى الحكام الأوربيين في محاولة من أجل ضمان تحالفهم معًا ضد المماليك.
١٢٧٩	قامت طغمة عسكرية بخلع "بركة"، وتم اختيار "قلاوون" كسلطان جديد.
١٢٨١	موقعة حمص الثانية، واستطاع المماليك فيها إلحاق الهزيمة بجيش كبير من المغول بصعوبة، وتم ذبح الآلاف من المغول أثناء انسحابهم.
١٢٨٢-١٢٩٤	صعوبات داخلية جمة بين إليخانات المغول والحرب الداخلية بينهم، واستمرار الصراعات مع قبائل "الجغطاى" في الشرق، وسوء الإدارة والدمار الذي لحق بالاقتصاد الفارسي بأكمله.
١٢٨٩	كانت طرابلس هي آخر مدينة من كثير من المدن والقلاع التي سقطت في يد قلاوون في استكماله الدءوب لجهاد سلفه بيبرس.
١٢٩٠-١٢٩١	موت قلاوون، وخلافة نجله "الأشرف" له، والذي قضى نهائيًا على مملكة الصليبيين بقيامه بتحطيم عكا.
١٢٩٣	يقوم "الأشرف" بشن حملة مشئومة ضد الشيعة، والدروز، والمسيحيين في جبال لبنان، ثم يتم قتله بعد ذلك عن طريق مجموعة من الأمراء المماليك. ويوضع على عرش الخلافة سلسلة

	من السلاطين وأبناء قلاوون ولكنهم كانوا ألعوبة في أيدي نخبة المماليك العسكرية الحاكمة.
١٢٩٥	يقوم المغولي المُبدع الإليخان "محمود غازان بن أرغون" بإجراء العديد من الإصلاحات في مملكة الإليخانات وجيشها. وقام غازان بغزو بلاد الشام ودحر المماليك في موقعة وادي الخازندار ولكنه فشل في تحطيم جيشهم الميداني. وأدت المقاومة العنيفة التي أبداها المماليك من القلاع والحصون وخاصة في دمشق إلى اضطرار المغول إلى الجلاء عن البلاد بحلول عام ١٣٠٠.
١٣٠٠	عاود غازان محاولة غزو بلاد الشام ولكنه عاد أدراجه في مواجهة فيضانات لا يمكن مواجهتها وبرد قارس لا يمكن احتماله.
١٣٠٣	منيت المحاولة الأخيرة التي قام بها غازان لغزو بلاد الشام بهزيمة مريرة من المماليك في موقعة مرج الصُفر- أو معركة شَقحَب. وتوفي بعدها مباشرة. وقاتل المماليك الجراكسة الجدد بشجاعة فائقة في تلك الموقعة.
١٣١٠- ١٣٤١	امتداد حقبة حكم المملوك الناصر لفترة طويلة، والانهيار النهائي للإليخانات. وتفشي الفساد في السلطنة المملوكية.
١٣٤٧	وصول وباء الطاعون أو الموت الأسود في الشرق الأوسط.
١٣٤١- ١٣٩٨	استخدام أبناء الناصر وأحفاده كألعوبة في أيدي سلسلة مجموعات من الطغم العسكرية.
١٣٤٦	قام البيزنطيون بتجنيد بيت الخلافة العثمانية، وهو تحالف صغير من مقاتلي الأناضول في الحروب الداخلية البيزنطية، ولكنهم بدأوا على الفور في شن غزوات خاصة على البلقان لحسابهم من أجل تكوين الدولة العثمانية.

١٣٦٥	قامت الحملة الصليبية التي قادها بطرس الأول ملك قبرص بنهب الإسكندرية، وانكشف ضعف الأسطول المملوكي.
١٣٨٩-١٤٠٢	قام السلطان العثماني بايزيد بتدمير الحملة الصليبية البلقانية في معركة نيقوبوليس، كما قام بتطويق بيزنطة، ثم قام بالتوسع تجاه الأناضول، كما قام بتهديد السلطنة المملوكية.
١٤٠٠-١٤٠٢	قام تيمورلنك في طريقة إلى تكوين إمبراطورية "جنكيزخان" بغزو الشرق الأوسط، وقام بإلحاق هزيمة دموية بالمماليك في حلب، كما قام بنهب حلب ودمشق، وألحق الهزيمة ببايزيد في موقعة أنقرة، ولقي حتفه وهو في طريقه لغزو الصين في عام ١٤٠٥م.
١٤٠٢-١٤٢٢	وقعت ثورات مستمرة ومتعددة لدى مماليك بلاد الشام، وعمت الفوضى السياسية في سلطنة المماليك حيث تصارع المماليك الجراكسة والمماليك البحرية من أجل الإمساك بزمام السلطة. استعاد العثمانيون سلطتهم على أوروبا وعلى الأناضول، بينما كانت إمبراطورية تيمورلنك في طريقها للتفسخ.
١٤٢٢-١٤٣٨	أعتلى السلطان "برسباي" العرش، وهو مملوك من الجراكسة. وقام بشن حملات على قبرص لمرات عديدة، كما قام ببناء أسطول قوي، وعمل على تهدئة بلاد الشام. وكانت السلطنة العثمانية تُهب قائمة في وقت قصير.
١٤٥٣-١٤٨١	قام السلطان العثماني محمد الثاني بغزو القسطنطينية، وإخضاع الأناضول، كما قام ببسط نفوذه على منطقة البحر الأسود بأسرها، بينما ألقى تأثير الوباء والفساد دولة المماليك العسكرية على طريق الانحدار مرة أخرى.

١٤٦٨- ١٤٩٦	حكم السلطان "قايتباي" بعد سلسلة من النكبات في مواجهته بأمير الحروب التركماني "شاه سوار" قام في النهاية بإلحاق الهزيمة به، كما قام بسحق ثورات البدو في مصر وبلاد الشام، كما ألحق الهزيمة بالعثمانيين في الحرب في ١٤٨٥-١٤٩٠م. وعلى الرغم من فترة حكمه المُشّرِقةْ، فإن السلطنة في عهده تم استنزافها اقتصاديًا وسياسيًا على حد سواء.
١٤٩٧	قام البرتغاليون بالدوران حول القرن الإفريقي حتى دخلوا المحيط الهندي.
١٥٠١- ١٥١٦	حقبة حكم الغوري بعد فترة من الاضطرابات السياسية في مصر. قام بمحاولات لإصلاح الجيش عن طريق توسيع نطاق استخدامها للأسلحة النارية، كما أن رجاله من حملة القواذف المحمولين على السفن قاموا بإلحاق الهزيمة بالبرتغال في حرب بحرية حول البحر الأحمر في الفترة ما بين أعوام ١٥٠٥-١٥١٦.
١٥٠٤- ١٥١٤	بزوغ شمس الدولة الصفوية في العراق وإيران. وقام الصفويون بشن غارات على أراضي المماليك كما شكلوا تهديدًا لهيمنة العثمانيين على الأناضول. وألحق السلطان العثماني "سليم الأول- أو سليم العابس كما كان يُعرف في الغرب" بهم الهزيمة في موقعة "جالديران"، كما واصل مطاردتهم مرة أخرى في عام ١٥١٦.
١٥١٦	قام "الغوري" خشية منه للقوة المتنامية لسليم الأول بتشكيل حلف دفاعي ثنائي مع الصفويين وقام بإرسال جيشه الميداني إلى بلاد الشام. وألحق فوج قوات المماليك السلطانية المكونة من ٩٤٤ رجلاً الهزيمة بالقوات العثمانية الكبيرة، ولكن السلطان "الغوري" لقي حتفه في أرض المعركة، لاذ مماليك حلب بقيادة أميرهم "خاير بك"

	بالفرار، ومن ثم تم ذبح الجيش الميداني للمماليك عن طريق قذائف الجيش الميداني العثماني.
١٥١٧	قام سليم الأول بغزو مصر بتشجيع من "خاير بـك"، وهـزم آخـر سلاطين المماليك طومان باى وقام بأسره بين الأهرام، وقام بشـنقه في البوابة الرئيسية لمدينة القاهرة وسط عويل العامة في القاهرة.
١٥١٨- ١٧٩٧	يقوم العثمانيون باستخدام المماليك سواء في حملاتهم الخارجيـة أو للدفاع عن مصر. وبينما تتجه الإمبراطورية العثمانية نحو التدهور، يستعيد المماليك قواهم مرة أخرى، ويصبحون مستقلين عن سـلطة إسطنبول مرة أخرى تقريبًا.
١٧٩٨	يقوم نابليون بشن حملاته في الشرق الأوسـط، ويلحـق الهزيمـة بالجيش المصري في غضون عدة ساعات، وعندما يغادر القـاهرة يصطحب معه حراسًا شخصيين من المماليك، وفوجا من المقـاتلين المماليك.
١٨٠٥	يجلس الخديوي الجديد "محمد على" على كرسي الحكم في القاهرة.
١٨١١	يقوم محمد على بذبح قادة المماليك في قلعة القاهرة، وفر القليل من المماليك إلى السودان، وظلوا يعيشون هنـاك حتـى عـام ١٨٢٠، عندما تم في النهاية إبادتهم عن طريق العثمانيين.

السلاطين والخانات

سلاطين المماليك البحرية

شجرة الدر (سلطانة).	١٢٥٠	الناصر محمد بن قلاوون (فترة الحكم الثالثة)	١٣١٠-١٣٤١
المعز عز الدين أيبك	١٢٥٠-١٢٥٧	المنصور سيف الدين أبو بكر	١٣٤١
المنصور نور الدين علي بن أيبك	١٢٥٧-١٢٥٩	الأشرف علاء الدين كوجك	١٣٤١ -١٣٤٢
المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩-١٢٦٠	الناصر شهاب الدين أحمد	١٣٤٢
الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري	١٢٦٠-١٢٧٧	الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	١٣٤٢-١٣٤٥
السعيد ناصر الدين أبو المعالي بركة قان	١٢٧٧-١٢٧٩	الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد	١٣٤٥-١٣٤٦
العادل بدر الدين سلامش	١٢٧٩	المظفر زين الدين حاجي بن الناصر محمد	١٣٤٦-١٣٤٧
المنصور سيف الدين قلاوون الألفي	١٢٧٩-١٢٩٠	الناصر بدر الدين أبو المعالي الحسن بن الناصر محمد (فترة الحكم الأولى)	١٣٤٧-١٣٥٧

الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	١٢٩٠-١٢٩٨	الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد	١٣٥١-١٣٥٤
الناصر محمد بن قلاوون (فترة الحكم الأولى)	١٢٩٣-١٢٩٤	الناصر ناصر الدين أبو المعالي الحسن بن الناصر محمد (فترة الحكم الثانية)	١٣٥٤-١٣٦١
العادل زين الدين كتبغا	١٢٩٤-١٢٩٦	المنصور صلاح الدين محمد صالح بن حاجي بن قلاوون	١٣٦١-١٣٦٣
المنصور حسام الدين لاجين	١٢٩٦-١٢٩٨	الأشرف ناصر الدين شعبان بن حسن بن محمد	١٣٦٣-١٣٧٧
الناصر محمد بن قلاوون (فترة الحكم الثانية)	١٢٩٨-١٣٠٨	المنصور علاء الدين علي بن شعبان	١٣٧٧-١٣٨١
المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	١٣٠٨-١٣١٠	الصالح زين الدين حاجى	١٣٨١-١٣٨٢

سلاطين المماليك الجراكسة (أو المماليك البرجية).

الظاهر سيف الدين برقوق	١٣٨٢-١٣٨٩	الأشرف سيف الدين أينال العلائي	١٤٥٣-١٤٦١
الناصر فرج بن برقوق (فترة الحكم الثانية)	١٣٨٩-١٣٩٠	المؤيد شهاب الدين أحمد	١٤٦١
المنصور عبد العزيز	١٣٩٠-١٣٩٩	الظاهر سيف الدين خوشقدم	١٤٦١-١٤٦٧
الناصر فرج (فترة الحكم الثانية)	١٣٩٩-١٤٠٥	الظاهر سيف الدين بلباي	١٤٦٧
المستعين باللّه أبو الفضل	١٤٠٥	الظاهر تمربغا الرومي	١٤٦٧-١٤٦٨
المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	١٤٠٥-١٤١٢	الأشرف سيف الدين قايتباي	١٤٦٨-١٤٩٦
المظفر أحمد بن شيخ	١٤١٢	الناصر محمد بن قايتباي	١٤٩٦-١٤٩٨
الظاهر سيف الدين ططر	١٤١٢-١٤٢١	الظاهر قنصوة	١٤٩٨-١٥٠٠
الصالح ناصر الدين محمد	١٤٢١	الأشرف جنبلاط	١٥٠٠-١٥٠١
الأشرف سيف الدين برسباي	١٤٢٢-١٤٣٨	العادل طومان باى	١٥٠١

العزيز جمال الدين يوسف بن برسباي	١٤٣٨	الأشرف قنصوة الغوري	١٥٠١-١٥١٦
الظاهر سيف الدين جقمق	١٤٣٨-١٤٥٣	العادل طومان باى	١٥١٦-١٥١٧
المنصور فخر الدين عثمان	١٤٥٣		

السلاطين العثمانيون حتى عام ١٥٢٠م

عثمان	١٣٠٠-١٣٢٤	مراد الأول (تخلى عن الحكم)	١٤٢١-١٤٣٧
أورهان	١٣٢٤-١٣٦٢	محمد الثاني (تخلى عن الحكم)	١٤٣٧-١٤٣٨
مراد الأول	١٣٦٢-١٣٨٩	مراد الثاني (أُعيد إلى العرش)	١٤٣٨-١٤٥١
بايزد الأول	١٣٨٩-١٤٠٢	محمد الثاني (أُعيد إلى العرش)	١٤٥١-١٤٨١
الحرب الأهلية (سليمان- موسى)	١٤٠٢-١٤١٣	بايزيد الثاني	١٤٨١-١٥١٢
محمد الأول	١٤١٣-١٤٢١	سليم الأول	١٥١٢-١٥٢٠

خاقانات المغول

جنكيز خان توفي ١٢٢٧م			
جوتشي توفى ١٢٣٣	**الجغطاى** توفى ١٢٤٢	**أوقطاي** فترة الحكم ١٢٢٩-١٢٤١	**تولوي** توفي عام ١٢٣٣
باتو خان **خانات القبيلة الذهبية**	**خانات الجغطاى**	**جويوك** فترة الحكم ١٢٤٦-١٢٤٨	
منكوخان الرابع فترة الحكم ١٢٥١-١٢٥٩	**قوبلاي خان الخامس** فترة الحكم ١٢٦٠-١٢٩٤	**هولاكو**	**أريق بوكا**
	إمبراطوريات يوان بالصين	**إليخانات**	

السلاطين والإليخانات

إليخانات القبيلة الذهبية حتى عام ١٣٥٩

باتو خان	توفي في ١٢٥٥	تول بوقا	فترة الحكم ١٢٨٧-٩٠
سأريق	فترة الحكم ١٢٥٦-٧	توقطاي	فترة الحكم ١٢٩١-١٣١٢
أولاغاشي	فترة الحكم ١٢٥٧	أوزبك	فترة الحكم ١٣١٣-٤١
بركة خان	فترة الحكم ١٢٥٧-٦٧	تيني بك	فترة الحكم ١٣٤١-٢
منكوتيمور	فترة الحكم ١٢٦٧-٨٠	ياني بك	فترة الحكم ١٣٤٢-٥٧
تود منكو	فترة الحكم ١٢٨٠-٧	بردي بك	فترة الحكم ١٣٥٧-٩

إليخانات الفرس

هولاكو	توفي ١٢٦٥	بايدو بن طرقاي	توفي ١٢٩٥
أباقا بن هولاكو	فترة الحكم ١٢٦٥-٨٢	محمود غازان	١٢٩٥-١٣٠٤
أحمد تكودار بن هولاكو	فترة الحكم ١٢٨٢-٤	محمد خودابندا أوليجاتو	١٣٠٤-١٦
أرغون	فترة الحكم ١٢٨٤-٩١	أبو سعيد علاء الدنيا والدين	١٣١٦-٣٥
جايخاتو بن أباقا	فترة الحكم ١٢٩١-٥		

خريطة موقع معركتي وادي الخزندار وشقحب بين المماليك والمغول

في عهد الناصر محمد بن قلاوون ومحمود غازان.

حملات الظاهر بيبرس (بالأصفر) والصليبيين (الأخضر) والمغول (الأحمر)

خريطة لمملكة أرمينيا الصغرى وإمارة إنطاكية ودوقية طرابلس
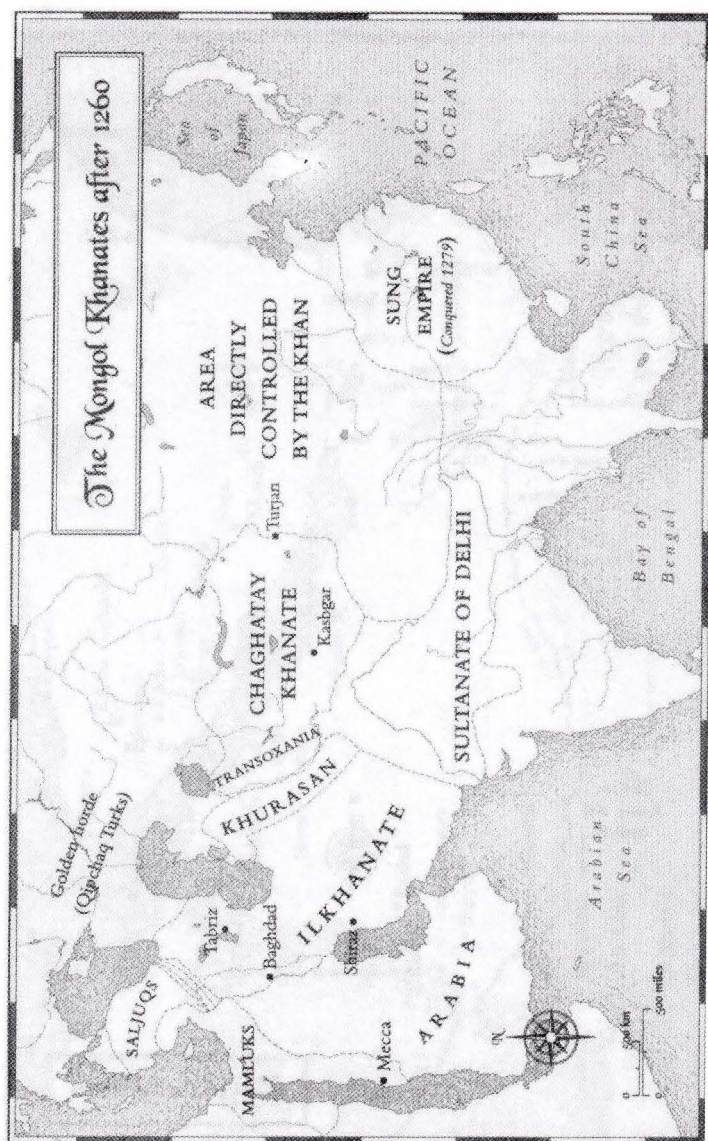
إيلخانات المغول بعد عام ١٢٦٠

Mediterranean Sea
Ascalon
Gaza
Damietta
Alexandria
al-Arish
al-Mansura
al-Salihiya
Bilbays
Wadi al-Abbasa
Bitter Lakes
Wilderness of Shur
Wadi Natron
al-Khanqah
Giza
Cairo
Suez
Pyramids of Giza
Muqattam Hills
Dahshur
Wilderness of Paran
al-Fayyum
Nile River
Gulf of Suez
Sinai
Wilderness of Sin
Babayn
al-Tur
To Qus, Aswan and Aydhab
N
Red Sea
0
80 km
0
80 miles
Egypt and Sinai

مصر وسيناء
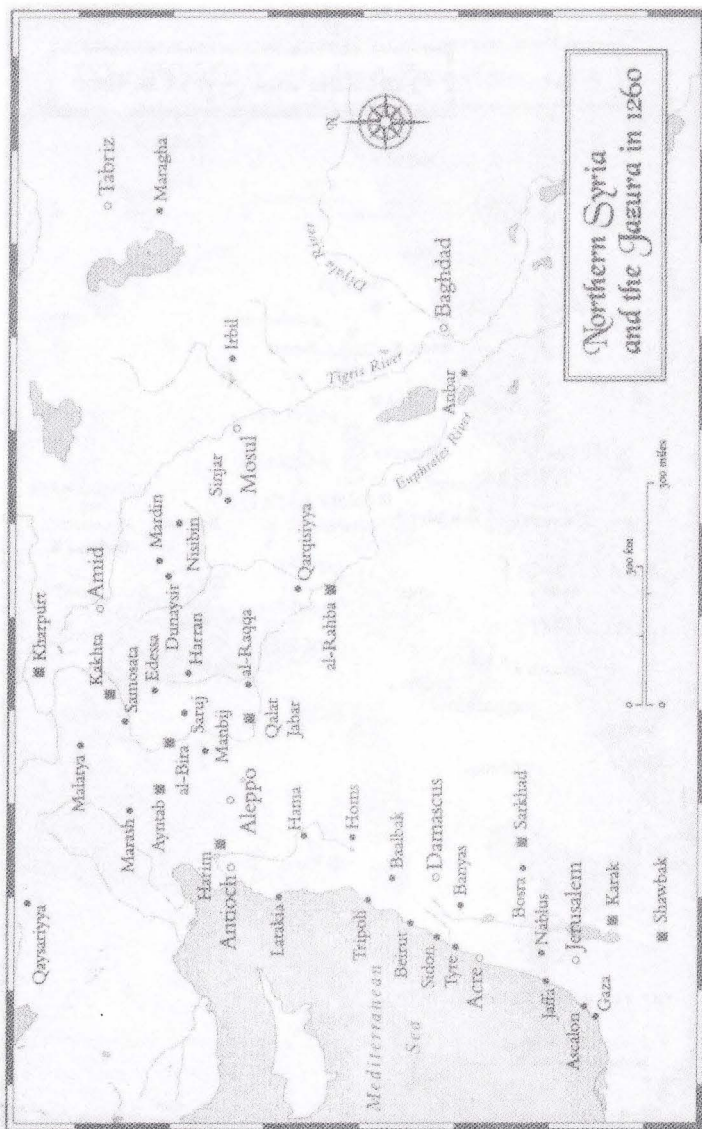
شمال بلاد الشام والجزيرة في عام ١٢٦٠
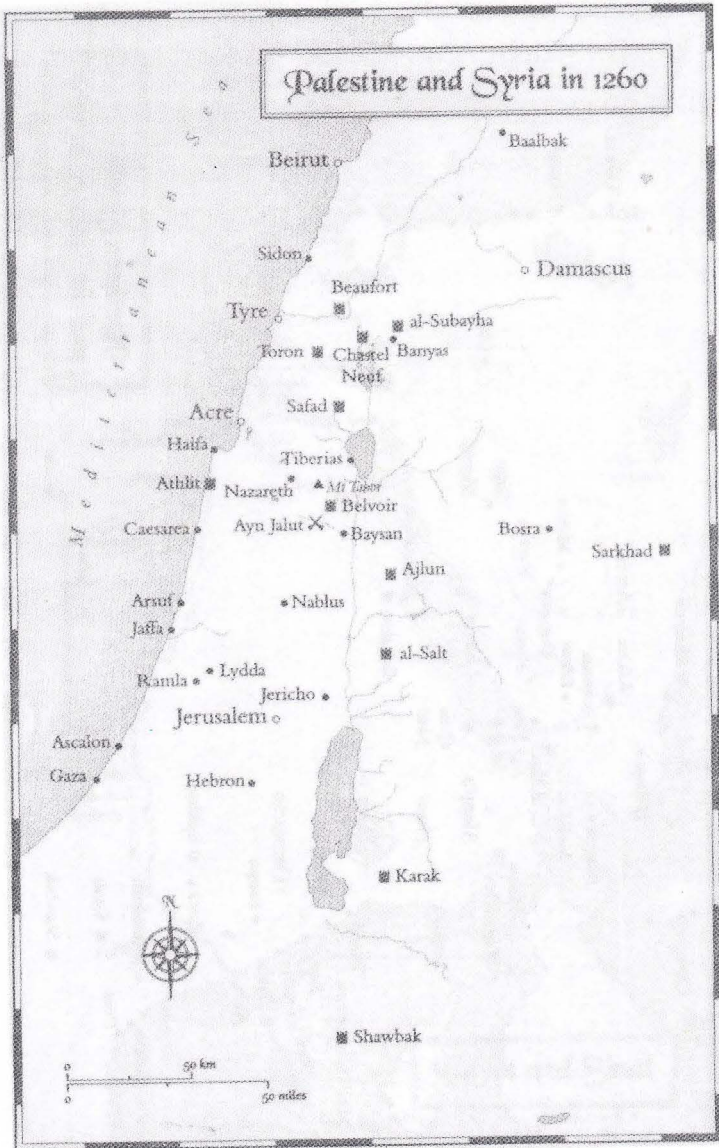
فلسطين وبلاد الشام عام ١٢٦٠
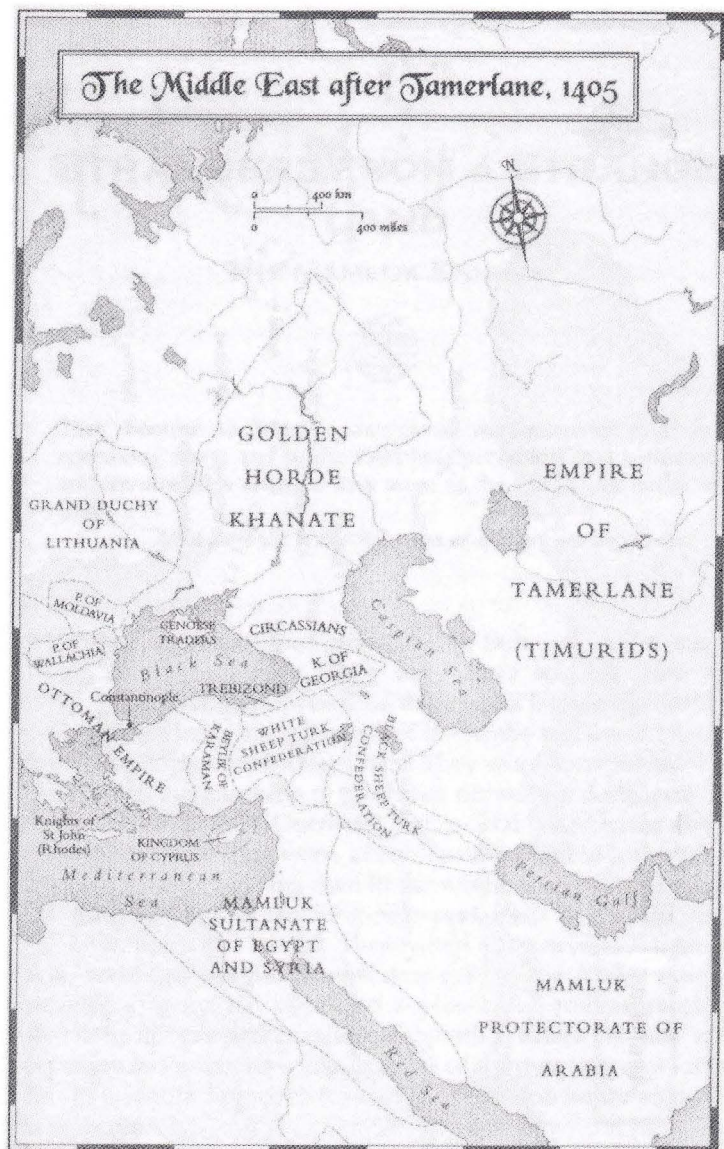
الشرق الأوسط في حقبة ما بعد تيمورلنك، عام ١٤٠٥

Anatolia
Black Sea
Mediterranean Sea
Constantinople
Bursa
Nicaea
Coryaeum
Dorylaeum
Smyrna
Menderes River
Antalya
Ankara
Konya
Larende
Heraclea
Akseray
Kayseri
Sinop
Sivas
Kose Dagh
Abulustayn
CILICIA
Ayntab
Alexandretta
Nicosia
Malatya
Amid
Edessa
Euphrates River
Tigris River
DIYAR BAKR
Manzikert
Araxes River
Mt. Ararat
Dvin
Mosul
100 km
100 miles

الأناضول

الفصل الأول

غرباء من أرض غريبة

لغـــز المماليـــــك؟

> أصبح المماليك مصدر قوة للإسلام، ومنبعًا هائلاً لأفراد الجيش، كما أصبحوا يشكلون دروع حماية للخلفاء، وحصونًا منيعة لهم وقلاعًا غير قابلة للاختراق، لقد كانوا مثل الـــدروع الداخلية التي يتم ارتدائها تحت العباءة الخارجية
>
> عمـــرو بن بحــر البصـــري- الشهيـــــر بالجاحـــظ (سمي كذلك لجحوظ عينيه)- المتوفي عام ٨٦٩.

تعد دراسة المماليك وسلاطين المماليك دراسة مليئة بالمتناقضات، فقد كـــان المماليك جنودًا من العبيد ينحدرون من سهول البربر البعيدة عن أراضي الحضارة الإسلامية، وأصبحوا فيما بعد حكامًا في إمبراطورية العرب، وقاموا بإنقاذ الأماكن المقدسة من بين براثن قوات المغول الهائجة. وُلد المماليك وثنيين، وبـــالرغم مـــن ذلك أصبحوا آلة الجهاد الهادرة التي قامت في النهاية بتدمير مملكة الصليبيين فيما وراء البحار، وأعادوا بسط سيطرة الإسلام على بلاد الشام، ولقـــد احتلـــوا مكانـــة متميزة في فترة معينة من التاريخ، فكانوا أعظم الرجال المقاتلين في العـــالم فـــي زمانهم، وعنوانًا بارزًا لجوهر المقاتل الفارس الذي يصل إلى حـــد الكمـــال فـــي مهاراته في استخدام القوس والرمح والسيف. ومع أنهم في الغالب لم ينالوا أي قدر من التعليم ويتصرفون بطريقة آلية ويعدون غرباء تقريبًا عن اللسان العربـــي فقـــد قاموا بتطوير نظام ومجتمع عسكري متفرد، وكان في ذروته يـــوازي كـــلا مـــن الفروسية الغربية والقانون الأخلاقي لفرسان اليابان المعروف باسم "بوشـــيدو" فـــي أفكاره المُعقدة عن معنى المقاتل، والمعنى العلمـــي للـــــحرب وشغفـــــه بحيـــاة الجندي المقاتـــل.

ورغم هذا فقد توارى فرسان المماليك في ذيل صفحات التاريخ بطريقة لم يسمح لها أن تحدث لفرسان الغرب ومقاتلي الساموراى اليابانيين. وتُعد أسباب هذا التجاهل معقدة إلى حد كبير، ولكنها تعود بصفة أساسية إلى القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، تلك المشاعر القومية التي كانت تتطلب إسدال أستار من الحُجب على الإنجازات التاريخية للجماعات العرقية الأخرى في أراضي الإسلام الرئيسية، والغزوات في أوروبا، وامتداد الفترة الزمنية للإمبراطورية العثمانية التي كانت تميل إلى تجاهل إنجازات سلالات الحكم الإسلامية السابقة، وأخيرًا إلى البنادق والمدافع، حاصدة أرواح الرجال الضخمة، والتي قضت على كثير منهم وقامت بمحو كل مزايا حققها أولئك الذين كان نمط حياتهم بأسره مُكرسًا للتدريب العسكري بالأسلحة التقليدية.

وعلى أي حال يعتبر اختفاء المماليك غريبًا بافتراض أن موقعة "ملاذكرد" في عام ١٠٧١ التي تم فيها القضاء على جيش البيزنطيين وأسر الإمبراطور البيزنطي "رومانوس دايوجينيس" – كان نصرًا حققه فوج المماليك بقيادة "ألب أرسلان" لعمه سلطان العالم السني المسلم. وجدير بالذكر أن هذه الكارثة أدت إلى لجوء البيزنطيين إلى استعطاف العالم الغربي ومناشدته الغوث والمدد، ونتج عن ذلك شن الحرب الصليبية الأولى التي انتهت بالاستيلاء على بيت المقدس. وكانت كل من حملة صلاح الدين الأيوبي العسكرية بُغية استعادة المدينة بعد موقعة "حطين" المحورية في عام ١١٨٧، وحملته التي استغرقت فترة طويلة ضد ريتشارد قلب الأسد، وضد الحملة الصليبية الثالثة، كلها كانت تعتمد على قوات تتألف قلب جيوشها في الأساس من قوات المماليك. ألحقت أفواج قوات المماليك المصرية في عام ١٢٥٠ الهزيمة الساحقة بواحدة من أكبر القوات الصليبية التي اشتركت في عمليات قتال هجومية، ثم بعد ذلك قاموا بعملية دموية استولوا بها على السلطة من أسيادهم؛ أي من خلفاء صلاح الدين الأيوبي.

وحققت الدولة الجديدة نصرًا هائلاً في عام ١٢٦٠، حين هزمت المغول في موقعة "عين جالوت" في بلاد الشام. وكانت قوات المغول تشق طريقها وهي تضرب بلا رحمة عابرة "الصين"، وهي الدولة الأكثر تقدمًا في العالم آنذاك، ممزقة بذلك أوصال الإمبراطورية الإسلامية الشرقية، ووضعت روسيا تحت نير الاستعباد، كما قامت بالقضاء التام على أفضل فرسان أوروبا الشرقية في موقعتي (ليغنتسيا)، و(ساجو) عام ١٢٤١، حتى تم إيقاف مسيرتهم برجال يملكون نفس عزيمتهم وإصرارهم. ومن ثم فقد استمرت الدولة التي قام المماليك بتأسيسها في كل من مصر وبلاد الشام طويلاً ولحقبة أكبر من تلك الحقبة التي استمرت فيها سلالة حكم (يوان) المغولية في الصين، أو المملكة الصليبية اللاتينية. وشن المماليك حروبا طويلة ومعقدة ضد المغول، والصليبيين، والعثمانيين والتي تطلبت بالضرورة أن تقوم الدولة بتسخير مواردها بالإضافة إلى جهود دبلوماسية فائقة فضلاً عن نظام حكم قوي.

لقد شكلت تلك الأحداث تاريخ العالم آنذاك، وبالتالي قامت بتشكيل تاريخ عالم اليوم الذي نعيش فيه، وسنتعرض لكل تلك الأحداث في سياق هذا الكتاب، ولكن النقطة الهامة التي يجب أن نذكرها أن المماليك وسلاطينهم، ومآثرهم الفذة لا يجب بأي حال من الأحوال أن تتواري في ظلمات التاريخ، لقد تركوا لنا ما يكفي للبرهنة على عظمة تاريخهم؛ فالفروسية التي تعتبر الدليل العسكري لسلاطين المماليك، وهي المعادل الإسلامي للدليل العسكري الصيني المسمى (*سينزي بينفا*) أو (فن الحرب)، كما أن دروعهم ومهندسي عصرهم المعماريين، والحرفيين من رجالهم قدموا للعالم إنجازات في الفن والعمارة مما يمكن اعتبارها أعمالاً تصل إلى درجة الكمال.

وربما يثور تساؤل مهم عن العبودية والعبيد الذين أصبحوا جنودًا، فلا شك أن فكرة العبودية فكرة بغيضة في عيون المُحدثين، وليس في ذلك أدنى شك، ويعد هذا سبب آخر يوضح لنا لماذا لم تتم معاملة الدليل العسكري للمماليك بنفس

درجة الاحترام والتوقير التي يتم النظر بها إلى "دليل الفروسية" للعالم الغربي، و"الساموراي" اليابانية. ولكي نفهم سلطنة المماليك، يجب علينا أن نفهم مفهوم الاستعباد في عهد الإسلام المبكر، أي في المجتمع الذي جلب أطفالا ليجعلهم محاربين أفذاذا، والأراضي التي أنجبت هذه الذخيرة من الجنود.

كان التوسع الهائل في الإمبراطورية العربية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في عام ٦٣٢م ظاهرة استثنائية. ولا ريب في أن الحرب الطويلة بين الإمبراطورية الساسانية في فارس، والبيزنطية (٦٠٣-٦٢٨) ساعدت في إنهاك القوتين العظميين في تلك المنطقة إنهاكًا تامًا، كما أنه بحلول عام ٦٥١ أصبحت مصر وبلاد الشام والعراق وإيران بل ومعظم دول شمال إفريقيا كلها تحت السيطرة العربية سواء بالفتح أو عن طريق توقيع معاهدات. كما قاموا بغزو إسبانيا في عام ٧١٦ بالاستعانة بقوات من البربر الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا، كما أن تقدمهم تجاه فرنسا لم يوقفه إلا صمود وبطولة "تشارلز مارتل" في معركة شرسة دامت أسبوعًا في معركة "بواتييه - أو معركة بلاط الشهداء" عام ٧٣٢م. وفي الشرق اقتحموا وعبروا نهر "جيحون" إلى المنطقة التي يطلق عليها اليوم اسم "باكستان". أما المقاومة الكبرى والتي واجهوها في تقدم قواتهم عبر قارة آسيا فكانت في بلاد ما "وراء النهر" في طريق اندفاعهم من "خراسان" إلى شرق بحر قزوين، وهنالك في موطن الأتراك وجدوا بغيتهم في الجنود المماليك لتعويض أعداد الجنود المحدودة التي كانت متاحة لهم من شبه الجزيرة العربية.

ربما كان ذلك النجاح الهائل سلاحًا ذا حدين؛ فلقد ترك كل ذلك النجاح القادة العرب في حيرة من أمرهم بشأن تقسيم الغنائم، وكانت المعضلة ذات ثلاثة أوجه: فقد احتدم الجدال بين القبائل العربية عمن له الحق في الجزء الأكبر من الجزية التي تم فرضها على غير المسلمين في الأراضي التي تم فتحها حديثًا، هل هم السابقون في الدخول إلى الإسلام، أم هم الذين حققوا نجاحات أكبر في فتح هذه البلاد، سواء أكانوا من السابقين في الدخول إلى الإسلام أو من المتأخرين. ثم كانت

هنالك مشكلة المهتدين الجدد إلى الإسلام من غير العرب، الذين دخلوا الإسلام بأعداد هائلة وقاموا بتغيير شخصية الإمبراطورية العربية بطريقة جذرية، فرغم أنه لم تكن هناك تحركات نشطة لدعوة غير المسلمين للتحول إلى الإسلام لأنه كما هو مفترض نظريًا أن لكل مسلم نصيب من "الجزية" التي يتم فرضها على غير المسلمين يصرف له كراتب، فإن التحول إلى الإسلام بأعداد كبيرة تسبب من ناحية في إفراغ بيت المال، وأيضًا من ناحية أخرى إلى قلة الموارد الداخلة إليه. ثم كانت المشكلة الأخيرة بخصوص الجيوش العربية نفسها - حيث إنها ببساطة لم تعد عربية، فقد جلب قادة الفرس وزعماء البربر جماعات كاملة من رجالهم بأعداد كبيرة لينضموا إلى الجيوش العربية بعد أن هجروا القوات البيزنطية والساسانية. وإضافة إلى ذلك، أن العرب الفاتحين الأصليين يعسكرون الآن في حاميات بعيدةً عن أوطانهم، وتمزق ولائهم القبلي، وهم الآن يقومون بتكوين روابط وعلاقات جديدة في المدن التي يعسكرون فيها، كما أن الطاعة العسكرية المتمثلة في الولاء للحاكم المحلي أو للقائد أو بوجه عام للخليفة في دمشق.

بلغ التوتر داخل الإمبراطورية أقصاه في عام ٧٥٠ مع نشوب الثورة العباسية. وبدأت شرارة الثورة أول ما بدأت في بلاد فارس، وكان من الممكن أن ينظر إليها على أنها ثورة فارسية ضد الخليفة الأموي العربي في بلاد الشام، ولكن الأمر كان أكثر من ذلك، فقد كان العباسيون أيضًا عربًا، ولكنهم قاموا باستمالة غير العرب بإغرائهم برسالة غامضة تحمل وعودًا بمجتمع أكثر عدالة ومساواة، وكانت خراسان هي نقطة البدء التي اشتعلت منها شرارة تلك الثورة، وكانت قوات "خراسان" معتادة على الحرب مع الأتراك وعُدت من أفضل القوات المحاربة في الإسلام؛ وانتصروا في العديد من المعارك التي خاضوها ضد الجيوش الأموية، وتولى العباسيون السلطة ولكنهم كانوا غير قادرين بصفة أساسية على إزالة مشاعر الجفاء داخل الإمبراطورية الإسلامية لفكرة "مملكة عربية". واستمر دخول أتباع جدد إلى الإسلام بأعداد هائلة ليغذي حالة الاستياء الاجتماعي والاقتصادي

في كافة أرجاء الدولة الإسلامية. فقد قضى الخلفاء العباسيون الأوائل جل وقتهم في قمع ثورة الفلاحين ومحاولات الإغراء لوقف انشقاقات أمراء المناطق البعيدة. ولم يكن الخليفة العباسي معترفًا به في إسبانيا، كما أن الخلافة الأموية المناوئة لهم ظلت صامدة حتى حروب الاسترداد المسيحية في القرن الحادي عشر. وانشق الأدارسة في شمال إفريقيا في عام ٧٨٨، وانزلقت بلاد الشام إلى آتون حرب أهلية بين صغار الأمراء. واندلعت حينئذ ثورات عديدة في بلاد ما وراء النهر وخراسان؛ ومن الواضح على وجه الخصوص أن هذه الانشقاقات وعمليات التمرد والعصيان تم إثارتها عن طريق الأئمة، وهو مؤشر واضح على انتشار ظاهرة في ذلك الحين، كما هو الحال أيضًا في عصرنا الحالي، وهي ظاهرة قيام قيادة الحركة العسكرية الإسلامية بإضفاء ثوب الشرعية على نفسها بين القاعدة الأساسية للعامة. وبرزت السلالة الطولونية الحاكمة في مصر على يد أمير من الأمراء المحليين اتسم بالقوة المفرطة وكان مملوكًا عسكريًا، وكانت إمارته شبه مستقلة عن الخلافة العباسية منذ عام ٨٦٨، كما فُقدت إيران الشرقية لصالح السلالة الصفارية في عام ٨٦٧.

وعلى هذا المنوال تضاءلت أهمية الخليفة العباسي في إماراته خارج العراق شيئًا فشيئًا؛ أما الإسلام، وهي القوة التي وحدت العرب وجعلت في مقدورهم أن يقيموا إمبراطورية، فقد تحول إلى عامل يجعل من تلك الإمبراطورية كيانًا صعب المراس؛ كما لم يعد أداة السلطة التي لا يسيطر عليها إلا الخليفة بمفرده، وأصبح لزامًا على الخليفة أن يبحث في لهفة عن لبنات جديدة يُدعم بها بنيان حكم أسرته. وكان الخلفاء في حاجة ماسّة إلى إعادة توطيد أركان سلطة "منصب" الخليفة والبحث عن موارد جديدة للسلطة، وبغض النظر عن درجة القمع الذي كان يمارس في خضم محاولاتهم لسحق التمرد في البلاد التي يتم جباية الخراج منها. وكان هذا إقرارًا ضمنيًا بأن نظام الإمبراطورية العربية قد عفا عليه الزمان وفي طريقه للزوال، وأن الديكتاتورية العسكرية هي النتيجة الحتمية لهذه الأزمة. ولم يحكم

العباسيون قبضتهم حتى على العراق، ولكنهم، حتى هناك، كانوا رهائن للقوى التي منحتهم الخلافة. وكان أفراد القوات العربية الخراسانية والذين اصتبغوا بالصبغة الفارسية من طول بقائهم كحامية في "خراسان" يقيمون في بغداد كحراس أشداء للخليفة ولكن ولاءهم كان مشكوكًا في أمره، لأنهم كانوا ميالين إلى دعم أي خليفة محتمل يمكن أن يمنح مزايا لوطنهم الجديد الأم في خراسان ويدعم طموح العائلات القوية هنالك. وأصبح يستوجب على الخليفة المأمون (حوالي٨١٣- ٨٣٣) أن يسترضي الخراسانيين بعد أن نشبت حرب أهلية بينه وبين أخيه، وذلك بأن يجعل خراسان مستقلة فعليًا في عام ٨٢١. وتسببت هذه المعضلة الخاصة بالحراسة الشخصية للخليفة في أن يتطلع الخلفاء إلى الأراضي البعيدة عن أرض الإسلام للبحث عن جنودهم الجدد، هؤلاء الجنود لابد أن يعتمدوا على سيدهم بصفة شخصية، ويتوقف علة وجودهم ومحاباتهم على خدمتهم للخليفة ومهارتهم كمحاربين، ولابد أن يكونوا بعيدين عن الإيديولوجية الإسلامية الخطرة على الخلفاء، بما تنادي به من التحرر من علاقات القربى والموطن، وأمور كتلك التي يبشر بها صفوة أهل الفكر، وكان الحل في جيش من العبيد. وكان العبيد المقاتلين، كما أوضحنا آنفًا، لهم تاريخ من المشاركة في الإمبراطورية الإسلامية الوليدة، وكان شيوع استخدام المؤرخين في هذه الفترة للكلمة العربية "مملوك" للعبد الرجل مع كلمة "غلام" للولد العبد، وهي الإشارة الواضحة لصغر أعمار هؤلاء المماليك عند دخولهم الخدمة لأول مرة. كما يعتبر استخدام المؤرخين لكلمات محددة لظاهرة العبيد المقاتلين دليلاً قاطعًا على التزايد المطرد لاستخدامهم في تلك الحقبة من بواكير القرن التاسع، وجلبهم بانتظام وعلى نطاق واسع للغلمان الأتراك من سهوب أواسط قارة آسيا وجنوب روسيا. ويصور الجغرافي والباحث الإسلامي "ياقوت الحموي" (المتوفى عام ١٢٢٩م) قصة تتسم بالقتامة الشديدة عن الحياة في أراضي تلك السهوب.

"إذا أنجب الرجل ولدًا، فإنه يقوم بتربيته وتهذيبه، ويقوم بإعالته ورعايته حتى سن البلوغ. وحينئذ يعطيه قوسًا وبعض الأسهم، ثم يدفعه بعيدًا عن منزل الأسرة صارخًا: ناضل من أجل حياتك! ومنذ تلك اللحظة يتعامل معه كغريب وأجنبي. كما أن هناك بينهم من يقوم ببيع أبنائه وبناته[1].

وكان البدو الأتراك، كغيرهم من البدو، يقيمون علاقات مع الشعوب الأخرى المستقرة والتي تسكن إلى الجنوب منهم من أجل مبادلة المنتجات الحيوانية مثل الصوف واللحوم بغيرها من السلع المصنعة. وربما كان الغلمان يتم جلبهم أيضًا للأسواق من أجل معاينتهم وعرضهم للبيع، وربما كان يتم بيعهم عند البلوغ لأنه في ذلك السن يمكن للآباء أن يتقبلوا بصورة أيسر تلك المعادلة الرياضية الشديدة القسوة التي لا مفر منها والتي تحسب كم من ذريتهم يمكنه أن يحصل على القوت اللازم حتى يبقى على قيد الحياة (في مقابل بيع أحدهم) ويتجاوز مرحلة طفولته. ويؤكد المؤرخ أبو القاسم إبراهيم محمد الكرخي (أو الإصطخري- المتوفي عام ٩٥١م) جازمًا بأن تجارة العبيد كان أمرًا معتادًا في المجتمعات التي تعيش في البيداء. ويلاحظ على أي حال أن ياقوت الحموي يذكر أن (البعض) فقط هو الذي كان راغبًا في بيع أطفاله، فاختطاف الأطفال والغارات التي كانت تشن على الأسر بواسطة عصابات تجار الرقيق كان أيضًا يُشكل أمرًا معتادًا لتلبية طلب الدول الإسلامية المتزايد على صغار المماليك.

ونستنتج أيضًا من العرض المختصر الذي يقدمه "ياقوت الحموي" لعادات وتقاليد أهل السهوب أن هناك أيضًا بعض الشباب البالغ يحومون أحرارًا حول هذه

---

(1) D. Ayalon," The Mamluk Novice: On his Youthfulness and on his Original Religion", "Revue des Etudes Islamique, Vol, 54, 1986.

القفار دون رباط يجمعهم بأحد، ومن المحتمل أن يتم إغراء هؤلاء الفتيان بـالتجمع في نقاط محددة من أجل الدخول في أنظمة تجارة العبيد، وتنطبق هذه الفكرة نفسها على تجنيد مقاتلي "غوركا" للجيش البريطاني، وبالطبع مع مراعـاة مـا يقتضيه اختلاف الحال، حيث كان يتم حشدهم وإجراء الاختبارات اللازمة علـيهم، ومـن ينجح منهم يغادر موطنه من أجل الحياة العسكرية. ويمكن أن تروق لنـا تسـمية هؤلاء الأتراك الصغار بالمتطوعين، ولكن إذا كانـت خيـارات الحيـاة الأخـرى المتاحة أمامهم كئيبة لسوء الحظ، فإن تسمية هذا الخيار بالتطوعي أكثـر وجاهـة بعض الشيء.

وأضحى الفتيان ممن هم على مشارف البلوغ هم الاختيار الأمثل مـن كـل ناحية سواء لتجار الرقيق أو لعملائهم على أراضي الدول الإسلامية. ولكن تنفيـذ عملية نقل الرقيق من الأطفال أقل تعقيدًا بكثير من نقل الراشدين، فهي آمنة سـواء من ناحية ضآلة احتمال ثورتهم ورفضهم المتوقع أو تفكيرهم في الهرب مما يقلـل من المتاعب المتوقعة. والأكثر من ذلك أن العلاقة بين تاجر الرقيق والطفل العبـد غالبًا ما تتوطد أثناء الرحلة، حين يقوم التاجر بدور الأب البديل سواء أثناء الرحلة أو في أسواق الرقيق. ويمنح تجار الرقيق في بعض الأحيان ما يُشبه خـدمات مـا بعد البيع، حيث تستمر عنايتهم بالمملوك المبتدئ بعد بيعه، وأثنـاء تلقيـه تدريبـه العسكري، وحتى عتقه ودخوله الكامل في خدمة سيده.

ويعتبر هؤلاء الفتيان من وجهة نظر البائع صغارًا بما يكفي لتطويعهم طبقًا لاحتياجات سادتهم، بينما يكون قد أتقـن بالفعـل استعمال القـوس كمـا يشـير "ياقوت الحموي" في كتابه السابق، كما أنه بالنظر لطبيعة حياة البادية، يمتلك علـى الأقل أساسيات الفروسية الأولية إن لم يكن قد امتلك مهارات متقدمة فيها. وكانـت تبعية المملوك الشخصي لسيده، والتي تمتد تقليديًا حتى وفاة أحد الطـرفين، نتيجـة مباشرة لمعاناة الصبي من التشريد الاجتماعي المبكر وحاجته إلى علاقات جديـدة في بيئة غريبة عنه. وكان مستوى العلاقة الشخصية آنذاك يشبه نوع العلاقة مـع

المقربين من البلاط ولكن مع فارق جوهري مهم، فالمملوك، نظرًا لاعتماده المطلق على سيده، كان يؤدي له تلك الأنواع من الأعمال الحقيرة أو أعمال الخدم التي يأنف غيره - من المقربين والأتباع - من القيام بها. ويسجل الطبري (المتوفي عام ٩٢٣م) عن الخليفة المهدي مقولة مفادها: أنه يمكن أن يقوم برفع مملوك لدرجة أن يجالسه جنبًا إلى جنب حتى تتلامس ركبتيهما وذلك في أي مقابلة رسمية، ثم يأمر نفس المملوك أن يقوم بتهيئة الفرس له، وسيطيع الأخير الأمر بدون أن يشعر بأي غضاضة في ذلك، بينما شكا الخليفة من أنه إذا طلب نفس الشيء من أي رجل نبيل فلن يجد منه إلا الاعتراض والشكوى والرفض.

كما أن وثنية الشعوب التركية الذين ينتمون إلى أواسط آسيا في العصور الوسطى كان أمرًا مواتيًا. حيث تُحرم الشريعة الإسلامية اتخاذ المسلمين عبيدًا، ولكن هذا الأمر لا ينطبق على من دونهم، ورغم أنه قد كان من المقبول اتخاذ اليهود والنصارى عبيدًا، إلا إن هذا لم يكن مرغوبًا في مجمله، لأن النصارى واليهود "أهل كتاب"، ولذا فهم وإن كانوا أقل منزلة من المسلمين لأنهم لا يؤمنون بالقرآن، إلا أنهم يشاركون المسلمين في بعض الإرث. وليس معنى ذلك أن اتخاذ المسيحيين عبيدًا لم يحدث في الفترة التي سبقت تأسيس الإمبراطورية العثمانية، ولكنها إذا ما قورنت بتجارة العبيد من عَبْدة الأوثان فإنها تبدو محدودة جدًا، واقتصرت عمومًا على المناطق الغربية من أراضي الإسلام حيث كان وقوع المسيحيين في الأسر أمرًا معتادًا، كما أنه لم تكن هنالك مصادر أخرى في تلك المناطق للحصول على العبيد. وقد تم أسر أعداد أكبر من المسيحيين في السنوات الأخيرة بالفعل وذلك أثناء عمليات الأسلمة التي بدأت تتم بكثرة في البقاع التقليدية لجمع العبيد من أواسط آسيا. وحتى حينئذ، كان يتم خصي العبيد المسيحيين- من الصقالبة - ويتم استخدامهم كخصيان بدلاً من المماليك الذين كان يكثر استخدامهم في الأجزاء الشرقية من العالم الإسلامي. وقام العثمانيون بالتأكيد بجمع الصبية من

المسيحيين في البلقان من أجل الفيالق الانكشارية كما اتخذوا بعض المسلمين عبيدًا، ولكن الكثير من ذلك كان في حُقب متأخرة.

وبدأت ثورة المماليك الحقيقية مع تولى الخليفة المعتصم (في الفترة ٨٣٣ – ٨٤٢ م)، ومحاولته تحقيق رغبته الدفينة في تكوين أرستقراطية عسكرية من المماليك. فقد كان يرغب في أن يصبح أتباعه من المماليك أكثر من مجرد طليعة متقدمة لقواته، كان يريد منهم الانخراط في الثقافة العسكرية تمامًا وأن يكونوا قادرين على الترقي إلى الوظائف العليا في الدولة. وكان يشرف بنفسه على مراحل إعدادهم وتدريباتهم العسكرية التي يقومون بأدائها من أجل النجاح في الالتحاق بالفيالق العسكرية. وكان الخليفة المعتصم شاهدًا بنفسه على الحرب الأهلية بين أخويه الأكبر سنًا "المأمون"، و"الأمين" واللذان شغلا منصب الخليفة قبله. وكان الدرس الذي تعلمه المعتصم من تلك المواجهة ذا شقين: أن شقيقه الأمين فقد الحرب وحياته أيضًا لأنه اعتمد على القوات العربية التي كانت أقل مستوى بطريقة ملحوظة عن المجندين الأتراك الذين اعتمد عليهم المأمون، والثاني يعود إلى حقيقة أن نسبة كبيرة من جنود المأمون كانوا من المماليك؛ وهذا هو الذي صنع الفارق. وهناك قصة قد ترددت بعد الحرب يمكن أن تكون قد أثرت في الأسلوب الذي اتخذ به المعتصم قراره، وفحوى القصة التي ترددت أن والي "الأمين" على الأهواز بدأ يخسر الحرب وأن مجموعته كانت على وشك أن يتم اجتياحها، فطلب من حراسه الشخصيين من المماليك أن يقوموا بالهرب للنجاة بأنفسهم، وأن يتركوه بمفرده، ولكن رجاله أجابوه:

> **لا والله! إن فعلنا ذلك فإننا نلحق بك ظلمًا عظيمًا. فقد انتشلتنا من العبودية، ورفعتنا من حياة وضيعة ونقلتنا من الفقر إلى الغنى، أفبعد كل ذلك نتخلى عنك، كيف نتركك ونهرب وأنت في هذا الحال؟ كلا،... بل سنقف صفًا واحدًا أمامك،**

وسنموت تحت سنابك جوادك، لعن الله هذا العالم وهذه الحياة
كلها بعد مماتك.(٢)

ثم ترجلوا من خيولهم، وقطعوا أوتار أقدامها، ولقوا حتفهم لآخر رجل وهم يقاتلون حول سيدهم.

وشرع المعتصم في شراء الفتيان الأتراك من أسواق العبيد في بغداد في السنوات الأولى من خلافة المأمون، بل وقام بترتيب عمليات شرائهم مباشرة من تركستان. ورغم أن جيشه الخاص من المماليك لم يبلغ إلا ثلاثة آلاف رجل مع نهاية فترة حكم أخيه، ولكنه كان بسبب حجمه، واحدًا من أهم الجيوش المهيبة في الدول الإسلامية آنذاك، نظرًا للانضباط الهائل لجنوده وتدريبهم العالي، ومقدراتهم القتالية الفذة، حتى إن الخليفة كان يعتمد على المعتصم وقواته من المماليك في إخماد الثورات. وكان المعتصم يحكم مصر وبلاد الشام بحلول عام ٨٢٨م وقتما نجح العباسيون في إعادة بسط نفوذهم بدرجة ما على أراضي الدولة الإسلامية، وكان يستخدم قواته المملوكية في كبح جماح وتهدئة تلك الولايات صعبة المراس. وقام المعتصم بمجرد توليه الخلافة بإلغاء إدراج العرب في كشوف رواتب الدولة، وبذلك تيقن أن القوات النظامية للجيش لن يكون بها جندي واحد من القبائل العربية. وقام بتوجيه تلك المبالغ المستقطعة إلى نوعية الجيش الجديدة، ذلك الجيش الذي يتألف من الجنود المماليك القادمين من أطراف الإمبراطورية وذوي الأصول التركية بصفة خاصة، الذين لا يعتدون بأي موطن سوى ما يمنحه لهم الخليفة.

تأسس البيت الذي منحه الخليفة للمماليك في عام ٨٣٦، ولا تزال آثاره باقية ويمكن تتبعها في الصحراء الواقعة بجانب نهر دجلة على بُعد ثمانين ميلاً شمالي

---

(2) Cf. D. Ayalon "The Military Reforms of Caliph Al-Mutasim, Their Background and The Consequences in D. Ayalon "Islam and The Abode of War, London, Variorum Reprints, 1994 .

بغداد. وكان موقع مدينة "سامراء" يمتد على مساحة ثلاثين ميلاً، وتطلب إنشاء المدينة أن تكون لها قناة خاصة بها لتوفير احتياجاتها من المياه، وكانت تتألف أساسًا من مربعات سكنية لها حوائط ضخمة، وتحتوي على عدد لانهائي من تجمعات سكنية متتابعة، وقاعات، ومضامير للسباق، وساحات للملاعب، وردهات، وشبكة من شوارع فسيحة محاطة بأسوار للحريم، وشوارع جانبية لربط كل منطقة بالأخرى. وتم تصميم المدينة بأكملها لكي تتمتع بالاكتفاء الذاتي وللفصل بين الحاكم ورعيته، والسبب الأكثر أهمية هو حماية المماليك وعزلهم عن أي مصادر للتحريض أو الفتنة التي يمكن أن يتعرضوا لإغوائها ويمكن أن تؤثر على ولائهم للخليفة. وكان هذا الفصل مؤثرًا لدرجة أن هؤلاء الذي كانوا يعيشون بالخارج كانوا يجهلون تمامًا حياة هؤلاء القلة المعزولين بالداخل، واستعاضوا عن المعرفة بالخيال وأحلام اليقظة من أجل تغيير الحقيقة المريرة، ذلك الخيال الذي قدم للعالم حكايات ألف ليلة وليلة. بل وحتى داخل مدينة سامراء نفسها وفي تلك المربعات السكنية، كانت الأسر المملوكية معزولة عن الأجزاء المدنية الأخرى داخلها.

كانت مراسم زيجات المماليك، كما يقول "اليعقوبي"، تتم من إماء داخل هذه الثكنات المنعزلة، حيث جُلبت الجواري خصيصًا من أجلهم بأوامر من الخليفة، لأن مصاهرة السكان المحليين كانت محظورة عليهم. ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل إن هناك مساجد بُنيت وكان يقصر استخدامها على المماليك فحسب، فحتى شعيرة الصلاة لم يسمح فيها بالمشاركة مع العامة. واتسم الوعظ الديني وإجراءات التحول إلى الإسلام بالشكلية الروتينية عن عمد، فلقد كان من المرغوب فيه أن يحافظ المماليك على عقيدة صافية؛ طاعة لله، التزام بالشريعة، وولاء مطلق للخليفة وفي ذلك ما هو أكثر من الكفاية. ولم يتم إدخال أي مجادلات فقهية يمكن أن تقوم بإرباك طريقة التفكير البسيطة لهؤلاء المماليك الذين يتصرفون بطريقة آلية.

ولسنا الآن بقادرين على تحليل مدى تأثير نمط التجربة العسكرية التي قام بها المعتصم، فالتصدع الذي بدأ يظهر في الإمبراطورية الإسلامية عام ٧٥٠م،

وتفاقم بسرعة هائلة على مشارف القرن التاسع، حتى إن الخليفة نفسه لم يطل به العمر بما يكفي لأن يقوم بتوجيه مشروعه توجيهًا كاملاً. وبينما ضرب التمزق السياسي في أطناب الإمبراطورية الإسلامية فقد وجدت الخلافة العباسية نفسها تنأى بعيدًا عن تخوم مناطق بلاد ما وراء النهر وأفغانستان. وهيمن أمراء السلالة السامانية والصفارية على البقاع الشرقية للإمبراطورية الإسلامية في القرن التاسع، وأثبت جنود المماليك الذين جندتهم هاتان الدولتان على حدود ما وراء النهر أنهم مقاتلون لا يشق لهم غبار.

قام المماليك بالتأثير على المحاربين الغزاة في سبيل العقيدة والذين تطوعوا للقتال مع الكفار في "دار الحرب" وذلك خلال فترة الحرب ضد أقرباء لهم من الناحية العِرقية والتي تقع في الجانب الآخر من أراضي الإسلام، ولكنهم من القوى التي تأتي بصورة لا لبس فيها من خارج "ديار الإسلام"، حيث قام هؤلاء الرجال بنشر "الجهاد" من خلال أعمالهم، ومن خلال الدعوة له، وبينما لم يندمج المماليك في صفوف هؤلاء المحاربين الأجانب بصفتهم، فإن "الجهاد" توغل في التقاليد المملوكية في صورة مفاهيم مثل الوفاء لسيدهم الذي قام بتحريرهم، والولاء لفرقهم، وتوقير أسلحتهم ونضالهم، والاعتقاد الداخلي المتأصل أن الجندي وحياة الجندية لهما منزلة أرفع وشأن أعلى من حياة الدعة والحياة المدنية من كل الوجوه، وسيعبر هذا التقليد الراسخ عن نفسه بكل وضوح تحت إدارة وحكم السلاطين المماليك في مصر وبلاد الشام بين أعوام ١٢٦٠-١٥١٧م، ولكن أصوله تعود إلى القرن التاسع الميلادي، بعيدًا جدًا عن بلدان الشرق المتوسطية. ويمكن أن نستنبط أهمية فكرة القتال لنظرة المملوك لنفسه، ولكرامته الشخصية من هذه الفقرة من هذا الكُتيب اليدوي لرماة السهام في سلطنة المماليك والتي تقول: "إن مقومات بناء بدن الرجل هي أربعة دعائم وهي بالتحديد: العظام، واللحم، والدم، والشرايين، بقدر ما تكون مكونات "مجمع الأقواس" للمقاتل فيكون له الخشب كالعظام، وطرف القوس للحم، والأوتار للشرايين، والغراء للدم".

وأما فيما يتعلق بنظرة العرب إليهم، فيروي عن الجاحظ حكاية ذكر فيها أنه بينما كان الجميع في انتظار الخليفة في قيظ الظهيرة في نسق عسكري كامل، فـإن المقاتلين العرب ترجلوا عن جيادهم وارتموا في تراخ على جانب الطريـق، فـي ذات الوقت الذي ظل فيه المماليك على جيادهم في نظام كامل رغم تـأخر قـدوم الخليفة. وأُصيب الجاحظ بالدهشة البالغة من جلد وقوة الأتراك، ولكنه فـي نهايـة هذه الفقرة تساءل "ماذا حدث لنا"؟[٣]

(3) D. Ayalon, "The Military Reforms of Caliph al-Mutasim"

الفصل الثاني

تحت الحصار

أهل السهوب والحملات الصليبية

لماذا لا يجرءون على فعل ذلك؟ لماذا تخشى الكثير من الشعوب والكثير من الممالك الهجوم على مملكتنا الصغيرة وشعبنا المتواضع؟ لماذا لا يقومون بحشد مئات الآلاف من المقاتلين من مصر، ومن إيران، ومن بلاد الرافدين، ومن بلاد الشام – وهم يستطيعون فعل ذلك مئات المرات – ويتقدمون بشجاعة نحونا، أي نحو أعدائهم؟

فوشيه الشارتري – من كتابه:

تاريخ مدينة القدس الصليبية حوالي عام ١١١٥

تمكن "الخوتان"[٤] – وهم شعب من أصل تركي – منغولي انحدروا من مناطق واقعة شمال سور الصين العظيم – في مستهل القرن العاشر من إخضاع مناطق شاسعة من البلاد التي يُطلق عليها منغوليا وشمال الصين اليوم، في يسر وسهولة. ونظرًا لأن الخوتان كانوا حينئذ على درجة من القوة، وكانت الصين– في المقابل– على درجة من الضعف، فقد سمح الخوتان لأنفسهم أن يتخذوا اسم سلالة ملكية حاكمة وهي "آل لياو"، وحكموا كأباطرة في شمال الصين وذلك خلال الفترة الممتدة من عام ٩٠٧ وحتى عام ١١٢٥م. وعندما شرع أباطرة لياو في إقامة الحاميات العسكرية في سهوب أواسط آسيا في محاولة منهم للسيطرة على أهلها وفرض الضرائب عليهم، أدرك الأتراك أنه حان الوقت لمغادرة هذه

(٤) الخوتان، وكان الغرب يطلق عليهم اسم كيتي بالخطأ، وجاء منها اسم كيتي الذي يطلقه الغرب على الصين ككل.

المناطق، وليس أمامهم إلا أن يتجهوا غربًا، وبالفعل تحركت كافة القبائل التي تقطن السهوب.

كانت أهم قبيلة في تلك المجموعة المتحركة هم السلاجقة، دخلوا مناطق الإمبراطورية الإسلامية في وقت مبكر من القرن الحادي عشر، وأصبحوا مسلمين على مذهب أهل السنة، ولكنهم استمروا في شن غاراتهم باتجاه الغرب عبر مناطق الإمبراطورية الإسلامية وقاموا بإلحاق هزيمة ساحقة بالغزنويين، وهم سلالة تركية أخرى حاكمة كان قد تم تأسيسها عن طريق المملوك "أبو منصور سبكتكين" الذي كّون إمبراطورية ضمت فارس، وأفغانستان، والبنجاب، في موقعة قام فيها السلاجقة بنشر جيش يتكون كله تقريبًا من فرسان من رماة السهام، وهو أمر جديد لم يكن قد سمع به أحد من قبل. كما نجح قادة السلاجقة في إقناع الخليفة العباسي، أنهم رغم أنهم سُنيين إلا أن لديهم حظوة عند الشيعة البويهيين الذين يملكون زمام الأمور في فارس وحتى قدومهم، وبالقطع كانت لهم حظوة أكبر عند الفاطميين، وهم سلالة شيعية نشأت في شمال إفريقيا وبسطت نفوذها على مصر وبلاد الشام في أواخر القرن العاشر، وكانت تتطلع إلى توسع أكبر في العالم السني.

وصار الخلفاء العباسيون ستارًا لحكم السلاجقة الذين أصبحوا في ذلك الوقت القوة الحقيقية في العالم السني، واتخذوا لأنفسهم ألقاب السلاطين، وكانوا كنُذر لمقدم السلاطين المماليك في مصر في العديد من النواحي. فمن ناحية أظهروا تفوقًا ساحقًا للمقاتلين الفرسان، وحروب الفرسان على تلك الجيوش التي كانت تقوم بنشر قوات المشاة، وتكتفي باستخدام الفرسان كسلاح إضافي من أسلحة الجيش. كما استخدموا النظام المملوكي الذي يقتضي بأن يكون في قلب الجيش قوات موثوق بها. ومن ثم كان التوسع في استخدام الحرس المملوكي المسمى "بالعسكري" حيث كانت هي القوات العسكرية الوحيدة الموثوق بها في الإمبراطورية. كان يمكنهم بالطبع الاعتماد على التركمان– وهم من البدو الأتراك، والذين لم يكن لهم أي علاقة بالحكومة على الإطلاق، كما لم يكن حتى لكبار القادة في الإمبراطورية

السلجوقية إلا سيطرة هشة عليهم- وكان استخدامهم فقط في الحمـــلات العســكرية القصيرة والتي يحصلون مقابل الاشتراك فيها على الغنائم.

كما قام السلاجقة بتطوير نظام "الإقطاعية" الإسلامي. وكـــان هـــذا النظـــام شبيهًا بنظام الإقطاع الأوروبي بالنسبة للفرسان والذي يمنح الفارس المقاتـــل فـــي الجيش راتبًا، ولكن الإقطاع الإسلامي كان أكثر تعقيدًا في الكثير من النواحي، فمن الممكن أن يكون حصة في صناعة كتجارة التوابل، أو في قطعة أرض زراعيـــة. ولا يشترط أن يقيم المقاتل المالك في هذه الأرض التي يمتلكها، حيث تقوم الحكومة بإدارتها بالنيابة عنه. وفوق ذلك لم يكن الإقطاع – من الناحية النظريـــة – قـــابلاً للوراثة كما هو الحال في مفهوم الإقطاع الأوروبي. وظـــل توزيـــع الإقطاعيـــات مشابهًا للمفهوم الغربي من ناحية أنه كان وسيلة يستهدف بها الســلطان المحافظـــة على ولاء حراسه أو أمرائه. وفيما بعد سيتم تطبيق كلا الاستخدامين للإقطاع على يد سلاطين المماليك: أي في دفع الرواتب، وشراء الولاء.

وشرع السلاطيـــن السلاجقة، بوصفهـــم الأبطال الجدد للمسلميـــن السُـــنْة، في الاندفاع غربًا لمواجهة خطر الفاطميين، ولكـــنهم ودون أدنـــي قصـــد مـــنهم اصطدموا بالقوات البيزنطية في طريقهم، وكان الإمبراطور البيزنطي "رومـــانوس دايجونيس الرابع" تواقًا لمجابهة مع السلاجقة، فحشد قواته في الأناضول في عـــام ١٠٧١، واندفع إلي خوض غمار مواجهة بدون تفكير جدي في عواقب ما يفعلـــه. وتقابل الجيشان في واد بالقرب من "ملاذ كرد" في يوم ١٩ أغسطس، أو ربما طبقًا لرأي البيزنطيين فإنهما لم يتلاقيا قط بمعنى الكلمة – حيث إنه بمجرد تقدم الجـــيش البيزنطي تفرق الأتراك بعيدًا كنوع من التكتيك، وبالتأكيد كان هناك رماة سهام فقط من الأتراك يقومون بالتحرك أمام وخلف أجنحة الجيش، ويمطـــرون البيـــزنطيين بالسهام ثم يهربون، ولكن لم تكن هناك قوات للاشتباك معها. وظـــل البيزنطيـــون يتقاطرون على الوادي ولكن بدون أي اشتباك حقيقي. وقرر الإمبراطور، في نهاية ذلك اليوم من المطاردة العقيمة، أنه لا يمكنه المضي قدمًا إلى الأمام بعيـــدًا عـــن

معسكره، وبدأت قواته العودة أدراجها. وفي تلك اللحظة وبينما كان الجيش البيزنطي قد نشر قواته على طول الوادي في إجراء لتغيير تشكيلات الجيش من أجل رحلة العودة، وفي الوقت المناسب تمامًا والذي انفصلت فيه طليعة الجيش عن مؤخرته، شن السلاجقة هجومهم المباغت. واندفع الفرسان المماليك الذين يرتدون دروعا كثيفة ممن يطلق عليهم اسم "العسكري" يشنون هجماتهم بغزارة على صفوف الجيش البيزنطي وقاموا بتحطيمه، وذلك في نفس الوقت الذي قامت فيه قوات الاحتياط من التركمان المسلحين تسليحًا خفيفًا بالهجوم على أجنحة البيزنطيين بسهامهم التي أضيفت إلى موجة الهجوم. ولاذ الكثير من مرتزقة الإغريق بالفرار من أرض المعركة على الفور، كما فعل كذلك أيضًا نبلاء البيزنطيين الذين كانوا يشكلون مؤخرة جيش الإمبراطور. وتصور مذكرات "ميخائيل أتالياتس" الذي حارب مع قوات "رومانوس ديجينيس الرابع" في ذلك اليوم مشاهد الصدمة والرعب التي لا تصدق وضراوة الهجوم التركي على النحو التالي: "لقد كان الأمر يشبه الزلزال؛ صرخات في كل مكان، وعرق غزير، واندفاع أهوج من فرط الهلع، وبلا مبالغة كانت أمواج من فرسان الأتراك حولنا في كل مكان....."، وحاول الإمبراطور تنظيم بعض المقاومة ضد الهجوم، وكانت قواته أكثر بكثير من قوات الجيش السلجوقي، لدرجة أنه في لحظة من اللحظات كان يبدو وكأن الأتراك سيتوقفون عن الهجوم. لقد كان الانضباط الذي يتميز به العسكر المماليك هو مفتاح النصر، ولقد رفضوا أن يتركوا أرض المعركة، وبذلك شجعوا قوات الاحتياط من التركمان على العودة إلى أرض المعركة. ونزلت الهزيمة الساحقة بالبيزنطيين، كما أسر الإمبراطور "رومانوس ديجينيس الرابع". وتكفل مائة من الحراس من فرسان المماليك بالمهمة الكبرى الخاصة بإعادة الإمبراطور الأسير لبلاده من أجل جمع أموال الفدية الخاصة به.

وإذا عدنا بتفكيرنا ما يقرب من ألف عام إلى الوراء، فسيبدو لنا كما لو كانت الإستراتيجية التي اتبعها الأتراك بسيطة للغاية، ويبدو كما لو كان أمرًا غير

معقول أن يقع الإمبراطور "رومانوس ديجينيس الرابع" في الفخ، ولكن خدعة التراجع الزائف التي نصبها له الأتراك كان أمرًا معقدًا للغاية وتطلب أن يبدو الأمر مغريًا جدًا للعدو. ولا يجب أن نغفل عن مدى صعوبة قيادة الجيوش في العصور الوسطى والسيطرة عليها في ميدان المعركة. وذلك يعني أمرين: كلما كانت أعداد قوات الإمبراطور التي في وضع الحركة أكبر، كلما كان الاتصال بالجنود أكثر صعوبة، ولكي يتمكن السلاجقة من توجيه ضربة سريعة وقاتلة يجب أن يكون الجيش قد تلقى تدريبًا جيدًا وقام بإجراء العديد من المناورات عليها من قبل بحيث تتحرك وتعمل فيها ككتلة واحدة. وكان العسكري المملوكي في القلب من جوهر هذا النظام والانضباط، ولكن تم تطبيق المهارات التي تم اكتسابها في عمليات المطاردات والقنص الكبرى للأتراك هنا، وليس بغريب أن واحدة من الأساليب التي استخدمت مرارًا وتكرارًا من قبل المغول، أشهر صيادي العالم، وكانت عبارة عن ذلك التراجع المخادع، ثم تطويق العدو وتدميره بعد ذلك.

وكانت موقعة "ملاذكرد" كما نوهنا في الفصل الأول هي السبب المباشر في الحملة الصليبية الأولى، ثم تنامت الحركات الصليبية من خلالها، وبالتالي قويت شوكة السلطنة المملوكية وآلة الحرب الخاصة بهم والتي أدت في النهاية إلى تطهير بلاد الشام من كل الممالك الصليبية. ولقد كان ذلك هو السبب الجوهري والأصيل الذي دعا البيزنطيين إلى طلب العون من السلطة البابوية ومن القادة العسكريين في الغرب. وهو الأمر الذي كان يعني أن عدوًا جديدًا للإسلام قد ظهر على حدوده الغربية، في الوقت الذي كانت "دار الإسلام" تكابد من أجل البقاء في مواجهة عملية انهيار داخلي وفي مواجهة أخطار داهمة تبزغ الآن من الشرق. ويبدو تساؤل "فوشيه الشارتري" الذي أوردناه في صدر هذا الفصل صحيحا، وربما يُخفي في طياته شعورًا بعدم التصديق للإنجازات التي حققتها حملة الحجاج العسكريين، وفشل القوى الإسلامية في وقف زحف طلائع الحملة الصليبية،

والقبض على تلك القوة المعزولة والتي كانت على وشك الإبادة عند اقترابها من أسوار أنطاكية. ولم يكن "فوشيه الشارتري" مدركًا لحقيقة أن توقيت الحملة الصليبية الملائم وبطريقة مثالية كان هو السبب في نجاحها. ففي عام ١٠٩٠ وما بعدها فقد السلاجقة معظم كبار قادتهم السياسيين؛ فقد شهد عام ١٠٩٢ مقتل "نظام الملك"، كبير الوزراء القوي، وكان ذلك على الأرجح بواسطة "الحشاشين" وهم طائفة إسماعيلية عُرفوا باسم التبشير الجديد(٥). وسرعان ما مات بعد ذلك السلطان "ملك شاه"، وزوجته، وحفيده، والعديد من قدامى السياسيين. وكانت القوة الأساسية لحكومة "نظام الملك" قد فُقدت، كما تفتت الإمبراطورية السلجوقية إلى مجموعة من أنظمة الحكم المختلفة. وانتهز الأعداء الأقوياء الفرصة وقاموا باستخدام قوتهم لمصلحتهم الخاصة وقاموا بشراء ولاءات غير مستقرة لمرشحين محتملين لمنصب السلطان؛ وفي خضم هذه الحقبة المليئة بالاضطرابات، كان هؤلاء الحكام الجدد للأقاليم يكنون شكوكًا عميقة لبعضهم البعض كما تلاشت وحدة الدولة. وانزوت بلاد الشام في طي النسيان، بينما كان أفراد أسرة "ملك شاه" يتصارعون حول العراق، وأرهق الصراع بين أبنائه "محمد"، و"بركياروق" حول العراق السلطنة، واستنزف مواردها. ويصف "البنداري" كيف كان "محمد" يعاني من نقص التمويل لدرجة أنه لم يكن قادرًا على دفع نفقات الحصة اليومية للبيرة لجنوده المماليك. وكانت الأجزاء الشرقية من السلطنة السلجوقية متورطة في شئون بلاد ما وراء النهر منذ عام ١١٠٠ وما بعدها. ففي هذا الوقت تعرض "الخوتان"، وهم من شرع في تنشيط ودفع تحركات الموجات الأولى لهجرة أهل السهوب، تلك الهجرة التي كانت السبب الرئيسي في تأسيس سلطنة السلاجقة، إلى الطرد تجاه الغرب على يد شعب "جورتشن"، وهو الشعب الذي عكف على تكوين أسرة "جين" الملكية، وهي السلالة الثانية من ثلاث سلالات أجنبية متتابعة قُدر لها أن تقوم بحكم الصين.

---

(٥) طائفة الإسماعيلية، التي ينتمي إليها منفذو الاغتيال ما تزال موجودة إلى اليوم، وإمامهم يسمى بالأغا خان.

وزادت عمليات النزوح هذه من الضغوط على الحـــدود الشـــرقية للإمبراطوريـــة الإسلامية، حيث زاد الضغط على الأوغوز الترك أو (الغز) بدورهم عـــن طريـــق "الخوتان" للنزوح غربًا. وجاء رد الفعل الذي اتسم بالذعر من السلطنة وهو إنشـــاء عاصمة جديدة في "مرو" من أجل تقوية الحدود، ولكن السلطان سنجر لقي هزيمـــة ساحقة من "الخوتان" في عام ١١٤١. وأدى هذا الحدث إلى ذيوع أسطورة "الراهب يوحنا" في أراضي الممالك الصليبية، وبعدها في أوروبا، عن الملك المسيحي الذي يعيش على الحدود الشرقية للإمبراطورية الإسلامية والذي سيقوم بإنقـــاذ الممالـــك الصليبية من المسلمين. وكما أصاب الذعر الكثير من السلاجقة من أولئك الذين لـــم يكونوا قد هجروا بلاد الشام بعد بسبب ما كان يعود عليهم من مكاسب مـــن وراء الحروب الأهلية فيما بينهم والعودة لإيران، فقد كان الكثيـــرون مـــنهم يحتفظـــون بإقطاعيات في إيران، كما أن الإيرادات المتناقصة التـــي يحصـــلون عليهـــا مـــن ممتلكاتهم في بلاد الشام كانت قليلة الأهمية بالمقارنة إلى ممتلكـــاتهم فـــي إيـــران الشرقية باقتصادها الزراعي المنتعش.

ولذا، لم تواجه الحملات الصليبية إمبراطورية السلاجقة والأخيـــرة بكامـــل قوتها على الإطلاق. كتبت "آنا كومننا" عن جيش الحجاج تقول: "يمكن للمـــرء أن يربط بينهم وبين نجوم السماء أو الرمال المتناثـــرة على شـــــاطئ البحـــر"(٦)(*)، ومع ذلك، تم التصدي له وأوشك على أن يفنى عن آخره في موقعة "ضـــوريليوم"، وهو ما جعل "فوشية الشارتري" يشعر بالدهشة والرعب من كثـــرة الســـهام التـــي ألقيت على الحملة الصليبية من المهاجمين عليهم والتي حجبت السماء "كالســـحب". وألحقت قوات الحاكم التركي المحلي لولاية "ماردين" في عام ١١١٩ والذي يُدعي

---

(٦) يقدر عدد من شارك في مستهل الحملة الصليبية الأولى ما بين خمسين إلى ستين ألفًا، انظر تقديرات

J. France, "Technology and Success in the First Crusade', in V. Parry and M. Yapp (eds), War, Technology and Society in the Middle East, in V. parry and m. xapp London: Oxford University Press, 1975.

"إيلغازي بن أريق" هزيمة ساحقة تردد صداها بحاكم أنطاكية "روجر" وذلك في الموقعة التي أطلق عليها الصليبيون "موقعة ساحة الدماء". ماذا يعني هذا الفشل في كسب الحرب مع النجاح في كسب معركة؟ يقدم لنا ابن القلانسي مفتاح هذا اللغز في وصفه لمنظر نتيجة موقع معركة ساحة الدماء فيقول:

> **كانت كل أجنحة الجيش ملقاة على أرض ساحة المعركة، كلهم ككتلة واحدة منكفئين على وجوههم، سواءً الفرسان أو المشاة، كلهم مع جيادهم وأسلحتهم، لم ينج منهم أحد ليقص لنا وقائع ما حدث، كما كان قائدهم "روجر" ممدًا مع القتلى، وكانت الجياد أيضًا ممدة على أرض المعركة وكانت تشبه القنافذ من كثرة السهام المرشوقة في أجسادها...**(٧)

تُعد معركة "ضوربليوم"، و"معركة ساحة الدماء" دليلاً دامغًا على أن المقاتل المملوكي في جيش السلاجقة في تلك الحقبة كان مقاتلاً غير عادى، وأن تقنية أسلحة قوات السلاجقة كانت على الأقل مساوية لمثيلتها في القوات الأوروبية إن لم تكن متقدمة عنها، وأن تركيبة السهم لديهم كانت ذات درجة نفاذ عالية وغير عادية، كما كانت لديهم دروع متقدمة وذات جودة عالية، فضلاً عن أن الجندي نفسه كان خبيرًا في استخدام كل من السيف والرمح. ولكن المعضلة أنه لم تكن هناك أعداد كافية من المماليك مع قوات السلاجقة، ورغم أنه من الصعوبة بمكان تقدير حجم وأعداد السلاجقة في بلاد الشام في ذلك الحين، فإننا متأكدون من صغر أعدادهم. ولم يكن هناك في كل من حلب ودمشق أكثر من ألف مقاتل في كل منهما، والسجل الحكومي لنظام الملك نفسه يعطي تقديرًا لقوات الجيش العاملة

---

(7) In C. Hillenbrand, The Crusades: Islamic Perspectives, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1999, p. 81.

والحرس الشخصي للسلطان المملوكي بما يزيد عن أربعة آلاف رجل بقليل، معظمهم غير مدرعين. ويعني ذلك الاعتماد على تجميع قوات من الولايات، وكان ذلك صعبًا في تنفيذه لتجميعهم من أمراء الولايات المستقلة الذين لا يكنون مشاعر الحب أو الثقة لبعضهم البعض، كما أنه من الصعوبة تجميعهم لفترة كافية من الزمن يمكن فيه تحقيق شيء ذى بال. وكتب "ابن الأثير" أن "كريغا" حاكم الموصل قد مُني بالفشل في أنطاكية لأنه جعل قادة الأقاليم الأخرى في التحالف معه يشعرون بالنفور منه بتعاليه ومعاملته الجافة لهم، وبالتالي هجروه، وفي عام ١١١١ وكان "جوسلين" حاكم تل بشير للحملة الصليبية قادرًا على رشوة قادة جيوش السلطان من أجل الابتعاد عنه وترك أراضيه في سلام. والدرس المستفاد الذي نستنتجه من هنا هو أن بقاء دولة قوية وموحدة هو السبيل إلى الاحتفاظ بجيش ميداني قوي. ولم يكن يتطلب أقل من ذلك لتحرير بلاد الشام من الصليبيين الذين كانت حصونهم جيدة وكانوا أعداءً ألداء. وتم تحقيق ذلك بدرجة ما عن طريق "صلاح الدين الأيوبي" وخلفائه من خلال شراء المماليك، ولكن فكرة شحذ طاقات وإمكانيات الدولة بأسرها من أجل الجيش لم يتم تطويرها بالكامل إلا تحت حكم سلاطين المماليك.

وكان العجز في أفراد الجيش يعني أن حفنة من قوى جيش الأمراء في بلاد الشام إبان الحملة الصليبية الأولى يتم إمدادهم وبكثافة بجنود غير نظاميين من التركمان، ووضحت حقيقة أن التركمان مقاتلون أشداء بجلاء حين تمكنوا من سحق الموجة الثالثة من الحملة الصليبية التي يممت شطر الأراضي المقدسة عن طريق أنطاكية في عام ١١٠٠. ويصف "ألبرت أوف آكس" قيامهم بالتحطيم المبكر "لحملة الأقنان" وهي الحملة التي سبقت الحملة الصليبية الأولى قائلاً:

وعندما رأوا الأتراك بدأو في تشجيع بعضهم البعض باسم الرب. وسقط "والتر المفلس" قتيلاً واخترقت جسده سبعة سهام، بعد أن نفذت من خلال الدروع. ويقول "فوشيه الشارتري" إن الأتراك قاموا بتحطيم وإرباك وسحق قوات الفرنجة

عن آخرها تقريبًا، وتصف كتابات "ألبرت" أن عملية التحطيم هذه قد حدثت والقوات متباعدة عن بعضها البعض بمسافة وهي تتحرك بسرعة بالغة لرؤية قوات الأتراك وهي تقوم برمي "والتر المفلس" بالسهام حتى الموت. وتحطمت كل القوات الألمانية وهي آخر قوات الحملة عام ١١٠١ بقيادة "فيلف" دوق بافاريا في الكمين الذي تم نصبه بالقرب من "إرجلي"، وهي هضبة عالية ولكنها صغيرة ولا تكفي كغطاء للقوة المختبئة في الانتظار من أجل الاشتباك المباشر مع العدو قبل أن تشرع في الهجوم. ولم يستطع التركمان من أجل ذلك أن يقوموا بتحقيق عنصر المفاجأة الضروري لنجاح أي كمين بدون المقدرة على ضرب جيش الصليبيين على مسافة بعيدة. وهذا يعني أن يكون رماة الأسهم قادرين على إلقاء وابل من السهام من مسافة بعيدة ولكنها مع ذلك كانت قادرة على اختراق الدروع ذات الطبقتين، وهي الدروع التي يحكي عنها "أسامة بن منقذ"، وهو أمير ومقاتل عربي من القرن الثاني عشر أنها جعلت "فرانك" يبقى على قيد الحياة رغم أنه تلقى ضربة رمح لا يمكن مقاومتها.

ويبدو أن تلك المصادر تشير إلى أن الصليبيين كانت لهم ميزة أكبر عن التركمان عندما يلتحمون في مواجهات مباشرة[٨]، ويبدو الاحتمال الأرجح أن دروع الفرنجة الثقيلة كان يمكن أن تكون أكثر تميزًا بالنسبة لهم حينما يكونون على مسافة في متناول طول الرمح أو السيف من أعدائهم. ويبدو جليًا الانتشار السريع للدروع الثقيلة للمماليك في قوات صلاح الدين الأيوبي من أجل مجابهة هذا التحدي، كما هو الحال أيضًا في إطالة الرمح الذي كان يحمله المقاتلون المسلمون مع الدروع والسيوف والهراوات في حقبة الحروب الصليبية. وكان المماليك المقاتلون الذين قاموا بقتال الصليبيين في دمياط عام ١٢٥٠، ثم شرعوا بعد ذلك في إقامة سلطنة المماليك، يرتدون أيضًا دروعًا جيدة حيث كان في مقدورهم

---

(8) Cf. J. France p. 77

مجابهة الفرسان الفرنسيين وإلحاق الهزيمة بهم في القتال المتلاحم في الشوارع وجهًا لوجه.

ولم تكن المعضلة العميقة في تجنيد المقاتلين التركمان تكمن في الدروع الخفيفة التي يقومون بارتدائها، ولكن في نقص الانضباط العسكري، بما يعني أنهم يمكن أن يتفرقوا بسهولة بعد النصر من أجل التهافت على الغنائم، كما حدث مع قوات "إليغازي" بعد موقعة "ساحة الدماء" في عام ١١١٩. وهناك درس مهم تعلمه المقاتلون المسلمون من تلك المواجهة المبكرة مع الصليبيين، وهو أن أي جيش ميداني نظامي يجب أن يكون حجمه مناسبًا من أجل ألا تصبح أي قوات مساعدة أو أجنبية أو غير نظامية مشاركة فيه سوى قوات مساعدة بالفعل وليست جزءًا من دعامة الجيش الأساسية، ولقد استخدم السلاطين المماليك كثيرًا قوات احتياطية من التركمان والبدو، ولكنهم لم يعتمدوا عليهم مطلقًا بالطريقة التي يعتمدون بها على قوات المماليك النظامية.

لذا فقد أصبح في الإمكان هزيمة الصليبيين في الميدان، ولقد أثبت "عماد الدين زنكي"، و"نور الدين محمود" أنه يمكن اكتساب المزيد من الأرض من الفرنجة، ولكن نجاح صلاح الدين الأيوبي الساحق في موقعة "حطين" في عام ١١٨٧ هو الذي أذن بنهاية الممالك الصليبية. وانتهت الفترة العصيبة من الانتكاسات للعالم المسيحي في الشرق بوفاة صلاح الدين الأيوبي في عام ١١٩٣، وأسفرت عن تمسك الفرنجة بعناد على الأراضي الساحلية لبلاد الشام، ولكنهم فقدوا القدس، وظل جيش صلاح الدين يقوم بشراء وجلب المزيد من المماليك الذين يمكنهم القتال طوال العام دون التطلع إلى الغنائم، لأنهم ببساطة يتسلمون رواتبهم الشهرية بانتظام ويعتمدون بصفة شخصية على السلطان، يقاتل قتالاً مريرًا طوال عام كامل ضد مطامح الحملة الصليبية الثالثة التي قدمت إلى بلاد الشام وعلى رأسها "ريتشارد قلب الأسد". وأثبتت القوات التركية الإسلامية أنها قادرة على

الاضطلاع بأعباء الحروب الحاسمة واللازمة لدحر الفرنجة من دار الإسلام، ولعل أبرز حدث في قيام سلاطين المماليك بالاجتثاث المتأخر للصليبيين هو سحق جيش الصليبيين الميداني في موقعة حطين. وسوف يقوم فرنجة الممالك الصليبية بحشد جيوشهم في الميدان مرة أخرى في القرن التالي، ولكنهم لن يكونوا قادرين على وضع هذه القوات بطريقة ملائمة بما فيه الكفاية بما يضمن لهم نجدة العديد من المدن والقلاع المُحصنة للمملكة إذا ما قام المسلمون بضرب حصار عليها. وربما كان الاستخدام الحصيف لجيش الميدان لمملكة بيت المقدس من أجل إجبار المسلمين على فك الحصار، إضافة إلى التحصينات المنيعة، هو السبب الأهم للنجاح النسبي الذي حققته الممالك الصليبية، حتى كان التصرف الأحمق الذي قام به الملك "جاى أوف ليوزينان" (Guy of Lusignan) عندما أقدم على التضحية بخيرة فرسان القدس في "قرني حطين". ومن تلك اللحظة فصاعدًا لم يعد للممالك الصليبية القدرة التي تضمن لها القيام بفك حصار أي من مستوطناتها المنعزلة. وكل ما كانت تحتاجه القواعد الأمامية المتقدمة من أجل السقوط هو ذاك الغريم الذي يحمل عزمًا وتصميمًا وقدرة على بذل القوة المناسبة. وكان يتعين على الإسلام أن ينتظر فترة أطول قليلاً من أجل أن يبرز مثل ذلك البطل في صورة السلطان المملوك، والذي كان مؤهلاً تمامًا لقيادة حملة الجهاد حتى نهايتها ليوجه الضربات القوية اللازمة من أجل دحر الكفار من حصونهم المنيعة.

الفصل الثالث

الطريق إلى العرش
قصة بزوغ شمس السلطنة المملوكية

مزجنا دمـــاء بالدمـــوع السواجـــم فلم يبق منـــا عرضـــة للمـــراجم

وشر سلاح المرء دمــعٌ يفيـــضه إذا الحرب شبّت نارُها بالصـــوارمِ

فإيهًا بني الإسلام إن وراءكـــم وقائعُ يلحقـــن الـــذرى بالمناســـم

أتهويمـــة في ظل أمنٍ وغبْطـــةٍ وعيشٍ كنـــوّار الخميلـــة نـــاعم

وكيف تنـــام العين ملء جفونهـــا على هفـــواتٍ أيقظـــت كل نائم

وإخوانـــكم بالشـــام يُضْـــحى مقيـــلهم ظهـــورُ المـــذاكي أو بطـــون القشاعم

أبو المظفر الأبيوردي
شاعر من القرن الثاني عشر

تعالت مثل تلك الصيحات المبكرة للجهاد من بلاد الشام منذ القـــرن الثـــاني عشر واستمرت تتردد حتى القرن الثالث عشر، حتى ثارت مشكلة، فبعـــد مـــوت صلاح الدين، قُسمت إمبراطوريته في بلاد الشام والجزيرة والأهم من ذلك كله في مصر بين أبنائه وأقربائه المقربين، ولسوء الحظ، لم يكن لهذا التقسيم نهاية سعيدة، إذا سرعان ما شب النزاع بين هؤلاء المستفيدين من إرث صـــلاح الـــدين، كمـــا ظهرت في الأفق تهديدات جديدة مثل الخوارزميين. وكان الخوارزميـــون جنـــودًا مرتزقة يقوم باستخدامهم آل خوارزم شاه، الذين كانوا يحاولون بناء إمبراطوريـــة في منطقة بلاد ما وراء النهر قبل أن تقوم بتدميرها قـــوات "جنكيزخـــان"، والتـــي دخلت بلاد الشام بعدها بقليل كعصابات حـــرب متجـــولة، ولـــذا فقـــد انتـــاب

الأيوبيون[٩] قلق بالغ من جراء ذلك، وكان أكثر بكثير من القلق الناشئ عن الوجود المستمر لمجموعة كبيرة من الأوروبيين ممن كانوا قد يمموا شطر الشرق ويعيشون بهدوء على الساحل دون أن يشكلوا أي تهديد كجيش ميداني كبير. ولعله من المدهش حقًا، بناء على ذلك، أن يدور بخلد المرء ما إذا كانت الممالك الصليبية كان يمكن لها أن تدوم إلى الأبد إذا لم يلجأ باباوات أوروبا والدول الأوروبية ذات السيادة إلى إثارة ثائرة المسلمين وإرغامهم على الرد بقوة عن طريق استمرار المغامرات الصليبية، وبصفة خاصة عن طريق هجومهم المباشر على مصر في عام ١٢١٨ ثم في عام ١٢٥٠ مرة أخرى.

وتعتبر حقبة بواكير القرن الثالث عشر، بأي حال من الأحوال، هي أهم فترة حيوية لدراسة ميلاد السلطنة المملوكية، وذلك لأنه في تلك الحقبة بدأ ابن سلطان مصر الصالح أيوب بالتحديد في جلب وتجنيد القفجاق كجنود له. ولقد جلب أكبر عدد ممكن وبأسرع ما يستطيع، وكان محظوظًا في حقيقة الأمر، لأنه في الثلث الأول من القرن الثالث عشر كان سوق العبيد في القاهرة يعج بالقفجاق. وكان الأطفال يباعون تبعًا لذلك بأبخس الأثمان وطبقًا لقوانين العرض والطلب. وكانت غزوات المغول قد مرت بجنوب روسيا عبر القوقاز وأراضي القفجاق والتي كانت تقع شرق نهر الفولجا وشمال بحر قزوين في سنوات ١٢٢٠ وما بعدها. ويقول "شهاب الدين أحمد النويري" وهو كاتب من العصر المملوكي إن المغول هجموا على القفجاق وقتلوا وأسروا معظمهم، وقام التجار بشراء وإحضار

(٩) على الرغم من ادعاءات صدام حسين بأنه بطل عربي - عراقي، فإن صلاح الدين كان كرديًا وأبوه نجم الدين أيوب - وهذه المفارقة مفزعة إذا ما نظرنا إلى المعاملة التي يعانيها منه أكراد العراق.

هؤلاء الأسرى إلى البلاد والمدن الأخرى، وكان أول من طلب الكثير منهم ورفع من شأنهم وجعلهم يرتقون في مناصب الجيش المختلفة هو الصالح أيوب(١٠).

وأصبح الصالح سلطان مصر في عام ١٢٤٠، وفي تلك الحقبة بدأت تتشكل الكثير من المعارف والتقاليد بخصوص المماليك كما كانت تقام فيها المراسم من أجل استعراض تطور ثقافة المماليك. واستمرت أهمية الصالح التي خلقها في هؤلاء الرجال حتى بعد وفاته جلية في حقيقة أن احتفالات سلاطين المماليك الأوائل العسكرية كانت تتضمن طقوس عتق وتحرير المماليك الجدد والتي كانت تجرى في ضريح الصالح أيوب.

وأطلق الصالح على مماليكه لقب "البحرية" لأنهم كانوا يعسكرون في جزيرة محصنة على "بحر النيل"، وهو الاسم الذي كانوا يطلقونه على "نهر النيل"، بالقرب من القاهرة واشتق الاسم من ذلك. ورغم أن هذه القوة كانت تتكون من ألف رجل على وجه التقريب لكنها ستنجح في إثبات جدارتها في المستقبل القريب وعلى جناح السرعة سواء في قتال الشوارع أو في حروب ميادين القتال المفتوحة، ولقد اشتبكت هذه القوات في البداية ضد أكبر قوة قتالية قام الصليبيون بحشدها في ميادين القتال منذ موقعة حطين. وتعين على الصليبيين أن يقوموا بسحب قوات من كل أنحاء الممالك الصليبية لتكوين جيش يتحالف مع الأيوبيين في بلاد الشام ويمضي في مواجهة الجيش المصري الذي حشده الصالح في غزة عام ١٢٤٤م. وساهمت الممالك الصليبية في كل من صور، ويافا، وأنطاكية، وطرابلس، بقوات منها كما فعل فرسان الهيكل، وفرسان الإسبتارية وجماعة التيوتون. واشترك مماليك الصالح المصريون مع المرتزقة الخوارزميين والذين استأجرهم الصالح في

---

(١٠) من سخريات الأقدار أن المغول كانوا بذلك الفعل يقومون بخلق عدوهم الجديد في الشرق الأوسط وقد أشار إلى ذلك

R. Amitai – Preiss, Mongols and Mamluks: The Mamluk-Ilkhanid War, 1260-1281, London: Cambridge University Press, 1995, p. 18.

مراقبة تقدم الأيوبيين في بلاد الشام، ولكنهم عملوا أيضًا على تسميم العلاقات الإسلامية – المسيحية بدخولهم القدس وقيامهم بذبح ما يقرب من ألفين من سكانها المسيحيين، وتدمير مقابر ملوك القدس اللاتينيين فضلاً عن انتهاك الأماكن المقدسة. ثم بعد ذلك تحركوا جنوبًا إلى غزة وانضموا إلى قوات جيش الصالح في سهل فسيح يُطلق عليه "الحربية"(١١).

وشن جيش الصليبين هجومه بمجرد أن لمحوا المصريين على الفور، وكانوا يفوقون أعداءهم المصريين في العدد، كما كانت تعتمل في قلوبهم رغبة عارمة في الانتقام مما حدث في القدس من الخوارزميين. وكان الفرنجة يحتلون ميمنة الجيش بينما شكل الأيوبيون من دمشق وحمص مركز المقدمة، أما الأيوبيون من الكرك فكانوا يشكلون ميسرة الجيش. وثبت الجيش المصري جيدًا أمام هجوم الفرنجة، وبينما أدت القوة الدافعة لهذا الهجوم إلى كبح جماح الخوارزميين، ولكنهم من مواضعهم إلى خارج يمين المماليك، قاموا بتوجيه ضربة إلى الأيوبيين السوريين ضاربين كلا القوتين على الجناحين وفي مركز الجيش ككل. وأصاب الذعر قوات دمشق ولاذت بالفرار، كما حذت قوات الكرك حذوهم. وجاهدت قوات حمص من أجل الثبات على الأرض لحماية ميسرة الصليبيين، ولكن اندفاع الخوارزميين الذي لا يمكن مقاومته دفع الصليبيين ورجال حمص إلى أحضان جيش المماليك المصري، الذي أعمل فيهم القتل والذبح على نطاق واسع بالأقواس والقضبان الشائكة والفؤوس. وقتل ما يقرب من خمسة آلاف من الجنود الصليبيين على الأقل، كما أسر ثمانمائة جندي. وقد سبق أن تم تقليل أعداد الجنود الصليبيين بعد موقعة حطين ليقوموا بالدفاع عن الشريط الساحلي فقط، وبعد هذه الموقعة كان من المشكوك فيه إلى حد بعيد أن يتمكنوا حتى من حماية ذلك الشريط الساحلي.

---

(١١) عرفت المعركة باسم **La Forbie** عند الأوروبيين، والحربية عند المسلمين.

وأثارت موقعة الحربية نداءات جديدة من الصليبيين في أوروبا، واستجاب ملك فرنسا الورع لويس التاسع، وقام بشن هجومه في صيف عام ١٢٤٩. وكان الملك قد اهتز بعنف للتدمير والخراب الذي ألحقه الخوارزميون بالقدس، ولكنه أيضًا كان يوفي بالعهد الذي قطعه على نفسه عندما كان يصارع الموت بمرض الملاريا أن يحارب في الأراضي المقدسة إذا شفاه الله من المرض. ولم يستثار أحد في أوروبا على وجه الخصوص بنداءات لويس الرابع للقيام بحملة صليبية. حيث كانت أوروبا الغربية لا تزال تلعق جراحها من غزوات المغول في عام ١٢٤١، كما أن البابا والإمبراطور الروماني لم يكونا على وفاق على الإطلاق مما أدى قيام البابا بشن هجمات عنيفة في مواعظه على فريدرك.

وكان لويس يرغب في انتزاع مصر بعيدًا عن الإسلام، كما كان "ريتشارد قلب الأسد" يقول دائمًا إن مصر هي في الحقيقة مفتاح الأراضي المقدسة، وكان يصيب كبد الحقيقة بقدر ما إن الموارد الاقتصادية والزراعية لمصر تفوق بكثير مثيلتها في بلاد الشام؛ كما أن المناطق الداخلية في بلاد الشام كانت مكشوفة بدون الدعم المصري ويصعب الدفاع عنها. وكان لويس يحاول أن يقوم بشن هجوم برمائي على مصر، وكانت قد سبقتها محاولة كادت أن تكلل بالنجاح في عام ١٢١٨م، ولكن فقط عندما اقترب الصليبيون من المنصورة عرقلتهم فيضانات النيل وتمكن المصريون من حصارهم وفصلهم عن بعضهم البعض عن طريق تدمير السدود المقامة على النيل وإغراق المنطقة الواقعة في مؤخرة الجيش. وعندما وصل لويس إلى القرب من دمياط في دلتا النيل في يوم ٥ يونيو ١٢٤٩ بجيش يصل تعداده إلى عشرين ألف مقاتل. وكانت استعداداته جيدة، كما كانت قواته تملك قوارب كافية للمياه الضحلة بما يمكّنه من وضع قوة كبيرة دفعة واحدة على الشاطئ. وسقطت دفاعات المسلمين لمنطقة الدلتا بسهولة شديدة، كما سقطت مدينة دمياط في يوم ٦ يونيو. ورغم أنه كان موسم فيضان النيل، فإن لويس كان يعرف

ذلك جيدًا، كما كان مزودًا بتسهيلات لوجستية طيبة للإمداد تتمركز قاعـدتها فـي قبرص، كما كان قد أعد عدته لفترة انتظار طويلة.

وتراجعت القوات المصرية بعيدًا عن النيل فقد كانوا يعلمـون أن الفيضـان وشيك ويمكن أن يمنحهم القليل من الوقت. ويؤكد "جان دي جوانفيل" على سـرعة الانسحاب فيقول "ارتكب الأتراك خطئًا شنيعًا بهجرهم "دمياط" بدون قطع كـوبري القوارب، الأمر الذي كان من شأنه أن يسبب لنا الكثير من الارتباك. ولكنهم بالفعل تسببوا لنا في الكثير من الأذى، على كل حال، عندما قاموا بإضرام النيـران فـي المحلات ألتي كانت تحوى كل البضائع والمواد الخام قبل مغادرة المكان.

ويمم "لويس" وجهه شطر القاهرة في يوم ٢٠ نوفمبر، وكان يمكنه أن يستفيد من ميزة هائلة هي وفاة الصالح سلطان مصر. وكان وريث الأيـوبيين لسـلطان مصر هو "الملك المعظم غياث الدين توران شاه"، وكان بعيدًا في الجزيرة. وكـان من المحتمل أن تكون وفاة السلطان، بالإضافة إلى تقدم الصليبيين هـى الطريـق الممهد للفوضى في القاهرة، ولكن التصرف السريع الذي اتسم بالذكاء لشجرة الدر أرملة السلطان قد حال دون ذلك، وذلك عندما قامت بالتعاون مع أحد كبار أمـراء المماليك وهو الأمير "فقير الدين ابن شيخ الشيوخ"، بإخفاء نبأ وفاة السلطان حتـى عن بيته أو جنوده، وقامت باختلاق قرارات بوضع الأمير "فقير الدين ابـن شـيخ الشيوخ" في منصب القائد العام للجيش.

وصل "لويس" إلى المنصورة، وهي المدينة الحصـينة فـي الطريـق إلـى القاهرة. وعلى الرغم من عمره المديد، وموته المبكر أثناء القتـال، فـإن القائـد المصري الجديد كان مُلهمًا لجنوده، وكان قادرًا على أن يوقف تقدم الصليبيين على ضفاف النيل قبالة المنصورة، كما استطاع أن يكسب المزيد من الوقت مـن أجـل تنظيم دفاعاته الكاملة حول المدينة. وأصبح يتوجب على القوات المسيحية أن تقـوم بعبور النهر وهي تحت نيران الهجوم من معدات الحصار ومنجنيقـات المماليـك،

ويصف المؤرخ الصليبي "جان دي جوانفيل" قاذفات اللهب التي كانت تستخدمها قوات المماليك البحرية فيقول:

كانت الأسهم النارية فوقنا جميعًا، وبعناية الله فقط وجدت رداءً لأحد "السراكنة" (وهو اسم التحقير الذي كان يستخدمه الأوروبيون للدلالة عن المسلمين في العصور الوسطى- المترجم)، واستطعت أن اتخذ منه وقاءً، وكان ذا فائدة جليلة في الحماية من أسهمهم النارية، وأصبت فقط بجروح في خمس مواضع، وأصيب حصاني في خمسة عشر موضعًا... وكانت هناك بقعة من الأرض خلف مقاتلي فرسان المعبد، مغطاة بالسهام نتاج يوم كامل من القذف التي ألقاها السراكنة (المسلمين) بحيث لا يمكنك رؤية الأرض من كثرة هذه الأسهم وكثافة إلقائها... وبعدهم تأتي كتيبة "اللورد جاى مالفيوسين" التي لم تستطع كتيبة من الأتراك التغلب عليها. وعلى كل حال فقد نجحوا بالمصادفة في أن يمطروا كتيبة "اللورد جاي "بالنار الإغريقية (زجاجات مشتعلة مليئة بالنفط)، والتي لاقى أتباعه الأمرّين من أجل إطفائها[١٢].

تسبب هذا القصف المكثف في إعاقة جهود الصليبيين تمامًا في بناء معبر للنهر، وبالرغم من ابتكار الملك لواقيات لجنوده (وكان الجنود يقومون بهذه المهام أيضًا)، فقد ظلت الأمور كئيبة بالنسبة للصليبيين، حتى اكتشفوا يوم ٧ فبراير مخاضة في النهر استشعروا أنه يمكنهم عبورها بأعداد كافية تكفي لشن هجوم

---

(12) In Jean de Joinveille, The Memoirs of the Lord of Joinville, translated by Ethel Wedgwood, New York, Dutton, 1906, p. 136.

يمكن إنجازه. وقام الملك بالتخطيط لكل فصيلة عسكرية لمرحلة ما بعد عبور المخاضة، بحيث يقومون بترتيب أنفسهم حتى تتجمع أعداد كافية من الوحدات. ولسوء حظ القوات المغيرة، فلم يحدث ذلك على الإطلاق، حيث إن عملية العبور نفسها تحولت إلى عملية أصعب بكثير مما كان متصورًا. وقام شقيق الملك "كونت روبرت أوف أرتو" عندئذ بتجاهل الأوامر، وشن هجومًا بعد عبوره النهر مباشرة وسيطر على معسكر للمسلمين على حين غرة. وإذا ما كان قد توقف عند ذلك، ربما كانت الأمور قد سارت على نحو أفضل بالنسبة للحملة، وبدلاً من أن يقوم بتأمين معدات الحصار التي تركها المسلمون خلفهم، فإنه اندفع مع رفاقه إلى اقتحام المدينة نفسها. وهناك وقعوا في الشرك الذي نصبه لهم المماليك، الذين كانوا قد وضعوا المتاريس في الشوارع لمنعهم من الانسحاب، ثم قاموا بقتل القوة بأسرها في قتال رجل لرجل. ويصف الكاتب المعاصر "ابن واصل" تلك الأحداث، وعلى الرغم من أنه كان يعتقد أن "روبرت" هو الملك على غير الحقيقة، فإنه يعطي فكرة عن كيف كان الأمر ميئوسًا منه بالنسبة للمسلمين فيقول:

> دخل ملك الفرنجة للمدينة، حتى إنه وصل إلى قصر السلطان، وتدفق جنوده عبر شوارع المدينة، وبينما كان جنود المسلمين والسكان يبحثون عن النجاة بالفرار غير المنتظم، بدا وكأن جرحًا غائرًا ومميتًا في جسد الإسلام قد حدث، وكان الفرنجة على وشك أن يقوموا بجني ثمار انتصارهم، حتى وصل المماليك الأتراك. وحيث إن جنود الأعداء كانوا قد انتشروا في شوارع المدينة، فإن هؤلاء الفرسان أخذوا يتتبعونهم في كل مكان بشجاعة، وأصيب الفرنجة بالذهول من هول المفاجأة، وأعمل فيهم الفرسان الذبح بالسيوف والقضبان الشائكة، وكان الحمام الزاجل قد حمل رسالة إلى القاهرة تحمل أنباء

هجوم الفرنجة عند بدء النهار ودون ذكر لنتائج القتال، ولـــذا كنا ننتظر على أحر من الجمر. وخيم الحزن على كل الأحيـــاء السكنية في المدينة وحتى فجر اليوم التالي، حين وصلت الأنباء الجديدة بانتصار الأسود التركية، وحينها فقط تم تعليق الزينات وتدثرت القاهرة بأجواء احتفالية(١٣).

وتحركت قوات المماليك البحرية تحت قيادة الأمير بيبرس الصغير خـــارج المنصورة لمواجهة فلول الملك، التي كانت قد قامت بترتيب عملية عبور النهر في نظام جيد ومعقول، ودام القتال بقية ساعات النهار، والمماليـــك يمطـــرون مواقـــع الصليبيين بالسهام، وكان عليهم التراجع وإعادة التجمع بينما يقوم "لويس" بهجومـــه المضاد وكان يعتقد أن المماليك قد بدأو يعانون من نقص في السهام. وبذل "لويس" قصارى جهده من أجل الاحتفاظ بمواقعه على ضفاف النهر، ورغم أنه كان متأخرًا فإن نشره لجنوده من حملة السهام كان حاسمًا وربما أدى إلى كسب معركـــة ذلـــك اليوم واحتفاظه بالأرض التي استحوذ عليها، بينما اضطر المماليك للتراجـــع إلـــى المنصورة وتنظيم أنفسهم. وحتى لو كان "لويس" قد كسب معركة، فقد خسر أخًـــا، وكانت الحملة مقدرًا لها الهلاك في النهاية بالتأكيد. وبدأت تعزيزات المسلمين فـــي الوصول إلى المنصورة، ولم يكن بوسع "لويس" أن يجاري تلك الزيادة إلا بزيـــادة وتقوية تحصينات معسكره.

شن الفوج المملوكي هجومًا جديدًا في يوم ١١ فبراير. وقام باجتياح الكثيـــر من مواقع الصليبيين، كما نجح في استعادة معدات الحصـــار التـــي كـــان هجـــوم "الكونت أرتوس" قد قام بتأمينها للصليبيين في اليوم الثامن من الشهر، ولكنهم فشلوا

---

(١٣) أمين معلوف
The Crusades through Arab Eyes, translated by J. Rothschild, London: Al Saqi Books, 1984, p. 239.

في الوصول إلى الجسر العائم الذي قام "لويس" بإقامته من أجل إمداد الخط الأمامي لقواته بالمؤن. وقام المماليك بإلقاء القنابل الزجاجية المملوءة بالنفط (النار الإغريقية) أثناء هذا الهجوم، ثم في أثناء الفوضى الذي ساد بعد ذلك قاموا بشن حملتهم الهجومية، ويبدو جليًا في مخطوطات الفروسية للقرن الثالث عشر كيف أن قوات الفرسان الخاصة الحاملين لقذائف النفط يستخدمونها على أسنة الرماح والعصي، وما كان يطلق عليه "الرماح الصينية" أو الصواريخ. وربما تكون هذه هي السهام النارية التي أصابت "دي جوينفيل" في العديد من المرات. كما أن المماليك قاموا في هجماتهم بالجمع بين قوات المشاة والفرسان ومعهم فرسان من حملة السهام لتدعيم المشاة. وكان رماة السهام الفرسان يقومون بإلقاء قذائف من السهام النارية من خلال أنابيب على الأقواس يمكنها أن تحمل قوسين أو ثلاثة ويمكن إطلاقها جميعًا في آن واحد، وبينما كانت سرعتها بطيئة في المسافات البعيدة، فإنها كانت مؤذية وذات فاعلية كبيرة في المسافات القريبة.

ورغم أن دفاعات الصليبيين صارت يائسة، ولكنها ظلت تعمل على درء هجمات المماليك. وتراجع المماليك إلى داخل المدينة، حيث كان عنصر الزمن في صالحهم عندئذ، كما كانوا في انتظار السلطان الجديد. ودخل السلطان الجديد "توران شاه" ابن الصالح معسكر المماليك في يوم ٢٨ فبراير، وقام المماليك بنقل أسطول صغير على ظهور الجمال في اتجاه مجرى النهر تجاه الصليبيين. ونجحت هذه القوارب الخفيفة عندما انطلقت في قطع الإمدادات من دمياط عن الصليبيين بكفاءة. وغص النهر حتى ذلك الحين بالجثث، ولم يكن ذلك بفترة كبيرة قبل أن تضرب الأمراض معسكر الصليبيين كما يُخبرنا "دي جويفينيل": لم ينج أحد من القتال إلا ليسقط بين براثن الموت.

وكانت موقعة المنصورة بنوعية القتال المتلاحم تتطلب من المماليك أن يكونوا على مقربة من خصومهم، وخاصة في قتال الشوارع مع مقاتلي فوج "روبرت أرتوس". ولقد كانت حقيقة ثابتة ولفترة طويلة في تاريخ الحملات

الصليبية أن قوات الأتراك كانت مدرعة تدريعًا خفيفًا ولكنها تعتمد على الأقواس المركبة ذات السهام العديدة والخيول السريعة والهجمات المضادة الخاطفة التي تعتمد على عنصر المفاجأة من أجل تحطيم القوات الصليبية – والتي إذا ما كان في مقدورها تنظيم هجوم – فيمكنها تطهير الميدان من أعدائها المسلمين من واقع خيولهم الثقيلة، وبالصدمات التي تمثلها تسديداتهم للرماح. وهذا الافتراض يمكن أن يكون صحيحًا فقط إذا ما كان الأمر يخص المقاتلين التركمان، أما فيما يخص المقاتلين من الحراس المماليك الذين يحتلون القلب من قوات جيش أي أمير تركي، فإن الأمر كان بعيدًا عن الصحة. ويحكي لنا مؤلف كتاب "مآثر الفرنجة وأعمال الحجاج" عن الحصان الفارسي الثقيل وهو من تاريخ الحرب الصليبية الأولى، ويطلق عليها الكاتب اسم "أجوليري" ثم يقوم بالتعليق على حقيقة أن هذه الخيول كانت تحمل الدروع الخاصة بها، وهو الأمر الذي لم يكن معروفًا على الإطلاق في الغرب في ذلك الحين(١٤). والأكثر من ذلك، وبينما كان الحصان الغربي في حقبة الحروب الصليبية أكبر حجمًا من خيول بلاد السهوب التي كان يمتطيها التركمان، فإن المقاتلين المماليك كانوا يمتطون الخيول المطهمة التي كانت معتادة على ميادين القتال في المنطقة، والتي كانت تبلغ أربعة عشر قياسًا براحة اليد المبسوطة في ارتفاعها، وهو نفس ارتفاع الحصان الأوروبي المتوسط أيضًا في ذلك الحين(١٥). كما أن القوس المركب ذا العديد من السهام كان سلاحًا مؤثرًا بدرجة هائلة، ولكنه بمفرده لم يكن كافيًا لحسم معركة. ولكن المماليك كانوا يقومون باستخدامه لإنهاك العدو ذهنيًا وبدنيًا وبالتالي إضعاف خطوط العدو وخلق ثغرة يمكن استغلالها في شن هجوم بالفرسان المدججين بالأسلحة.

وكانت حماية المقاتل تتم بقميص مدرع بطول الركبة ويمتد ليعمل كغطاء للعنق والرأس؛ ومن المعروف أن صلاح الدين الأيوبي قد أنقذه مثل هذا القميص

---

(14) Cf. France, p. 166.
(15) Cf. France, p. 166.

المدرع من طعنة وجهها له واحد من "الحشاشين" وهو يجلس لمراقبة عملية حصار في "حلب"، كما أن "الهذاجاند" وهي سترة طويلة وضيقة من الجلد ودرع عادة ما كان يتم ارتداؤها في الجيوش الإسلامية في بلاد الشام وهي ليست خفيفة بالتأكيد من حيث الحماية التي تسبغها على المقاتل بأي حال من الأحوال، ولكنها خفيفة بالنسبة للصيف في بلاد الشام، وأخذها اللاتين الذين خاضوا الحروب الصليبية ومن ثم انتشرت في أوروبا باسم "hauberk Jaseran"[١٦]. وكان يتم تصميم الدروع التركية والإسلامية بتلك الطريقة من أجل سهولة الحركة وبسبب الطقس الذي كان يحارب فيه المقاتلون، كما أن هناك، على كل حال، سبب آخر لعدم تغطية الدروع في الشرق لكامل الجسم والذي كان ملمحًا من ملامح الفارس في الغرب في الفترات المتأخرة من العصور الوسطى، وهو تقنيات وأساليب أعمال المعادن في العالم الإسلامي. ويصف "ابن سينا- المتوفي عام ١٠٣٧" ثلاث طرق من طرق إنتاج الحديد في البلاد الإسلامية، ولكن "البيروني- المتوفي عام ١٠٤٨" يقول إن الفولاذ المقسّى المستخدم في صناعة الأسلحة كان يتم استيراده من الهند. وكان ذلك الصلب مناسبًا لصناعة السيوف ولكن لا يمكن أن يزيد طوله عن ٢٥ سنتيمتر[١٧]، بما يعني أنه حتى في العصر العثماني كانت القوات الإسلامية ترتدي الدروع من الصفائح. وربما كان ذلك هو الذي رسخ في عقول المؤرخين وخلق أسطورة نوعية الفرسان الغربيين الأعلى والذين يتغلبون على حملة السهام الأتراك الذين يفتقرون إلى الحماية.

كان المقاتل المملوكي يحمل أيضًا سيفا ومدية وفأسًا أو قضيبًا شائكًا ورمحًا بالإضافة إلى الدرع. وسنقوم بمناقشة وصف هذه الأسلحة والفرسان من حملة

---

(16) Cf. D. Nicolle, Arms of the Umayyad Era: Military Technology in a time of Changé ,in Y. Lev (ed), War and Society in the Eastern Mediterranean, 7th to 15th century, Leiden: EJ Brill, 1997, p. 35.

(17) Cf. A. Williams, Ottoman Military Technology: The Metallurgy of Turkish Armour, in Lev, p. 370.

السهام لاحقًا، ولكن ما يستحق الوقوف عنده أن القضيب الحديدي الشائك كان سلاحًا غير معروف سواء في الإمبراطورية البيزنطية أو في الأراضي العربية في حقبة العصور الوسطى المبكرة، ولكنها كانت شائعة الاستخدام في شرقي إيران، وفي الأراضي التركية(١٨)، كما أن المماليك قاموا مؤخرًا بتطوير كتيبة مقاتلة من حملة الفؤوس يُطلق عليهم اسم الطبردارية(*) "**tabardariyya**". ويعتبر كل من الفأس والقضيب الشائك من أسلحة القتال المتلاحم، ولذا فإن ذلك يبرهن على أن القوات التركية على وجه العموم، والمماليك على وجه أخص، كانوا من أنصار القتال المتلاحم، ولديهم من الثقة، والحماية الجسدية ما يمكّنهم من النجاح في تلك المواجهات.

كانت اللعبة قد انتهت بالنسبة للويس التعس ورجاله، ورُفض العرض الذي تقدم به باستبدال دمياط مقابل القدس، وبدأ انسحابه في يوم ٥ أبريل ١٢٥٠م، ولكن المماليك أخذوا في تتبع قوات الجيش الصليبي ولحقوا بهم، ثم قاموا بقتل عدة آلاف آخرين من رجالهم، أما باقي الجيش ومنهم لويس الذي كان مريضًا جدًا فقد أعلنوا استسلامهم. كما استولى المماليك على كل القوارب التي كانت تحمل الجرحى والمرضى من القوات والذين أرسلهم "لويس" عبر النهر قبل أن يبدأ في عملية الانسحاب، وبدأت عمليات مذابح جماعية منطقية؛ حيث بدأ المماليك بالرجال المرضى في القوارب، وتم وضعهم على السيف، ويصف "دي جوينفيل" ما حدث قائلاً:

---

(18) Cf. D. Nicolle, p. 32.

(*) فرقة الطبردارية. ومفردها الطبرداري- أي المقاتل الذي يحمل الطبر (وهي كلمة فارسية من مقطعين طبر ومعناه الفأس، والثاني بمعنى ممسك، أي المقاتل ممسك الفأس وكان له شكل معين - راجع في ذلك القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء الخامس القاهرة د. ت.ص ٤٥٨، ومحمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دمشق ١٩٩٠م ص ١٠٦ (المراجع).

طوال الوقت كانوا يأتون بباقي الرجال المرضى إلى الشاطئ من السفن التي كانوا محبوسين فيها، كان هناك رجال من "السراكنة" واقفين شاهرين سيوفهم ويقومون بذبح كل من يسقط، ثم يتم إلقاؤه في النهر. وخاطبتهم من خلال رجل "السراكنة" المصاحب لي قائلاً: أن هذا لأمر سيئ، ويتعارض مع تعاليم صلاح الدين الأيوبي الذي قال إن المرء لا يجب أن يقتل من أكل معنا طعامنا. فأجابوني: إن هؤلاء لا يصلحون لشيء، وإنهم أصبحوا مقعدين بسبب المرض(١٩).

وما من شك أن المماليك كانوا قساة القلب؛ فلقد أُخذوا وهم أطفال كعبيد ومن بيئة لا ترحم، كما أنهم لا أسر لهم بعيدًا عن سيدهم، وأن الأمر الذي لا غنى عنه في حياتهم هو الحرب والقتل، ويمكن تخمين ما الذي كان يمكن أن نستخرجه منهم وهم مضجعون على أريكة الطبيب النفسي. كما يمكن أن نذكر، كتخفيف لأفعالهم، أن المصريين كانوا يقومون بإغراق الكثيرين من السجناء المرضى بكل بساطة، ولا يجب أن ننسى أن الأمراض، في ذلك الزمان، كانت تفتك بالرجال أكثر من أعمال القتال في كل الحروب وحتى عصر نابليون، وكان المماليك على وجه الخصوص يشعرون بالرعب من المرض، وكانوا كغرباء يعانون دائمًا من معدلات وفيات أعلى عن السكان المحليين، وبخاصة في أوقات الأوبئة في مصر وبلاد الشام، ويمكن للمرء أيضًا أن يقول إن مناشدة روح الفروسية كما فعل "دي جوينفيل" لا معنى له؛ فكل من ريتشارد قلب الأسد، وصلاح الدين الأيوبي قاما بقتل الأسرى. فقد قتل ريتشارد قلب الأسد ما يقرب من ٢٥٠٠ رجل في موقعة ساحة الدماء، لأنه لم يكن في مقدوره الانتظار حتى تصل أموال الفدية لهؤلاء

(19) In De Joinveille, p. 163.

الأسرى لأنه كان بصدد استكمال مسيرته إلى القدس، كما قتل صلاح الدين الأيوبي فرسان المعبد، ومقاتلي الإسبتارية في نوبة حماسة عارمة بعد موقعة حطين خشية إطلاق سراح مثل هؤلاء الأعداء الألداء. وكل هذه الأسباب من الانتقام، والانزعاج، واحتمال عودة مقاتلين أعداء يتسمون بالخطورة يمكن أن تنطبق على موقعة المنصورة، والأكثر من ذلك أن أسطورة الفروسية المرتبطة بصلاح الدين الأيوبي هي من وحي خيال المؤرخين الغربيين. فقد استخدم صلاح الدين الرحمة كما استخدمها قيصر كسلاح لتشجيع الاستسلام، ولكن الصليبيين في دمياط لم يكونوا في حاجة إلى تشجيع، حيث لم يكن لديهم بديل آخر غير الاستسلام.

وتم افتداء "لويس" مقابل إعادة دمياط وغرامة قدرها ٤٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية، وكانت مفاوضات الإفراج عن الملك "لويس" قد توقفت نتيجة لثورة تمرد لفوج المماليك البحرية ضد "توران شاه" وقيامهم بقتله في يوم ٢ مايو. واقتحم الأمير الصغير بيبرس خيمة "توران شاه" أثناء العشاء شاهرًا سيفه ووجه ضربة إلى رأسه استطاع السلطان تفاديها، وصرخ "توران شاه" طالبًا النجدة وهرع ليختبئ خلف برج حصار خشبي، ولكن رجال بيبرس أحاطوا به وأشعلوا فيه النيران. ولاذ السلطان وأميره بالفرار وألقيا بأنفسهما في النهر، فخاض بيبرس خلفه في النهر وقتله.

وبنظرة بسيطة ندرك أن أسباب التمرد كانت بسيطة للغاية، فقد كان بعض المماليك البحرية يخشون من فقدان نفوذهم لصالح الأمراء الجدد من أسرة السلطان؛ وكان السلطان قد عين بالفعل العديد من رجاله فوق الأمراء المماليك. ويعطينا بعض مؤرخي العصر المتأخر للمماليك انطباعًا بأن السلطان كان معتوهًا بعض الشيء، فهناك أقوال ترددت بأن السلطان كان يتجول داخل قصره ليلاً ويضرب على الشموع بسيفه وهو يتمتم "ولذا يتحتم عليّ أن أتعامل مع المماليك

البحرية"[٢٠] وربما يجعل بعض الاستقصاء المتعمق في هذا الانقلاب الأمر يبدو وكأنه كان أمرًا حتميًا، فلم يكن "الشيخ" من المماليك القفجاق، وهو الأمير الأخير، ولقي حتفه وهو يحارب الصليبيين يوم ٩ فبراير ١٢٥٠م. وجعل ذلك هيمنة روابط القفجاق العرقية مع بعضهم البعض أكبر من رباطهم بالدولة المصرية وبالطبع كان سيدهم "الصالح" قد مات حينئذ، وكان ولاء المملوك تقليديًا يتوقف عند سيده أو "الأستاذ" كما يطلقون عليه، وهو ليس مدينًا بشيء لأولاد الأستاذ، والطبيعة المحدودة لهذا الولاء قامت بتحديد أنماط القتل والدسائس التي تلت وفاة كل سلطان مملوكي على وجه التقريب.

وأوحت الأمور للمماليك بطبيعة الحال، وبعد أن قاموا بإلحاق الهزيمة بالصليبيين والذين غادروا مصر في نهاية المطاف، بالإضافة إلى حقيقة أن هؤلاء العسكر العبيد كانوا يملكون ناصية الدولة بالفعل لفترة قصيرة من الوقت، أن الزمان قد طاب لهم بعد طول عبوس، وأن الفرصة الذهبية بين أيديهم الآن بالفعل. ولكن ما كان يبعث على القلق بالنسبة لهم بعد الانقلاب قيام المماليك بانتخاب شجرة الدر لتحكم مصر كملكة للمسلمين باستخدام سلطات ابنها المتوفي، ونتج عن ذلك أن الفوضى قد ضربت بأطنابها على الفور لأن العالم الإسلامي في العصور الوسطى لم يكن مؤهلاً لشيء من ذلك، ولا يمكن لسيدة بالتحديد أن تقوم بقيادة الجيش. ولم يكن الانقلاب فوق كل ذلك قد نال تأييد الجيش في حقيقة الأمر. وحاول بعض مقاتلي المماليك البحرية قتل "بيبرس" بعد قيامه بقتل "توران شاه"، وقدم المماليك الأمير المخضرم "عز الدين أيبك" كمرشح وقائد أعلى جديد، الذي رغم أنه من المماليك البحرية، فإنه يلقى تأييدًا من قاعدة مستقلة عن البحرية تتمثل في حرسه الخاص من المماليك والذي يُطلق عليهم "المعزية".

---

(20) **In R. Irwin, The Middle East in the Middle Ages: The Early Mamluk Sultanate, London: Croom Helm, 1986, p. 21.**

وأجبر المماليك السلطانة حينئذ على التخلي عن السلطنة لصالح "أيبك" في يوليو ١٢٥٠، وذلك كرد فعل لفقدان دمشق لصالح الأمير الأيوبي "الناصر يوسف" حاكم حلب.

ولقد أبدى المماليك سذاجة في ممارسة شئون الحكم، واستمر رد فعلهم الذي اتسم بالذعر خمسة أيام تالية، عندما قام القواد من أمراء المماليك البحرية والذي يقودهم "أقطاي الجاماميدار"، و"بيبرس" بإجبار "أيبك" على التنازل لصالح "الأشرف موسى"، حفيد ابن أخ الصالح وهو طفل في العاشرة من عمره. وكان الأمل الذي يعتمل في نفوسهم بوضوح هو أن يؤدي إعادة تأسيس الدولة الأيوبية في مصر إلى استرضاء الأيوبيين في بلاد الشام، وهو الأمر الذي لم يحدث. وتزوج أيبك من شجرة الدر، ولم يكن واضحًا عما إذا كان هذا الزواج نتيجة لقصة حب ولكنه أدى إلى تعزيز مركز "عز الدين أيبك" فيما يمكن اعتباره أسرع شقاق إلى أحزاب متصارعة في الدولة ككل سواء من ناحيته أو من ناحية "المعزية" أو "أقطاي"، أو بيبرس أو أمراء المماليك البحرية. وكما حصل أيبك على لقب "أتابك" ويعني اللقب القائد العسكري أو الحاكم أو الوصي على السلطان الجديد الطفل، وهذا يعني في واقع الأمر أن يكون زمام السلطة الفعلية في الدولة في يده. كما سعى جاهدًا إلى توحيد كل المماليك تحت قيادته من أجل صد قوات الناصر يوسف الأيوبية من الزحف إلى القاهرة. ولقد لقيت الهزيمة في فبراير ١٢٥١، ولكن لم يكن مقدرًا أن يكون هناك سلام مع الأيوبيين في بلاد الشام حتى يقوم الخليفة في بغداد بالتدخل في عام ١٢٥٣، في محاولة منه لخلق جبهة إسلامية موحدة ضد المغول. وكان لتواجد المغول في مناطق القوقاز كجزء من احتلالهم لمناطق جنوب روسيا، وفي الأناضول كسادة مهيمنين على سلاطينهم السلاجقة كحقيقة مريرة من حقائق الحياة وذلك منذ عام ١٢٤٠ وما بعده، حتى إن الأيوبيين من شمال بلاد الشام كانوا يقومون بدفع الجزية لهم، ولكن وقع حوافر خيول قوات المغول المُسرعة وهي

تنهب الأرض من أجل إخضاع كل أراضي الإمبراطورية الإسلامية كـان يتـردد صداها بقوة في الشرق البعيد.

سمح الالتحام القوي لهذه السنوات القليلة لأيبك من أن يقوم بتدعيم مركـزه، كما أن ساعده الأيمن "قطز" قد قتل أقطاي في سبتمبر عـام ١٢٥٤. ولاذ بيبـرس وكبار القادة من المماليك البحرية بالفرار ومعهم ما يقرب من سبعمائة من الجنـود إلى بلاد الشام الأيوبية والأناضول، حيث قاموا بممارسة نفس الدور الـذي لعبـه الرفاق الأحرار في حرب المائة عام عندما عملوا علـى إثـارة القلاقـل للحكـام والشعوب في كل من مصر وبلاد الشام. وبالغ أيبك في تقـديره لقدراتـه منتشـيًا بالنجاحات التي حققها، وقام بخلع السلطان "الدمية" والذي كان يستتر ورائـه فـي سعيه الدءوب عن زواج سياسي جديد. ومن المؤكد أن خوف شـجرة الـدر مـن وضعها الخاص أكثر من شعورها بأي غيرة هو الذي دعاها إلى قتل زوجها الذي وجد ذبيحًا في حمام منزله في أبريل عام ١٢٥٧م.

ثم قُتلت شجرة الدر نفسها وفي نفس الشهر، ووجد جثمانها خارج القلعة في القاهرة، وكانت بلا أدني شك ضحية لمجموعة جديدة ولصراع جديد على السـلطة قامت باستخدام ابن زوجة أخرى من زوجاته كمخلب قط ضد مطـامع وطمـوح السلطان. كما استمر الصراع الخفي وبوحشية ضد قطز بوصفه الرجل القوي الذي يحرك الأحداث من وراء أستار العرش. ولقد بدا في هذه اللحظة التاريخية وكأنـه ليس من المحتمل على الإطلاق أن يتمكن سلاطين المماليك من تكوين نظام حكـم يتمتع بالاستقرار.

وقام اللاجئون من المماليك البحرية بمحاولة إجهاضية في القاهرة في عـام ١٢٥٨، ولكن قطز تمكن منهم، وقتل كل القادة الذين وقعوا في قبضـته. وأقسـم جنود المماليك البحرية على الانتقام، ولكن أي عملية انتقام كان يتعـين عليهـا أن تنتظر لبعض الوقت، فقد كان وقع سنابك خيول المغول التي تقترب مـن منطقـة الشرق الأوسط يتم سماعها في القاهرة بوضوح.

الفصل الرابع

أسطورة الراهب يوحنا[٢١]
بداية حرب المغول

---

(٢١) تعود الأسطورة إلى فترة الحروب الصليبية التي انتشرت في حينها على نطاق واسع وفحواها أن هناك ملك مسيحي بهذا الاسم قيل إنه كان يحكم آسيا الصغرى أو أثيوبيا- ونشر قادة الحروب الصليبية هذه الأسطورة عندما استشعروا العزلة - وتدّعِي الأسطورة أنه يوجد راهب وملك قوي يحكم بلاد فارس وإنه أحرز نصرًا على المسلمين- ويحتمل أنه يقصد موقعة "قطوان" التي انتصر فيها المغول بقيادة "كور خان" على الأتراك، وقام بعض الأتباع النسطوريين إلى تحريف اسمه إلى "يوحنا" (المترجم - عن موقع ويكيبيديا على الشبكة العالمية).

عندمـــا أتوجه علـــى رأس جيشـــي صـــوب بغـــداد وأنـــا أستشيط غضبًا
وسواء قمت بالاختباء في أعالي السماء أو في باطن الأرض
ســـأطرحك أرضًا مثل خيط يدور حول كرة غـــــزل تـــدور وتهبط لولبيًا؛
وسأقذفك في الهواء بضربة من قبضة أسد هصور
لن أترك أي كائن حي في مملكتك، سأشعل النيران في مدينتك
وفي أرضك وفي جسدك أنت شخصيًا

من خطاب هولاكو إلى الخليفة المعتصم في عام ١٢٥٨

تعتبر كل أنحاء العالم من الممتلكات الشرعية لشعب جنكيزخـــان، وســـواءً أكانت هذه العقيدة هي التي جعلت جنكيزخان يبدأ في شن غزواته، أو بدأت العقيدة في التبلور عندما هلت بشائر النجاحات المتوالية واضحة للعيان، هذا التساؤل هـــو الذي أربك الكثير من المؤرخين والباحثين في الحقبة التاريخية التي سادها المغـــول في محاولة الإجابة عليه لفترة من الزمان. ولم تكن هذه الكلمات بالنسبة للشـــعوب التي تعيش في بقاع الأراضي الإسلامية إلا مجرد كلام مرسل لا طائل من ورائه. ورغم أنهم كانوا يقعون في قلب المشروع المغولي، وذلك يعني الحروب والـــدمار ولا شيء غيرهما. وأدت وفاة السلطان "سنجر" في عام ١١٥٧ إلى تفكك ســـلطنة السلاجقة في شرقي فارس وفي بلاد ما وراء النهرين. واســـتطاع الخوارزميـــون،

وهم كما ذكرنا آنفًا سلالة تركية حاكمة من منطقة بحر الأورال، أن يوطدوا دعائم إمبراطورية واسعة تمتد في أراضي الإمبراطورية السابقة للسلاجقة، واتخذ شاه الخوارزميين من سمرقند عاصمة للإمبراطورية في عام ١٢١٠م. ولم يكن ليُسمح له بالاستمتاع بهذا الوضع طويلاً؛ فقد تم اكتساح هذه الإمبراطورية في هجمة من ثلاث جهات للمغول في عام ١٢١٩، وفر الشاه هاربًا وتوفي في جزيرة ببحر قزوين؛ كما تم تدمير بلاد ما وراء النهرين وخراسان حين حاصرت قوات المغول جيوش الشاه التي أصبحت بلا قيادة بعد فراره، وقاموا بتنفيذ مذابح جماعية في العامة.

لقد كان يبدو وكأن جنكيزخان كان قلقًا للغاية بالنسبة لهذه القوة إلى الغرب منه، مثل روما مع قرطاج بعد الحرب البونية الثالثة، ولذا فقد قرر أن التدمير الكامل بدلاً من مجرد تحقيق الانتصار هو البديل الآمن لمنع إعادة أي أمل لإحياء الإمبراطورية الخوارزمية. وربما كانت هذه السياسة سديدة: حيث إن نجل الشاه "جلال الدين" قام بقيادة مقاومة، وإن كانت في بقع صغيرة، ضد المغول في الولايات التي كانت تقع في السابق تحت سيطرة أبيه.

وتم استكمال غزو مناطق جنوب روسيا تحت حكم "أوجيداى خان"، و"كيوك خان" خلفاء جنكيزخان، وتم إلحاق هزيمة منكرة بسلاجقة أنطاكية في موقعة "جبل كوسي"، وبذلك أصبحت المنطقة محمية منغولية في عام ١٢٤٣م. وكان المغول حتى مع كل ذلك لا يزالون راغبين في اقتطاع أجزاء من الشرق الأوسط وإضافتها إلى إمبراطوريتهم. واعتلى الخان الأعظم "منكوخان" العرش في عام ١٢٥١م، وهو الذي قام بإرسال شقيقه "هولاكو" في مهمة غزو إلى الغرب.

كانت مهمة هولاكو في الظاهر تتعلق بالقضاء على طائفة الحشاشين، وهي الطائفة الشامية التي كانت ضالعة في محاولة اغتيال "صلاح الدين الأيوبي" كما ذكرنا آنفاً. فقد حاول طائفة منهم في فارس إزعاج الخان الأعظم عن طريق

إرسال أربعمائة من أتباعهم متخفين في محاولة لقتله. وصدرت التعليمات لهولاكو بأن يقوم بإخضاع الخليفة العباسي وأن يقوم بضم كل من بلاد الشام ومصر للسيطرة المغولية. والتفسير السابق هو على الأقل ما صرح به أنصار هولاكو. ولكن المشكلة أن هذا الكلام يمكن أن يكون قصة تم تلفيقها بعد ذلك من أجل تبرير إقامة هولاكو لدولة تحت إدارته في إيران والعراق – دولة سلالة الإليخانات. ولكن لمن كان يقدم تبريرًا لأعماله؟ فقد كانت القبيلة الذهبية، وهم المغول الذين قاموا بغزو جنوب روسيا بقيادة "باتوخان" وهو ابن عم "بالموخان" وهو فرع من عائلة جنكيزخان، وكان لهم، أو على الأقل انتابتهم مشاعر بأن لهم حقوقًا في غزو بلاد فارس. وسوف يبدو لهذا الأمر أهمية بالغة فيما بعد في الصراع بين إليخانات هولاكو وسلاطين المماليك. وربما من الأهمية بمكان أيضًا أن نذكر أن سلاطين السلاجقة في الأناضول قد تم إخضاعهم عن طريق "باطوخان" في عام ١٢٤٣م، وأن هذه المنطقة سوف تخضع بعد ذلك لنفوذ إليخانات هولاكو. كما أن قوات القبيلة الذهبية كانت ترابط إلى الجنوب من مرتفعات القوقاز في المنطقة التي تُعرف اليوم بأذربيجان، وستصبح هذه المنطقة فيما بعد منطقة حدود متنازع عليها تفصل بين دولتين تابعتين للمغول.

وبدأت قوات هولاكو خان غزوها في عام ١٢٥٣، ومن الصعوبة بمكان تحديد حجم الجيش الذي كان يقوده. فقد كانت الوحدة العسكرية التي يُطلق عليها "تومين" تتألف من عشرة آلاف رجل، ومن عدد قادة "التومين" الذين قيل إنهم اصطحبوا هولاكو خان يمكن أن نستنتج أن قوة الجيش كانت ١٧٠.٠٠٠ مقاتل تحت قيادته، وهناك قوات احتياط إضافية من التركمان والتي نعرف أنها صاحبت هولاكو للغرب وبذلك فإن إجمالي حجم الجيش يمكن أن يصل إلى ٣٠٠.٠٠٠ رجل. وكان من المعتاد أن يكون عدد وحدة "تومين" أقل أحيانًا بكثير من ١٠.٠٠٠ رجل لذا يجب أن نأخذ هذه الأرقام بكثير من الحذر. ويعطي مؤرخو القرن الخامس عشر، الذين كانوا أقرب كثيرًا للأحداث، تقديرًا لأعداد الجيش بالرقم

١٢٠.٠٠٠ رجل بالإضافة إلى القوات الاحتياطية. وكان هناك نظام موضوع لخدمات الإمداد والتموين لمواجهة متطلبات هذا الجيش في تحركه عبر الأراضي الخاضعة لهم يدعو للانبهار؛ وطبقًا لذلك النظام يتم حجز المراعي، وإصلاح الكباري، كما كان يتم إخلاء وتمهيد الطرق التي يمر منها الجيش.

وكان قادة المناطق الغربية من الإمبراطورية الإسلامية يعرفون مسبقًا وبالتأكيد نوايا هولاكو في شن الهجوم عليهم، فلقد تسلموا جميعًا رسائله التي يطالبهم فيها بالاستسلام والإذعان في وقت مبكر وتحديدًا في عام ١٢٥٣. ولذا فلم تكن حروب هولاكو حروبًا خاطفة بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، فبحلول عام ١٢٥٦ كان يشرع للتو في مواجهة الحشاشين في معاقلهم القوية في فارس، وعلى الرغم من أنه قام بإبادتهم بالفعل في النهاية، فإن العملية استغرقت منه الكثير من الوقت. ووصل إلى شمال شرق بغداد فقط في عام ١٢٥٨م، وتحركت قوات المغول التي كانت ترابط في شرق الأناضول منذ عام ١٢٤٠ وما بعدها صوب نهر دجلة، وألحقت الهزيمة بقوات الخليفة المتواضعة على بعد ثلاثين ميلاً من بغداد، وكانت لإستراتيجية الانسحاب المخادع والموثوق بها فعل السحر مرة أخرى؛ فتم الاحتيال على العدو هذه المرة واستدراجه إلى منطقة مستنقعات قامت بكبح جماح قوات الخليفة سواء في القدرة على المناورة أو محاولة الهروب من المذبحة التي تلتها بعد ذلك. وكان الخليفة في البداية قد رفض الاستسلام، ولم يكن ذلك من الحكمة في شيء، فقد كانت قواته صغيرة، كما لم يكن هناك أدنى احتمال أن تصل إليه أي تعزيزات من أي نوع من أي قوة في المنطقة. وبمجرد أن تم إحكام الحصار على المدينة بدأت قوات المغول في قصف أسوار وتحصينات المدينة بآلات تحطيم الحصار الصينية الصنع الخاصة بهم، وهنا تغيّر تفكير الخليفة وأعلن الاستسلام.

وهنا نترك ابن كثير يصف لنا بإيجاز المراحل النهائية لكسر الحصار:

"قام التتار بحصار مقر الخلافة وأمطروه بالسهام من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلهو بين يدي السلطان لتسليته، وكانت واحدة من جملة محظياتة وذات أصول إسبانية مختلطة وتسمى "عرفة" جاءها سهم من إحدى نوافذ القصر وقتلها بينما هي ترقص أمام السلطان، وانزعج الخليفة بشدة وأصيب بالذعر، وأحضروا له السهم الذي أصاب الجارية وقتلها فإذا مكتوب عليه: "إذا أراد الله إنفاذ قدره أذهب من ذوي العقول عقولهم".

حضر هولاكو إلى بغداد بجيوشه الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة ورجال لا يؤمنون بالله أو باليوم الآخر..... وكانت جيوش بغداد قليلة جدًا وبائسة جدًا ولا يصل عددهم إلى عشرة آلاف فارس...(٢٢).

سقطت المدينة في يوم ١٢ فبراير ١٢٥٨. وقام المغول بتنفيذ مذابح جماعية، والتي أدت نتيجة لتوسط زوجة هولاكو المسيحية إلى إنقاذ النسطوريين الذين كانوا في المدينة. وبلغ عدد القتلى طبقًا لاعتراف هولاكو نفسه في خطاب إلى الملك "لويس التاسع" ملك فرنسا مائتي ألف نسمة. وقامت قوات المغول بلف الخليفة البائس في بساط وأخذوا يركلونه بالأقدام حتى الموت، حيث لم يكن المغول راغبين بوضوح في إراقة الدماء الملكية للخليفة - طبقًا لعقيدتهم- على نحو مباشر(*).

---

(22) In B. Lewis, Islam from the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople, New York: Harper & Row, 1974.

(*) يُعد القتل دون إراقة دماء عادة مغولية وتركية قديمة استمرت حتى بعد دخولهم الإسلام وترجع هذه العادة إلى أنهم كانوا يقدسون الأرواح، ويعتقدون أن روح الإنسان تسكن في دمه، فكانوا يحرصون على عدم إراقة الدماء حتى تزهق الروح معها، وسبق أن حدثنا الرحالة البندقي ماركو بولو أن قبلاى =

وتحرك هولاكو إلى الشمال من بغداد قبل أن يستقبل الرسل من الجزيرة وبلاد الشام في مدينة المراغة التي تقع أقصى شمال غرب إيران اليوم. ونأت الولايات المسيحية أرمينيا وجورجيا بنفسها عن ذلك باعتبارهم حلفاء مقربين للمغول. وأظهر القائد المسلم "بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله" آيات الاحترام والتوقير، أما السلاطين السلاجقة للأناضول فقد قاموا بعرض قوات جيوشهم لهولاكو من أجل طموحاته في بلاد الشام. وأما الناصر الأمير الأيوبي في حلب ودمشق، فقد أرسل ابنه إلى بلاط هولاكو خان من أجل مناشدته الرحمة. ولم يشفع له ذلك الأمر؛ فقد سقطت حلب بعد حمامات من الدماء في يوم ٢٥ يناير ١٢٦٠. وهناك قصة تاريخية شهيرة تقول إن المغول عرضوا أن يتم قبول استسلام المدينة بدون إراقة دماء على شرط أن يقوم السكان بتقديم كل القطط التي لديهم للمغول، وتمضي القصة قائلة إن المغول بعد أن قاموا بجمع أعداد هائلة من القطط أشعلوا النيران في ذيولها وتركوها، وعادت القطط المذعورة إلى المدينة، وكما تفعل كل القطط بالعودة إلى منازلها مرة أخرى، وتسببت في إشعال النيران في أرجاء المدينة مما تسبب في التعجيل بإنهاء الحصار. وربما تكون القصة بعيدة الاحتمال، أما ما هو مؤكد أن مصير المدينة كان بنفس سوء المصير الذي آلت إليه مدينة بغداد. أما "الناصر" الذي كان في دمشق يحاول تجميع مقاتلين لجيشه، كما يحاول في نفس الوقت أن يستجمع أطراف الشجاعة لقيادتها، وفي نفس الوقت الذي كان

= خان أمر بإعدام خصمه تايان عبر وضعه بين بساطين والقيام بتحريكهما بقوة شديدة حتى تفيض روحه، ويفسر بولو ذلك بقوله بأنه لم يكن يجوز في عرف التتار أن تشهد الشمس أو الهواء سفك دماء فرد ينتمي للأسرة الإمبراطورية- وبذلك فإن هولاكو قد احترم وضع الخليفة العباسي وأمر بقتله بوضع مماثل لقتل أفراد الطبقة العليا. وعن ذلك انظر: ماركو بولو، رحلات ماركو بولو، ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسون، وإلى العربية عبد العزيز جاويد، الجزء الثاني، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٢، ٢٠٣ هامش ١٥، وراجع أيضًا سعد زغلول عبد الحميد، الإسلام والترك في العصر الإسلامي الوسيط، مجلة عالم الفكر، الكويت ١٩٨٦م ص ١٩٨-١٩٩ (المراجع).

يتوسل إلى "قطز" من أجل مد يد العون إليه، كان يستقبل أفواجًا من اللاجئين بينما كان يتوجه شمالاً من أجل إغاثة حلب. وعاد أدراجه سريعًا، كما هجره أفراد جيشه، وقام هولاكو بإلقاء القبض عليه.

استولى هولاكو أيضًا على "البيرة" الواقعة على نهر الفرات، كما استسلمت دمشق ذات الأغلبية السكانية في بلاد الشام سريعًا، وربما بتعقل عند اقتراب هولاكو من معاقلها. وبدأ المغول حينئذ في اتخاذ إجراءات إلغاء الإسلام كديانة رسمية في المنطقة بأسرها. وبدأ المسيحيون في بلاد الشام بإظهار ابتهاجهم بتناول الكحوليات علنًا في نهار رمضان، كما كان لزامًا على المسلمين أن يتم إيقافهم عند كل مرور لمواكب الصليب في طرق المدينة. ولا شك أن الكثير من هذه المواكب تم تنظيمها على وجه السرعة. وأعلن بوهيموند السادس أمير الولاية الصليبية أنطاكية فروض الطاعة إلى هولاكو، ولكن سياسته هذه قوبلت بالنفور من الصليبيين وتجار عكا، كما عرضته للحرمان الكنسي من الممثل الرسمي للبابا في المدينة. وكما شعر أهل البندقية على وجه الخصوص بالقلق من إمكانية تحول طريق تجارة الشرق التي من المعتاد أن تتدفق من الخليج الفارسي ومناطق البحر الأحمر ثم إلى عكا ومنها إلى أوروبا. وكان المغول قد شرعوا بالفعل في تحويل التجارة بعيدًا إلى الشمال حيث موانئ البحر الأسود وحيث يرتبط أهل جنوه بعلاقات وطيدة مع البيزنطيين.

ولم يُترك للإسلام سوى مصر، ومدن قليلة منعزلة في بلاد الشام، والجزيرة العربية حيث الأراضي التي تمثل قلب التاريخ الإسلامي، وحان الوقت ليقوم هولاكو بإرسال مبعوثيه إلى قطز السلطان المملوكي بالقاهرة يطلب منه الاستسلام، وقتل قطز هؤلاء المبعوثين، وقام بشطر أجسادهم نصفين في سوق الخيول، ثم قام بوضع رؤوسهم على بوابات المدينة. ويبدو سلوك قطز للوهلة الأولى سلوكًا طائشًا ويتسم بالرعونة، فقد كان سلطانًا من سلالة حاكمة لم تقم بتحقيق أي درجة من الاستقرار منذ بداية اعتلائهم لكرسي الحكم، كما أظهرت، شأنها شأن كل الأنظمة

الثورية الحاكمة في التاريخ، ميلاً إلى أن تأكل أبناءها، والأكثر من ذلك أنه لم يكن قد جلس طويلاً على كرسي السلطنة، فقد كان قد أزاح السلطان الدمية، ابن أيبك الصبي في نوفمبر ١٢٥٩ فقط. ولكن يبدو أن كل ذلك جعله يشعر بأنه لا بديل أمامه سوى خيار مواجهة هولاكو. وكان من المحال الوصول إلى أي نوع من الاتفاق أقل من الإذعان الشامل للمغول، وكان خطاب هولاكو خان إليه يحمل رسالة واضحة لا لبس فيها:

من ملك الملوك شرقًا وغربًا والقائد الأعظم:
باسمك اللهم، باسط الأرض، ورافعُ السماء،
يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه
بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسُلطنا على مَن حَلَّ به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وسلموا لنا أمركم. قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرقّ لمن شكر، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأي أرض تؤويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟! فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كحبات الرمال، فالحصون عندنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع،

ودعاؤكم علينا لا يُسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفُّون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فابشروا بالمذلة والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا وأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذّر من أنذر. وقد ثبت عندكم أننا نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سَلَّطَنا عليكم من له الأمور المقدّرة، والأحكام المدبرة، فكبيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا، ولا كافيًا ولا حرزًا، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

قل لمصر ها هو "هولاكو خان" في الطريق قادم
بحد سيوفه البواتر
يصير أعز القوم منهم أذلة
ويلحق أطفالهم بالأكابر(٢٣)

(23) In Lewis, Islam from the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople, p. 84-5.

وكان هناك عامل آخر لصالح القرار الذي اتخذه قطز بشأن الوقوف ضد هولاكو هو عودة ظهور بيبرس ورفاقه من المماليك البحرية في مارس ١٢٦٠ مقابل قَسَمْ غليظ من قطز بضمان سلامتهم. وكان بيبرس يعمل مع الناصر ويقوم بالحث على سياسة جادة ضد المغول من رئيسه للدرجة التي قام فيها بضرب رئيس مستشاري الناصر ضربًا مبرحًا في الخيمة السلطانية عندما تكلم عن التهدئة، وعرض القيام بقيادة الهجمات ضد المغول على الرغم من أن قوة الجيش تبلغ ثلاثة آلاف رجل فقط. وكان فشل الناصر في الحشد والتعبئة عقب سقوط حلب هي القشة الأخيرة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لبيبرس. وبالطبع كان قَسَمْ الأمان الذي يعطيه "قطز" لا يعني الكثير بالنسبة لشخص ذبح قائده السابق، ولكن كان من الواضح بالنسبة للرجلين أن بيبرس وقواته قد انخفض عددهم على الرغم من أنهم بعد سنوات من العمل كجنود مرتزقة، لم يصبحوا قيمة لها جذورها في هذا الوقت العصيب، وأن وقوفهما معًا هي الفرصة الوحيدة لكليهما للبقاء على قيد الحياة. كل رجل وكل مقاتل له قيمته الآن، فقد كان هنالك ٢٤ ألف مقاتل من المقاتلين الفرسان في مصر، وربما ثلاثين ألف مقاتل آخر في بلاد الشام بأسرها في ذلك الوقت[٢٤].

والأكثر أهمية في ذلك الوقت من عودة الغريم "اللدود" لقطز، هو على أي حال، تراجع عدوه الآخر "هولاكو" ورحيله عن بلاد الشام مصطحبًا جزءً كبيرًا من قواته في صيف عام ١٢٥٩. وهناك بعض الآراء التي كان ينادي بها بعض المؤرخين أن القصور في الموارد اللوجستية المحدودة لبلاد الشام كان شديدة القسوة فيما يخص المياه والمراعي لدرجة أن المنطقة لم يكن في مقدورها إمداد الجيش المغولي باحتياجاته لأكثر من حملة لموسم واحد فقط[٢٥]. كما أن قوات

---

(24) Cf. D.Ayalon, Studies on the structure of the Mamluk Army – III Bulletin of the School of Oriental and African Studies, 1954.

(25) Cf. D. Morgan, The Mongols in Syria 1260 -1300, in P. Edbury (ed), Crusade and Settlement, Cardiff: Cardiff University Press, 1985.

هولاكو كانت ضخمة بالطبع، وكان كل مقاتل مغولي يصطحب معه خمسة خيول، كما كان كل مقاتل يحمل مؤنتة من لحوم الماعز والخراف على الخيول لتكفي احتياجاته، ولذا فإن الحاجة كانت ماسة إلى العُشب والكلأ، كما أنه بالإضافة إلى ذلك فإن ماء النهر المتاح كان يقل بشدة في شهور الصيف في بلاد الشام، وحتى نهر العاصي كان يشح ماؤه بما لا يقل عن عشرة أمثاله في الشتاء. وعلى كل حال كان هولاكو يستطيع أن يقوم بتدبير احتياجات قواته في بلاد الشام لحملة عسكرية لموسم واحد على الأقل بحيلة بسيطة عن طريق نهب مخزون الحبوب، وتشريد البدو الرعاة من مواقع الرعي المتاحة.

ومن أبرز ما وقع في تلك الفترة من أحداث هو وفاة "منكوخان" أو الخان الأعظم للمغول في أغسطس ١٢٥٩، وهو الذي كان قد أرسل هولاكو إلى الغرب، وكان هولاكو مشتت الفكر من جراء ذلك، والعواقب المحتملة بالنسبة له في الشرق ما في ذلك شك. كما كان شقيقاه: قوبلاي وأريق بوكا يعدان نفسيهما للحرب ضد بعضهما البعض من أجل العرش، ولم يكن يبدو على هولاكو أنه يعتبر نفسه مرشحًا للخلافة، فلو كان الأمر كذلك لكان قد توغل أكثر مما فعل في الشرق وأذعن لرأي القوريلتاي (مجلس القبيلة الاستشاري الأعلى للمغول)[٢٦]، ولكنه مازال قلقًا من نتائج التنافس بين الشقيقين، وكان أريق بوكا يلقى دعم معظم أفراد عائلة جنكيزخان في منغوليا ومن خان القبيلة الذهبية "بركة خان"، بينما كان قوبلاي يحظى بدعم معظم قادة الجيش المغولي، والأكثر من ذلك أن الصين كانت في قبضته، وهي أغلى ممتلكات المغول، كما أن "منكوخان" كان قد مات بالفعل وهو يقود الحملة مع قوبلاي في الصين.

---

(٢٦) قام كل من قوبلاي وأريق بوكا بعقد المجلس الاستشاري (القوريلتاي)- واعتبر كلا الاجتماعين غير شرعيًا لأن كلا منهما تجاهل أعضاء العائلة وقادتها.

ولكن ما كان يؤرق هولاكو في حقيقة الأمر هو أن قوات "بركة خان" كانت تتواجد إلى الشمال من قواته مباشرة في منطقة القوقاز. وكما أسلفنا من قبل فقد كان هنالك ما يدعو للفتور بين هذين القائدين الشابين من إليخانات المغول حول حق كل منهما في غزو بلاد فارس، ولكن منذ ذلك الوقت فقد تطورت الأمور للأسوأ بتحول "بركة خان" للإسلام، واضطهاد هولاكو لهذه العقيدة منذ أن وطأت أقدامه أرض الشرق الأوسط. ولم يكن هولاكو قد وطد العزم على مناصرة أي من الشقيقين المرشحين من أجل العرش، ولكن كان يُنظر إليه باعتباره نصيرًا لقوبلاي من جانب أنصار أريق بوكا. ولذا فقد توجه هولاكو إلى المراغة في فارس ليكون في مركز أفضل لمواجهة أي هجوم محتمل من القبيلة الذهبية. أما عن المماليك، فقد كان بعيدًا عنهم بما يكفي لأن يعطي فرصة على الأقل لباقي قواته التي تركها خلفه بقيادة "كتبغا نوين" وهو واحد من أكفأ قواده وأكثرهم خبرة، ليقوم باكتساح بلاد الشام وتطهيرها وإلحاق الهزيمة الكاملة بها. وأرسل "كتبغا نوين" كتائبه إلى غزة ونابلس، كما كانت هناك هجمات مغولية على الخليل، وعسقلان والقدس. وكان يبتغي من وراء ذلك أن تكون قواته إلى الجنوب ما أمكن ذلك حتى يقوم بمراقبة ما يحدث من تطورات في مصر عن كثب. وخيمت أجواء هذه التطورات على سماء ممالك الفرنجة على الساحل، وأصبح واضحًا لدى الصليبيين أن وصول المغول إلى بلاد الشام لا ينبئ بحدوث تغيرات وشيكة في أقدارهم. وعندما قام جوليان كونت صيدا بالإغارة على البقاع، عاقبه المغول بالإغارة على مملكته. كما عانى حنا الثاني حاكم بيروت من غارات انتقامية مماثلة عندما قام بغارات مماثلة بمعاون فرسان الهيكل في الخليل.

غادر قطز القاهرة في يوم ٢٦ يوليو عام ١٢٦٠. ويقول اليونيني إن آخر أمراء الأيوبيين كان يصطحب معه ما يقرب من ١٠ إلى ١٢ ألف فارس، ولكن قطز كانت لديه وحدات من جنود الاحتياط من الخوارزميين والأيوبيين والأكراد والبدو والتركمان، والنازحين من المغول، وبذلك يمكن أن يصل تعداد الجيش إلى

عشرين ألف مقاتل. وقرر قطز أن يلاقي المغول في بلاد الشام بدلاً من انتظارهم في مصر. وكان عليه أن ينتهز الفرصة، فالقوات الإضافية التي في حوزته يمكنها أن تتلاشى، كما يمكنها أن تنضم للمغول، كما يمكن أن يفقد الأمراء المماليك الرغبة في القتال أيضًا؛ وكان عدد جيوش المغول قد تناقص في هذه الفترة، والهزيمة في بلاد الشام يمكنها أن تمنحه فرصة أخرى لتشكيل جبهة قتال ثانية في مصر، بينما الهزيمة في مصر تعني نهاية الحرب. كما أن هناك أهمية بالغة للاعتبارات النفسية، فإن تحقيق نصر على المغول يمكن أن يرفع من معنويات الجنود فضلاً عن أن النصر يمكنه من تعزيز قبضته على السلطة. وكانت المشكلة هي أنه يريد مواجهة الخوف الشديد الذي بدأ بالفعل يدب في أوصال الجيش بعمل جرىء. وبدأ قطز في شحذ همم الجيش باستخدام الوازع الديني واستدعاء روح الجهاد، كما بدأ هو وبيبرس في استغلال دوافع الإحساس بالعار والشعور بالإثم والسخرية والتهكم من أجل حث الجنود. ويقول المقريزي إن قطز خطب في الجنود قائلاً:

> يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون من بيت المال وأنتم للغزو كارهون وأنا متوجه الآن إلى الله ورسوله، فمن اختار الجهاد يصاحبني، ومن لم يختر ذلك فليرجع إلى بيته، وليعلم أن الله مطلع عليه، ولتعلق خطيئة من يعتدي على حرمة نساء المسلمين في رقاب المتقاعسين.

وكان على الأمراء أن يقسموا اليمين على الاتفاق على الخروج للجهاد، ولكنهم فعلوا ذلك فقط عندما أعد قطز عدته للخروج وقال: "أنا ذاهب لقتال المغول بمفردي"، فخرجوا وراءه من قلعة القاهرة.

ولاقى بيبرس الذي كان يقود طليعة الجيش المصري في يوم ٢٦ أغسطس فوجًا متقدمًا من جيش المغول تحت قيادة "بايدر" وهو القائد الثاني بعد "كتبغا نوين"

في غزة. وفر المغول من أمامه هاربين، وأبلغوا أنباء وصول قوات المصريين إلى "كتبغا نوين" الذي كان في بعلبك في ذلك الوقت، وأرسل "كتبغا نوين" تعليماته بأن يصمد "بايدر" حتى يصل هو بقواته الرئيسية، ولكن "بيبرس"، تصرف بسرعة وحزم وقام بطرد قوات "بايدر" إلى خارج غزة وأخذ في مطاردتها بعيدًا حتى نهر العاصي. وتوقع قطز أن تصرف بيبرس هذا سيقوم باجتذاب قوة جيش المغول الرئيسية ليلاقيها في القتال، ولكن "كتبغا نوين" كان منهمكًا في سحق ثورة ضد المسيحيين في دمشق. وتوحدت قوات قطز وبيبرس في غزة مرة أخرى وقررت القيادة المملوكية في غياب وجود عدو يقاتلونه الزحف شمالاً على طول ساحل البحر وذلك حتى يمكّنهم ذلك من الدخول لداخل البلاد على غرة وقطع خطوط اتصال المغول إذا ما اتخذ "كتبغا نوين" قرارًا بأن يتجه جنوبًا إلى مصر.

وكان يتعين على الجيش من أجل ذلك أن يزحف خلال أراضي الفرنجة، وأرسل قطز رسولاً من أجل ذلك إلى فرنجة عكا من أجل المرور الآمن لجيشه خلال الممالك الصليبية، ويخبرنا الكتاب المسيحيون في هذه الفترة أن الطلب تضمن المرور الآمن وإمداده بالخدمات اللوجستية، والتحالف العسكري ضد المغول، ولكن تم رفض الطلب الأخير بناءً على نصيحة من آنو أوف سانجرهاوزن، قائد جماعة الفرسان التيوتون، والذي حذر قادة عكا أن المسلمين في زهوة انتصارهم على المغول يمكنهم أن يستديروا لأعدائهم الآخرين في فلسطين. وكان ذلك الأمر محض تخمين، وللنظرة الأولى، ربما كان من المثير بدرجة ما أن الفرنجة اختاروا الوقوف بجانب المسلمين بدلاً من المغول، ولكن ربما انتابتهم أحاسيس بأنه ليس هناك خيار آخر أمامهم. فقد كان المماليك في أراضي الفرنجة بالفعل، فإذا ما توترت الأمور فقد كان المسلمون قادرين على إلحاق دمار غير محدد بمملكة الصليبيين في عكا؛ إذن فقد كان المماليك ضيوفًا غير مرغوب فيهم - ولكن هل كان المغول مرغوبًا فيهم؟ وضع الصليبيون معاناتهم من تجربة فقدان إيرادات موانئ الممالك الصليبية لطريق التجارة منذ قدوم المغول للشرق في

الحسبان، كما أن الغارات التي قام بها المغول على صيدا لم تكن في صالح تحسين العلاقات بينهم.

واتسمت سياسات الفرنجة تجاه المغول بالتهدئة حتى ذلك الحين، فقد دأب فرنجة المدن الساحلية على إرسال الهدايا إلى "كتبغا نوين" بعد سقوط دمشق في أيديهم، كما أن فرنجة صفد قاموا ببناء خيمة ضخمة للمغول أثناء حملتهم في الجولان، ولكن أنشطة "كتبغا نوين" وبصفة خاصة في الأشهر القليلة الماضية، وبخاصة قيامه بإقلال وهدم المراكز المُحصنة في كل من بلاد الشام ومملكة شرق الأردن أوضحت بما لا يدع مجالاً للشك أن بلاد الشام كانت بالنسبة للمغول مستعمرة أخرى تقوم بإشباع رغباتهم بدون أي علاقة تُذكر بمن يقطنها. ويذكر لنا كتاب "مآثر القبارصة" أنه تم عرض منح خيول المغول للفرنجة إذا ما انتصر المماليك عليهم، وربما ذلك هو الذي استمالهم في النهاية لصالح المصريين، غير أن أهمية التجارة تأتي في المقام الأول.

وعسكر المماليك في البساتين التي تحيط بمدينة عكا، وقضى قطز جل وقته في رفع الروح المعنوية وفي إعداد الأمراء والجنود للحرب المرتقبة، وتشبه الخطب التي نُقلت عنه وكان يلقيها لنصح المماليك أن يقاتلوا ببسالة من أجل الدفاع عن الحرث والنسل والدفاع عن الإسلام، تلك الخطب التي ينقلها المؤرخون عن قيام جنرالات الجيوش بإلقائها قبل أن يستعر القتال. ومن المفارقة الغريبة أن المماليك الذين تعود أصولهم إلى بدو السهوب، يقاتلون الآن جيشاً آخر لبني جلدتهم من مواطني السهوب، ومن أجل المحافظة على دولة كانوا يُعدون غرباء عنها، ولكن خطاب قطز كان له مفعول السحر؛ فقد بدأ الرجال في النحيب بصوت عال، وأقسموا على أن يقوموا بدفع المغول بعيدًا عن بلاد الشام من أجل حماية مصر. أما بيبرس فقد قضى وقته بطريقة مختلفة، فبعد أن استقبلوه بحفاوة في المدينة التي روي أنه قال من السهل الاستيلاء عليها، ولأنه كان يتميز بلياقة ذهنية وعقلية مرتبة بدرجة عالية مثله مثل كل القادة الحقيقيين، فقد كان يتطلع إلى الفرص

المتاحة أمامه في المستقبل، ويذكر دليل "الأنصاري" للحرب هذه النصائح: إن قائد الجيش يجب أن يتعرف بدقة على أحوال الحصون والمعاقل، والأماكن المتعذر الوصول إليها، وتلك التي يمكن دخولها بسهولة، والبقاع التي يمكن أن تجرى فيها المعارك، وتلك التي تصعب فيها إدارة القتال. والأكثر من ذلك يجب أن يقوم بتحديد المواضع التي يمكن من خلالها تقويض الأسوار، ووضع أحبال القياس، وسلالم الحصار، والقضبان الحديدية.

وعلم قطز أن "كتبغا نوين" قام بعبور الأردن وأنه قد دخل الخليل، والآن يقوم بالتحرك جنوبًا ويعسكر في "عين جالوت" أو "نبع مياه جولايث" وذلك تحت سفح جبال فقوعة، كان المغول بالتأكيد يجدون في البحث عن موضع لملاقاة الجيش المصري فيه، وللسعي للقتال كان "عين جالوت" فيه مرعى للخيول، وإمدادات طيبة للمياه، وبقعة مناسبة تمامًا لحروب الفرسان، كما أن هناك جبل يقوم بتأمين الجناح الجنوبي للمغول. وعلى الرغم من أن قوات "كتبغا نوين" كانت أقل عددًا من جيش المماليك، ولكن لابد وأنه شعر أن فرصته أفضل بكثير، وربما كان عدد أفراد جيشه يدور حول رقم ١٢ ألف مقاتل، ولكن نسبة ملموسة منهم لم يكونوا من المغول، فقد كان يقوم بتجنيد قوات من جورجيا والأرمن كقوات احتياط، كما استعان بقوات منشقة عن الأيوبيين من شمال بلاد الشام.

وغادر قطز عكا في يوم ٢ سبتمبر عام ١٢٦٠. وزحف المماليك خلال الناصرة، ووصلوا عين جالوت مباشرة بعد وصول المغول. وكان بيبرس، على أي حال، قد تقدم بفوج من طليعة الجيش مرة أخرى، وتجسس على موقع المغول من مرتفع يُطلق عليه اسم "تل مورة"، وأرسل كل معلوماته إلى قطز، الذي كان على مسيرة يوم واحد منهم. كما أن بيبرس قام بتحطيم وحدة استطلاع مغولية صغيرة في مناوشة بسيطة، وهو الأمر الذي يفسر فيما بعد فشل "كتبغا نوين" في معرفة حجم قوات المماليك الأساسية التي سيواجهها قبل القتال مباشرة. وكان المغول قد رصدوا قوات بيبرس وحاولوا حصارهم، ولكن بيبرس استطاع أن يندفع

بسرعة عالية من أجل تفادي مناورة حصاره، واستطاع الانضمام إلى قوات قطز من جهة الشمال الغربي على طول وادي مرج بن عامر.

ونشبت المعركة في يوم ٣ سبتمبر، واتخذ المغول أوضاعهم على السهل بالقرب من عين المياه، أما طليعة جيش المماليك فقد اندفعت في هجومها لمقابلتهم إلى الأمام. وكانت خطوط المغول تجري من الشمال إلى الجنوب عبر الوادي ومرتكزة على يسارها على جبل فقوعة، وكانت القوات الأيوبية التابعة لجيش المغول على أقصى يسار الجيش المغولي ومتأهبة لبدء الموجة الثانية من الهجوم على الأرجح بدلاً من الموجة الأولى، وشنت ميمنة المغول هجمة سريعة على ميسرة المماليك تحت قيادة بيبرس، والذي تظاهر بالهزيمة والتراجع إلى الوراء، ولكن وربما بأسرع من ذلك وجد المغول أنفسهم تحت وطأة هجمات ثقيلة من قوات قطز الخاصة، وقاد قطز قواته في الهجوم بنفسه، وأدى ذلك الهجوم المضاد الكاسح إلى نشر الفوضى في ميمنة المغول، وربما قام المماليك باستخدام خدعة الانسحاب المخادع، فالأتراك القفجاق يعرفون جيدًا، شأنهم شأن المغول، كيف يستثيرون العدو للقيام بالهجوم عليهم. وكان "كتبغا نوين" لا يزال بعيدًا عن الهزيمة، وبفضل مهاراته القيادية استطاع أن يعيد تنظيم جيشه بسرعة، وكان قادرًا وفي وقت قصير أن يعيد دفة القتال لصالحه مرة أخرى. ولكن وللمرة الثانية كان تدخل قطز حاسمًا في تحديد مصير سير المعركة، فقد قام بإلقاء خوذته بعيدًا بحيث يراه الجند كافة، وقام بشن هجمة للأمام وهو يصرخ عاليًا بصرخة القتال: .. وإسلاماه.. وإسلاماه.. يا الله انصر عبدك قطز! كان لهذا النداء مفعول السحر حيث عمت الفوضى في صفوف المغول، واختار الأيوبيون من حمص تلك اللحظة الأسوأ من لحظات المعركة بالنسبة للمغول للفرار وتركهم لمصيرهم المحتوم.

ودام القتال الدموي من الفجر وحتى منتصف النهار، وتحول من قتال بين فريقين إلى نوع من المذابح الجماعية لفريق واحد، وهرب فوج من المغول من أرض المعركة ولكن بيبرس قام بتتبعهم وقام بذبحهم عن بكرة أبيهم على التل

وعلى مرأى من كل مقاتل في ساحة القتال الرئيسية. وأشعل المماليك النيران في أكوام من الخيزران بالقرب من النهر الصغير وذلك لهدفين، لإجبار المغول المختبئين فيها على الخروج من ناحية، أو منع من يحاول الهرب منهم عبر النهر من ناحية أخرى. ورُصد المغول المنعزلين الذين هربوا من ميدان القتال على يد القرويين وتم قتلهم. واكتملت الكارثة بالنسبة للمغول بموت أو أسر "كتبغا نوين". ويبدو الاحتمال الأكبر أنه قُتل إبان الهجمة النهائية التي شنها قطز بنفسه، ولكن المؤرخين يقولون إن قطز قام بذبحه بقطع رأسه بعد أن صرح بأن أبواب القاهرة سترتج بالعاصفة التي تُحدثها اقتحام خيول المغول لها، بل ومنحه بعض كتّاب التاريخ المقدرة على التنبؤ، وأنه قال إن قطز سيقتله رفاقه.

وكانت النتائج الفورية التي ترتبت على هذه المعركة بالنسبة للمغول هي فقدانهم لجزء كبير من جيشهم، وفرار الباقي إلى الشمال ليجدوا ملاذًا آمنًا عند "هيتوم" ملك أرمينيا. وهجر مسئولو المغول دمشق، وكذلك نفس الأمر بالنسبة لحماة وحلب. وأرسل المماليك سرّية عسكرية على جناح السرعة من أجل الاستيلاء على معسكر "كتبغا نوين" في وادي البقاع، كما تم إرسال سرّية أخرى بقيادة بيبرس من أجل مطاردة المغول في شمال البلاد. ولحق بمجموعة منهم، ومعهم أطفالهم ونساءهم في حمص فقام بتصفيتهم. وتقدم حتى وصل إلى مناطق حارم وافاميه، وهو المكان الذي هزم فيه سرية من ألفي جندي مغولي، وكان هولاكو قد أرسلهم، متأخرًا، كنوع من الإمداد إلى كتبغا، قبل أن يقفل عائدًا إلى دمشق ويلاقي قطز في دمشق. وعندما وصلت قطز أنباء نجاح حملة المطاردة التي يقوم بها بيبرس ترجل عن فرسه وخر – ساجدًا لله على التراب – سجدة الشكر.

لا يمكن المبالغة في أهمية موقعة عين جالوت. فبالرغم من حقيقة أن المماليك لاقوا جزءًا صغيرًا فقط من قوات هولاكو، وأن الأحداث التي وقعت في الشرق هي التي أعاقت جهود المغول في بلاد الشام، كما أن وفاة أوقطاى خان قد

صرفت أنظارهم عن القيام بالمزيد من الغزوات في أوروبا بعد إلحاقهم هزيمة ساحقة بالبولنديين والفرسان التيوتون في معركة "ليغنتسيا" في عام ١٢٤١. كما أنه من الحقيقي أيضًا أن المغول سيأتون – بعد ذلك – مرات عديدة أخرى، إلى بلاد الشام وربما يحققون بعض النجاحات ضد المدافعين المماليك، ولكن تبقى الحقيقة الناصعة أن معركة عين جالوت أوقفت سلسلة من المعارك الناجحة للمغول، وأعطت المماليك والقوى الأخرى الصغيرة في المنطقة درجة من الثقة في المقدرة على تحقيق النجاح. ولقد بدا قبل تلك الموقعة كما لو أن عصر الإسلام يوشك على الأفول، ولقد كانت هناك غزوات قبل ذلك ما في ذلك شك، ولكن غزاة الشرق أما أن يكونوا قد تحولوا إلى الإسلام بالفعل قبل أن يصلوا لديار الإسلام أو بعد فترة قصيرة من وصولهم إليها، أما الصليبيون فلم يأتوا بالأعداد الكافية من الرجال بما يمكنهم من أن يمثلوا تهديدًا خطيرًا للإسلام. ولقد كان المغول مختلفين عن كل هؤلاء، فقد آتوا بأعداد هائلة، وكانوا أعداء ألداء وشديدي القسوة، كما أعطى هدمهم مقر الخلافة، وارتكابهم المذابح الجماعية الهائلة دليلاً على الخطر المباشر على المسلمين. وتشهد مسيرة التاريخ الطويلة أن المغول لم يكونوا أقل تعصبًا أو أكثر تساهلاً تجاه الإسلام أكثر من أي من العقائد التي واجهوها، وكان قتل الخليفة لأهميته السياسية، وعلى الرغم من أن ذلك كان عنصرًا محدودًا، وليس كنوع من الحماس الديني– ولكن ليس ذلك هو ما كان يبدو في ذلك الوقت. وجعلت نداءات قطز إلى قواته وإلى عامة الشعب في مصر وبلاد الشام من أجل الجهاد، ونجاح حربه المقدسة ضد أكبر الأعداء التي واجهت دار الإسلام من المماليك أبطالاً للإسلام وأدت إلى تقوية قبضتهم على صولجان السلطة. وتوضح بجلاء فقرة من دليل المملوك للحرب كيف أن الجهاد الناجح يمكنه تبرير حكومة عسكرية:

سهم يطلقه محارب
في سبيل الله تجاه كافر
هو أثمن وأغلى
من صلوات دائمة لناسك متعبد

وبالنظر إلى مسار الحرب من حيث المكسب أو الخسارة، فإن فرار الأيوبيين من المعركة كان آمرًا بالغ الأهمية. وحيث كانت حروب المغول التقليدية تعتمد على استخدام الأجنحة التي تتكون من الاحتياطيين في وقت متأخر من المعركة وبعد أن يكون العدو قد انهمك في القتال مع القوة الرئيسة للمغول. وتقوم الموجات الأولى من جيش المغول بالهجوم الكاسح على القوات الرئيسية للعدو بواسطة وابل من السهام، ثم تنعطف قبل نشوب القتال المتلاحم. ثم ينطلق الفرسان حينئذ بسرعة إلى مؤخرة الجيش بين قوات الأجنحة والموجة الثانية من قلب الجيش، والتي تحركت الآن لملاقاة عدو أصابته الفوضى والارتباك سواء من الصدمة الأولى للهجوم، أو من متابعة تراجع الموجة الأولى للهجوم. وتكون الموجة الأولى هذه منهمكة في إعادة التزود بالسهام وتغيير الخيول في مؤخرة الجيش وتقوم بإعداد نفسها للدخول مرة أخرى في معمعة المعركة. وتمتد موجة الهجوم الثانية للمغول على شكل هلال من ناحية النقاط التي تشتبك فيها مع العدو، وتقوم هذه النقاط أيضًا بالاتصال بالأجنحة، والتي تكون قادرة نتيجة لفقدان قوات العدو للتماسك على تصعيد هجمات الأجنحة والتي دفعت في السابق مؤخرة العدو والتي سوف يكون من نتائجها حصار قوات العدو.

إما أن تُضاف الموجة الأولى والتي أُعيد تموينها إلى موجة التحطيم النهائي لقوات العدو المواجهة، أو أن تقوم بتشكيل موجة ثالثة من الهجمات إذا ما أظهرت قوات العدو مقاومة أكثر عنادًا، ويمكن أن يتراجع الفوج الثاني من أجل إعادة التسلح وتغيير الخيول. ويمكن إعادة تكرار هذه الموجات الهجومية نظرياً، مرارًا وتكرارًا بما يكفي لتقهقر قوات العدو وبالتالي بما يسمح بحصارها.

ما الخطأ الذي ارتكبه المغول في معركة عين جالوت؟ ما حدث هو أن حلفاءهم تركوهم عند منعطف أساسي في ذروة القتال، وذلك عندما قام المماليك بشن هجوم للأمام، ولأن المماليك بكل بساطة تفوقوا عليهم باكتساح.

يقول أحد المماليك الذين شهدوا الموقعة وقاتلوا مع الأمراء الأيوبيين، التابعين للأشرف حاكم حمص وهو "صارم الدين أوزبك بن عبد الله" في روايته عن وقائع المعركة، إن الفرار كان قد تم تدبيره سلفاً، حيث إن الأشرف كان قد أرسل غلامه إلى معسكر قطز في الليلة السابقة على المعركة وذلك من أجل إعداد الترتيبات، وإبلاغ السلطان بحجم قوات المغول أيضًا. كما تم إبلاغ السلطان بأن يقوم بتقوية ميسرة جيشه. وكما يعطينا "صارم" قليل من التفاصيل الأخرى التي ذكرها المؤرخون من بعده. فيذكر لنا أن أشعة الشمس كان تجاه أعين قوات المغول، بينما أتى المماليك من تحت ظلال بعض الأشجار في نهاية الوادي، كما كانت ظلال الجبل تحجب عنهم أشعة الشمس المباشرة. والأكثر من ذلك أنه تم استدعاؤه عن طريق "كتبغا" ليقوم بالتعرف على كل من بيارق المماليك حينما أصبحوا على مرمى البصر.

وترجع الكثير من المصادر الموالية للمغول هزيمتهم إلى كمين نصبه المماليك، ولكن شهادة "صارم" تجعل هذا الادعاء مستحيلاً، وكما يذكر محمد بن عيسي في "كتيب دليل الحرب للقيادة العسكرية المثلى" في موضوع نموذجي عن ذلك اليوم يقول فيه: "أن تجد مكان ملائمًا لك وتقوم باستدراج عدوك إلى وضع غير ملائم بالنسبة له". وذلك ما حدث تمامًا: حيث إن تراجع بيبرس جعل المغول يندفعون تجاهه، فاندفع قطز إلى جناحهم. ولم يكن هناك كمين، ولكن فقط إستراتيجية بارعة(٢٧).

كان يمكن أن ينتصر كتبغا في الحرب حتى مع هذا الفرار في الظروف المعتادة، ولكن ما كان غاية في الوضوح هو أن الخصوم كانوا فرسانًا ورماة سهام لا يشق لهم غبار. وكان المماليك قادرين على أن يتفوقوا على هجمات سهام المغول من حيث قوة ودقة معدلات الإطلاق. فقد كانت الهجمة الأولى للمغول يمكن أن تُشكل على الأقل الكارثة بالنسبة لهم، وذلك بالنسبة لأعداد المقاتلين حيث

---

(27) Cf. Thorau, The Battle of Ayn Jalut: A Re-examination' ,in Edbury.

كانت في صالح المماليك الذين يقومون بشن الهجوم عليهم. ويورد "ويليام أوف روبرك" ملحوظة عن المغول مفادها ما يلي: "إنهم يقومون بشن الحرب وبدون قتال" ولكن هذه المقولة لا تنطبق على هذه المعركة(٢٨).

استخدم المغول السهام الخفيفة أثناء المرحلة الأولى من هجومهم في هذا القتال لأنهم كانوا راغبين في إرباك أعدائهم وهم لا يزالون عن بعد، ولكن دروع المماليك كانت قادرة على التصدي لهذه السهام الخفيفة بالطبع. ومع الاقتراب يقومون بالتحول إلى استخدام السهام الثقيلة من أجل المساعدة على اختراق الدروع. وكان المماليك بأقواسهم ذات الجودة العالية قادرين على إرباك المغول من مسافات أبعد من تلك التي تسمح بها أقواس المغول وسهامهم، كما أن هذه الأقواس نفسها يمكنها أن تتحول في المسافات القريبة لقذف السهام بحيث تكون قادرة على اختراق دروع المغول. كما أن المماليك كانوا يتحركون إلى الأمام أثناء قذف العدو، كما كان في مقدورهم التحرك ككتلة واحدة أيضًا وهم تحت قذائف وهجمات العدو. ولقد واجه المغول بالتأكيد في حملاتهم في روسيا وبلاد فارس والأناضول جيوشًا متحالفة. وحتى الفرسان الذين واجههم المغول في موقعة "ليغنيتسا" لم يكونوا معتادين على الاشتراك في الحروب معًا؛ ولذا فقد كانت موجة الهجوم الأولى للمغول تكفي لإشاعة الفوضى في صفوف مثل تلك القوات. كما كان قلب جيش قطز يتكون من جنود على درجة عالية من التنظيم والانضباط، كما كانوا يتدربون معًا بشكل شبه يومي، وتمت تنشئتهم كمجموعة بصرامة بالغة. وتدل كلمة "خشداشية" المملوكية ضمنًا الولاء بين الرجال الذين يشاركون نفس "الأستاذ" أو السيد ويعيشون معًا. ولذا فإنهم، وبعد أن قام المماليك بسحب وامتصاص الموجة الأولى لهجمات المغول، كانوا قادرين على التحرك لشن هجمات تتسم بالتنظيم

---

(28) "Ils font la guerre mais le combattent J. Guillaume de Dauvillier, Roubrock et les Communautes Chaldeenes d'Asie, in Histoire et Institutions des Eglises Orientales, London: Variorum Reprints, 1983

والتنسيق الذي لا مثيل له، والذي كان يشكل ضغطًا هائلاً على أنماط حروب المغول الدائرية. وكانت هجمات قطز في مقدمة الجيش تتطلب من كتبغا أن يقوم بشن الموجة الثانية من الهجمات قبل أن تقوم الموجة الأولى من إنجاز مهامها، وكان ذلك يمنع إعادة التموين وتدخل الموجة الثالثة من مهاجمي المغول من رماة السهام بعد تغيير خيولهم، وتقوم بسحب المغول إلى الدخول الحقيقي في نوعية قتال تُستخدم فيها الرماح والسيوف لم يكن في وسعهم الفوز فيها على الإطلاق.

وكان المغول والمماليك يستخدمان نفس نوعية الأقواس المُركبة، ولكن تلك الأقواس التي كان يستخدمها المماليك كانت من نوعية أفضل بكثير، وكانت الأقواس المُركبة التي تُستخدم في آسيا الوسطى والتي عُثر عليها في مساحات شاسعة فيها ذات تصميم عتيق، فقد كانت مصنوعة من القرون والأوتار، كما كانت تستغرق العديد من الشهور لتشكيل المواد التي تدخل فيها لتأخذ الشكل المعقد والمطلوب لتعطي أقصى قوة وتماسك ممكنة من أجل الرماية، وكانت متماسكة ويمكن الاعتماد عليها مثل كل الأقواس، كما كانت تعمر طويلاً ولكنها كانت سريعة العطب وعُرضة للضعف من جراء الرطوبة والجفاف. وكان كل جندي من المماليك والمغول يحمل قوسين نظرًا لإمكانية تعرضها للعطب أو تعرض أوتارها للتمزق. ويمكن استخدام ذلك القوس في الرماية باليد اليمنى أو اليسرى على السواء، أو ما هو في غاية الأهمية للفارس أنه يمكن رمي السهام أيضًا من الجانب الآخر من القوس عن طريق استخدام إبهام اليد بدلاً من أعلى القبضة. وكان يتم شد القوس إلى الأذن بدلاً من العين للحصول على أقوى النتائج، كما أن الأوتار كان يتم جذبها عن طريق الإبهام عندما يحتاج إلى الجذب، وكان الوزن الذي يبلغ ٣٠ كجم أكثر بكثير من أن يتم جذبه بالأصبع. ولذا فقد كان يتم استخدام حلقات الإبهام حتى لا يتمزق الإبهام، وكان يُصنع من العظام أو الأحجار أو من الأحجار الكريمة. وكان المدى المؤثر هو مائتي متر، ولكن على العموم، ومن هذه المسافة لا يمكن أن تقتل رجلاً يرتدي الدروع، ويصبح السلاح قاتلاً فقط على مسافة خمسة

وسبعين مترًا حتى مع ارتداء الدروع. وكان الجندي المملوك يحمل ستين سهمًا في جعبته، وبحيث يسمح له بالوصول السهل إلى أسلحته، وهذه الجعبة يتم حملها على الظهر، وفتحتها إلى الأمام بحيث تسهل من سرعة إعداد السهام وإطلاقها. وكانت السهام نفسها من نوعية متميزة، وباعتبار استخدام مثل تلك الكمية، فإن رؤوسها كانت تصنع من الحديد المقسّى، والتي يتم تسخينها لدرجة الاحمرار ثم يتم إطفاؤها في الماء المالح من أجل جعل حافتها أكثر حدة. كما كان يتم حمل مجموعة متنوعة من السهام تختلف من حيث أشكال رؤوسها. وكانت السهام ذات الرؤوس المربعة أو المستطيلة هي الأفضل على الإطلاق لاختراق الدروع، أما السهام التي سبق وصفها في كتيب فروسية الشرق الأوسط فكانت تستخدم من أجل إطلاق وابل كثيف من السهام فوق رؤوس الأعداء، أو "استمطار السهام" وهي سهام طويلة المدي تستخدم من أجل إسقاط السهام كالصواعق على الأعداء، وكان يتم تجهيز هذه السهام بالريش لتكون أطول وأعلى. وكان يتم أخذ الريش الذي يستخدم على هذه السهام من الجانب الأيمن من الطيور- كما كان يتم استخدام ريش النسور والعقاب. وتستخدم السهام ذات الثلاث ريشات في القذف بعيد المدى، بينما كانت السهام ذات الريشات الأربع تستخدم من أجل تصويب أكثر دقة على هدف محدد، كما كانت هناك أيضًا سهام ذات سهام أثقل من أجل القضاء على الخيول.

وبالنظر إلى النجاحات التي حققها المغول في الفترة التي سبقت موقعة عين جالوت كان واضحًا بجلاء أن جيشًا يتكون من الفرسان الراكبة، وله القدرة على التفوق بمعدل القذائف التي يطلقها، والتفوق في سرعة الحركة، هو الجيش الذي يمكن أن تكون له الفرصة في إلحاق الهزيمة بالمغول، وهذا هو ما كان عليه المماليك، فقد كانوا يستخدمون نفس الأسلحة، وكانوا يضارعون مهارتهم في إطلاق السهام، وإن كانت بكفاءة أعلى. وكان مفتاح النصر على المغول يكمن في نهاية الأمر في انضباطهم الشديد. وشرحنا سابقًا نوعية المقاتل المملوكي الراجل

في قتال الشوارع والقتال المتلاحم، وفي تقديم الدعم الحربي للفرسان المقاتلة، والذي اتضح بجلاء كجانب من مساهماتهم في الدفاع عن المنصورة ضد الصليبيين. كما كانت هناك موجتين من الهجمات في عين جالوت قام بها المماليك تحت قيادة قطز، ولكنها لم تكن مخططة وتم شنها من مواقع دفاعية بواسطة مزيج من قوات المشاة المعاونة كما حدث في المنصورة، والتي صاحبت حماسة الاندفاع الهجومي المتسارع للفرسان المقاتلين. وتنظيم مثل تلك الهجمات الراجلة في العصور الوسطى كان يتسم بالصعوبة الشديدة، وتصبح مثل هذه الهجمات التي يتم شنها بالمشاة ذات فاعلية عالية إذا تم شنها في التوقيت المناسب وذلك عندما يبدأ تماسك العدو في الانهيار، أما شن مثل تلك الهجمات ضد فصائل من القوات النظامية ولاسيما من الفرسان فهي إستراتيجية تعتبر أقصر الطرق إلى تحقيق كارثة محققة. وكانت الهجمة الأولى لقطز ضد فرقة مغولية كانت منتشية بالنصر المبدئي الذي حققته على ميسرة الجيش المملوكي، ولذا فإنها كانت عرضة للهجوم عليها، أما الهجمة الثانية التي قام بشنها فكانت ضد الهجمة المضادة التي قام بها كتبغا على نحو متسرع، وكانت الاتصالات بين مقاتلي جيش قطز في ميدان القتال متميزة جدًا بالنسبة لذاك العصر، أما مقدرات قطز كقائد للجيش فقد كان واضحًا للعيان أنها تتفوق باكتساح.

هذا عن التوقيت، فماذا عن التنفيذ؟ يتطلب الهجوم أن يتحرك المقاتلون ككتلة واحدة، ويتبدد عنصر المفاجأة إذا ما كان وصول فصيلة واحدة فقط الجيش على فترات، وتغلب الجنود النورمان المشهورون بتنظيمهم وتحركاتهم على هذه المشكلة عن طريق سحب فرسانهم بخفة من الصفوف الأمامية، وفي المعتاد خلف المشاة، ليصطفوا قبل أن يكروا عائدين فجأة لوضع الهجوم. وحتى هذه المناورة كانت عسيرة إذا لم يكن الفرسان قد اعتادوا على القتال معًا، ولقد قيل إن الهجمات الأوروبية كانت تطويرًا للحملة الصليبية الأولى، وكان هذا ممكنًا لأن الصليبيين

قاتلوا جنبًا إلى جنب لتلك الحقبة الطويلة الممتدة(٢٩) ولم يكن للمماليك في عين جالوت مشاة لمعاونتهم عن قرب والقيام بتغطيتهم عندما يقومون بتنظيم أنفسهم، كما أن القليل جدًا من الوقت هو الذي كان متاحًا لهم من أجل إعادة الاصطفاف بطريقة منهجية منظمة، وكان يتم تنظيم هجماتهم حرفيًا على حوافر الخيول، ومع ذلك كانوا يقومون بترتيبها وتنفيذها في توقيت متزامن من أجل إحداث أقصى تأثير ممكن، وكان النصر حليفهم في ميادين القتال نتيجة لما تم غرسه فيهم بالتدريب الشاق.

وسقطت بلاد الشام تبعًا لنتيجة المعركة التي سادها المماليك، وقام قطز بإعادة بعض المدن إلى سيطرة الأيوبيين، وتناقصت موارد المماليك نتيجة للإمارات الجديدة التي أصبحت في حوزتهم، ولكنه أصبح واضحًا للجميع من هم أسياد المنطقة الجدد. كما قام قطز بمكافأة "الأشرف موسى" الأمير الأيوبي الذي قام بالتخلي عن المغول عندما نشب القتال طبقًا لاتفاقه معهم وذلك بإعادته أميرًا لحمص. أما الأمير الأيوبي السعيد حسن حاكم بانياس فقد حارب أيضًا مع المغول، ولكنه قاتل بضراوة ضد المماليك وحتى نهاية الموقعة، ولذا فقد تم ضرب عنقه. وكوفئ المنصور محمد حاكم حماة الذي تحالف مع المماليك منذ البداية وذلك بإعادة المدينة إليه وإضافة التحسينات إلى أراضي المدينة. كما قام قطز بتعيين علاء الدين أمير الجزيرة وابن حاكم الموصل كحاكم لحلب. وكان حكم الولايات يتم منحه كمكافأة على الولاء، ولكن منح علاء الدين كان لاعتبارات العلاقات العائلية مع الجزيرة. وكان شقيقه يحكم الموصل التي تعتبر الآن الحدود الجديدة التي تم إعادة رسمها مع الأراضي التي يسيطر عليها المغول. ولذا فإن قطز قام في الواقع بربط الجزيرة ببلاد الشام آملاً أن يؤدي ذلك في أن يجعل الموصل قاعدة إنذار مبكرة لأنشطة المغول وذلك لتلعب نفس الدور الذي لعبته إمارة الرها

---

(29) France, pp. 34-8

في الماضي بالنسبة للإمارات الصليبية ضد الأتراك. وكان بيبرس يتطلع أن يكون حاكمًا لحلب، ولكن قطز لم يكن في مقدوره أن يضع صديقا بمثل خطورة بيبرس بعيدًا جدًا عن عينيه، واختار أن يحتفظ بيبرس قريبًا منه، ولكن ذلك أيضًا كان بديلا أكثر خطورة ولا شك في ذلك. ومُنحت "دمشق" لحاكم مملوكي هو "سنقر الحلبي"، وتم استكمال سياسة قطز في هذا الشأن بمنح "إقطاعية" للعائلة البدوية الحاكمة من شمال بلاد الشام.

ولم يفعل البدو شيئًا على الإطلاق لمساعدة قطز ضد المغول، ولكن قطز كان على يقين من أنه لم يكن قد أحكم قبضته على بلاد الشام بعد: فقد كان الصليبيون في مؤخرته في أي مواجهة يقوم بها ضد المغول كما أن خطوط دفاعه قد اتسعت لتمتد على طول نهر الفرات وحتى الأناضول. وكان يطمع في يلتزم البدو بالهدوء على أسوأ الفروض، أو أن يقوموا بمناصبة المغول العداء على أحسن الفروض. وكان البدو الرحل في بلاد الشام لا يزالون أقوياء، وعلى الرغم من كسر شوكتهم في مصر في عام ١٢٥٠ وما بعدها عندما قام أيبك بدعوة زعماء قبائلهم إلى مؤتمر للتفاوض، ثم قام بشنقهم حتى آخر رجل فيهم، ثم ترك جثثهم معلقة في الطريق بين القاهرة وبلبيس حتى أصابها العفن.

لم يمكث قطز طويلاً في بلاد الشام، فقد كان يرغب في العودة سريعًا للقاهرة حيث معقله السياسي القوي، وكانت تنتابه الهواجس المتزايدة من تنامي قاعدة تأييد بيبرس المتزايدة بين الأمراء. ولم تكن هواجسه في غير محلها، حيث لقي حتفه في يوم ٢٤ أكتوبر في الصحراء عندما قام الأمراء الذي شاركوه في رحلة صيد بقتله، وقام بيبرس بتدبير مؤامرة قتله، وقام بتوجيه الضربة القاتلة إليه بنفسه، عندما طعنه في ظهره بينما كان السلطان ذاهلاً عنه إلى شركائه في المؤامرة وهم يقدمون له آيات الإكبار الكاذب ويقومون بتقبيل يده. وعاد بيبرس إلى معسكرات المماليك مع المتآمرين معه، وولج إلى الخيمة السلطانية وبلا مبالاة

أعلن وفاة قطز إلى كبير موظفيه ونادى لنفسه بلقب السلطان، وكان منافسه الآخر الوحيد هو بلبان الرشيدي، ولكنه كان يفتقر إلى المؤيدين.

ونُعي قطز بواسطة المؤرخين المسلمين، وعندئذ لم يكن هناك أكثر من ذلك، فقد أُنقذ الإسلام على يديه، ويقول شهاب الدين أبو قاسم أبو شامة المتوفي عام ١٢٦٧، في أكثر الكلمات تعبيرًا عن إنجازات قطز ووفاته، وحقيقة أن المغول تم تحطيمهم على يد رجال قريبين لهم ويشبهونهم بدرجة كبيرة توضحها الأبيات التالية:

غلب التتار على البلاد فجاءهم
من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم..
ولكل شيء آفة من جنسه..(٣٠)

ليس هناك موقع مقبرة أو متحف لبطل عين جالوت، كما أن بيبرس قام بدفن قطز سرًا حتى يتفادى أن يكون له أي ضريح يكون مركزًا للمقاومة للحكم الجديد.

وبدا لأول وهلة كما لو كان استلاب بيبرس للسلطة قد حقق نجاحًا كاملاً؛ فقد تقدم صوب القاهرة ومعه قواته الأساسية من أجل تأمين الأموال العامة، ومن أجل ضمان أن يتم تتويجه قبل أن تعود أصوات معارضة من بلاد الشام، وتم تتويجه رسميًا بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٢٦٠، ولكنه تمهل لعدة أسابيع قبل أن يخرج بموكبه في شوارع القاهرة بالشارة السلطانية، ولا شك أن جريمة قتله لقطز قد منحته مقعد السلطان، ولكن ما الذي كسبه بفعلته الدموية؟

---

(30) In, Amitai – Preiss, Mongols and Mamluks, p. 1.

ولم تكن إلا مسألة وقت قبل أن يعود المغول مرة أخرى من بلاد الشام سواء من أجل الانتقام أو كمقدمة لغزو مصر، وجعل المماليك من واقع الانتصار الذي قاموا بتحقيقه وتقديمهم لأنفسهم كخصوم حقيقيين قابلين للاستمرار من إمكانية حدوث صدام كبير ومحتمل أمرًا لا مفر منه. ووردت التقارير الفعلية من بلاد الشام عن المجموعات المغيرة من شمال بلاد الشام، وأصبح السؤال المثار فقط هو: كم سيكون كبر حجم عدد المرات للقوات المغيرة من جيوش المغول عن جيش كتبغا؟

بدأ بيبرس يعاني من مشاكل داخل الحدود أيضًا، كما بدأت الحلول التي وضعها قطز من أجل بلاد الشام في الانهيار على الفور، وأعلن سنقر الحلبي دمشق كسلطانية مستقلة في نوفمبر ١٢٦٠، ولم يكن مفاجئًا أن يقوم بتصيب نفسه كأول سلطان، وفي نفس الوقت وعلى وجه التقريب، فإن السعيد الذي اختاره قطز ليكون واليًا على حلب، تم طرده بواسطة مجموعة من المماليك الذي كانوا ينتمون إلى الفصائل الأيوبية البائدة في بلاد الشام، والذين كانوا ينظرون إلى الأمور بطريقتهم الخاصة.

ولم يستمر تمرد سنقر الحلبي غير فترة وجيزة، وكان رد فعل بيبرس سريعًا وحاسمًا وربما ولآخر مرة في فترة حكمه اتسم بالرحمة والتسامح، فتكونت فصيلة من قوات الأكراد في دمشق بقيادة علاء الدين البندقدار ومدعومة بمدفوعات سرية من الخزانة المصرية وبتعليمات من بيبرس، وكان البندقدار أميرًا من كبار المماليك، والذي كان قد اشترى المملوك بيبرس ذا الأربعة عشر عامًا من سوق العبيد في دمشق أثناء خدمته لدى السلطان الصالح الأيوبي في عام ١٢٤٢، ثم أعطاه للصالح في عام ١٢٤٦. وربما لا تبدو للكثيرين مثل هذه البداية بين الرجلين أساسًا قويًا لصداقة أو حتى لرباط وثيق دائم بينهما، ولكن بالنسبة لمجتمع المماليك فقد كانت مثل تلك الروابط تؤسس علاقة متينة، ولدرجة أن المماليك كانوا يتخذون من اسم سيدهم الأول كلقب للعائلة، وهنا كان اسمه بيبرس البندقداري،

ولكن بيبرس الآن هو السلطان، وبالطبع يمكن أن ينتظر البندقدار أن يكافئه المملوك الذي كان بين يديه ناشئًا في السابق. فقد قامت المجموعة العسكرية التي قادها البندقدار بإسقاط الحلبي، الذي فر هاربًا، ولكن تم القبض عليه في الحال ثم أُرسل إلى بيبرس في القاهرة. وقام السلطان بسجن المتمرد لفترة قصيرة ثم أعاده إلى منصبه كفضل منه. ومرة أخرى فإن هذه النوعية الغريبة من العلاقات والروابط بين المماليك وبعضهم البعض والتي كانت أقوى من روابط الدم يمكن تطبيقها في هذه الحالة أيضًا. فقد كان الحلبي واحد من نفس الخشداشية ورفيق نفس الأستاذ مع بيبرس أو السلطان الجديد.

وقام المغول بإرسال فرقة عسكرية قوية من ستة آلاف جندي من أجل الإغارة والاستطلاع إلى شمال بلاد الشام في ديسمبر ١٢٦٠ بقيادة بايدار الذي كان الرجل الثاني في القيادة بعد كتبغا في عين جالوت. ووضعت هذه الحادثة حدًا لأي خطط مستقبلية للحكام المماليك الجدد من أجل الاستقلال التام، حيث كان يتعين عليهم وفي الحال البحث عن تحالفات من أجل الغارات التي يقوم المغول بشنها حول مدنهم، ثم قاموا بتحرك غير معتاد عندما تركوا حلب بغير دفاع فعلي وقاموا بتوجيه القوات للجنوب من أجل البحث عن تحالفات ضد الغزاة مع المنصور محمد أمير حماه والذي كان قطز قد قام بتعيينه بعد موقعة عين جالوت. ووافق المنصور على التحالف، وسار الحلفاء إلى الأشرف من أجل البحث عن المزيد من التحالفات. ولم يزد عدد الجنود حتى بعد إبرام هذه التحالفات عن أربعة عشر ألف رجل، ووُضع الأشرف كقائد عام. واستولى المغول على حلب على وجه السرعة، وزحفوا جنوبًا تجاه القوات الأيوبية المملوكية، وتجاوزوا حماه في طريقهم على الرغم من أنها كانت ضعيفة وغير مزودة بالعدد الكافي من الجنود، وكان من السهل عليهم الاستيلاء عليها. وربما كان بايدار تواقًا إلى الانتقام، والمواجهة مع الأشرف فقط - الخائن- من وجهة نظره، يمكن أن يشفي غليله.

واندلع القتال في سهل شمال قلعة حمص، واتخذ المغول تشكيلاً غير مألوف: فقد احتشدوا فيما يقرب من ثماني مجموعات اصطفت وراء بعضها

البعض، بينما قام الأشرف بتنظيم صفوف قواته ككتلة واحدة، وتولى الأشرف قيادة قلب الجيش كما كانت صفوفه تضم إلى اليسار مماليك حلب، وإلى اليمين قوات المنصور، وكان الجو ملبدًا بالغيوم يومئذ، ولذا فربما لم يكن لأمر صغر حجم قوات الأيوبيين يمثل عائقًا، وربما كان ضعف الرؤية يفسر ابتعاد قوات المغول عن مناورات التطويق والحصار الذي كان يمكن أن يكون التصرف المنطقي لتحطيم عدو يقل في العدد إلى ما يقرب إلى الثلث، وربما كان هناك هاجس فقدان الاتصال مع الأجنحة الممتدة إلى مسافة بعيدة يشغل عقولهم، وربما خشي المغول من كمين للمماليك تم إعداده من قوات مستقلة، وربما كانوا مدركين أيضًا لخطر قوات البدو المحيطين بهم في المنطقة تحت قيادة "زامل بن على" وكان توطين قطز لهم قد أدى إلى جذبهم لجانبه، وإذا كان من الممكن ترديد مثل هذا القول عن البدو- فإن الأمر بعينه يمكن أن يقال عن الحلفاء السوريين.

ويقول اليونيني في وصفه لدقائق المعركة: "كانت تتردد أقاويل عن أن الطيور كانت تهاجم الجنود المغول في وجوههم، ويثور هنا تساؤل عما إذا كان يريد أن يقول إن هناك معجزة سماوية قد ساهمت في النصر، إذ يبدو أن المعجزة هي الطريقة الأسهل للتفسير. ولكن يبدو أن الاحتمال الأرجح هو أن وهج الشمس مع الضباب قد أدى إلى تقليل الرؤية إلى الدرجة التي أدت إلى أن المغول لم يكونوا قادرين على تحديد أهدافهم من القوات الإسلامية والتي كانت تقترب بسرعة شديدة. ويبلغ السهل الذي جرت عليه المعارك في أكبر أجزائه ما يقرب من ١٥٠٠ متر فقط في الطول، والواضح أن الأشرف كان قد استنتج بوضوح، وبالنظر إلى ظروف الطقس وإلى حقيقة أنه أصبح على مسافة معقولة من العدو، وأن أفضل فرصة له هو أن يقوم بإغلاق الطريق على المغول بسرعة، وبأمل أن تتمكن قواته نظرًا لقصر خطوط العدو من إمطار خطوط المجموعة الأولى بالسهام في نفس الوقت الذي كان يتحرك فيه للأمام بسرعة فائقة ثم يقوم بتنفيذ هجوم بالرماح. وكان الأمل معقودًا بأن يؤدي هذا، بالإضافة إلى ما يمكن أن نطلق عليه

حرفيًا ضباب الحرب بإثارة الفوضى في صفوف المغول. وكان لهذه الخدعة الحربية مفعول السحر، كما كان لوصول البدو إلى مؤخرة قوات المماليك أهميته البالغة أيضًا. وسقط بايدار قتيلاً أثناء المعارك، ولقيت أعداد هائلة من جنود المغول مصرعها ربما تفوق أعداد هؤلاء الذين قتلوا في عين جالوت، وفر من بقي منهم على قيد الحياة من أرض المعركة راكبين إلى حلب. وقاموا بالانتقام لأنفسهم من العامة طوال أربعة أشهر قبل مغادرة بلاد الشام بأسرها، وتفككت الحكومة التي قاموا بتشكيلها على وجه السرعة في المدينة بنفس السرعة تقريبًا وبمجرد ورود معلومات عن اقتراب قوات مملوكية قادمة من الجنوب.

عاد أمراء حماه وحمص إلى مدنهم، ولكن مماليك حلب قرروا الاستمرار تحت لواء بيبرس ومشاركته في الخدمة العسكرية بدلاً من العودة إلى مدينتهم ويمموا وجوههم شطر الجنوب، وهناك استقبلهم السلطان، والذي كان واثقًا من قدراتهم على محاربة المغول، استقبالاً طيبًا، وانضموا إلى قوات جيش المماليك الذي كان يقوم بتكوينه في بلاد الشام، واستولى مملوك ناشئ وهو "البرلي"، على السلطة في حلب لشغل فراغ السلطة الذي نشأ، ويبدو أنه كان يرغب في تجربة حظه كحاكم صغير، وأرسل بيبرس إلى الحلبي، والذي كان قد أُعيد تأهيله، ليتسلم المدينة من هذا المتمرد الجديد، ومن الطريف أن السخرية الكامنة في الموقف كانت تجمع كل أطراف الموقف في ذلك الحين. كان "البرلي" قد تم خلعه، ولكنه عاد بمجرد أن ابتعد الحلبي، واستقر حكم المدينة في النهاية في يد أحد المقربين من بيبرس وذراعه اليمنى في دمشق وهو علاء الدين البندقدار وذلك في أكتوبر عام ١٢٦١. وتحرك البرلي ورجاله إلى البيرة والتي كانت تعتبر أرضًا محايدةً بين الأراضي التي تحت نفوذ المغول والمناطق التي أصبحت تحت سيطرة المماليك، وكان بيبرس يرى المكان لا بأس به من وجهة نظره.

كانت هذه الموقعة واحدة من موقعتين بين المسلمين والمغول في النزاع حول حمص، وكانت الأهمية البالغة لنجاح المسلمين في الموقعة الأولى أنه وللمرة

الثانية كانت الهالة التي تحيط بقوة المغول قد انطفأت. ولقوا هذه المرة هزيمة مريرة ضد قوات كانت تقل كثيرًا عنهم في أعداد المقاتلين، وتم تسجيل هذا النصر تحت قيادة الأيوبيين، ولكن العماد الأساسي من المقاتلين كان من المماليك، ولهذا فإنه ومرة أخرى لقي المغول الهزيمة في الحرب والتي كانوا يتصفون فيها دائمًا بالبراعة، من رجال تفوقوا عليهم في فنون القتال، بل وفاقوهم كثيرًا في الكفاءة القتالية باستخدام الرمح والسيف والقضبان الحديدية. وكان هناك تأثير أبعد مدى للقتال وهو أنه ابتداء من هذه اللحظة شرع "الوافدية"(*) في الدخول إلى أراضي المماليك، وكان هؤلاء الرجال من المغول، أو ربما على الأصح كانوا أتراكًا من الأراضي التي يهيمن عليها المغول، والذين رافقوا المغول كقوات احتياط لهم أو كقطاع طرق كلما تحرك المغول تجاه الغرب، وكانوا قد فروا للانضمام إلى جانب المماليك، فقد كانوا يرون في المماليك بديلاً أكثر قابلية للاستمرار من المغول ويمكنهم أن يقوموا بتوظيفهم. وكان الكثير من السجناء الذين تم أسرهم في معركة حمص أيضًا من نفس المجموعة التركية – المغولية. وبيع الكثيرين منهم ليكونوا عبيدًا عسكريين وأصبحوا من المماليك، وقُدر لواحد من الشباب الذين أُسروا في حمص، وهو "العادل زين الدين كتبغا" أن يصبح سلطانًا من سلاطين المماليك.

أما بالنسبة للفرنجة من أصحاب الممالك الصليبية، فقد بدا لهم وهم يطلون من قلاعهم ومدنهم المحصنة أن هذه الفوضى السياسية هي فرصة أكثر من طيبة ومن العبث ألا يتم انتهازها، واحتشدت قوات الممالك الصليبية من عكا بغرض الهجوم على التركمان "الوفدية"، والذي قام بيبرس بحشدهم على مرتفعات الجولان في فبراير ١٢٦١، وتم إرسال تسعمائة فارس، وثلاثة آلاف من المشاة، وخمسة

(*) الوافدية: جمع وافدي والمراد بها هو الغريب الوافد إلى بلد جديد، وأُطلق هذا اللفظ غالبًا على الترك والتتار الذين وفدوا طوعًا أو كرهًا إلى دولة المماليك في مصر والشام. انظر: محمد قنديل البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة ١٩٨٤م ص ٣٥٧ **(المراجع)**.

عشر ألفا من فرسان التركوبلي (الفرسان الرماة في الجيش البيزنطي وهم من أصول تركية ويونانية)[٣١] لتنفيذ الهجوم، ولكنهم سحقوا بقسوة عن طريق قوات التركمان، وعادوا يجرون أذيال الهزيمة إلى عكا، واتجهوا للبحث عن طريق آخر، وكان الصليبيون قد حذروا المغول الذين هُزموا في حمص، والذين تراجعوا الآن إلى حلب في رسالة عن اقتراب قوات إمداد كان بيبرس قد قام بإرسالها تجاه الشمال. وكان هذا العمل من أعمال التجسس هو الذي تسبب في فرارهم من المدينة في أبريل عام ١٢٦١. ولم يكن بيبرس ليغفر مثل هذا التدخل من الفرنجة في مواجهات السلطان مع المغول، وبدأ السلطان بيبرس في بناء آلة عسكرية في مصر لمواجهة تهديدات المغول، ولكن كان يتعين على الصليبيين أولاً أن يتجرعوا قسوة ومرارة تلك الآلة العسكرية المصرية.

---

(٣١) كانوا من المرتزقة التركمان.

الفصل الخامس

تدريبات دامية لحروب بلا دماء

بنـــاء آلـــة الحـــرب

> بالهجمات التي قام المغول بشنها عليهم من الشرق، والفرنجة من الغرب، لم يكن المسلمون في أي يوم من الأيام في وضع أشد قسوة منه طوال تاريخهم. الله فقط يمكن أن ينقذهم من هذه المحنة.

ابن الأثير (المتوفي عام ١٢٣٣).

قام بيبرس بالاعتماد على المماليك البحرية بكثافة شديدة في سنوات حكمه الأولى. ويحكي لنا مؤرخه ابن عبد الظاهر عن خشداشيته فيقول: "لقد قام بإعادة الهاربين.. وترقية أولئك الذين أُهملوا طويلاً، كما قام بتنصيب الذين تم تجنيبهم لفترات طويلة. وتعيين هؤلاء المستحقين للإمارة، وترقية الأكثر كفاءة.. وكان كل هؤلاء يُشكلون حاشيته المقربة، والذين يقومون بحماية قلعته سواء في غيابه أو في حضوره."(٣٢) ولأنه كان في السابق قادرًا على شراء المماليك لحسابه الخاص بوصفه من كبار الأمراء في جيش الصالح، والذين كانوا يُعرفون باسم "الظاهرية"، واسمهم مُشتق من اسم "الظاهر بيبرس" – وهو اسم عرش السلطان. فقد عمل بيبرس على الدفع بهؤلاء الرجال إلى المناصب الحكومية الهامة والوظائف العليا في الجيش. وكان يأمل – حتى في هذه المرحلة المبكرة من توليه الحكم – أن يخلفه ابنه بركة، ولذا فقد كان يضع المقربين منه في كل وظائف الدولة من أجل ضمان الانتقال السلس للسلطة في أسرته.

---

(32)Maalouf, The Crusades through Arab Eyes.

وهكذا فقد كان بيبرس محاطًا بخلصائه، ولكنه كان يريد أن تكون الدولة بأسرها تحت قبضته. وقام بيبرس في عام ١٢٦١ بتسيير موكب اعتلائه للسلطة في شوارع القاهرة حاملاً الشعارات السلطانية؛ فكان هناك سرج ذهبي موضوع على حصان خال من راكبه يسير أمامه، كما كانت فوق رأسه مظلة خفيفة يزينها طائر ذهبي، وهو شعار خلفاء الفاطميين. كما كان يرتدي عمامة سوداء، منتحلاً الزى التقليدي للخلفاء العباسيين – وعلى جانب فخذه سيف قديم كان عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين قد حمله. وكان هذا الموكب السلطاني الضخم ذا قيمة دعائية هائلة لهذا الرجل، والذي لا يعدو في نهاية الأمر إلا أن يكون أجنبيًا عن هذه البلاد، وكان بيبرس واثقًا في قرارة نفسه أنه يحتاج إلى أكثر من هذه المواكب الاحتفالية لتشديد قبضته على زمام السلطة. فحتى الخطر الخارجي المتمثل في المغول لم يكن كافيًا ليمنح سلفه قطز الأمان على حياته، كما أن بيبرس نفسه قد واجه ثورة تمرد بعد تنصيبه مباشرة من قوات العبيد السود (الشناترة) في القاهرة، ومؤامرة أخرى من المُعّزية. وكان بيبرس قادرًا على قمع الثورة بغير الكثير من العناء، وتم سحق المؤامرة، ولكن ما كان يبعث على القلق هو أن ثورة مماثلة لقوات عبيد سود القاهرة كانت على وشك الإطاحة بصلاح الدين في أوائل توليه الحكم، كما أن السنوات العشر الأولى من حكم المماليك كانت تمزقها المؤامرات. فما الذي يمكن أن يفعله السلطان من أجل إخضاع وتجميع كل الطوائف معًا تحت حكمه؟

كانت لسياسة إلغاء الضرائب تأثيرها على العامة من أهل القاهرة في هذا الصدد، ولكن الحل المباشر والفوري كان يتمثل في الشروع في الجهاد ضد الصليبيين. وكانت الدولة في حاجة ماسة إلى عدو، أو كما عبّر منشيوس بإيجاز منذ أكثر من ألف عام منذ تلك الحقبة وهو يقدم نصائحه إلى الأمراء الصينيين: "بدون أعداء ومخاطر خارجية ستفنى الدولة ما في ذلك شك". ويصبغ الحرب ضد

الصليبيين حكم بيبرس بالشرعية حيث يجعل منه مجاهدًا ومقاتلاً لحرب مقدسة. وكان الجهاد ذريعة فعالة لطموحات الحكام لأمراء بلاد الشام إبان فترات الممالك الصليبية ابتداء من غزو عماد الدين زنكي لإمارة الرها الصليبية في عام ١١٤٤ وحتى قيام صلاح الدين بالاستيلاء على القدس. ويمنح الجهاد أولئك الحكام الذين يغتصبون العرش شرعية وصلاحيات وسلطات أخلاقية. فالقائد الذي يشرع في الجهاد يتوقع أن يسانده رجال الدين، وأن يستفيد من خدمات الدعاية الدينية التي يقدمونها له حتى ولو كانت مغامراته تستهدف التباهي بمآثره. والأكثر من ذلك أن الجنود المقاتلين يضمنون الجنة في الحياة الآخرة، وهو دافع آخر لمقاتلي جيش بيبرس من أجل القتال بضراوة من أجل ذلك. ولا يعني هذا التفسير أن بيبرس كانت تنقصه الرغبة في الجهاد. فقد أظهر مقتًا شديدًا للصليبيين، كما أنه كان يقود قواته بنفسه في هجماتهم على الفرنجة، حتى ولو كانت في عمليات حصار لا طائل من ورائها لقلاعهم ومدنهم المُحصنة. كما أن الجهاد كان يتطلب قائدًا يقيم حكمًا عادلاً أثناء الحرب المقدسة، وبينما كان حقيقيًا أن ولاء المماليك كان أكثر قوة تجاه "المملوكية" أكثر منه للدولة، فلا شك أن بيبرس كان قد قام بدوره كنصير حقيقي للشعب. فعلى سبيل المثال، عندما حدث جفاف نتيجة لنقص مياه النيل عن الوفاء بالحاجة، أمر بأن يتم الإفراج عن الحبوب المُخزنة لدي الحكومة من أجل بيعها بأسعار محددة، وعندما لم يكف ذلك لسد العجز الموجود، أمر بيبرس أمراءه بأن يقوم كل منهم بإطعام عدد معين من الفقراء على نفقتهم الخاصة.

عزز من جهود بيبرس في سبيل تقديم نفسه كقائد للحرب المقدسة قيامه باستعادة الخلافة العباسية. وكان محظوظًا أيضًا بما يكفي عندما عضده رجل يدعيّ أنه من أسرة الخلافة وأنه قد نجا من مذابح المغول في عام ١٢٥٨. ولن نعرف على وجه التأكيد ما إذا كان هذا الرجل ينحدر من سلالة الحكام العباسيين أم لا ولكنه نجح في اختبار للتقصي عنه تم عقده بواسطة فريق من قضاة المسلمين.

وتم تنصيبه كخليفة باسم "المنتصر بالله" في يونيو عام ١٢٦١. وقام بيبرس بأداء قسم الولاء أمام خليفة العالم الإسلامي، وفي المقابل قام الخليفة بمنح بيبرس وثيقة رسمية لمنحه منصب السلطان العام وخليفة العالم الإسلامي، وحاكم مصر وبلاد الشام، وحامي البقاع المقدسة في مكة والمدينة. وكان النضال من أجل كسب قلوب وعقول المصريين لقيمة الخليفة قاسيًا، فكانت خطبة الجمعة التي سجلها مؤرخ "سيرة بيبرس" تقول:

"هذا السلطان الملك الظاهر، السيد الذائع الصيت، والعالم، والعادل، والمقاتل في الحروب المقدسة، والمحارب الذي يتصدر الجيوش، هو دعامة العالم والعقيدة، وقد حمل على عاتقيه تأمين انتصار الأئمة ومعه القليل من معاونيه، وقام بتشتيت شمل جيوش الكفار والذين قاموا باختراق قلب أراضينا.. يا عباد الله سارعوا إلى تقديم الشكر لمثل هذه النعم، وكونوا أنقياء السريرة وسيكون النصر إلى جانبكم، قاتلوا أتباع الشيطان وسيكون النصر حليفكم![٣٣]

وتمنح شهادة الخليفة لبيبرس سلطة النداء للجهاد، وهو الجانب الذي يُطرب له بيبرس ويسره أن يلبيه، حتى إنه قام حقًا بإرسال الخليفة نفسه إلى أراضي المغول من أجل الجهاد. وتم تجهيز جيش صغير للمنتصر من أجل استعادة بغداد من المغول وتم إرساله شرقًا. ومن سخرية الأقدار أنه قابل خليفة آخر في طريقه، وهو لاجئ آخر من الأسرة العباسية وتم تنصيبه كخليفة عن طريق المساعي الحميدة التي قام بها البرلي، الذي أغتصب إمارة البيرة. وكان هذا الخليفة،

---

(٣٣) تعتبر "سيرة بيبرس" قصة فلكلورية لا تزال مُحببة في عالم المتحدثين باللغة العربية.

وهو الحاكم قد عاد لتوه من الأراضي المغولية، والتي أحرز فيها بعض النجاح بدعم من قوات البرلي ضد المغيرين التاريخيين لموطنه، وذلك على الرغم من فشله في دخول بغداد. وقرر الخليفتان أن يقوما بجمع جيشيهما والزحف عبر الفرات إلى بغداد. ولقيا هزيمة مريرة في معركة على بُعد عدة أميال من بغداد في يوم ١٨ ديسمبر ١٢٦١ على يد قوة مغولية. وتم قتل المنتصر في هذه المعركة، وطاف المغول المنتصرين برأسه في شوارع بغداد. وفر الحاكم هاربا إلى القاهرة، حيث استقبله بيبرس بمودة حينئذ، ثم غض النظر عنه بينما كان منهمكًا في معالجة شئون أخرى للدولة. وربما تبدو الحملة التي شنها الخليفتان هزلية بعض الشيء إذا نظرنا إليها بمقاييس اليوم، ولكن الحملة كانت تحمل أسبابا معقولة للأمل في نجاح المغامرة. حيث كانت التقارير الواردة تشير إلى أن المغول في حقبة ما بعد عين جالوت ذهبوا بعيدًا لدرجة إخلاء بغداد. وبلا أدنى شك، ظلت هناك فرق من العساكر الإسلامية والباحثة عن المال تجوب هائمة حول العراق وإيران، وهي بقايا الجيوش التي قام المغول بتحطيمها في عام ١٢٥٨، كما أن المغول كانوا لا يزالون يصارعون قبيلة خفاجة وهي من العرب البدو وكانت تقوم بالإغارة باستمرار على المناطق الواقعة بالقرب من بغداد والبصرة. وربما كان الخليفتان يأملان في تجميع قواتهما من أجل استرداد بغداد. ولكن هذه المغامرة لم تُكلف بيبرس أي أعباء مالية بطبيعة الحال.

وبدأت الحرب المقدسة التي خاضها بيبرس بنفسه في بادئ الأمر ضد أنطاكية. وكان للمساعدة التي بادر بوهيموند السادس بتقديمها للمغول، وعلاقته الوثيقة بأرمينيا وهم حلفاء المغول في الشمال هو ما جعل أمر إخضاعها أولاً واجبًا حتميًا. وبدأ بيبرس في شن سلسلة من الغارات بغرض إنهاك قدرات أنطاكية وتقليص قدراتها العسكرية للحيلولة دون تقديمها لأي مساعدة للمغول في حالة قيامهم بالتخطيط لشن أي غارات على شمال بلاد الشام. وستؤدي هذه الغارات

في النهاية إلى تآكل قوة أنطاكية إلى الدرجة التي تسمح بالاستيلاء عليها بواسطة الحصار. وبدأت هذه الغارات في عام ١٢٦١ واستمرت بلا هوادة عاما بعد عام؛ ولم يكن سوى مناشدة هيثوم ملك أرمينيا وزوج أم بوهيموند لهولاكو، ودعم قوات المغول نتيجة لتلك المناشدة هي التي حالت دون سقوط المدينة في عام ١٢٦١. ونُهب ميناء "مار سمعان" في أنطاكية في عام ١٢٦٢. وتحرك بيبرس بحذر شديد ضد الصليبيين في عكا، حيث كان المغول يمثلون له أكثر من مصدر للقلق، وبصفة خاصة لأن الأراضي الحدودية التي كانت تمتد على طول الفرات والجزيرة لم تكن قد استقرت بعد بما يكفي من وجهة نظره، ولكنه ألمح إلى نواياه تجاه الصليبيين في الساحل في أواخر عام ١٢٦١، عندما وفد إليه يوحنا حاكم يافا ويوحنا حاكم بيروت من أجل التفاوض معه لتبادل الأسرى. ورفض بيبرس الأمر برمته وأردف قائلاً إن كل أسرى الفرنجة الذين جرى النقاش بشأنهم سيتم إرسالهم إلى معسكرات العمل، ذلك القرار الذي كان يعني بطبيعة الحال الحكم عليهم بالموت البطيء.

وزرع بيبرس الخوف الشديد في قلوب الصليبيين مما جعلهم مصدرًا غير محتملاً لتكدير جو الاطمئنان وهو يستدير تجاه الجبهة الأخرى. فقد كان مدركًا لحاجته الماسة إلى العمل السريع من أجل تقوية الحدود السورية، حيث إن هولاكو لن يظل مسكونًا بهواجس صراع السلطة إلى الأبد. واستطاع بيبرس أن يقوم بالاستيلاء على مدينتين من مدن الحدود الرئيسية المهمة حتى بدون الحاجة إلى القتال من أجلهما، إحداهما من خلال الانتهازية والأخرى من خلال حيلة بسيطة. ففي شهر يوليو من عام ١٢٦١ كان صديقنا المغامر القديم "البرلي" قد قام بمحاولة من أجل رفع الحصار عن الموصل بينما كان يتعرض للهجوم من المغول، وتوجه إلى مركز إغاثة المدينة – وربما كان يرغب في أن يكون حاكما لهذه المدينة أيضًا – ولكنة لقي هزيمة قاسية من المغول وفر عائدًا إلى البيرة وقام بإحكام إغلاق بوابات

المدينة. وعرض عليه هولاكو حكم المدينة تحت سيادة المغول، ولكنه كان يبحث عن حماية بيبرس بدلاً من ذلك. وافق بيبرس وجامله بأن قام بترتيب مظاهر احتفالية كاملة له في القاهرة، وبعد أشهر قليلة من ذلك قام بإلقائه في السجن. وهكذا استطاع بيبرس أن يبسط يده على قلعة ومدينة تُشكلان ضغطًا على الأراضي المغولية، كما أنهما سيكونان مسرحًا للكثير من المواجهات بين الجانبين في الستين عامًا التالية. أما الحصن الثاني فقد كان بحوزة أحد الأمراء الأيوبيين وهو "المغيث". وكانت "الكرك" تقع إلى الشرق من البحر الميت. كما كانت تهيمن على خطوط الاتصال بين دمشق ومصر وإلى شبه الجزيرة العربية. ووجهت الدعوة بكل كياسة للمغيث للحضور إلى معسكر بيبرس في قاعدة في جبل طابور، وبمجرد قدومه وجد جلسة محاكمة في حالة انعقاد في انتظاره. وتم استدعاء رئيس قضاة دمشق إلى معسكر السلطان من أجل سماع الاتهامات الموجهة إلى المغيث بشأن اتصاله بالمغول. وكان المغيث مذنبًا بالطبع في هذا الصدد، فقد كانت الخطابات التي قام بإرسالها إلى المغول قد تم الحصول عليها بواسطة عملاء بيبرس لتكون في متناول يده من أجل إثبات هذه التهمة. وتم إرسال الأمير إلى سجن بالقاهرة، وسيطر الذعر على أبنائه وقاموا بعرض الحصن على السلطان، وكان لهم ما أرادوا حينئذ بالفعل. وقام بيبرس بدفع ١٠٠٠ درهم بعدها بفترة من أجل قتل المغيث، ولكن القاتل الأجير بعد أن قام بتبديد النقود، بدأ في المباهاة بذكائه – ليختفي من الوجود بعدها للأبد.

وهكذا وعلى الرغم من أن بيبرس كان وغدًا عديم الضمير وبلا رحمة، فإنه كان أيضًا رجل تكتيك رائعا من الطراز الأول للمعارك الحربية الضخمة. ولقد كان جليًا منذ اليوم الأول لاعتلاء بيبرس كرسي السلطة أنه يقوم بإعداد المسرح لإدارة نمط الصراع الذي سيدور بينه وبين مع المغول. وقام بالتركيز على صلابة وتأمين خطوط الاتصالات الداخلية، وكانت تتطلب في المقام الأول وكعنصر

أساسي تأسيس خطوط قوية للحدود. وكانت قوات المغول تُحيط ببلاد الشام في كل من حدودها الشرقية والشمالية، وكان ذلك عائقًا ضخمًا لهم في الكثير من النواحي، وكان أيضًا كذلك لبيبرس وللسلاطين من بعده في نقل وتحريك الجيوش داخل المنطقة في أمان، وحماية خطوط الاتصالات الداخلية بسرعة لسد الثغرات أو لمجابهة هجمات المغول، وذلك ببساطة لأن المسافات التي يتم تغطيتها إن لم تكن قصيرة، فإنها كانت أقل بكثير من المسافات التي يجب أن يتصارع عليها المغول بينما يقومون بتحريك قواتهم حول حدود بلاد الشام المُحصنة. وكان ذلك أمرًا حيويًا لأن قوات المماليك الرئيسية وبالذات كل قوات السلطان الخاصة كانت تتمركز في القاهرة في فترات الهدوء. كما أن بيبرس كان يقوم باستخدام السياسة الهجومية المعروفة بالأرض المحروقة ويقوم بشنها من المدن والقلاع المُحصنة. ووقعت معظم المناوشات والمصادمات بين الطرفين في الأراضي التي تقع داخل خطوط المناطق التي تقع تحت سيطرة المغول، وتعتبر "البيرة" ذات أهمية خاصة في هذا المضمار حيث كانت تمتد ناتئة داخل أراضي المغول. وجعلت هجمات المماليك المتتالية داخل أراضي المغول وبكفاءة مذهلة من المُحال عليهم تقريبًا أن يقوموا بتجميع قواتهم على الحدود، حيث كانوا يقومون بإشعال النيران في المراعي، والقرى والمزارع التي يمكن أن تكون مصادر إمداد للمغول، كما يقومون بتخريب مصادر المياه التي يمكن أن يحتاجها فرسان المغول أثناء تجميع الحشود. وكان يتم تنفيذ هذا التدمير الذي يمثل سياسة الأرض المحروقة لمسيرة عشرة أيام داخل خطوط أراضي المغول.

ولم يكن هولاكو هو الخان الوحيد فقط من صغار قادة المغول هو الذي أفسد الصراع الدائر في منغوليا والصين خططه الخاصة. فقد كان بركة خان وهو الخان الأعظم للقبيلة الذهبية منزعجًا بشدة مما يمكن أن يسفر عنه صراع السلطة بين قابلاي خان وأريق بوكا. وكان قد أعلن عن وقوفه إلى جانب أريق بوكا في وقت

مبكر منذ بداية الصراع، والآن يجد نفسه على خلاف مع هولاكو، مما أوقعه في صراعات ممتدة على أراضي المراعى، وطرق تجارة الفضة في أذربيجان، كما أنه انعزل عن إليخانات المغول لقبيلة الجغطاى إلى الشرق من جانبه بتحوله إلى الإسلام. وكان في حاجة ماسة إلى حلفاء، ولذا قام بيبرس بإرسال الوفود إليه ليقيم الحجة على إمكانية قيام تحالف مع القوة الإسلامية الوحيدة التي تستطيع أن تقف في وجه هولاكو، والتي تستطيع أن تكون مصدر خطر داهم عليه على الدوام. وعندما عادت وفود بركة خان إلى القاهرة في عام ١٢٦٣ من أجل البدء في إجراءات تقوية العلاقات بينهم تم استقبالهم استقبالاً حافلاً، كما قام بيبرس باستخدام خليفته الجديد "الحكم" – والذي تذكره فجأة وقام بتصيبه بعد أن قام بفحص دقيق وصارم لأوراق اعتماده – وذلك لإعطاء مفاوضاته قدسية المعاهدات الدينية بين الأشقاء في الدين الواحد. وتوضح خطابات بيبرس إلى بركة خان قبل هذا المؤتمر مرة بعد أخرى الالتزامات التي تقع على عاتق بركة خان كرجل مسلم بأن يأخذ موقف العداء تجاه غير المؤمنين من إليخانات المغول، وكان قد تم تلقين الخليفة هذه الرسالة ليقوم باستعادتها مرارًا وتكرارًا في مقابلاته مع الوفود. وتم وضع اسم "بركة خان" بجانب اسم بيبرس ليتم ترديده والدعاء لهما في خطبة الجمعة في المساجد الكبرى بالقاهرة، كما تم ضم وفوده إلى طائفة "الفتوة"، والتي تعود بأصولها إلى قدامى الخلفاء العباسيين.

لم يكن بيبرس قادرًا على إدارة وشن أي عمليات مشتركة مع بركة خان ضد الإليخانات – حيث كان بُعد المسافة بين بلديهما حائلاً عن مثل تلك العمليات المُعقدة – ولكن كانت هناك فوائد مباشرة تم جنيها لمثل هذه المعاهدات حيث أمر بركة خان كل الجماعات القبلية والتي كانت بحكم الانتماء القبلي جزءً لا يتجزأ من القبيلة الذهبية وكانوا يقومون بالخدمة في جيش هولاكو في المراحل الأولى لحملتهم على الشرق الأوسط بمغادرة أراضي الإليخانات على الفور. وكان الكثير

من المغول من قبيلة جوتشي خان يحاربون إلى جانب هولاكـو إبـان المراحـل المبكرة من حملته في الشرق الأوسط، ولكن هولاكو الذى كانـت تنتابـه شـكوك عميقة إزاء ولائهم، استدار إليهم مبكرًا في عام ١٢٦٢. وفر بعضهم إلى السـلطنة المملوكية في ذلك الوقت، كما أن أوامر بركة خان جعلت الكثيرين منهم يلجـأون إلى عالم بيبرس أو يقفلون عائدين إلى أراضي القبيلة الذهبية. ولم يكن الكثيـرون من هؤلاء الرجال، في حقيقة الأمر، من المغول، ولكنهم كانوا من الأتراك الـذين انضموا إلى حملات المغول الغربية، ولذا فإن مشاعر الانجذاب والألفة مع الأتراك المماليك كانت ملموسة بدرجة واضحة. وتوفي بركة خان في عام ١٢٦٧، وعلـى الرغم من أن خلفاءه المباشرين لم يكونوا من المسلمين، فإن هناك أعدادا كافية من القيادات العليا للبلاط كانت قد تحولت إلى الإسلام من خلال قوافل الدعوة التي كان يقوم برعايتها بيبرس وذلك لضمان أن تظل القبيلة الذهبية حليفًا قويًـا للمماليـك. وكانت هناك فائدة على المدى الطويل من المعاهدة وهي أن أراضي القبيلة امتـدت إلى سهوب القفجاق حيث ولد بيبرس وكذا إلى غابات روسيا الجنوبية. وكانت كـل من مصر وبلاد الشام فقيرة في الغابات، ولهذا فإن وصول إمدادات الأخشاب مـن بركة خان كان بالتأكيد أمرًا حيويًا لإمدادات الحرب، ولكن ما كان أكثر أهمية هـو إمدادات الأطفال من القفجاق الذين سيتم تجميعهم بواسطة تجار الرقيق من القبيلـة الذهبيـة من أجـل المزيد من تنمية قوات المماليـك وتنفيـذ خطـط السلطـان فـي هذا المجال.

قاد السلطان قواته المتنامية تجاه الناصرة في فبراير عام ١٢٦٣. وتعامـل بيبرس مع المدينة بقسوة بالغة وتم تقويض أركان كنيسة السيدة العذراء. وبحلـول شهر أبريل كانت قوات بيبرس على أبواب عكا، ولكن أسوار المدينة المنيعة وقفت حائلاً أمامه، ومع ذلك فقد كان هناك قتال مرير حول ضواحي المدينة. ولقد كـان من المحتمل أن يستطيع السلطان اقتحام عكا إذا كان قد تلقى المعاونة التي تعهـدت

بها جنوه، والتي أوضحنا آنفًا مصلحتها التجارية في إرباك تجارة عكا. وبعيدًا عن رغبتهم في إبعاد الكثير من الحركة التجارية بعيدًا عن موانئ الشرق وتحويلها إلى البحر الأسود فإن مصلحتهم التجارية الأخرى كانت في إمـداد بيبـرس بالأطفـال المماليك. وكان تجار جنوه هم الوسطاء الذين يقومون بتوريد أطفال القفجاق مـن السهوب عبر البحر الأسود ثم إلى الموانئ المصرية، واستمروا في هـذه التجـارة عبر القرون بالرغم من اعتراضات البابا المتكررة التي لا تحصى ضـدهم. وفـي هذا الصدد، فإنهم فشلوا مرارًا في الوفاء بتعهداتهم لصالح عميلهم بيبـرس، والآن كان على بيبرس أن يعود أدراجه، ولكنه سيعاود الهجوم مرات عديدة. وربما كان من المحتمل أنه لم يكن راغبًا بالفعل في تدمير عكا في هذا الوقت بالذات، وإنمـا كان يرغب في إنهاكها حتى لا تكون قادرة على مد يد العون لغيرها من الممالـك الصليبية التي يرغب في الاستيلاء عليها في هذه الفترة. وكانت لعكا في هذه الفترة أهمية اقتصادية كمنفذ تجاري لممتلكاته في بلاد الشام. ولم يكن بيبـرس يتحـرك خطوة واحدة بدون تخطيط واع لكل مراحلها واعتباراتها ونتائجها المحتملة في كل النواحي وتأثيرها في اللعبة الكبرى التي كان يلعبها ضد المغـول؛ فـبلاد الشـام المزدهرة فقط هي بلاد الشام القادرة على أن تدفع تكاليف الدفاع عن نفسها. ولـذا فإن تدمير عكا النهائي يمكن أن يتم تأجيله لبعض الوقت.

قفل بيبرس عائدًا إلى القاهرة، ولكنه كان قد وجد فائدة معينة ترجـى مـن وراء "الوافدية" الذين تدفقوا بانتظام من أراضي الإليخانات: فقد تم إرسـالهم لشـن عمليات كر وفر منتظمة على الممالك الصليبية طوال شهر أبريـل. ولقـد كانـت عمليات الهجوم والسلب والنهب من الكثافة للدرجة التي جعلت مـلاك الأراضـي التي تقع على التخوم مثل باليان أيبلين تستنزف ثرواتهم في دفع تكاليف الدفاع عن أراضيهم. فقد قام باليان بتأجير أراضيه لفرسان الإسبتارية حتى لا يشهر إفلاسـه، كما أصبحت المنطقة الواقعـة جنوبـي الدير الواقع على جبـل الكرمـل خاليـة

من السكان وبذلك أصبحت الزراعة مهنة يستحيل القيام بها. وهُجرت كل قرى الفرنجة والمدن الصغيرة المُحصنة. وتم استخدام الجنود اللاجئين ضد المغول على نحو مشابه لذلك الذي كان يقوم به الخليفة المنتصر. فقد تم إعادة تنظيمهم، وتسليحهم بأسلحة جديدة وتزويدهم بالأموال وإرسالهم لأراضي المغول لمحاولة المطالبة باستعادة مدنهم. وفشلت هذه الحملات في الغالب، ولكنها لم تكلف الخليفة سوى القليل من المال، ومع ذلك فقد أدت هذه العمليات إلى تعطيل موارد المغول وجعلت الحرب تقع على الجانب المغولي فقط. وكانت هناك نجاحات منتظمة وعلى فترات متقطعة. كما كان يقوم بإعادة إرسال أكراد تشوليمرك "**Cholemirk**" مرة أخرى إلى مناطقهم في عام ١٢٦٢، وتسببوا في العديد من الاضطرابات للإليخانات عندما استقروا على مرتفعات كردستان حتى اضطر المغول إلى عقد معاهدات معهم.

أدت هذه السياسات إلى إلهاء المغول وإرباكهم، ولكن مشاكلهم الداخلية الخاصة هي التي كانت تتسبب في الجانب الأعظم من المتاعب السياسة وأكثر بكثير مما كان يأمل فيه المماليك. فقد اندلعت الحروب العلنية بين الإليخانات والقبيلة الذهبية في أواخر عام ١٢٦٢، وتواصلت خلال العام التالي. ولقيت واحدة من جيوش بركة خان الهزيمة على يد هولاكو في واد في جبال القوقاز بالقرب من بحر قزوين، ثم لقيت هزيمة أخرى بعد أن تراجعت إلى المرتفعات. وقام هولاكو بإرسال قوة متقدمة بقيادة ابنه أباقا من أجل مطاردة قوات القبيلة الذهبية، كما أغاروا على المعسكر الشتوي لبركة خان. وبالرغم من ذلك، فإن بركة خان كان قادرًا على شن هجوم مضاد بجيش آخر سحق به جيش أباقا وألحق بها هزيمة منكرة في عام ١٢٦٣. وبينما كان رجال أباقا يلوذون بالفرار فقد ترنحوا تحت وطأة كارثة أخرى، حيث غرق الكثيرون منهم عند محاولة العبور على نهر جليدي متجمد انهار تحت وطأة سنابك خيول الجيش. وشهد عام ١٢٦٣ العديد من الغارات

عبر الحدود من الجانبين، والتهديد بالغزو الكامل بواسطة جيوش القبيلة الذهبية بقيادة نوجاي "Noghai". وكانت النتيجة المباشرة لهذا التصعيد في الحرب هي قيام علاقة ائتلاف ودي بين بركة خان وبيبرس. أما النتيجة غير المباشرة فكانت إطلاق يد بيبرس في الهجوم على الصليبيين في عام ١٢٦٣.

وانتهت الحرب بين قوبلاي خان وأريق بوكا في عام ١٢٦٤ بالهزيمة الكاملة للأخير، وعلى الرغم من ذلك فقد كان هناك استياء كامل يعتمل لدى عامة المغول من قوبلاي، والذي كان في نظرهم الآن قد أصبح من أهل الصين ونسى تماما تقاليد حياة المغول الحقيقية. وكان على رأس من يقود هذا التيار العام من الاستياء قايدو "Qaidu" وينحدر من أصلاب "أوجيداي خان"، الذي كان الحاكم الحقيقي لقبيلة الجغطاى، وكان يبسط يده على أجزاء كبيرة من أراضي آسيا الوسطى والتي تُشكل تقريبًا أراضي أوزبكستان اليوم. وكانت أسرة الجغطاى قد خرجت من الجولة الأولى في صراع اعتلاء كرسي الخاقان الأعظم بعد وفاة جنكيز خان مما أوجد مرارة شديدة في حلوقهم تجاه أسرة طولوى التي ينحدر منها منكو خان، وقوبلاي خان، وهولاكو. وأصبح يتعين على هولاكو أن يتحمل الغارات الهجومية والصراعات على حدوده الشمالية الشرقية منذ عام ١٢٦٤ وصاعدًا حيث اعتاد قايدو "Qaidu" استخدام قبيلة الجغطاى لضرب قوبلاي خان من خلال هولاكو. وتوفي هولاكو في يوم ٨ فبراير ١٢٦٥، واستغرق الأمر عدة شهور قبل أن يحضر نجله أباقا الذي كان يقوم بمراقبة الحدود مع قبيلة الجغطاى إلى تبريز. ومما لا شك فيه أن أباقا قد شعر بالإحباط الشديد نتيجة عدم حضوره مشهد التضحيات الإنسانية في جنازة والده، ولم يسعه الوقت حتى أواخر ذلك العام ليتمكن من إحكام قبضته على الإليخانات. وكان من عادة المغول القيام بإغلاق كل الطرق عند وفاة أحد الخانات، ولذا فإنه لم يكن هناك مناص من تأجيل الحرب ضد المماليك إلى فترة قادمة. وقامت القبيلة الذهبية بغزو أراضي أباقا التي حصل عليها مؤخرًا في ربيع عام ١٢٦٦ واستمر القتال حتى شهور الصيف.

كانت كل هذه الأحداث تعنى إطلاق يد بيبرس في حرية العمل، وكان قادرًا على شحذ كل طاقاته أكثر وأكثر ضد الصليبيين. وكان بيبرس يُـدرك أن قيامـه بتمزيق الممالك الصليبية إربًا إربًا يمكن أن يثير الحملات الصليبية مـن أوروبـا؛ وعلى نفس المنوال فإنه كان يُدرك أن هولاكو على اتصال دائم ليس فقط بالفرنجة في بلاد الشام، ولكن أيضًا ببلاط الملك لويس التاسع ملك فرنسا، والذي أصبح منذ واقعة دمياط يقود الأصوات في أوروبا من أجل النداء بالقيام بحملة صليبية. وكان هناك احتمال بتحركات مشتركة بين المغول والصليبيين من أوروبا، والقيام بتنسيق هجمات مشتركة على المماليك في بلاد الشام بالاشتراك بين الصليبيين فـي بـلاد الشام وقوات هولاكو. فإذا لم يحرك بيبرس ساكنًا، فإنه سيزيد مـن ثقـة أعدائـه ويمنحهم المهلة الكافية من أجل الإعداد لقنوات الاتصال المدروسـة لمثـل هـذه المغامرة المشتركة. وإذا ما قام بهجوم كاسح لحرب استنزاف طويلة مع الصليبيين، فإنه سيعجل بقيام الحملات الصليبية التي يريد تجنبها.

وكان منهج بيبرس في هذه المشكلة الشائكة يشبه تمامًـا موقـف الفـارس المخضرم مع حصان لم يتـم ترويضه. ويحتوي كتـاب الفروسيـة على نصـائح لا تحصى لكيفية ترويض الخيول، ونحن نعلم بالطبع أن بيبرس فارس موهوب في ترويض الخيول والحيل التي يتم تأديتها أثناء ركوبها. وكما يقوم بالتحكم في الخيل فهو يقوم بدفع الدولة للحرب عندما يكون واثقًا أنه لا توجد متاعب أمامه، كما كان يقوم بكبح جماحها عندما يكون الخطر ماثلاً أمام ناظريه، باذلاً أقصى جهد ممكـن من أجل دراسة المعوقات الماثلة أمامه في المشهد السياسي. وكانت البيانات التـي تقوم عيونه بتجميعها من بلاط القصور في أوروبا هي معلومات من الطراز الأول وتستند على كل من الفهم العميق للانقسامات داخل الطوائف المسيحية والتحـولات التي تحدث في التحالفات والعداءات بين السياسيين في أوروبا، كما تستند عمليـات الاستخبارات التي يقوم بها على عيونه من شبكة التجسس المكثفة، والتجار العاديين

الذين يقومون بتقديم تقاريرهم إلى مكتب مركزي في القاهرة. وكانت هوية هـؤلاء العملاء تبقى سرية للغاية حتى عن بعضهم البعض، وكما يقـول كتيـب الحـرب الخاص بالمماليك "إذا ما عرفوا بعضهم البعض، فيمكنهم استشارة بعضهم الـبعض عن شأن ما، ويقومون بترتيبه لمصلحتهم الخاصة ثم يقومون بإبلاغه بعد ذلك. أما إذا قام كل واحد منهم بتقديم تقريره بمفرده، فإن الحقيقـي وغيـر الحقيقـي منـه سينكشف بوضوح[٣٤]. وعندما يقوم هؤلاء العملاء بزيارة السلطان فإنهم يقومـون بإخفاء شخصياتهم تحت ستار من الملابس الكثيفة، كما أن رواتبهم لا يتم إدراجهـا في كشوف حسابات الدولة. وكانت شبكة الجاسوسية هذه تمتـد إلـى الإليخانـات. وحدث أثناء حكم السلطان المملوكي قلاوون أن قام الخان أحمد بتـوبيخ قـلاوون والسخرية منه، عندما قام بإعادة إرسال جاسوس مملوكي كان متخفيًا فـي شـكل داعية مسلم. وشكا مبعوثي الإليخان إلى السلطان من أنهم يضطرون إلى القيام بقتل الكثير من الدعاة لأنهم لا يستطيعون الوثوق من عدم كـونهم جواسـيس. فأجـاب السلطان بهدوء بأن كل داعية تم قتله داخل حدود المماليك هو جاسـوس مغـولي. وكان يتم استيفاء التقارير بواسطة العملاء في كل من بلاد فارس والعراق، وحتـى في عام ١٣٣٥ أي بعد خمسـة عشر عاما من توقيـع اتفاقيـة السـلام بيـن المماليك والمغول.

وبحلول منتصف عام ١٢٦٣ كان بيبرس قد أوقـف العمليـات العسـكرية بالكامل ضد الممالك الصليبية. حتى إنه وافق على إبرام هدنة وتبادل الأسرى فـي أوائل العام ولكن الفكرة كان قد تم وأدها بواسطة فرسـان الإسـبتارية وفرسـان الهيكل؛ وربما بحلول نهاية عام ١٢٦٥ كان هؤلاء الفرسان يودون لو أنهم قبلـوا عرض السلام. وكان بيبرس يزحف بجيشه شمالاً ليجابه خطرًا مغوليًا على البيـرة

---

(34) R. Amitai-Preiss, "Mamluk Espionage Among the Mongols and Franks", Asian and African Studies, Vol 22, 1988, pp. 173-81.

عندما علم عن طريق جواسيسه ونظام المراسلات الخاص به أن حامية الحصن قد قامت بصدد الهجوم عليها. ولذا فقد قام بتحويل القوة التي كان قد أعدها للمغول لتقوم بالهجوم على الصليبيين بدلاً منهم. وكان فرسان الإسبتارية وفرسان الهيكل بالتناغم معًا يقومون بالإغارة على عسقلان في محاولة منهم لنجدة المستوطنين الفرنجة في المنطقة. وظهر جيش السلطان بيبرس أمام القلعة الساحلية الضخمة لفرسان الإسبتارية "أرسوف" في يناير ١٢٦٥، ولأنه أعطى تحذيرًا بنواياه، فقد عمل على تسلية نفسه بالصيد في التلال المحيطة. وفجأة ذهب بمفرده ليظهر مرة أخرى أمام أسوار قيسارية. وسقطت المدينة بسرعة في يوم ٢٧ فبراير بعد أن قام المماليك باستخدام سلالم مؤقتة من الحبال قاموا بصنعها من جمع لجام الخيول لرفع أنفسهم أعلى الأسوار واستسلمت القوات التي تم حصارها في الحصن في يوم ٥ مارس. وقامت قوات بيبرس بتدمير الحصن والمدينة حتى سطح الأرض. ولقيت حيفا نفس المصير بعدها بأيام قليلة. وتم ذبح السكان الذين لم ينجحوا في محاولة الفرار بواسطة القوارب. وكتب ابن الفرات عن سياسة بيبرس إزاء الحصن فقال: "قام جيش المسلمين باجتثاث حصن الفرنجة من أساساته ودمر قلاعهم، بينما كان يقوم بإعادة البناء في مكان آخر من أجل الصمود أمام المغول". وباختصار فإن بيبرس قام بتدمير المدن الساحلية لبلاد الشام، وبناء أخرى داخل البلاد. ولم يكن يرغب في ترك موضع قدم لأي مغامرات لأوروبيين صليبيين. وكان سبب فشل صلاح الدين في تطهير بلاد الشام من الفرنجة في نهاية القرن الثاني عشر يرجع إلى نزول القوات الصليبية لريتشارد قلب الأسد على شواطئ عكا وتدعيم زحف قواته إلى يافا بواسطة أسطول صليبي. ولم يكن المسلمون يتمتعون بأي تفوق بحري في شرق البحر الأبيض المتوسط منذ أوائل القرن الثاني عشر نظرًا لتكنولوجيا بناء السفن الجديدة التي كانت تقوم بها المدن الإيطالية التي كان يُطلق عليها الجمهوريات البحرية منذ منتصف القرن الحادي عشر، مما كان يعني أن أساطيل البندقية وبيزا وجنوه لا يمكن مقارنتها بالمصادر المحدودة

لمصر. ومن أجل ذلك وجد بيبرس الحل في خلق أرض خراب على الساحل لا تسمح بوجود ميناء للتموين والإمداد أو الترجل على الشاطئ بشكل عام.

وتحرك بيبرس صوب "عتليت" القلعة الكبرى لفرسان الهيكل، وهي المدينة التي تقع على الساحل بين حيفا وقيسارية. وتم إحراق القرى الواقعة حول المستعمرة حتى تسويتها بسطح الأرض، وتم تخريب أراضي الحقول فيها، ولكن القلعة قاومت بعناد أسلحة الحصار التي استعملها السلطان. ولذا ارتحل السلطان عائدًا إلى قلعة أرسوف جنوب بقايا قيسارية. وكان بالحصن حامية قوية، فقد كانت تتيه بفرسانها البالغ عددهم ٢٧٠ فارسًا، وبمخزونها الجيد من المؤن والطعام. وشق مماليك بيبرس طريقهم بالقوة إلى أسفل المدينة في يوم ٢٦ أبريل بعد أن قاموا بتدمير أسوارها وتسويتها بسطح الأرض باستخدام معدات الحصار وردم الخنادق المائية العميقة المحيطة بها. وكان الوضع الميئوس منه للفرسان واضحًا بجلاء، فلن تكون هنالك إمدادات إغاثة من قيسارية أو حيفا، فقد ذهبت كل منهما أدراج الرياح، ولم يعد هناك أي جيش ميداني بمعنى الكلمة في الممالك الصليبية بعد. فقد استسلموا بشروط هجر الحصن وتركهم أحرارًا في يوم ٢٩ أبريل، ولكن بيبرس أخذهم أسرى بعد أن أعلنوا استسلامهم. لقد كان واثقًا من أن إطلاق سراح أي من فرسان الفرق الدينية معناه ضمان أن يقابلهم مرة أخرى في ميادين القتال، وأصبح هؤلاء الرجال سوريين من الآن، وهذا هو وطنهم، ولن يتمكنوا من مغادرتها بمحض إرادتهم. وتحرك بيبرس مرة أخرى صوب عكا كما فعل في عام ١٢٦٣ تمامًا، واكتشف أيضًا أن المدينة بعيدة عن السقوط مرة أخرى. فقد تم تقويتها بقوات من قبرص، وغادر بيبرس المدينة، ولكنه ترك قوات لحماية الحدود التي تقع على مرأى من أسوار مدينة عكا.

رأينا حتى الآن كيف أن المماليك مقاتلين أشداء لا يشق لهم غبار في القتال المتلاحم، ورماة سهام من فوق خيولهم بامتياز. ولكنهم الآن أصبحوا إلى جانب

ذلك يتمتعون ببراعة فائقة في حروب الحصار أيضًا. وليس هــذا مُدهشًــا علــى الإطلاق؛ فقد قام الصليبيون بالبناء على نطاق واسع، كما قاموا ببنــاء تحصــينات جيدة لأن التحصينات الجيدة عالجت لهم الكثير من مشــاكل الــنقص فــي أعــداد المقاتلين. وقام الفرنجة بتحصين سواحلهم بحصون بحرية، ومــدن ســاحلية مثــل صور والتي كانت محاطة بحلقة من الأسوار الدفاعية. وكما أوضحنا ســابقًا فــإن أهمية امتلاك السواحل السورية لبقاء الإمارات الصليبية على قيد الحياة لا يمكن أن يكون مبالغًا فيه. ويعتبر عام ١٢٦٥ عنوانًا بارزًا لقــلاع تــم الاســتيلاء عليهــا، وأسوار مدن تم تقويض أركانها أمام جيوش السلطان بيبرس. وكان سلاح المنجنيق هو الدعامة الأساسية لترسانة أسلحة الحصار. وهناك وصف في مصادر منتصف القرن الثاني عشر لمعدات يمكنها أن تقوم بقذف صواريخ يقرب وزنها لأكثر مــن ثمانين كيلوجرامًا لمسافة أبعد من تلك التي تصل إليها السهام. وكان بيبرس يمتلــك منجنيقات يمكنها أن تقذف ٤٥٠ كيلوجرامًا من الصــخور علــى أســوار قــلاع الصليبيين. لم تكن هذه المنجنيقات تعتمد على السَحْب المتناســق لمجموعــة مــن الرجال لتقوم بقذف الصخور، حيث إنه بنهاية القرن الثاني عشــر تــم اســتحداث عارضة الأرجوحة في الشرق لتقوم بتشكيل الثقل المضاد للمنجنيــق. وربمــا ورد تصميمها لبلاد الشام مع الصليبيين، ولكن من المثير حقًا أن الطرسوسي الذي قــام بكتابة دليل الحرب لصلاح الدين الأيوبي والذي أصبح فيما بعد دليلاً تقليــديًا بــين المماليــك، يقوم بوصف منجنيقات الفرنجة والعرب والأتــراك كثلاثــة أنــواع مختلفة من المنجنيقات، وعما إذا كانت تُطلق عن طريق قــوة الســحب أو القــوة الناتجــة عن الثني.

وكان يمكن نصب آلات بيبرس في الموقع، وهو عامل مهم بالنظر إلــى أن بعض قلاع الصليبيين كانت منعزلة وتقع على أرض شديدة الوعورة يجب الســير عليها للوصول إلى هذه الأسوار. وكانت السرعة التي يتحرك بهــا بيبــرس بــين

الأهداف التي يقوم باختيارها تتطلب من أفواج المماليك التي تركب أمام العربات التي تسير ببطء حاملة المنجنيقات الكبيرة غير المُجمعة ويبدأون في الضغط على الحصار بأذرع أصغر حجمًا بينما ينتظرون وصول المدافع الكبيرة.

وكانت العرادة سلاحًا صغيرًا وبسيطًا تمثل عارضة من الحبل وأسهل في نشره عن المنجنيقات الكبيرة، وذلك ببساطة لأنه تم تجميعه بالفعل، ويمكن تشغيله بواسطة فريق صغير من الأفراد، كما يمكن أن يتم سحبه مثل عربة صغيرة. وكان للعرادة مدى يصل إلى ١٢٠ مترًا على الأقل ولكن كان ينقصه قوة الثقل المضاد للمنجنيق. أما القذافة وعارضة القوس المُركبة على عجل والتي ترك لنا الطرسوسي رسومات تخطيطية لأشكالها، ويمكن استخدام هذه الآلات في إلقاء مقذوفات النفط، وقدرتها على الاستدارة إلى شتى الاتجاهات تعني أن كلا من الحاميات العسكرية والسكان المدنيين تستولي عليهم مشاعر الرعب بمجرد وصول عساكر المماليك. ومن المثير حقًا أن نلحظ كم من المدن سقطت بسرعة شديدة لدرجة أنه في الحقيقة لم يكن هناك وقت كاف للاستخدام الكامل لمنجنيقات المماليك الضخمة. وكانت نيران النفط عنصرًا رئيسيًا في ترسانة المماليك الحربية، وكانت خطوات صنعها كما أوردها الطرسوسي كالآتي:

> **خذ ١٠ أرطال من القار، و٣ أرطال من الراتنج، و١.٥ رطل من كل من صمغ السندروس واللك، و٣ أرطال من الكبريت النقي من نوعية جيدة وخالي من أي نوع من الشوائب، و٥ أرطال مذابة من دهن الدرافيل، ونفس الكميات من كلى الماعز المُسيّلة والمنقاة. وقم بإذابة القار وإضافة الدهن، ثم قم بإلقائها في الراتنج بعد إذابتها بمفردها. ثم قم بطحن المحتويات الأخرى، كل واحدة بمفردها ثم قم بإضافتها إلى الخليط، وضعها على**

> النار واتركها حتى تمتزج جميعها جيدًا. فإذا ما أردت استخدامها في زمن الحرب، خذ جزءا واحدا منها وقم بإضافة واحد على عشرة من الكبريت المعدني الذي يطلق عليه اسم النفتا، وشكله مُحبب ويشبه الزيت الصدئ، وضع كل المقدار في مقلاة وقم بغليها حتى تحترق، خذ القِدر الذي يجب أن يكون من الخزف، وقطعة من اللباد، ثم قم بقذفها عن طريق المنجنيق على أي هدف تريد أن تقوم بحرقه، ولا يمكن إطفاء مثل هذا الحريق[٣٥].

وكانت قيسارية أيضًا عرضة للتقويض تحت غطاء من الهجمات الأمامية. وكان سلاح الهدم يستخدم بكثافة بواسطة المماليك أكثر من أقرانهم الذين لاقوا الصليبيين مثل صلاح الدين الأيوبي، لأنهم ببساطة لم يكونوا في حاجة إلى بقاء هياكل هذه التحصينات. ولكنهم أبقوا على قلعة أردنية واستغرقوا وقتًا في إصلاحها، لأن الصليبيين كانت لديهم قدرات محدودة للرد بضربات عليها، أما إذا كانت من الحصون البحرية فإنهم على أي وضع يقومون بتقويضها حتى سطح الأرض. وعمد بيبرس وخلفاؤه إلى الاستيلاء على مواقع الصليبيين بسرعة، وفي أقل من ستة أسابيع، وألا يقومون برفع عملية الحصار بأسرها. لقد أحدث المماليك ثورة في استراتيجيات حروب الحصار بأكملها. ولا يمكن حتى تخيل عمليات الحصار الطويلة وغير المنهجية للمدن والتي تهدف إلى تجويع الحاميات العسكرية، مثل عملية الحصار التي قام بها الصليبيون لأنطاكية من أكتوبر عام ١٠٩٧ وحتى يونيو عام ١٠٩٨. ونؤكد مرة أخرى أن عدم وجود جيش ميداني فعال للفرنجة يعني أن الحامية العسكرية للمدينة المحاصرة تكون فرصتها ضئيلة للغاية في إغاثتها، ولكن هناك الأكثر من ذلك. فقد أصبح المماليك وبأسرع ما يمكن خبراء

---

(35) In Hillenbrand, p. 528.

في تشتيت انتباه المدافعين عن التحصينات والمعاقل الحربية وتدميرها. يمكن أن يظهر جيش المماليك فجأة أمام أسوار التحصينات - وهم قبل كل شيء مجموعة من قوة الفرسان - ويبدأ الهجوم بوابل من السهام يتم إطلاقها على المدافعين، وتصحبها النار الإغريقية في بعض الأحيان، والتي يمكن أن يتم قذفها باستخدام المقلاع اليدوي، ثم تتقدم المدفعية الخفيفة من قاذفات العرادة، وعارضة القوس المُركبة على عجل لتنضم إلى الهجوم السابق، وبعدها بفترة وجيزة يمكن تركيب منجنيقات الثقل الموازن والتي يمكنها البدء في قصف الحصن أو المعقل. وأصبح المماليك خبراء في كافة العمليات الأخرى في ذلك الوقت مثل تنفيذ عمليات تقويض الخنادق وردمها تحت غطاء من واق متحرك (ويطلق عليها اسم دبابة)، وهي تشبه إلى حد كبير التستيدو (Testudo) المدرعة الرومانية. ولذا فقد كان الضغط على الحصار يتم بسرعة هائلة في تصاعدها ويتم تطبيقها بطريقة تجعل المدافعين تحت ضغط القذف المستمر من الجو وفي جو من الفزع من الجدران المتساقطة من تحتهم. وبالإضافة إلى ذلك الخوف المطرد من الهجوم على الأسوار بواسطة القوات المملوكية التي تتصف بالشجاعة، والمدرعة تدريعًا جيدًا، والممتلئة حماسًا ورغبة في الجهاد ضد بني جلدتهم الخونة داخل القلعة، والذين يمكنهم أن يروا رأي العين كيف تتطور الأمور أمامهم. ويحدث كل ذلك وراء خلفية إنهاك هائلة للروح المعنوية من طبول مزدوجة محمولة على ظهور ما يقرب من ثلاثمائة جمل تشق أصواتها عنان السماء كالرعد. ويعطينا كتاب الحرب للأنصاري تصويرًا دقيقًا عن كيفية الضغط على المحاصرين:

> **وعندما يبدأ الجيش في الهجوم، فإنه من الضروري أن يقوم المقاتلون باستخدام أنسب الأسلحة في البداية، ثم الأنسب لبعد ذلك، وتأخير استخدام الأسلحة الضخمة حتى يتم استخدامها**

في آخر مراحل الهجوم. وبهذه الطريقة يكون من الواضح لهؤلاء المقاتلين في الحصن أن كل مرحلة من مراحل القذف ستكون أكثر تدميرًا من التي قبلها.

وعندما يأخذ توظيف الأسلحة مجراه، يجب ألا يكون هناك أي فترات توقف عن إطلاق المنجنيقات ضدهم، كما لا يجب أن يكون هناك أي تخفيف في كمية النيران في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار. التخلي عن الهجوم في أي وقت يمكن أن يقوم بتهدئة مخاوفهم وتقوية عزائمهم(٣٦).

كان يتطلب أن تكون أسلحة الحصار المتاحة للهجوم بأعداد كبيرة لإحداث هذا التأثير الموازي للصدمة والرعب في العصور الوسطى بكفاءة. ولذا فقد كانت إمدادات الأخشاب من القبيلة الذهبية أمرًا حيويًا بالنسبة للمماليك من أجل اقتلاع الصليبيين من قلاعهم. وقد قفزت أعداد المقذوفات والمنجنيقات التي استخدمها المماليك قفزة هائلة من حيث الأعداد التي تم استخدامها في حروب الحصار في القرن الحادي عشر. فلم يقم صلاح الدين الأيوبي باستخدام أكثر من ١٠ منجنيقات في أي حرب من حروب الحصار، بينما قام المماليك بنشر أكثر من تسعين وحدة من هذه النوعية من الأسلحة في حصار عكا عام ١٢٩١. ولم يكن الفرنجة، على أي حال، عاجزين وضعفاء قبل هذا الهجوم. ففي حصار حصن أرسوف فشل خبراء بيبرس العسكريون في اقتحامه عندما قام الفرنجة بحفر نفق مضاد ذات تأثير مدمر. وكتب ابن الفرات عن هذا الحادث يقول:

---

(36) In, G. A. Scanlon, A Muslim Manual of War, Cairo: American University in Cairo, 1961.

> وقام الفرنجة بدهاء بحفر نفق تحت الأرض من القلعة حتى وصلوا إلى نقطة الحصار. ثم قاموا بحفر الأرض حتى وصلوا إلى الحوائط المتحركة تحت الأسوار. وكانوا يضعون براميل مليئة بالزيوت وقاموا بإشعال النيران فيها. وكانوا قد أقاموا في هذه الأنفاق مجموعة من المنافيخ الضخمة تشبه الكير للنفخ في النيران. ولم تكن القوات الإسلامية تعرف شيئًا عن هذه الحيلة حتى ارتفعت ألسنة اللهب من النيران. حدث ذلك ليلاً، وأقبل السلطان بنفسه في المساء؛ وقام المقاتلون بإلقاء أنفسهم في النيران لأجل إطفائها، كما تم إلقاء المياه من قِرب المياه عليها، ولكن دون جدوى.(٣٧)

ولحسن حظ بيبرس، كان في مقدوره الاستيلاء على الحصن عن طريق الخداع، فقد قام بتطبيق مبادئ الحيل القذرة والحرب النفسية بالقرب من قلعة صفد لفرسان المعبد في الجليل حيث كانت سنوات ١٢٦٥ و ١٢٦٦ قد أصبحت سنوات رعب وهول بالنسبة للصليبيين وحلفائهما. وكان قد قام باستعراض جيشه أمام أسوار عكا في يوم ١ يونيو ١٢٦٦ وبعدها عاد إلى بلاد الشام بجيشه، وكان قد تم تقوية الفوج الفرنسي للمدينة والذي يموله الملك لويس التاسع وتحرك هو بعيدًا، مضللاً الفرسان التيوتونيون لقلعة مونتفورت، قبل أن يظهر فجأة في صفد في وقت مبكر من شهر يوليو.

وكانت القلعة محمية جيدًا كما كانت تمتلك ٣٠٠ قاذف تعمل على المنجنيقات الخاصة بها، ولكن معظم قواتها كانت من السكان المسيحيين المحليين

---

(37) In, Hillenbrand, p. 532.

من بلاد الشام والذين كانوا يعملون تحت قيادة فرسان الهيكل. وفشلت الهجمات المبدئية التي شنها بيبرس فضلاً عن القصف المستمر لأربعة عشر يومًا متواصلا في حمل الفرسان المدافعين على الاستسلام، وعلى الرغم من أن بيبرس قد تكبد ١٠٠٠ درهم في كل ضربة على حجر قام بها رجاله. فقد كاد أن يلقى حتفه في الخنادق بواسطة قذيفة تم تسديدها بدقة من جانب الفرنجة، ولذا فقد عمد إلى أساليب أكثر دهاءً. فقد أعلن العفو عن أي مقاتل من بلاد الشام يرغب في الاستسلام له. ولم يكن أي من السوريين في صفد قد أظهر أي نوع من عدم الولاء حتى هذه اللحظة، ولكن عرض السلطان جعل قادة فرسان المعبد يتحولون بدوافع الشكوك إلى حراسة زملائهم من الرجال المقاتلين. وبدء التوتر يتصاعد بين المقاتلين داخل الأسوار، وقبل أن يمضي الكثير من الوقت كان المقاتلون داخل الأسوار يمسكون بخناق بعضهم البعض. وهجر السوريون القلعة جماعات. وربما كانت مخاوف فرسان المعبد بشأن السوريين لا أساس لها من الصحة. فقد كان السوريون في الحقبة الأيوبية يعتبرون الفرنجة إحدى حقائق الحياة الثابتة، كما أن الممالك الصليبية كانت متواجدة طوال جيلين كاملين على الأقل. ولكن الأوضاع أصبحت الآن مختلفة كل الاختلاف، فالمماليك في طريقهم إلى تحطيم الممالك الصليبية وبسرعة، وإدراك هذه الحقيقة جعلت الكثيرين حتى من قوات الفرنجة الوطنيين يسرعون إلى الفرار. وكان بيبرس قادرًا في كثير من الأحيان من خلال الرسائل المزيفة وقرارات العفو على زرع الشكوك بين السكان المحليين والأوروبيين وأن يسبب الانقسام بين قوات بلاد الشام اللاتينية.

وتناقصت أعداد مقاتلي فرسان المعبد لدرجة كبيرة بحيث لا يمكن أن يحدوهم الأمل في تغطية حلقات أسوار المدينة الواسعة بأسرها. وعرض أحد الضباط المحليين من الذين لم يهربوا من الحصن التفاوض مع السلطان. وقام أحد جواسيس الفرنجة والذي كان قد تسلل إلى معسكر السلطان المملوكي بإطلاق حمام

زاجل. ولكن بيبرس أمسك بقوسه وأطلق سهمًا أردى الطائر قتيلا من الجو. وبعد أن قرأ السلطان الخطاب الذي كان يحمله الطائر أعطاه لرسول الفرنجة قائلاً "سنكون سعداء إذا كان هذا سيكفي ليعلم الفرنجة عنا كل شيء". ولم يكن هناك بوضوح شديد أي أمل يلوح في الأفق بالنسبة لفرسان المعبد، وعندما عاد الضابط للحصن برسالة مزيفة للقائد الأعلى يطلب فيه استسلام الفرسان بوعد المرور الآمن لأراضي الصليبيين إذا ما تركوا الحصن، فقط ليتم ذبحهم لآخر رجل فيهم.

وترك المماليك حامية في صفد ثم تحركوا من هناك. وسقطت المدينة الصغيرة طورون التي تقع شمالي صفد في أول هجوم لبيبرس، وتبعتها قارا وهي قرية مسيحية صغيرة تقع بين حمص ودمشق، والتي لم تكن تحت احتلال الصليبيين ولكنها كانت تقوم ببيع المسلمين إلى أسواق العبيد في عكا، وتم هدمها بواسطة قوة صغيرة من جيشه كما ذُبح كل سكانها. وطلب وفد من عكا السماح لهم بالمغادرة لدفن الموتى في قارا، فأجاب بيبرس بأنه يتعين عليهم حتى ألا يغادروا منازلهم ليجدوا شهداء أكثر بما يكفي ليقوموا بدفنهم قبل أن يمضي الكثير من الوقت. ثم سار بعد ذلك على ساحل جنوبي عكا، وكما لو كان يحاول إيضاح الحقيقة وضوح الشمس في كبد السماء لكل العالم فإنه قام بتنفيذ ما يمكن وصفه بالمذبحة في مسيحيي المنطقة. وعاد إلى مصر في خريف عام ١٢٦٦.

وفي هذه اللحظة كان يمكن للصليبيين أن يتساءلوا عن مدى صحة قرارهم بمساعدة المماليك ضد المغول في عام ١٢٦٠، وفي السنوات الأولى من ستينيات ذلك القرن كان هناك تغيير كامل ومفهوم في سياسات الصليبيين. فقد حاول الأوروبيون استمالة المغول بالدبلوماسية من قبل؛ وكان الملك لويس التاسع قد قام بإرسال الوفود إلى بلاط المغول في آسيا قبل القيام بحملته الصليبية في عام ١٢٤٨ ولكن النتائج كانت مُخيبة للآمال، فقد اعتقد المغول أن رجال الملك قد حضروا لتقديم فروض الولاء والإذعان لهم وليس التحالف معهم. واستمر موقف المغول

تجاه القوى الغربية يتسم بالاستهانة والاستخفاف طوال الوقت وحتى تفتت الإمبراطورية المغولية الفعلية بالحرب الأهلية التي نشبت بين قوبلاي خان وأريق بوكا في عام ١٢٦٠. أدرك الصف الثاني من الخانات فجأة وفي هذه اللحظة فقط أنهم في حاجة إلى حلفاء آخرين وأصبحوا على استعداد للتفاوض كأنداد. وشرع هولاكو في الاتصال بملك فرنسا لويس التاسع في عام ١٢٦٢، وكان يستهدف من وراء ذلك التنافس على استمالة الملك مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية. ويكشف خطاب تم إرساله بعد ذلك في عام ١٢٨٩ من الخان أرغون إلى فيليب الرابع ملك فرنسا كيف تم تغير أسلوب المخاطبة مع مرور السنين لقوم كانوا يّدعون بوجود حقوق إلهية لهم لغزو العالم، وكيف تم التخطيط لتطوير عمليات مشتركة، كما يكشف الخطاب كيف كان المغول يتوقعون مساعدة العالم المسيحي لهم لمساعدتهم ضد المماليك، وهو العدو الذي أصابهم باليأس المتزايد من إمكانية إلحاق الهزيمة به أبدًا:

"نحن نوافق على اقتراحكم الذي قمتم بنقله إلينا في العام الماضي .. إذا ما قامت جيوش الإليخانات بشن الحرب على مصر، فإننا أيضًا سنشرع أيضًا من هنا بالزحف إلى المعركة والهجوم .. في عملية مشتركة.

وقررنا نحن.. بعد أن استخرنا الله أن نمتطي ظهور خيولنا في الشهر الأخير من شتاء (عام١٢٩٠).. وأن نترجل خارج دمشق في يوم ١٥ من أول شهور الربيع (عام ١٢٩١)، فإذا ما أمكننا بفضل الله من هزيمة هؤلاء الناس فإننا سنعطيكم القدس.
وإذا ما فشلتم في الوصول في الموعد المناسب، فإننا سنقوم بقيادة قواتنا للقيام بعملية إجهاضية ضد قواهم، فهل يناسبكم

هذا الأمر؟ وحتى إذا ما قررتم الاعتذار عن الاشتراك، فما الذي يمكن أن يفيدكم فيه ذلك؟."(٣٨)

ولم يسفر أمر هذا الخطاب عن شيء بالنسبة للدول الصليبية. فقد كانت المشكلة الأساسية هي نفس المشكلة التي واجهت تحالف المماليك والقبيلة الذهبية: فقد كانت المسافة بين القوتين شاسعة جدًا بما لا يسمح بالتنسيق الفعال بينهما. كما واجه الصليبيون مشكلة أخرى، وهي أنه لا يمكنهم الاتفاق بين بعضهم البعض والمغول وحلفائهم الآخرين على كيفية العمل ضد المماليك. فقد كانت كل من البندقية وجنوه تواجهان حرب استنزاف غير مُعلنة بين بعضهما البعض حول موانئ الشرق، كما أن فرسان الإسبتارية وفرسان المعبد المقدس كانوا ضالعين في تنافس سياسي ضار بين بعضهما البعض حول أرباح تجارة عكا. ولم يكن هناك حتى أي نوع من المساعدة لحليفتهم أرمينيا من الممالك الصليبية غير من فرسان قلعة بغراس عندما قام جيش المماليك بقيادة أميرهم قلاوون بالتحرك ضدهم في عام ١٢٦٦؛ ومع مرور الوقت وعندما عاد ملكها هيتوم من العاصمة المغولية تبريز وجد عاصمة بلاده قد تم نهبها.

وبدأ جيش قلاوون زحفه من القاهرة في نفس توقيت حملة بيبرس في صيف عام ١٢٦٦، وشن العديد من الهجمات على الأراضي الواقعة حول طرابلس ومنها مدن أنطاكية التي يحكمها بوهيموند، وقام بالاستيلاء على قلاع القليعات وحلبا ومدينة عرقة، قبل أن تبدأ في التحرك لمهمتها الأساسية وهي الانضمام للمنصور وهو الأمير الأيوبي بطل موقعة حمص، ومن أجل إنزال أقصى قدر ممكن من الدمار على أراضي الملك هيتوم. وبذل ملك أرمينيا العديد من المحاولات منذ عام

---

(38) In, D. Morgan, The Mongols, Oxford: Blackwells, 1990 p. 184.

١٢٦٢ وحتى عام ١٢٦٤من أجل تأمين موضع قدم له في شمال بلاد الشام. وتم صده في حلب في عام ١٢٦٢، وفي نفس العام وبينما كان يقوم بمهمة نهب سرمين فوجئ بحملة مملوكية قامت بنصب كمين له في مسجد وأوقعت به هزيمة منكرة. ويمكن للمرء أن يتساءل كم من جنود المماليك بدروعهم الكاملة يمكنهم الاختباء في مسجد وتبعًا لذلك كيف كان قتال الجيش الأرمني هزيلاً. وتبقى الحقيقة الناصعة وهي أن الملك بمفرده هو الذي نجا فقط من المذبحة. وقام بتجميع جيش آخر ومرة أخرى في عام ١٢٦٤ وتجنيد نحو ألف من البدو كجنود احتياط من أجل شن غارة أخرى، ولكن نظام بيبرس التجسسي مكّنه من توجيه ضربة إجهاضية ضد القوة من حمص وحماة، وتم إعادة الملك هيتوم مرة أخرى داخل حدود مملكته بعد أن لقي جيشه هزيمة مريرة.

وأنهكت كل هذه الهزائم كاهل الملك، فلم يجد مناصًا من أن ينكب على مفاوضات سرية مع بيبرس لتأمين شيء من الحياد تجاه مملكته عن طريق دفع الجزية لمصر، ولكنه لم يستطع أن يتوافق مع شروط بيبرس بشأن التنازل عن القلاع الأمامية لخشيته من حلفائه المغول. وفي الحقيقة فإن بيبرس لم تكن لديه أي نوايا حتى لمحاولة خلق سلام مع أرمينيا. فقد كان يشترك في مفاوضات سرّية مع حلفاء من المغول، وكما فعل مع جورجيا عام ١٢٦٤، وذلك من أجل ابتزازهم بالتهديد بكشف أنشطتهم التخريبية ضد المغول. وكان العائد عليه من هذه الحيلة هو الامتثال بالإكراه للمراسلات أو وجود فرصة معقولة للإليخانات في معاقبة تابعيهم إذا ما وصلت هذه المراسلات إلى أيديهم عن طريق سوء الحظ أو الخطأ من جانب بيبرس. وقام بيبرس باستخدام هذا الأسلوب أيضًا للي أذرع المنشقين المحتملين من الحكومة المغولية. فقد قام بيبرس بالتلويح بالتهديد بكشف مراسلاته السرية مع عضو سابق في حكومة العباسيين استمر في شغل وظيفة عليا في

الإدارة المغولية وهو البغدادي. وكانت الآلية التي يستند إليها في الكشف عن هذه الرسائل الإجرامية تتلخص في إرسال اثنين من المبعوثين إلى البغدادي ويعطي تعليمات إلى واحد منهم بقتل الآخر وترك جثته، ومع الجثة دليل من رد الخطاب المزيف وعَرضْ بيبرس له بمنحه اللجوء السياسي، حيث من السهل على المغول الاهتداء إلى الخطاب المزيف. ولم يكن أمام البغدادي اختيار إلا الهروب عندما تجرى المؤامرة مجراها. وفر البغدادي إلى مصر وأكرم السلطان وفادته وعامله معاملة حسنة على انشقاقه.

ولم يلق الملك هيتوم معاملة حسنة من السلطان. وترقب أبناؤه مع القوات الأرمينية لهجوم السلطان قلاوون على أبواب بلاد الشام، وعلى سهل صغير منخفض بين المدينة الساحلية الإسكندرونة وبداية المرتفعات شرق المدينة، ولكن قلاوون والمنصور مضيا قُدما عبر المرتفعات ودخلا أرمينيا بدون أن يعترضهما شيء ثم شرعا في نهب المدينة. وتحرك أمراء أرمينيا بسرعة من أجل ملاقاة الجيش المغولي، واشتبك الجيشان في سهل يقع إلى الشرق من طرسوس. وكان الجيش الأرمني أقل عددًا وأقل كفاءة، ثم إنه تم إرسالهم لميدان القتال بلا نظام. وكان موت أحد الأمراء وأسر آخر يعني أن البلاد أصبحت بلا قيادة. وقامت قوات قلاوون بنهب مدن أياس، وأضنه، وطرسوس، أما المنصور فقد أخذ على عاتقه نهب العاصمة سيس الواقعة في الشرق. وتم تفتيش ونهب قصر الملك هيتوم، كما تم قتل الآلاف من السكان، بالإضافة إلى أسر أربعين ألفا اصطحبهم الجيش معهم إلى حلب. كما أُحرقت الكاتدرائية، وعندما عاد الملك بعد لقاءاته في البلاط المغولي كان هناك النذر اليسير فقط من بنيان عالمه الذي تركه لا يزال باقيًا ليكون تحت حكمه. أما أنطاكية فقد حُرمت من حلفائها المحليين، وتتطلع الآن إلى الصداقة المشكوك فيها من المغول.

واكتملت أكثر فترات مسيحيي الشرق تعاسة بهزيمة الفرقة الفرنسية في عكا مع كتيبة من فرسان المعبد أثناء غارة مضادة حاولوا شنها خلال المنطقة التي يسيطر عليها المسلمون آنذاك وهي الجليل. وهوجم معسكر لجيش الصليبيين في يوم ٢٨ أكتوبر ١٢٦٦ بواسطة بعض البدو وكانت القوات التي تقودها مختبئة في كمين لحامية من مماليك صفد والتي برهنت على أنها قاعدة ذات فائدة عظيمة لجيش السلطان. وابتعدت بقية قوات الصليبيين إلى عكا. وكانت النقطة المضيئة الوحيدة أن قواعد الحرب التي سادت ما قبل بيبرس في الشرق عادت للظهور لفترة وجيزة فقط عندما استطاع بوهيموند أن يقوم برشوة الأمراء الذين أرسلهم بيبرس للهجوم على أنطاكية في خريف عام ١٢٦٦. وربما كان تصرفًا لا يتسم بالحكمة، ورغم أن هذا التصرف لم يكن له تأثير فإنه أثار غضب السلطان فقط.

وانصب غضب السلطان من خلال جيشه، وبالتحديد من خلال قوات مماليك الحرس السلطاني، والتي كانت بطبيعة الحال الأفضل تدريبًا في الجيش بأكمله. غير أنه كان يختفي تحت هذا المستوى من التدريب الكثير من اللامبالاة حقًا، وليس فقط لأن حجم الجيش ازداد بسرعة هائلة تحت قيادة بيبرس لدرجة أن الضغوط على الموارد أصبحت هائلة، وعلى الرغم من أن بيبرس كان يوجه موارد الدولة أكثر فأكثر لخدمة الجيش، ولكن لأنه كان من المستحب من الناحية السياسية أن يكون تدريب قوات الجيش الذين هم خارج قوات الحرس السلطاني محدودًا، فقد قام بيبرس بزيادة حجم الجيش في عهده ليبلغ ٤٠ ألف فارس بالإضافة إلى قوات المشاة وقوات الاحتياط؛ وقد امتلك بيبرس ما يزيد عن عشرة آلاف فارس مقاتل واحتياط في مستهل بدء فترة حكمه. وكان معظم قدامى المقاتلين من قوات الأيوبيين من مقاتلي "الحلقة"، وكان هؤلاء فرسان غير مماليك، ولكنهم مع ذلك يظلون وحدة مقاتلة من الدرجة الأولى بأي معيار من معايير الجيوش آنذاك. ولكن تم تهميشهم وأصبحت قوات المماليك السلطانية هي العمود الفقري للجيش.

وازدادت أعداد المماليك الظاهرية (نسبة إلى الظاهر بيبرس) من ألف مقاتل إلى خمسة آلاف مقاتل من خلال قيام السلطان بشرائهم بنفسه، أو من خلال وراثة السلطان لمماليك الأمراء المماليك الذين يموتون أو من خلال الأمراء الأيوبيين الذي انهزموا في حروبهم ضده.

ومن الناحية النظرية، فإن حياة المملوك تعتبر عادية، بعيدًا عن حياة الحرب. حيث يتم إرسال المملوك المبتدئ بعد شرائه من تجار العبيد، إلى الطباق، وهي المدارس العسكرية في قلعة القاهرة، وكان كل طباق يمكن أن يأوي ألف مملوك من المتدربين، وبحلول القرن الثاني عشر كان هناك ما يقرب من اثنتي عشر من هذه الطباقات في القاهرة. ولا يمكن للملوك المبتدئ أن يغادر هذه الثكنة في فترة التدريب، ومخالفة أو انتهاك قوانين هذه الثكنات كانت عقوبة قاسية للغاية. وكان هناك قانون واحد تم سَنْه لمحاولة حل مشكلة مستمرة في المجتمع المملوكي العسكري والتي تفاقمت إبان حقبة تدهورهم، وهو القانون الذي كان يقضي بالموت على أي مملوك مبتدئ يتم ضبطه في وضع اللواط مع أي مملوك من قدامى المماليك. وكان المراهقون منهم يتم وضعهم تحت رعاية الخصيان في المعسكرات – وربما للقلق من المشكلة السابقة – فقد كانوا يأتون في البداية تحت رعاية مدرسي التربية الدينية حيث يتم تعليمهم القرآن، والصلاة، والشريعة والخط العربي. ولكن وعلى أي حال، فقد لوحظ أن قراءة اللغة العربية بدأت في التراجع لدى المماليك كفرض إلزامي بعد أن صارت سلالة المماليك أكثر نضجًا وبدأت بطريقة إيجابية تنأى بنفسها عن عامة الناس وربما بشكل كامل. وكان تعليمهم الديني كما كان في سامراء عقائديًا وضيقًا. وكان هناك تأكيد في ذلك الوقت على إحاطة المماليك المبتدئين علمًا بعظمة الحضارة الإسلامية التي يحاربون من أجلها. ويمكن للمرء أن يتذكر الطريقة التي كان بها يتم نشر "المنهج البريطاني والهدف" بين أفراد قوات دول الكومنولث أثناء الحرب العالمية الثانية.

يبدأ المملوك المبتدئ تدريبه طبقًا لقواعد الفروسية عندما يبلغ من العمر ١٨ سنة قمرية أي ما يقرب من ١٤ سنة شمسية. ووصف المقريزي المملوك الذي أنهى تدريبه بقوله: "تمجيد الإسلام والمسلمين يتم زرعه في قلبه، ويصبح قويًا في رمي السهام، وفي استخدام الرمح، وفي ركوب الخيل". وكان تعلم المهارات العسكرية ينقسم رسميًا إلى تدريبات على الفروسية، واستخدام الرمح، ورمي السهام، والمبارزة. وتحوي الكلمة العربية "الفروسية" ثلاثة أجزاء من مهارات الفرسان: علم، وفن، وأدب. وفي تلك الآونة من التاريخ أصبح الرجل الفارس مميزًا كطبقة اجتماعية في المجتمع. وكان هناك جانب معترف به من الفرسان في المجتمعات الغربية من رجال الدين والعمال وذلك على الأقل منذ القرن التاسع، كما أن ذلك التقسيم الثلاثي كان موجودًا في الإسلام منذ وقت مبكر في التاريخ أيضًا، ولكن المماليك في مصر قاموا بتنظيمه على نحو منهجي مشابه لجماعات الفروسية في الغرب الأوروبي.

كان مفهوم الفروسية في حقيقة الأمر أقدم بكثير من عصر سلاطين المماليك. فقد كانت له أهميته بالتأكيد في بواكير عصر الخلفاء العباسيين. وكانت هناك أبحاث مكتوبة للخليفة المعتصم عن صناعة الأسلحة من الصلب في أوائل القرن التاسع، كما أن ممارسي رياضة البولو من السلطنة المملوكية في مصر وبلاد الشام استمروا في استخدام أساليب الرياضة وقواعدها، كما دأبوا في الحقيقة على كتابة ونقل أعمال قواعد الفروسية عن الرياضة منذ أوائل العصر العباسي، وبدون إدخال أي تعديلات على الموضوع والتي كانت تساعد اللاعبين في بلاد فارس في القرن الثامن[٣٩]. ويمكن في واقع الأمر اقتفاء آثار الفروسية في الماضي إلى أبعد من ذلك، فمن المؤكد أن آخر الخلفاء الأمويين مروان الثاني أرسل لابنه

---

(39) Cf. S. Al - Sarraf, "Mamluk Furusiyah Literature", Mamluk Studies Reiew, vol 8, no 1, 2004, p. 197. .

إرشادات كاملة عن كيفية إدارة الحرب وتوجيه القوات في خطاب يعود إلى عام ٧٤٦ وهذه التعليمات تحمل كل السمات المميزة للمنهج العلمي للفروسية في الحرب. وهي تعالج موضوعات إدارة الحرب، والتدريب والعناية بالخيول، وأساليب الفروسية، وطرق امتطاء الخيل ولبس الدروع كما تشتمل أيضًا على كيفية استخدام بعض الأسلحة ببراعة تامة، والتحركات المتناغمة للفرسان في ميادين القتال، وأساليب القتال الفردي المتلاحم، ثم بعض الأساسيات في علم الطب البيطري. بل ومما يثبت حقيقة أن هناك بالفعل مجموعة كبيرة من الكتابات الكاملة تغطي شتى المجالات حتى قبل السلاطين المماليك هو أن كثيرا من المؤلفين في عصر المماليك استمدوا الكثير من أعمال سابقيهم بل وأشاروا إليها وإلى ألمعية الكتاب السابقين عليهم.

ومنحت سيطرة الفروسية والحرب على هاجس المملوك كغاية في حد ذاتها أكثر منها وسيلة للسلطة المجتمع العسكري المملوكي شخصيته المتميزة. وبالإضافة إلى ذلك، وبالنظر إلى الجهاد كقيمة عليا، وقيمة الوفاء لرفاق الخشداشية (رفاق التعلم في نفس الطباق الذي يتلقون فيه العلم)، وانفصالهم عن الاتجاهات السائدة في المجتمع المصرين هو ما وضع حدود الطبقة الاجتماعية المنغلقة للمماليك. ويتبنى نظام هذا الطبقة المنعزلة فضائل متميزة على الرغم من أنها غير مدونة، مثل الشجاعة، والجرأة، والشهامة، والكرم. ويوضح كتيب الحرب للمماليك ما يأتي:

إذا ما حدث أن أحد أفراد الجيش أراد التراجع لخوفه من القتال، أو معاناته من الإصابة، فلا يجب لأي واحد من أفراد الجيش إعاقته بالوقوف في طريقه، أو القيام بإعادته إلى الخلف مع المقاتلين؛ ولكن بدلاً من ذلك تتم معاملته برفق وتهدئته حتى يصل إلى مؤخرة ترتيب القتال(٤٠).

---

(40) In, Scanlon, p. 72.

وكان يتم نشر مثل هذه المُثل في مجتمع المماليك؛ وقد كانت دروع المماليك تحمل عبارات محفورة مثل: "أبو الفقراء والمساكين، قاتل الكفار والمشركين، باسط العدل بين الجميع". ولكنه، مثله مثل نبلاء الفرسان في المسيحية، ومقاتلي الساموراى في اليابان، فقد كان الأمر الواقع مختلفًا تمامًا. وكان المماليك مغرمين بالغنائم مثلهم مثل "الرجل التالي له" (يقوم المؤلف بالتلميح إلى فيلم شهير في العالم الغربي يسيء للعرب تم إنتاجه عام ١٩٧٦ - المترجم)، وكانوا قادرين على الخيانة وعلى ممارسة أقصى درجات القسوة ضد المدنيين، وحتى الجُبن أمام العدو وإن لم يكن قد وصلنا شيء عن ذلك، ولكن ما كان حيويًا لنمط حياتهم هو أنه كانت هناك مُثل عُليا، وكانت الفروسية في القلب من تلك المُثل.

وكان مقاتلو الساموراى اليابانيون يقضون لياليهم في السمر عن فن الحرب، أما المرشحون ليصبحوا فرسانًا في الغرب فقد استمعوا في طفولتهم إلى قصص البطولة والشجاعة، وقُدمت لهم النصائح بالبحث في مكان لهم تحت الشمس من أجل الشرف عندما يبلغون مُقتبل العمر. وعل نفس المنوال فإن حياة المقاتل المملوكي بأكملها كانت تدور حول الفروسية، ونحن متيقنون تمامًا، أن المماليك أينما جلسوا في تجمع مع رفاقهم، فإن الموضوعات التي كانت تُسيطر على المجادلات أثناء وجبات العشاء كان دائمًا هو كتيب الفروسية، وقصص الانتصارات السابقة والتي تدور حول اقتباسات منها، والهزائم التي حدثت، والخدع الحربية التي تستحق الإشادة بها والإشارة إلى الدروس المستفادة منها. ولا يتطابق الكثير مما نجده في كتيب الفروسية للسلاطين المماليك مع الحروب المعاصرة لهم في حقيقة الأمر، ولكن المؤلفين يقومون بذكرها لاستعراض معارفهم عن الحروب الإغريقية والفارسية التقليدية، وذلك بافتراض أن يسلك قراؤهم نفس النهج. وعلى نفس المنوال، فإنه دليل على أن الكثير من الموضوعات كانت عبارة عن نقل صريح عن أبحاث للحروب في الفترات الإسلامية المبكرة والمفقودة في الوقت

المعاصر، أو مجرد مسامرات لبعض السابقين عليهم. فعلى سبيل المثال نُوقش القضيب الشائك أو العمود الثقيل المستخدم في أوائل العصر العباسي بطريقة مطولة في كتاب الفروسية المملوكي، رغم أن هذا السلاح لم يُعد مستعملاً بفترة طويلة قبل بداية السلطنة، ويُبدي المؤلف جهله التام عن مواصفات السلاح بأن يذكر أنه يزن نصف كيلوجرام تقريبًا، ولكنه في حقيقة الأمر أثقل من ذلك بأكثر من عشرين ضعفًا(٤١).

وزودت مخطوطات الفروسية للمماليك بصور جميلة، ومن الواضح أنه كان يتم الاحتفاظ بها كأشياء نفيسة. كما أن النصوص القديمة كان يتم التوسع فيها وتنقيحها بإضافة أساليب عسكرية جديدة. ويلاحظ ذلك بطريقة ظاهرة في النصوص المملوكية عن حروب الحصار، والتي أُحدثت فيها ثورة في عهد بيبرس وعصور المماليك المتأخرة عندما تم إدخال المدفعية والأسلحة النارية والتي كانت تعتبر تحديًا للأساليب الحربية القديمة وتتطلب تحليلاً جديدًا للإستراتيجية الحربية. وكان استخدام الرسوم التخطيطية للمناورات القتالية الموسعة للفرسان إضافة جديدة للسلاطين المماليك لكتيبات الحرب السابقة عليهم. كما أن الطبعات الجديدة كانت تحتوي على تكوين وتشكيلات الجيش، كما كانت تحتوي على صور خاصة باستخدام النيران وستائر الدخان لخداع العدو، وحتى معالجة الجروح تناولتها هذه الكتيبات بالشرح والتحليل. وتعرض موضوعات القرن الرابع عشر انهيار تكتيكات المغول الحربية وتحليلاً مفصلاً لتلك الأساليب. فيقدم لنا كتيب الأنصاري هذا التحذير المفيد، والذي يبدو بوضوح أنه يتعلق بالمغول:

> "إذا ما أثارك العدو على الهجوم عليه وقام بإثارة الغبار فإن الهجوم عليه يجب أن ينتظر حتى ينقشع الغبار تمامًا خشية وجود

(41) Cf. Al- Sarraf, p. 177.

> كمين. وإذا ما ولى العدو الأدبار، والمسار الذي سلكه مؤكد، فإن الجيش بأكمله لا يجب أن يتبعه، ولكن بالأحرى قوة من الجيش بينما يقوم البعض الآخر بالاستيلاء على الغنائم، أما الباقون فيجب عليهم تغطية تلك العمليات، وبالنسبة لهم ككل، فإن تتبع العدو بكامل الجيش عمل يستحق اللوم[٤٢].

وبخصوص الأبحاث المتعلقة بالمعرفة العسكرية، فمن الواضح أن ذلك قد جاء حسب تصميمات رمي السهام التي كُتبت بواسطة قائد الرماة طيبغا البقلميشي اليوناني (المتوفى عام ١٣٩٤م). ويجعل موضوع الدخول في تدريبات رمي السهام معادلاً لنفس أهمية دخول المسجد. ويتم توجيه المتدرب لأن يسلك سلوكًا توقيريًّا خلال الصلاة وأن يقوم باستغلال هذا الوقت من أجل الاسترخاء والتركيز قبل البدء في تجهيز القوس والسهام. وتُولي تعليمات الفروسية بالغ الأهمية لتعليم الفارس المبتدئ كيف ومتى يقوم بتشمير أكمامه وكيف يقوم بربط ثيابه من أجل التدريب. وأوجه التشابه بين هذا، وبين الكيودو (**Kyudo**) وهو فن رمي السهام الياباني واضح تمامًا؛ فيجب على مُتدرب الكيودوجو (**kyudojo**) أن يندمج في حالة تأملية، ودائمًا ما يكون هناك معبد للشنتو على منصة مرتفعة للمتدربين، كما تُعطى تعليمات للمتدربين عن كيفية ربط ما يرتديه من أوبي (**obi**)، أو هكاما (**hakama**)، وهما حزام الوسط والجزء السفلى من الملابس.

كان المملوك المبتدئ يبدأ الدخول في تدريبات الرماية باستخدام قوس معتدل ومرن. كما أن كل التدريبات كان يتم التدرج فيها بعناية بالغة، حيث يخضع المتدربون لمتطلبات التدريب بدءًا من الأعمال البسيطة التي تتطلب جهودًا جسمانية بسيطة والانتقال تدريجيًا إلى التدريبات الشاقة ذات المهارات العالية التي تتطلب

---

(42) Al-Anssri, in Scanlon, p. 106.

قوة بدنية وقوة تحمّل هائلة. ومن المعلوم أن كل أطفال القفجاق قاموا باستخدام الأقواس وامتطوا الخيول الصغيرة في السهوب قبل أن يقوم تجار الرقيق بجمعهم وبيعهم في أسواق الرقيق، ولكن تدريبات المماليك كانت تتطلب من كل متدرب أن يبدأ مرة أخرى من المبادئ الأساسية - وربما كان النظام السائد في العصر الحديث الذي يرمي إلى تغيير شخصية المُجندين الجدد كلية سيلقى استحسان أساتذة التدريب من المماليك. وكان يتم تعليم المتدرب الجديد كيف يمكن تقليد قبضة "مخالب الصقر" وذلك بمحاكاة ما يفعله المُدرب وبدون سهام ولعدة أيام على التوالي؛ كما كان يتم التأكيد بشدة على القبضة الصحيحة وكيفية الإطلاق بعد ذلك. وكما يعرف كل رام للسهام، فإن كل إطلاق يشبه الآخر، ولكن يتم تحديد ارتفاع الهدف بالنسبة للمسافة، كما أن كل سهم يتم إطلاقه بنفس درجة الشد، والإطلاق المتناغم للسهام، وبصفة خاصة فإن إطلاق الجنود للسهام كمجموعة واحدة له أهميته البالغة. وينتقل المتدرب إلى التدريب بالسهام بدون ريش والتي يتم إطلاقها لمرات عديدة، ويتم ذلك من مسافة قريبة على أنبوب من الجلد المحشو بالقطن ويسمى بوتايا "**buttiya**". ومرة أخرى فإن أوجه التشابه بين هذه التدريبات وبين التدريبات اليابانية القديمة باستخدام أهداف تسمى ماكيوارا "**makiwara**" طولها يساوي طول القوس (مترين فقط) بالنسبة للرامي كان أمرًا خارقًا للطبيعة، وفي الحقيقة فإن مساحة الهدف في تدريبات المماليك كانت تبلغ "**dihra**" واحدة فقط (٦٦،٥ سم). وأثناء هذه التدريبات التي تمتد لفترة كبيرة من الوقت، فإن المتدرب كان يتقدم لأربع مراحل أخرى من الأقواس التي تزداد فيها درجة الشد(٤٣). وتبلغ درجة الشدْ في المرحلة النهائية ما يساوي ثلاثين كيلوجرامًا وهو الذي كان يستخدمه القواس في ميادين القتال.

كَتَبَ طيبغا قصيدة من مائتي بيت كان يتعين على المتدربين المبتدئين حفظها. وتعْطى قراءة القصيدة تعليمات كاملة عن كيفية إطلاق السهام بطريقة

---

(43) Cf. H. Rabie , "The Training of the Mamluk Faris" in Parry and Yap.

صحيحة ابتداء من إعداد القوس، إلى وضع الساقين، وتركيب السهم في القوس، والتصويب تجاه الهدف، ثم الإطلاق نحو الهدف. ويمكن أن تتوارى شهرة كتاب روبرت أسكام الكاتب الإنجليزي الشهير في الرماية بالقوس والسهم إلى جانب التفاصيل التي يوردها كتاب المماليك والوضوح الذي تشرح به أنواع الأقواس والسهام والتي تقوم بتغطيتها بالتفصيل الدقيق، ولكن هناك الأكثر من ذلك، وهو الغوص في تفاصيل متناهية الصغر مثل كيفية تجنب ارتعاش اليد والذراع، وكيفية معالجة وتجنب القروح والإصابات التي يمكن أن تنجم عن أوتار القوس.

وكان الجندي المملوك فارسًا عسكريًا، وكان على الدوام يستخدم قوسه وهو على سرج حصانه، ولذا فإنه أولاً، وبطبيعة الحال، يجب أن يتعلم كيف يعتلي صهوة الجواد، أو يعيد تعلم فن ركوب الخيل. ويبدأ المملوك المبتدئ في تعلم ركوب فن الخيل على سطوح آمنة مثل هياكل خشبية على هيئة الخيل. كما يقوم المُدرب بتعليم المبتدئين كيف يعتلون ظهور الخيل بسرعة ورشاقة، ثم يستمر في تدريبهم بعد إضافة السرج على ظهر الخيل، ثم يتطور التدريب بعد ذلك إلى كيفية اعتلاء الحصان وكيفية الترجل منه بينما يلبس دروع الحرب الكاملة. ويصف كتاب الفروسية المملوكي بالتفاصيل والتعليمات الدقيقة كيف يمكن للفارس أن يرتدي سترته الواقية وكيف يمكنه أن يقوم بخلعها بينما الحصان يعدو في وضع الحركة، ويمكننا التيقن من أن هذه التدريبات كان يتم أداؤها؛ بإدراك أن القدرة على خلع السترة الواقية في صيف بلاد الشام القائظ لم يكن ترفًا على الإطلاق، فقد كان أمرًا ضروريًا كيفية الاحتفاظ بالمقدرة القتالية للجنود في الظروف الجوية القاسية. وعندما يكون المتدرب مستعدًا للتدرب على الحصان الحقيقي، فإنه يعود مرة أخرى للتدريب بدون لبس الدروع الكاملة وبدون وضع سرج الحصان، ويتدرج في التقدم من السير الوئيد للحصان ثم الجري المعتدل، ثم المرحلة الأخيرة بأن يجري الحصان بأقصى سرعة له.

وكانت معظم التدريبات شبيهة بما يلي – خطوتان للأمام وخطوة واحدة للوراء – بالتكرار المستمر وبطريقة مختصرة للأساسيات. وكان قادة المماليك تواقين بشدة في أن يكون رجالهم قادرين على التنبؤ بمختلف الاحتمالات التي يمكن أن يواجهونها في كل شيء يفعلونه ومتماسكين أثناءها لأقصى قدر ممكن؛ فإذا ما كان الجيش وأعداد الجند معروف سلفًا، فإن القائد يتوقع أن يتم تنفيذ المناورات في ميادين القتال بنفس الكيفية التي تتم بها في التدريبات. وليس هناك أدنى قدر من الشك في أن المقدرة على الزحف قُدمًا للأمام وبنفس تشكيل الوحدات تحت وابل من قذائف سهام العدو كان هو المفتاح الرئيسي في كسر تسلسل قدرة المغول على إعادة التسلح وتغيير الخيول والعودة للقتال في موقعة عين جالوت. وكما يتعلم المتدرب الاستدارات الحادة، والقفز والوقوف على ظهر الحصان وفوق السرج وركاب السرج. فإنه يتوقع من المتدرب، بعد الوصول إلى هذه المرحلة، أن يدرس صحة وأمراض الحصان وأن يسهر على رعايته وأن يقوم بعقاله. وكما يوضح كتاب الفروسية للمماليك كيف يمكن معرفة الجندي الرديء من الجندي اليقظ بسهولة تامة وذلك من الحالة الرثة لرباط السرج على حصان الجندي المهمل، وكيف أن الجندي لا يكتمل تدريبه إلا بعد أن يتعلم جيدًا كيف يعتني بحصانه المريض حتى يتعافى تمامًا.

ويتسم كتاب الفروسية بالدقة في تحديد كيفية كبح جماح الفرس كما يمتد ذلك إلى كيفية التحكم في كل قطعة من قطع معدات القتال. وتتلخص الفكرة في أن المقاتل يجب أن يكون متوازنًا تمامًا في كل حركاته حتى يمكنه الوصول إلى أسلحته بسرعة ورشاقة وبغير أن يثير الحصان بحركاته أو إفساد حركات الفارس. كما أن من المعتاد أن يقترن نوعان من السلاح في كتاب الفروسية للمماليك بغرض عرض المزايا الخاصة بكل سلاح والاستخدامات الخاصة لكل نوع من أنواع الأسلحة وبغرض الإشارة إلى التوازن والوضع المطلوبين ليكون المقاتل في

أفضل حالاته. ويناشد الكتاب المقاتلين ألا ينسوا حمل الخنجر، وهو مدية كبيرة سواء في الحرب أو السلم. ويمكن استعمالها بنفس الطريقة كسيف أو مدية في نفس الوقت كما يمكن أيضًا قذفها. وكان من المعتقد أنه المصاحب الضروري للرمح، لأنه يمكن استخدامه عندما يستعر القتال ويكون أقرب إلى القتال المتلاحم وعلى مسافة أقرب من طول الرمح. ويوصى المقاتل الذي يحمل سيفًا بأن يحمل بالإضافة إليه أسلحة قاذفة مثل الرمح الخفيف أو المقلاع. ويمتد ازدواج السلاح ليشمل الدبوس أو الفأس والتي تصاحب الرمح المعتاد أو الرمح الخفيف.

ومن الجدير بالذكر أن كتيبات الفروسية وهي تحتفي بالفوائد الجمة لحمل زوجين من نفس نوع السلاح ولكل الأسلحة على وجه التقريب فإن القوس نادرًا ما يرد ذكره. ويرجع ذلك إلى أن القوس كان يمثل القلب من جوهر أسلحة المماليك وحمله أمر بديهيي مفترض ولا يحتاج إلى تذكير. ويُعد الفارس المقاتل هو ذروة الكمال في تدريبات الفروسية وهي التدريبات التي تكشف بوضوح عما إذا كان المملوك المبتدئ قد اكتسب التوازن، ورباطة الجأش ورشاقة الحركة التي تستهدف أن تغرسها بداخله موضوعات وتعاليم الفروسية. ويجب أن يقوم الفارس المقاتل بإثبات كفاءته في تدريبين أساسيين هما إسقاط سلة مملوءة بالرمال– وتعتبر ضربة قاتلة للمشاة – وضربة سريعة على هدف دائري مرتفع من خلال حلقة مثبتة على عمود بارتفاع سبعة أمتار.. وتعتبر تدريبًا على مجموعة مهاجمة من وحدات العدو. وكلتا الضربتان يجب تنفيذهما من على ظهر الفرس وهو يعدو بأقصى سرعته والفارس يقف على ركابي السرج، ومائلاً للأمام على مستوى أذني الحصان في الضربة الأولى، ثم وهو ثابت على جنبيه في الضربة الثانية. ويتطلب الأمر تحقيق ١٠٠% من الهدف للملوك المبتدئ للوصول إلى درجة فارس.

وكان يُطلق على الهدف المرتفع "القبق" وكانت الرماية عليه من أنواع الرياضة المُحببة حتى بين الرتب العليا من المماليك. فقد كتب ابن تغري بردي،

في القرن الخامس عشر يحكي لنا كيف أن السلطان الأشرف خليل كان يأتي مع أصدقائه إلى ميدان التدريب من أجل الرماية على "القبق" في عام ١٢٩٣، وكان الفارق الوحيد بين مباريات السلطان وتدريبات الطباق العادية أن التصويبات الدقيقة كان يتم فيها إطلاق سراح حمامة من حلقة مصنوعة من ثمرة من ثمار القرع العسلي على قمة سارية، ويكون أول من يطلق سراح الطائر هو الذي يفوز بوشاح الشرف والإناء الفضي. وبالمثل كان بيبرس يقوم بعرض الخيول العربية الأصيلة والتي يتم توريدها من المدينة على الأمراء الذين يقومون بتحقيق الدرجات النهائية الكاملة في رماية القبق. وربما تباهى المؤرخ الروماني فيجيتوس "**Vegetius**" بأن التدريبات الرومانية كانت حروبا غير دامية ولذا فقد كانت حروبهم تدريبات دامية، ولكن أنشطة الترويح المملوكية كانت معادلة للتدريبات العسكرية. وكانت منافسات الرماية للفرسان الراكبة، والأكروبات وعروض القتال من على ظهور الخيل كلها أمور معتادة، وغالبًا ما كانت تجري مرتين في الأسبوع. وكان بيبرس وضيوفه أثناء زيارات مبعوثي القبيلة الذهبية يشاهدون عروض الرماية بالسهام والتي كانت تستمر لأيام عديدة.

ودائمًا ما كانت حظوة لعبة البولو موضع نقاش وبالذات من حيث متطلباتها من التحكم الجيد في الحصان وبالذات في الاستدارات الضيقة والانطلاقات الفجائية وهي تحاكي تلك المهارات المطلوبة في ميدان القتال ولكن بدون عنف، ولقد ذُكر أن بيبرس كان دائمًا ما يقوم بممارسة لعبتين في كل أسبوع، واحدة منها في دمشق والأخرى في القاهرة. كما كان يتم إدخال المتدرب المبتدئ في المناورات المطلوبة للاعب البولو عن طريق أحد لاعبي البولو من كبار الأساتذة في طباق بيبرس من خلال بنود تدريبات الرماح. ويتعلم كيف يقوم بتسديد الرمح سواء عند الهجوم أو التراجع، وكيف يطعن ويقوم بتفادي الطعنات والتخلص من الأعداء. كما أن الكتيب يُعطي النصائح للمتدرب كيف يمكنه التخلص من المواقف الصعبة؛ وأمكن تبديد

الوصف الشائع للرمح بأنه السلاح الطائش الذي يستخدم للهجوم من أجل الحصول على كل شيء أو لا شيء، وذلك بالتدريبات المنهجية الراقية لاستخداماته بين المماليك. كما أنه من المتوقع أن يكون المملوك المبتدئ في نهاية فترة تدريبه قادرًا على رمي الرمح وهو على ظهر الخيل الذي يعدو بأقصى قوته على هدف مكون من برج من سبع صناديق ضيقة وبه حلقة من أعلى بما يساوي ارتفاع قامة المتدرب. ويجب على المتدرب أن يقوم بالقذف من خلال الحلقة وبدون أن تتحرك الأجزاء الأخرى من الهدف ليتم اعتبارها تسديدة ناجحة. وكما يتم اختباره بتنويعات أخرى على الهدف. ويذكر لنا كتيب نجم الدين الرماح للفروسية أن المخاريط يجب جمعها بواسطة المملوك الفارس المبتدئ بطرف رمحه بينما هو يعدو بفرسه وبأقصى سرعة، ويتحتم عليه أن يجمع اثنتي عشرة حلقة من أعمدة معدنية كما يجب عليه أن يقوم بضرب كرة موضوعة على رأس رجل، وبالطبع لن يكون هذا الرجل هو أستاذه. وتشمل بنود التدريب ما مجموعه ١٥٠ نوعًا من التدريبات وهي المسجلة رسميًا منذ أوائل الإمبراطورية الإسلامية، ويتم تخفيض عددها عند المماليك لتصبح ٧٢ تدريبًا وهي التي تقوم بالتركيز على تلك التدريبات التي تقوم بزيادة تقوية كل من الجزء السفلي والعلوي لجسد المقاتل.

ويمهد إتقان المحارب المبتدئ لمهارات استخدام الرمح الطريق أمامه للانتقال إلى تدريبات الميدان. وكما أوضحنا من قبل فإن ميادين التدريب هذه كان يمكن أن يتم استخدامها للترفيه، بجانب أنها أماكن لتعليم المقاتل المبتدئ تكتيكات تحركات الجيش كوحدة واحدة، وكيف يمكن القيام بتنظيم هجمات منسقة والتدريبات في الأوضاع الدفاعية. وكان هناك تركيز ضخم أثناء تلك التدريبات على أهمية إدراك المقاتل لموقعه في التشكيل وموقع رفاقه الآخرين. وكانت الأساليب والتكتيكات التي استخدمها المماليك ضد المغول تعتمد بصفة أساسية على تلك المهارات وليس من المستغرب أن بيبرس قام ببناء مضمارين آخرين للتدريبات

العسكرية كإضافة إلى تلك الوحيدة التي بُنيت في عهد الصالح. ودخل المتدربون المبتدئون بمضمار التدريب في وحدات طبقًا للطباق (المدرسة العسكرية) التي ينتمون إليها وقاموا باتباع تعليمات أساتذتهم بتشكيل صفوف تتشعب إلى ميسرة وميمنة لتشكيل صفوف تنثني على بعضها البعض لتكوين خطوط متعاقبة الترتيب والتي ينسلخ عنها طوابير أو أفراد للانقضاض. ويوضح كتاب الفروسية للمدرب لاجين الحسامي هذه الحركات برسومات تخطيطية واضحة؛ وبالرغم من بساطتها إلا أنها مبهرة في وضوحها.

ما ليس براقًا بالتأكيد هو بدء دخول المبتدئ في تدريبات السيف. فهو يبدأ في دخول التدريبات بسيف يبلغ وزنه كيلوجرام واحد تقريبًا. ثم مع التقدم في التدريبات يصل إلى التدرب بسيف يزن كيلوجرامين ونصف تقريبًا في نهاية فترة التدريب. وتبدو التدريبات مثيرة للضجر بكل تأكيد. وكان يتم السماح للمتدرب بأن يقبض على السيف بين إبهام اليد والسبابة فقط وأن يتدرج من تنفيذ خمس وعشرين ضربة في اليوم على قاعدة من الطمي الناعم والموضوعة على منضدة حتى تبلغ ألف ضربة وذلك بزيادة خمس وعشرين ضربة كل يوم عن اليوم السابق. وكان المتدرب يستخدم نفس المنهج كل يوم، متقدمًا بقدمه اليسرى للأمام واليمنى للخلف بينما يقوم برفع سيفه إلى مستوى خده ثم يقوم بتوجيه الضربة. وكان يتم تكرار الضربة باستخدام اليد اليسرى. ثم يتم وضع اللباد على الطمي بحيث يتحتم على المتدرب أن يخترق اللباد بسيفه قبل أن يصل إلى الطمي. وكان يتم زيادة طبقة اللباد من طبقة واحدة في المرحلة الأولى من التدريبات إلى خمس طبقات عبر مراحل التدريب. وتنصح بعض كتيبات الفروسية بوضع الرصاص بدلاً من اللباد فوق الطمي ولكن التأثير سيكون هو نفسه – التطور الهائل في قوة الذراع القابضة على السيف. ولم تكن القوة الغاشمة بمفردها كافية للمتدرب، على أي حال، فيجب على المتدرب أن يقوم بالتحكم في ضرباته وبالتالي في قدرته على إحداث الجروح

فقط أو القتل. فقد كان يتعين عليه أن يضرب بسيفه عبر رزم من الأوراق بدون أن يقطع وسادة من القطن موضوعة أسفله وبضربة واحدة، وحينئذ فقط يمكنه أن ينتقل للتدرب بالسيف كفارس. وكان التدريب يقتصر هنا على سيف واحد حتى يستطيع المتدرب أن يبرهن على قدرته على تمزيق كمية معينة تم قياسها من أعواد الخيزران على قدر ارتفاعه بسيفه وهو يعدو. وكانت هذه الأعواد توضع على يمينه وعلى يساره والمتوقع منه أن يقطع كل عشرة بأكملها في الجولة الواحدة. ثم ينتقل بعد ذلك إلى استخدام سيفين بدلاً من سيف واحد أو استخدام سيف مع خنجر.

وعادت قوات بيبرس الفائقة البراعة إلى ميدان القتال مرة أخرى في مايو عام ١٢٦٧ وظهرت أمام أسوار عكا وهي تحمل بيارق فرسان الإسبتارية وفرسان الهيكل التي استولوا عليها أثناء حملاتهم السابقة. وكان قادرًا على الاقتراب من أسوار عكا باستخدام هذه البيارق، ولكن انكشفت الخدعة قبل أن تنزل أي خسائر بالصليبيين. ولكنه قام بتعويض ذلك بتخريب ونهب القرى المحيطة للدرجة التي جعلت الصليبيين في عكا يسارعون بإرسال وفود يناشدونه طلب الهدنة. وبدت النبوءة التي أطلقها شافع بن علي عام ١٢٦٥م أن بيبرس سيقاتل حتى لن يكون هناك أحد من الفرنجة على وجه الأرض كما لو كانت في طريقها للتحقق. وبينما جعل صلاح الدين من القدس محورًا لجهاده، فإن الحرب المُقدسة لبيبرس كانت أكثر شمولاً؛ فقد استهدف أن يجعل من بلاد الشام معقلا للسنة. وكانت طائفة الحشاشين من الشيعة الإسماعيلية والذين كانت لهم معاقل قوية في شمال بلاد الشام عُرضة لحملات قوية وطويلة شنها عليهم قادة جيوش بيبرس بين عام ١٢٦٥ وعام ١٢٧٣، وبترويضهم أمكن لبيبرس أن يجني ثمار نشر الحشاشين للاغتيالات السياسية كيفما يريد.

وكانت الحماسة الدينية تُلهب مشاعر الملوك المسيحيين في أوروبا كما كان الأمر كذلك أيضًا بالنسبة لسلطان مصر. وحمل لويس التاسع صليبه مرة أخرى في مارس ١٢٦٧ وكان هناك حماس شديد تجاه القيام بحملة صليبية بين الأسر الملكية في إنجلترا وأراغون. وكان بيبرس واثقًا من أن مؤسسة لويس سوف تستغرق وقتًا كبيرًا في مرحلة التخطيط، وبالرغم من ذلك فقد كان عليه أن يحتاط وأن يكون على أهبة الاستعداد لأسوأ الظروف المتوقعة، بأن تُثمر الاتصالات الجارية بين لويس وأباقا خان والتي بدأت تدخل مرحلة جادة في عام ١٢٦٦ ويُسفر عنها القيام بحملة مشتركة للهجوم على بلاد الشام ومصر. ولذا فإن بيبرس شرع في تحرير آخر المدن الصليبية المتبقية جنوبي عكا. وكانت هي يافا والتي تقع على الساحل ويمكنها أن تكون نقطة وصول للقوات الصليبية. وظهر بيبرس أمام أسوارها يوم ٧ مارس، وكان قادرًا من الناحية القانونية أن يقوم بخرق اتفاقية السلام المعقودة مع المدينة لأن المدينة قامت ببناء منجنيقات بالانتهاك للاتفاقية الموقعة بينهما. وقد قتلت واحدة من هذه المنجنيقات ثلاثة رجال كانوا يقفون بالقرب من بيبرس، وسقطت المدينة في يد بيبرس بعد اثنتي عشرة ساعة من القتال المتواصل. وسمح بيبرس لرجال الحصن بالمغادرة إلى عكا ولكن كانت هناك مذابح شاملة للسكان المدنيين وأُخذ الكثيرين من الأسرى كغنائم حرب. وتم تقويض وهدم أسوار المدينة والقلعة عن آخرهما طبقًا لسياسة المماليك تجاه مدن السواحل، وأما الزخارف الرخامية وأخشاب المباني فقد تم إرسالها للقاهرة لتصبح جزءًا من مسجد السلطان الجديد الذي يتم بناؤه. وتجنب بيبرس بعدئذ عكا تمامًا ويمم شطر الشمال وبدأ في تحطيم أنطاكية. وكان بوهيموند قد استمر في سياسته الرامية إلى التحالف الوثيق مع المغول وكان هناك احتمال كبير بأن يكون جزءًا من هجوم يقوم بشنه تحالف الإليخانات والأوروبيين. وتوقف السلطان عند قلعة الشقيف

أرنون وهو في طريقه إلى الشمال، وجعل يراقب معدات الحصار الخاصة به وهي تقوم بدك أسوار القلعة طوال عشرة أيام. وكان تأسيس قلعة جديدة إلى الجنوب منها من أجل تحسين دفاعات قلعة الشقيف أرنون في واقع الأمر تخريبًا لها. واختار بيبرس الأرض المسطحة على مستوى سطح الأرض وهي البقعة الوحيدة من نوعها في تلك المنطقة الجبلية، كقاعدة لقوات المشاة لجيشه. واستسلم فرسان الهيكل المقدس وتم إرسالهم لأسواق العبيد، بينما وللغرابة الشديدة تم إطلاق سراح النساء والأطفال ليبحثوا عن ملجأ لهم في صور. وتم إعادة بناء القلعة وإقامة حامية عسكرية لها حيث إنها كانت داخلية ومتطرفة وتُعد كطريق محتمل لغزو المغول.

وتحرك بيبرس بسرعة تجاه طرابلس، وهي إحدى ممتلكات بوهيموند، ووصلها في الأول من مايو، ولكن قوات الاستطلاع لديه أفادت بأنها قوية مما يجعل أمر سقوطها يستغرق وقتًا طويلاً. كما أنه لم يكن يُدرك أن بوهيموند كان متواجدًا في المدينة أيضًا. واستمر في زحفه شمالاً، متجاوزًا المعقل الحصين لفرسان الهيكل.. طرطوس وصافيتا، وقامت كلتاهما بإيفاد مبعوثيهم على جناح السرعة إلى السلطان يناشدونه الرحمة. وقَبل بيبرس توسلاتهما وتحرك صاعدًا في وادي نهر العاصي. وليس هناك أدنى شك في أن فرسان المعبد قد كُتبت لهم النجاة نتيجة لتركيز بيبرس على أنطاكية مملكة بوهيموند. ووصل الجيش المملوكي أمام أسوار أنطاكية في يوم ١٤ مايو، وحوصرت المدينة على الفور بواسطة ما يقرب من ثلث قوات بيبرس. وأُرسلت أعداد أكبر من الجيش إلى ميناء مار سمعان في أنطاكية من أجل قطع الإمدادات المحتملة التي يمكن أن تأتيها من البحر، وإلى الممر الواقع عبر المرتفعات، وهي بوابات بلاد الشام، وذلك لقطع أي إمدادات إغاثة يمكن أن تأتي من أرمينيا – غير المحتملة، نظرًا لحالة الخراب التي تعم البلاد– أو الاحتمال الأكثر واقعية لتدخل من المغول.

وقام قائد قوات بوهيموند بتنظيم قواته المحدودة على طوال أسوار المدينة الممتدة ونشر المدافعين الذين كانوا يئنون تحت وطأة أعباء جسيمة حول حصون المدينة. غير أنه ارتكب حماقة غير معقولة بشن هجوم على فرقة بيبرس بينما كان المماليك في مرحلة ضرب الحصار. وتم أسره ووضعه بيبرس على الفور ضمن فريق العمل على ترتيبات استسلام المدينة، ولكن بعد عمله الطائش هذا رفض المدافعون الانصياع لتعليماته. وبدأت القذائف والهجمات على الفور، وتم إيقافها لإجراء المزيد من المباحثات، والتي كان مآلها الفشل.

وشن بيبرس هجومًا كاسحًا على كل قطاعات أسوار المدينة في يوم ١٨ مايو؛ وكان العبء على كاهل المدافعين فوق مقدور حامية المدينة، ولذا فقد بدا اقتحام المدينة أمرًا لا مفر منه، وجاء ذلك من اتجاه مرتفعات حبيب نيكار على الأسوار. وشن المماليك هجومًا على المدينة ثم تبعه يوم كامل من القتل والنهب. وأُغلقت أبواب المدينة حتى لا يهرب أحد من ساكنيها من الموت وكان في مقدور أولئك الذين هربوا إلى القلعة فقط التفاوض من أجل البقاء على قيد الحياة في العبودية بدلاً من الموت في الحال. وأمر بيبرس بوقف عمليات القتل في اليوم التالي. ثم أمر بتجميع منظم ومرتب لكل النفائس والخيرات في المدينة، وأمر بتوزيع العبيد والأموال على أمرائه المائة، وهم قدامى الأمراء، والذين بدورهم يقومون بمنح مماليكهم الشخصيين المائة بسخاء، وربما قادة الألف من الجنود الأقوياء غير المماليك والمشاة الذين تحت قيادة هؤلاء الرجال. كتب بيبرس إلى بوهيموند عن عملية النهب يقول:

> إذا ما رأيت كنائسك مهدمة، وصلبانك هباءً منثورًا، وصفحات الأناجيل الكاذبة مفضوحة، وعندما ترى عدوك المسلم يقوم بوطء محرابك، ويتم ذبح كل من فيه من راهب

وشماس، وكاهن على المذبح... وتُهدم كنائس القديس بولس والقديس بطرس، فستقول لنفسك يا لله لو كنت تحولت إلى تراب، أو يا الله لو لم أكن قد تسلمت هذا الخطاب الذي يطلعني على هذه الكوارث الحزينة"(٤٤).

وجعل سقوط أنطاكية الموقف بأكمله بالنسبة لممتلكات الممالك الصليبية في شمال بلاد الشام عسيرًا من الناحية العملية ويتعذر الدفاع عنها. فقد هجر فرسان الهيكل حصونهم في المرتفعات المحيطة والمدن الأخرى الصغيرة والمحصنة وأصبحت خاضعة للسلطان. وكانت أنطاكية نفسها مُحصنة، ولكنها سوف تصبح من اليوم فصاعدًا مسرحًا للعمليات ضد أولئك الخاضعين للمغول في الأناضول، كما أنها لن تعود كما كانت مأهولة بالسكان. وكان الأمير الأول للصليبيين بوهيموند الأول قد قام بالاستيلاء على أنطاكية في عام ١٠٩٨ عن طريق الخداع، ولعل المرء يمكن أن يتساءل عما إذا كان هذان الرجلان، المغامر النورماني والجندي المملوكي الذي ينحدر من سهوب آسيا، يكنان إعجابًا دفينًا ممزوجًا بالضغينة لبعضهما البعض. فكلاهما عسكري لا يشق له غبار، وكلاهما مخادع وانتهازي، كما أنهما يمتلكان ذكاء فطريًا ونظرة مرتبة للأمور. وتمتد نظرة بيبرس إلى أدق التفاصيل عندما يتعلق الأمر بالبنية الأساسية العسكرية في السلطنة. واستطاع من خلال الغزو والاستحواذ تقوية حدوده ضد هجمات من الأراضي المغولية ومن الهجمات الصليبية عبر البحر كما أنه استطاع من خلال الدبلوماسية إلهاء المغول عن غزو بلاد الشام.

وعلى الرغم من أن التهديدات من جبهتي العدو لا تزال ضخمة، كما لا تزال هناك احتمالات قائمة لحرب تقع على جبهتين. فقد وجه بيبرس جل اهتمامه

---

(44) In. Hillenbrand, p. 320.

في مرحلة مبكرة لمشكلة الاتصالات ونظام الإنذار المُبكر في السلطنة. وكان النظام العسكري للخدمات البريدية والذي كان موجودًا في عصر السلاطين السلاجقة قد عفا عليه الزمن في عصر المماليك، ولذا فقد كان النظام المغولي المتميز الذي كان يغطي كافة أرجاء أراضيه هو الذي أستلهمه بيبرس لنظامه الجديد "البريد" أو خدمات الخيول السريعة. وكان التركمان الذين آواهم بيبرس في بلاد الشام وأسبغ على زعمائهم آيات الشرف، قد تم تكليفهم بتوفير الخيول لنظام البريد الجديد، تمامًا مثلما تم تكليف البدو العرب بتأمين الطرق من مصر وإلى العراق وحتى إفريقيا، وكان قد تم منح كل أمير من أمراء العرب قطعة أرض ثابتة يُكلف بتأمينها وتتم مكافأته على ذلك. وكانت هناك محطات ثابتة وموزعة على طول الطريق من البيرة في أقصى شمال الشرق وحتى الإسكندرية في الطريق غربًا إلى القاهرة للحصول على حصان جديد لتغييره بالحصان المنهك. ويقول الأنصاري إن النظام البريدي أدى إلى تقليل الفترة المطلوبة لقطع مسافة كان يتم قطعها في عشرين يومًا إلى ثلاثة أيام فقط حيث كانت الجمال العربية من قوص يتم استخدامها لمد الخدمات البريدية حتى أسوان وميناء عيذاب.

وكان يتم استخدام الحمام الزاجل باعتدال وعلى نطاق واسع ولكن بطريقة غير منهجية في عهد السلطان نور الدين وفي عهد صلاح الدين، ولكن بيبرس قام بتأسيس شبكة ثابتة من أبراج الحمام الزاجل التي يشرف عليها جنود في كل أرجاء السلطنة. ويشدد كتاب الأنصاري عن الحرب على تقييم لأهمية الحمام الزاجل في الاتصالات فيقول: "إنه من الواضح أن الحمام الزاجل من أسرع وسائل الاتصالات لأن الحمام الزاجل يقوم بتغطية مسيرة عشرين يومًا في أقل من يوم واحد"(٤٥). وكان الخط الثالث من نظام الإنذار المبكر عبارة عن أبراج مراقبة على الحدود والتي تتصل مع بعضها البعض بدءًا من الحدود المغولية عند البيرة والرحبة

---

(45) In, Hillenbrand, p. 547

الواقعتين على نهر الفرات ثم خلال العمود الفقري لخطوط اتصالات السلطنة إلى غزة من خلال إشارات الدخان والمنارات. وتضطلع الخيول السريعة والحمام الزاجل بباقي المهمة من غزة.

وتم تأمين خطوط الاتصالات الداخلية للسلطنة وجعلها أسرع وأكثر أمانًا عن طريق إضافة أبراج حراسة على جانبي الطرق بالقرب من الحدود المغولية وعن طريق إنشاء عدد من الجسور عبر الأردن. ومَنح انهماك بيبرس المبكر بتدمير النقاط القوية للصليبيين في داخل بلاد الشام حركة لا تحدها عوائق داخل الأراضي السورية سواء للبريد أو للقوات التي يتم إرسالها لمقابلة أي هجمات للمغول.

وامتدت ترتيبات بيبرس للحالة العسكرية لتصحيح الطبيعة الخاصة للحكومة المملوكية قبل توليه الحكم. وكان قطز وأسلافه يقودون المماليك على أساس أن يكون السلطان هو الأول بين الأنداد، وذلك طبقًا لتقاليد أهل السهوب حيث كان يمنح الولاء لأمراء الحرب الأكثر نجاحًا، ولكن لم تكن هناك حقوق إلهية في حد ذاتها كما هو الحال في الممالك الغربية في أوروبا. وكان إعادة تأسيس بيبرس للخلافة الجديدة وتوليه المنصب طبقًا لذلك جزءً رئيسيًا من تحركه ليكون أكثر من مجرد قائد في الحرب يقوم بضمان وظيفته من خلال النجاح في الحرب وتوزيع الغنائم ليصبح سلطانًا بحق العقيدة وما يستتبعه ذلك من الولاء له. كما تم تحقيق ذلك بالطبع عن طريق إعادة تنظيم الكوادر العليا للسلطة في الدولة. وكما أوضحنا سابقًا فقد قام بيبرس بتوزيع السلطة بين رفاقه في الخشداشية والأعضاء القدامى من مجموعته والتي تُشكل ما يشبه المكتب السياسي. ولذا فقد أصبح الجيش وأصبحت الدولة تدار بطريقة مركزية أكثر فأكثر، وبهذا فإن هؤلاء الذين كانوا خارج مجموعته لم يكن في مقدورهم تحقيق أي تقدم. تحّمل بيبرس أيضًا مسئولية

تعيين صغار المماليك كحراس شخصيين لـــه (الخاصـــكية)، بينمـــا وجـــد قـــدامى العسكريين من جنود الحلقة أنفسهم في وظائف بالأماكن النائية على الحدود بعيـــدًا عن النفوذ السياسي في القاهرة. وقام بيبرس بتكوين طبقـــة متميـــزة مـــن قـــوات المماليك وأصبح هنالك ثلاثة أقسام من الأمراء. فهناك أمير عشـــرة وهـــو أدنـــى الدرجات، وكما يبدو من الاسم فإن هذا الأمير يتبعه عشرة من المماليـــك لخدمـــة السلطان. ثم يأتي بعده أمير الأربعين، والذي يطلق عليه أيضًا "أمير الطبول"، حيث تُدق له الطبول أثناء الاحتفالات. وأما أمير المائة فهو أقدم الأمراء، ويحق لـــه أن تتبعه فرقة عسكرية؛ وهؤلاء المائة كانوا هم جوهر جيش الألف من ذوي التدريب الأقل مستوى والذين يتم استدعاؤهم.

وساعد هذا التدرج الهرمي في ضمان أن تكون المكافآت المدفوعة منتظمـــة وعادلة، كما أن توزيع الإقطاع كانت عملية منظمة. استولى بيبرس بعـــد غـــزوه لقيسارية على كل المنطقة التي تحيط بالمدينة وتم تخطيطها وكذلك قرى الفرنجـــة، أو حتى أجزاء من القرى التي تم تقسيمها بين الرتب المختلفـــة للأمـــراء. وكـــل المشاركين في هذه العمليات كان يتم مكافأتهم عن طريق الغنائم، ولكـــن بطريقـــة غاية في التنظيم، مما جعل بيبرس يتمكن من ترقية الرجـــال المقربيـــن إليـــه. وكلما زاد ثراء الرجال المقربين إليه، كلما كان في مقدورهم شراء عدد أكبر مـــن المماليك كحراس شخصيين له. ولذا فـــإن التسلســـل الهرمـــي العمـــلاق للدولـــة المملوكية، والسلطان المملوكي على القمة، والمقاتلين المماليك في القاعـــدة كانـــت تتشكل من صور متشابهة ومتكررة، كل تشكيل داخلي منها يكون مثلثا من الـــولاء للأستاذ على القمة. وكان رباط القوة في داخل كل وحدة هو ربـــاط الخشداشـــية. وكان للهيكل الذي يبدو منيعًا ومتماسكًا مثالبه الخطيرة، تمامًا مثلما كانت التبعيـــة الهرمية للإقطاع الغربي. وكلاهما كان في حاجة إلى قائد قـــوي ونـــاجح وملـــيء

بالحيوية، وبدون ذلك فإن السادة أو الأمراء الكبار تحت قيادته يمكنهم أن يستخدموا قاعدة قوتهم الخاصة من أجل النزاع على السلطة. ويمكن أن تتحول الساحة السياسية المملوكية بسرعة في غياب سلطان قوي إلى الأساليب الدموية للسنوات الأولى لبداية حكمهم. وكانت عمليات التطهير الدموية للأمراء الكبار من الحرس القديم بواسطة السلطان المُقبل والصراع المرير بين الطوائف ذات الولاءات المختلفة للعديد من المرشحين لتولي العرش أمرًا معتادًا، كما كان استخدام الخازوق أو الصلب لعمليات القتل بواسطة السلطان لهؤلاء المتهمين بالعيب في الذات السلطانية أو التآمر شائعًا.

ولم يكن بيبرس بطبيعة الحال يمكن أن يحجم عن توقيع عقوبة الصلب حتى على أقرب أصدقائه من أجل الاحتفاظ بالسلطة. ففي عام ١٢٦٣ أصطدم بأول مؤامرة ضمت بالبان الرشيدي، وكان منافسة على كرسي الحكم في عام ١٢٦٠ بعد مقتل السلطان قطز. ويتطلب إنهاء المؤامرة موت رجال من خلصائه وفي عملية التطهير التي قام بها في عام ١٢٦٥، قام بقتل أمير دمشق الكردي بدون أن يطرف له جفن، والذي كان قد ارتحل معه في غزوات العقد الخامس من القرن الثالث عشر؛ وفي عمليات التطهير التي قام بها بيبرس لأمراء المماليك البحرية في عام ١٢٧٠، فإنه ترك قدامى الأمراء قلاوون، وبيصاري، وبكتاش بدون أن يمسّهم على الرغم من عدم ثقته فيهم، فقد أوعز إليه السياسي المحنك الذي يرقد بداخله أنهم أقوى من أن يزيحهم عن طريقه بسهولة. وحتى لقد كان هناك أواصر مصاهرة بينهما بزواج ابنة قلاوون ونجل بيبرس الأكبر بركة. ويقدم العمل الفولكلوري الشعبي "سيرة بيبرس" والذي وضع بعد وفاته مآثر بيبرس بطريقة حالمة ولكنه يحتوي على بعض القصص الحقيقية من قيامه بالتنكر للتفتيش على كبار موظفيه في الأماكن النائية من السلطنة، وعن قيامه بحظر الخمور في الجيش وعن بحثه لأزواج من أجل بغايا القاهرة. ويُعد تعبير رفقة المعسكر، وهو تعبير

مخفف للبغاء في العصور الوسطى من المحرمات الكبرى لدى السلطان. وينبئنا ابن الفرات أن الجيش لم يكن يصطحب معه أي خمور في القافلة، كما لم يكن لِيُسمح بأي سلوكيات خارجة: وكانت هناك فقط سيدات عفيفات يقمن بتقديم المياه للجنود في الصفوف الخلفية أثناء القتال، كما كانت هناك تعليمات صارمة بمنع تناول الحشيش، ولذا فإن بيبرس الوقور كان في رحلة حج سرية إلى مكة في عام ١٢٦٩ بينما كان الجميع يعتقد أنه في رحلة صيد حول الكرك، وبفعله ذلك فإنه في الحقيقة قد وضع الأماكن المُقدسة الإسلامية تحت سيادته.

وسيضيف بيبرس المزيد من المتاعب إلى حكام الإليخانات الكفار عبر تمرد مواطنيهم المسلمين عليهم لكونه أصبح حامي الأماكن المقدسة بمكة والمدينة. فقام القرويون المتمردون بتخريب الإليخانات خلال تلك الحقبة. وشبت ثورة في بلاد فارس في عام ١٢٦٥ بقيادة المهدي، وفي الواقع فإن كل عمليات التمرد المتعددة التي واجهت الإليخانات في جنوبي إيران والعراق وحتى نهاية القرن الثالث عشر كانت ذات صبغة دينية. ولم تكن الإليخانات في حقيقة الأمر في حاجة لتدخل خارجي ليتم خلق تمرد داخلي لدي مواطنيها فقد كانت سياساتهم الداخلية بمفردها كافية جدًا لخلق ذلك التمرد. وكانت الإليخانات تمر بحقبة من التدهور الاقتصادي الشديد ترجع في جانب منها إلى المهمة المدمرة للغزوات الخارجية وتفاقمت بالسياسات الضريبية المُجحفة التي يمكن وصفها بالنهب المنتظم بكل بساطة. وباختصار، فإن عدد السكان كان يتناقص، كما تناقصت الأراضي القابلة للزراعة، حيث إن نظام الري بالمياه الجوفية "القنوات"، والتي كانت تقوم عليها البنية الزراعية التحتية لبلاد فارس امتدت إليها يد الاهمال وتوقفت عن ضخ المياه، كما تفككت الحياة الحضرية بينما ازدادت الضرائب التي يفرضها الدولة والإيجارات الزراعية التي يفرضها الإقطاع، وظل البدو الرعاة يحومون حول أنقاض ما كان في وقت من الأوقات أخصب البلاد الزراعية في آسيا بأسرها. وكان الإصرار

على سياسة إخلاء السكان سياسة مقصودة في السنوات الأولى من حكم الإليخانات: حيث كانت تساعدهم على قمع حركات التمرد، وإرهاب السكان، وفتح أراضي المروج للرعاة الغرباء، ولكن تطبيق هذه السياسات ذهبت إلى مدي أبعد مما يجب. وقام "الصيفي" بتجميع قصص من كبار السن في خراسان ممن يتذكرون سنوات الستينيات في القرن الثالث عشر وسجلها في أعماله عن عام ١٣٢١: "لا بشر، ولا حبوب، ولا طعام، ولا ملبس.. الناس يأكلون فقط اللحم الآدمي، ولحوم الكلاب والقطط طوال العام لأن مقاتلي جنكيزخان دمروا صوامع الحبوب"(٤٦). وبقى اثنتا عشر شخصًا فقط على قيد الحياة في هرات عندما مر بها المغول، وكانت المحاريث تُجر بواسطة الرجال في حقول خراسان حيث إن كل ثور كان قد تم ذبحه، ونقصت غلة الحبوب في وادي نهر كور الخصيب من ٧٠٠.٠٠٠ وحدة خاوا في عام ٩٤٩ م إلى ٤٢.٠٠٠ وحدة في عام ١٢٦٠. وكان حمد الله مستوفى يرى: "إنه مما لا شك فيه أنه حتى ولو لم يصب أي شر هذه البلاد لألف عام قادمة، فليس من المحتمل أن يتم إصلاح الضرر الذي وقع عليها"(٤٧). وسوف تكون نتائج هذه الإدارة المرعبة للاقتصاد من إليخانات المغول لها أهميتها البالغة أكثر فأكثر عندما يحتدم الصراع مع المماليك.

وكان بيبرس في غضون تلك الفترة منهمكًا في بناء القاعدة الاقتصادية التي تعتمد عليها دولته العسكرية. وقام بتأسيس علاقات تجارية وطيدة مع أراجون ومع الحاكم الجديد لصقلية "شارل الأول" كونت أنجو. كما داوم بيبرس الحفاظ على اتصالاته بحاكم صقلية السابق، مانفريد، وكان يقوم بإرسال الزرافة وأسرى المغول إليه باستمرار لأنه كان من المناهضين بشدة للبابا من ناحية، وكما أصبح السلطان

---

(46) I. Petrushevsky," The Socio-economic Condition of Iran Under the Ilkhans "in "J. Boyle (ed) The Cambridge History of Iran, Vol. 5, London: Cambridge University Press, 1968, p. 484
(47) I. Petrushevsk, p. 485.

يواظب على اتصالاته بشارل الأول أيضًا بعبارات ودية حتى قبل أن يقوم باغتصاب عرش صقلية. فقد كان بيبرس على يقين من أن موارد صقلية البحرية وموقعها الإستراتيجي في البحر المتوسط يمكن أن يجعل منها موضع قدم محتملا لأي حملة صليبية قادمة. ولقد كان يرغب في طمأنة حاكمها، أيًا كان هذا الحاكم، أن ما يفعله في بلاد الشام لن يؤثر بأي حال من الأحوال على الموارد التجارية التي تجنيها الجزيرة من تدفق البضائع من الشرق الأوسط إلى أوروبا. وأفاد بيبرس كثيرًا قيام "شارل الأول" كونت أنجو باغتصاب للعرش بمساندة بابوية، كما أصابت مطامع "شارل الأول" الإقليمية في إيطاليا، وطموحاته الرامية إلى غزو القسطنطينية والتي عادت الآن إلى أيدي البيزنطيين، وخططه ضد الممالك الصليبية كلها بالرعب كل الجمهوريات البحرية جنوه، والبندقية، وبيزا، إلى المدى الذي جعلهم جميعًا يتطلعون إلى تقوية مراكزهم في شرق البحر الأبيض المتوسط عن طريق عقد معاهدات تجارية مع السلطان. فهو في النهاية يتحكم في الإسكندرية والتي بدورها تحتكر على وجه التقريب تجارة الهند، بينما موانئ الممالك الصليبية في بلاد الشام تذهب أدراج الرياح.

وأصبحت هذه العلاقات الاقتصادية ذات أهمية سياسية قصوى في عام ١٢٧٠ في مستنقع معامرة الحملة الصليبية الأخيرة للملك لويس التاسع. وبدت الحملة الصليبية، أثناء فترة التمهيد للإعداد لها في عام ١٢٦٧ كخطر ماحق على المماليك. وكانت السمعة الطيبة التي يتمتع بها الملك لويس كافية تمامًا لأن تجذب إلى مشروعه المزمع ملوك أراجون وإنجلترا. ولذا فقد استمر بيبرس في الاستعداد للمواجهة المرتقبة مع الحملة الصليبية بعقد معاهدة مع أرمينيا الصغرى في عام ١٢٦٨. وقام بالإفراج عن الأمير ليو الذي كان قد تم أسّره بواسطة قلاوون في عام ١٢٦٦، وتنازل الأرمن عن الحصون الحدودية. كما استجاب إلى نداءات من عكا من أجل عقد اتفاقية هدنة تسمح بالوقف المؤقت للعمليات ضد

المدينة. وظل بيبرس يرتب، رغم الهدنة، للحشاشين من أجل القضاء على البارون القائد لعكا "فيليب مونتفورت"، كما أنه استكمل تدمير عسقلان خشـية اسـتخدامها كموضع قدم للصليبيين. واستكمل تحصين الإسكندرية وأنشأ فيها برج مراقبة جديدا من أجل التعرف على السفن المعادية. وأتم إعادة تحصين دمياط وتجريـف نهـر النيل من أجل ضمان عدم تكرار إحداث الفيضانات التي تم بها تحطيم الصـليبيين في عام ١٢١٨ عن طريق تحطيم السدود. كما قام السلطان بالاستفسار عن إمكانية استيراد أفيال الحرب من الهند من أجل إحداث صدمة خطيرة للصـليبيين ولكـن صعوبات النقل حالت دون ذلك.

وهكذا كان استعداد بيبرس للعاصفة ولكنها لم تهب. ولم يكن الحماس مـن أجل الحملة الصليبية جماعيًا، كما أن الإيطاليين الذين كانت الحاجة إليهم ماسة من أجل نقل القوات إلى الشرق كانوا يتلكأون في خطاهم، بالإضـافة إلـى أن شـقيق الملك شارل الأول نفسه، وللغرابة الشديدة كان مترددًا في الهجوم علـى مصـر. وأخيرًا تحول الصليبيون تجاه تونس، على افتراض غريب بأن حاكمها من المرجح أن يتحول إلى المسيحية؛ ولكن الأمر برمته تحول إلى كارثة. فقد صنع الطـاعون بقوات الصليبيين ما لم يكن في أقصى أماني الجيش التونسـي أن يفعلـه. وتـوفي الملك لويس (الذي أصبح الـقديس فيما بعـد) نتيجـة لإصـابته بالدوسـنتاريا. ووصل الأمير إدوارد من إنجلترا بعد وفاة الملك مباشرة وغادرها بعد فترة قصيرة متوجهًا إلى عكا. وشرع "شارل الأول" كونت أنجو في تولي زمام القيـادة ولكنـه نفض يديه من الأمر برمته بعد أن عقد اتفاقًا مع التونسيين لتأمين التجارة واتفاقيـة لدفع إتاوة من التونسيين لصقلية. وعانى أهل أراجون من تحطم السـفن قبـل أن يذهبوا إلى أبعد من برشلونة، ولم يصل إلا حفنة منهم إلى بلاد الشام تحـت قيـادة اثنين من الأمراء يتسمان بالوضاعة. ولم يتم إنجاز شيء على الإطلاق.

وانتهت الأمور الطارئة وأصبح على السلطان أن يعود إلى العمل. وبدأت حملته الأخيرة ضد الصليبيين في عام ١٢٧١. وقام بالاستيلاء على القلعة البيضاء للمقاتلين التيوتونيون في شهر فبراير ثم زحف لينال الجائزة الكبرى قلعة الحصن (قلعة الفرسان) وهي القلعة البالغة الضخامة لفرسان الإسبتارية والتي تقع بين مدينتي المماليك حماة وحمص. وتم حصار القلعة في يوم ٣ مارس وعلى الرغم من أن الأمطار الغزيرة أبطأت من عمليات رفع معدات الحصار فإن وابلا من النيران تم البدء في إطلاقها ابتداء من ١٥ مارس. وتكرر نفس الخطأ الذي سبق ارتكابه في قلعة الشقيف أرنون في قلعة الحصن فقد قام الفرنجة بخلق تحصينات أرضية على تل مجاور من أجل الإبقاء على معدات حصار العدو على مسافة كافية ولكن قوة أفراد الحصن المحدودة كانت تعني أنه لا يمكن الاحتفاظ بها وأنها ستصبح منصة مناسبة تمامًا من أجل معدات بيبرس الحربية للحصار. وتقع قلعة الحصن، على مرتفع حصين لا يمكن اختراقه، ولكن كان هناك جزء ناتئ يمكن الوصول إليه وتم شن الهجوم النهائي الأخير والناجح من خلاله بعد أن قام جنود الحفر بهدم واحدة من الأبراج الكبرى على السور الخارجي. واندفعت حشود المماليك إلى الحلقة الخارجية المُخصصة للدفاع عن القلعة، وبعد أسبوعين من ذلك كانوا قادرين على شق طريقهم بالقوة إلى المشتملات الداخلية للحصن. وكان هناك دفاع قوي ونشط عن البرج الأخير بواسطة فرسان الإسبتارية، ولكنهم استسلموا بعد عشرة أيام وتم منحهم حق اللجوء الآمن إلى طرابلس. وتحرك بيبرس جنوبًا نحو حصن جبل عكار.. الحصن الأصغر لفرسان الإسبتارية. وواجه المماليك صعوبات شديدة في سحب معدات الحصار لفوق التلال التي تنتشر فيها الأشجار وتحيط بالحصن، ولكن بيبرس أبدي تصميمه المعتاد وساعد في اكتشاف منصات لهذه المعدات وقام بتوجيه الحاملات التي تجرها من خلال الأشجار حاملة أخشابا من أجل إنشاءات معدات الحصار. وسقطت القلعة في أحد عشر يومًا بمجرد

أن بدأ القذف، وفي يوم ١٢ يونيو سقطت أيضًا قلعة الفرسان التيوتون "مونتفورت" بعد أسبـــوع واحد من الحصار. ولم تعد هنـــالك قلعة واحـــدة باقيـــة للفرنجـــة داخـــل البلاد.

وبدأ الضعف المستمر يبدو واضحًا حـــقًا عند هذه النقطـــة بالـــذات، فـــي الاستجابة العسكرية لكل من بيبرس وسلاطين المماليك المتأخرين تجـــاه التهديـــد الغربي الأوروبي بشكل غـــريب. وكانت المشكلة تكمـــن في الأسطول البحـــري، أو في عدم وجوده على وجه أدق. فقد كان المماليك يملكون سفنًا شراعية، كما أن بيبرس قام ببناء أكثر من أربعين سفينة أخرى إبان سنوات حكمه، ولكنها لم تكـــن ترقى إلى مستوى القوة البحرية للغرب. وكان بيبرس قد قام بإرسال أسطول مـــن أجل الهجوم على قبرص في يونيو عام ١٢٧١، بعد أن ساوره القلق بشأن وصول الأمير إدوارد إلى عكا لاحتمال أن تكون هناك غزوات من الممالك الصليبية علـــى الساحل بمعاونة قبرصية نحو الداخل. وكانت السفن مدهونة باللون الأسود كشـــأن السفن الصليبية وأعلامها تحمل الصليب ولكن نظرًا للافتقار إلـــى فـــن الملاحـــة والطقس السيئ تحطمت السفن على شاطئ الجزيرة وتم القبض على ١٨٠٠ مـــن البحارة والمقاتلين وسجنهم. كما فشل بيبرس أيضًا فـــي الاســـتيلاء علـــى قلعـــة ماراسيليا أو مراقية وهي قلعة صغيرة تقع على صـــخرة بـــالقرب مـــن ســـاحل طرطوسه. وتحولت عملية بحرية - برية مشتركة إلى ما يشبه الكارثة التي هُـــزم فيها المماليك.

وسخر الملك هيو من فشل الأسطول البحري لبيبرس ورد بيبرس بأنه قـــام بالاستيلاء على قلعة مونتفورت وأن السفينة يمكن صنعها في يوم واحـــد، ولكـــن القلعة ليست كذلك. ولم يكن ذلك سوى عاصفة غضب، وعلى الرغم مـــن ذلـــك، ولأنه بدا أنه لا يستطيع أن يجاري سباق التسلح البحري فقد استمر فـــي سياســـته

الرامية إلى تحطيم المدن والموانئ السورية الساحلية بدون كلل. وهذا لا يبين على أي حال الأسباب الجوهرية للحاجة إلى تلك السياسة وأن المماليك كانت لديهم فجوة هائلة في القوة البحرية كان يتعين عليهم اجتيازها عندما فرضت عليهم الحاجة الملحة، ذلك عندما وصل البرتغاليون إلى سواحل البحر الأحمر في القرن الخامس عشر. والأكثر أهمية من ذلك أن هذه السياسة أظهرت كيف أن القوة الرئيسية في العالم الإسلامي تقوقعت على نفسها. واعترض المماليك على التوسع والمغامرة في الوقت الذي كانت فيه الأمم الغربية قد بدأت في اعتناق هذا المبدأ بطريقة شاملة. وكانت سياستهم المبسطة وغير الواقعية في الدفاع عن طريق حرمان العدو من قطعة أرض للرسو عليها خيالية ومتصلبة، وامتد هذا الجمود إلى منهجهم الفكري نحو إستراتيجية كبرى. وتعود الميزة الهائلة التي حصلت عليها الدول الغربية من خلال الاستثمار المستمر في القوة البحرية والملاحة في المحيطات والتي أدت في النهاية إلى هيمنة الغرب والاقتراب من الوهن لدول الشرق الأوسط في العصر الحديث بأصولها إلى العصر الذهبي للمماليك، ولكن سلاطين المماليك في القرن الثالث عشر بالطبع لم يكن في مقدورهم التنبؤ بهذا الأمر. وكانت صناعة السياسة بالنسبة لهم – كما هو الأمر بالنسبة للكثيرين من الساسة في عالم اليوم – تمثل ببساطة عملية التفاعل البسيط فقط مع الأحداث، ولم يكن الشرق الأوسط في العصور الوسطى خاليًا قط من الأحداث الجسام.

الفصل السادس

حلفاء مريبون وأصدقاء لا يثق بهم
حمـــــلات بيبـــرس الأخـــيرة

أنا ممتلئ بالسهام القاتلة
بضاعتي هي الألم والموت
خذوا العِبْر مما علـــمته عني
أنا آفة هذا العالم الفسيح الأرجاء

"نقش على جعبة سهام لمملوك"

كانت القوات الصليبية للأمير الإنجليزي إدوارد قليلة العدد، فقد كـــان لديـــه ألف مقاتل فقط. وبالتالي فقد كان قادرًا بالكاد على تنظيم شن بضع غارات علـــى سهل شارون بالقرب من جبل الكرمل في عام ١٢٧١. وكان قادرًا، بـــالرغم مـــن ذلك، على الدخول في مفاوضات مع الخان أباقا. ولكن الخان كـــان ذاهـــلاً مـــرة أخرى عن الشئون السورية بشن حملة مكثفة على خراسان عـــن طريـــق مغـــول الجغطاى في عام ١٢٧٠، والتي لقي فيها الهزيمة في موقعة هرات في شهر يوليو من نفس العام. وقام بإرسال جزء كبير من قواته إلى أراضي قبيلة الجغطاى مـــن أجل نهب وإحراق بخارى كنوع من الانتقام. وأصيب الإليخان نفسه بجرح غـــائر عندما هاجمه خنزير بري أثناء قيامه بالصيد، ولكنه كان قادرًا، على الرغم من كل ذلك، والتزاماته لبلاد ما وراء النهر، على إرسال قوة مغولية من ١٠ آلاف مقاتـــل من الأناضول إلى بلاد الشام لتكون تحـــت تصـــرف إدوارد. وهربـــت الحاميـــة المملوكية لحلب بناءً على أوامر من بيبرس، من أجل إغراء المغول للتوغل داخل بلاد الشام ليقتربوا أكثر من قواته الرئيسية في دمشق. وبينما كان المغول يتقدمون تجاه معرة النعمان بدأ بيبرس في الزحف شمالاً بمقاتليه من الفرسان ذوي التدريب

العالي وأعداد غفيرة من قوات الاحتياط. وقام باستدعاء قوة أخرى من ثلاثة آلاف مقاتل من القاهرة. ولكن المغول قاموا بحرمانه من المواجهة التي كان يرغب فيها عن طريق إخلاء بلاد الشام بسرعة، واستطاعت فصيلة واحدة من المماليك المقاتلة إدراك حران في الأراضي المغولية وأسر جزء من حاميتها الصغيرة عندما خرجت لملاحقتهم. ولم يكونوا قادرين على الاستيلاء على المدينة، ولكن على أي حال، فإن المدينة تم دكها أنقاضًا بعد ذلك بواسطة المغول قبل أن يقوموا بهجرها. وكانت غارات المماليك بمثل تلك الكثافة والشدة حولها بحيث تجعل أمر الاحتفاظ بها والدفاع عنها أمرًا عسيرًا. كما كانت هجمات المغول قصيرة، وأقصر من أن تروق لإدوارد، كما أن إدراك عدم مقدرة أباقا الملحوظ، أو تردده بالالتزام في معاونة الدول الغربية بالقوة الكافية ستكون له آثاره الوخيمة في العلاقات الصليبية – المغولية في المستقبل القريب.

وعاد المغول والمماليك، في نفس الوقت، إلى سيرتهم الأولى عبر الأحد عشر عامًا الماضية من ممارسات الحرب الباردة من جس النبض واختبار قدرات الطرف الآخر على طول الحدود المشتركة بينهما. وتزايدت الأنشطة المغولية في كثافتها، وعلى الرغم من وضوح عدم رغبتهم في شن هجوم شامل، فقد كان من الواضح أن أباقا لا يزال يضع نصب عينيه الاستيلاء على بلاد الشام. ولقد استغرق الأمر معه بعض الوقت من أجل إحكام قبضته على الإليخانات، ولكن خطاباته إلى بيبرس عادت لسيرتها الأولى في عام ١٢٦٩ حيث أصبحت مفعمة بالثقة والرغبة في القتال ومن ذلك خطابه الذي يقول فيه:

> **عندما شرع الملك أباقا في التحرك من الشرق، وألحق الهزيمة بكل العالم، ولقي كل من وقف أمامه حتفه. فإذا ما كنت في السماء أو في الأرض فلن يُنقذك مني أحد. وأفضل سياسة يمكن أن تلجأ إليها هي أن تبحث عن السلام معي. فأنت**

لا تعدو إلا أن تكون مملوكًا تم بيعه في سوق سيواس للعبيد.
فكيف لك أن تتمرد على ملوك الأرض؟[٤٨]

فإذا لم يستسلم بيبرس، ومضى أباقا يقول محذرًا، فإن الله سيعلم عن ذلك، وكان أباقا يعتبر نفسه أداة الله على الأرض. وكان رد بيبرس الهادئ هو رفض الإذعان وتذكير أباقا بمصير كتبغا، ولكنه علم أيضًا أن الخطاب هو نذير بنشوب الحرب. وكانت لبيبرس هموم أخرى في جنوب مصر. ولذا فقد قرر بيبرس أن يمنح عكا مهلة أخرى من أجل التقليل من مخاطر عمليات مغولية - صليبية مشتركة ضده. وتم التوسط في المعاهدة بين إدوارد وبيبرس عن طريق شارل الأول كونت إنجو، والذي كان يرغب في وجود ممالك صليبية ضعيفة حتى يتمكن من ضمها إلى سلطانه عندما يكون مستعدًا. ويكون التفاوض من أجل السلام لتستمر الهدنة لفترة عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام وعشر ساعات وهو الإطار الزمني للهدنة طبقًا لأحكام القرآن[*]، وهي فترة الهدنة التي يمكن فيها توقف الجهاد إذا ما كانت هناك فائدة للمسلمين يمكن جنيها من إيقاف الحرب ضد الكفار، وتم توقيع الهدنة في مايو ١٢٧٢. وكضمان إضافي للسلام من ناحية إدوارد في المستقبل فقد قرر بيبرس أن يقوم باغتياله. وطُعن إدوارد بخنجر مسموم بينما كان يغط في النوم بحجرته، ولم يكن الجرح المبدئي مميتًا ولكن الأمير كان يرقد قريبًا من الموت لعدة شهور بعدها، وبمجرد أن شعر بتحسن كاف غادر الشرق متوجهًا إلى إنجلترا في سبتمبر ١٢٧٢. ولعل المرء يمكن أن يتساءل عن الانطباع الذي تركه التعامل مع بيبرس على الأمير الشاب، خاصة وأن الأمير

---

(48) In, Amitai-Preiss , "Mongols and Mamluks, p. 121.

(*) لا يوجد إطار زمني محدد للهدنة في القرآن الكريم، ويبدو أن المؤلف ذي الخلفية المسيحية قد التبس عليه الأمر - بعد معرفته لهدنة الرسول صلى الله عليه وسلم مع مشركي مكة لعشر سنوات (المراجع).

الإنجليزي إدوارد الأول كان ذا سمعة طيبة كونه حذرًا، وغيــر ميــال للانــدفاع، ويتسم برباطة الجأش فضلاً عن تميزه بعقلية عسكرية ممتازة.

وكانت قائمة بيبرس للتدمير ضد الصليبيين تعطي انطباعا بعداء متواصــل، ولكن الصورة لا يمكن أن تكتمل بغير تقدير استخدام السلطان لمعاهدات السلام من أجل توسيع رقعة الانقسامات السياسية التي كانت تجري بين الممالك الصليبية. ففي عام ١٢٦٧ عقد بيبرس معاهدة مع فرسان الإسبتارية، وفي عام ١٢٦٨ كان يقــوم بشن حملاته على فرسان الهيكل وأنطاكية.

وجعلت المعاهدة التي قام السلطان بعقدها مع إيزابيل دي إيبيلين – حاكمــة بيروت – في عام ١٢٦٩ من المدينة ومن السيدة نفسها محمية للسلطان، كما قامت بتحييد القيمة الإستراتيجية للمدينة بالنسبة للفرنجة في واقع الأمر. وكانــت المــادة الثانية عشرة من المعاهدة تنص على ألا تسمح السيدة لأي من الفرنجة، أيًا كــانوا، بشن عمليات ضد أراضي السلطان من بيروت والأراضي التابعة لها. وتمتنع عــن ذلك وتقوم بصد أي شخص يحاول العبور ولديه نوايا شريرة"(٤٩).

ولم تكن هذه المعاهدات بين أطراف على قدم المساواة. فقد كانت مفاوضات بيبرس تشبه المفاوضات التي تم عقدها في القرن التاســع عشــر بــين بريطانيــا والصين تحت فوهات مدافع البوارج البريطانية، وكانت بوارج السلطان هي القوات المملوكية.

ويقول ابن عبد الظاهر مؤرخ السلطان عن واحدة من مهامه في عكا:

> **"كان ملكهم يماطل كسبًا للوقت ومن أجل الحصــول علــى أفضل الشروط، ولكنني لم أكن مرنًا معهم طبقًــا لتعليمــات السلطان. واستشاط ملك الفرنجة غضبًا وهو يقول للمتــرجم**

---

(49) In, P. Holt, Early Mamluk Diplomacy 1260-1290: Treaties of Baybars and Kalavun with Christian Rulers, Leiden: EJ Brill, 1995, pp. 42-7.

"دعه ينظر إلى خلفه". واستدرت ناظرًا للخلف لأجد جيش الفرنجة بأكمله خلفي في تشكيل قتالي، وأضاف المترجم قائلاً لي "إن الملك يُذكرك بألا تنسى وجود هذا العدد الضخم من الجند. وعندما لم أحر جوابًا، أصر الملك أن يسألني المترجم عن الإجابة على سؤاله.

فسألت حينئذ هل يمكن أن تعطونني الأمان على حياتي إذا ما صرحت بما أفكر فيه؟

فجاءت الإجابة بنعم.

فقلت حسنًا، قل للملك إن عدد هذا الجيش أقل من عدد أسرى الفرنجة في سجون القاهرة".

بُهت الملك وأصابته غصة على وجه التقريب، ثم جعل الاجتماع مغلقًا؛ ولكنه قام باستقبالنا بعد وقت قصير ووافق على عقد الهدنة(٥٠).

وأطلقت الهدنة يد بيبرس ليمضي في مشروع جديد، ولكن هذا المشروع أصبح همًا حقيقيًا مقيمًا لكل سلطان مملوكي وإلى نهاية الحقبة المملوكية. وكانت النوبة دائمًا لها أهميتها لمصر بمناجمها، ولكنها في نفس الوقت وبصفة خاصة كانت جارة غير مريحة إن لم تكن بالغة الخطورة. فقد أغارت القبائل النوبية بقيادة ملكهم داود في أغسطس على ميناء عيذاب المهم في البحر الأحمر ١٢٧٢. وقام بيبرس بإرسال محافظ قوص في غارة انتقامية ضد أراضي النوبة التي تحيط بنهر النيل في المنطقة ما بعد أسوان. وأتبع بيبرس ذلك بإرسال حملة أخذت معها أحد المُدّعين بعرش النوبة من القاهرة رأسًا إلى دنقلة عاصمة النوبة. وأعملت الحملة

(50) In, Maalouf, pp. 250-1.

الذبح في قوات الملك داود، وتم تنصيب الملك الجديد شاكاندا على العرش. ولم تعد النوبة مُستقلة، كما أصبح ملكها هو محافظ السلطان على المنطقة وأصبح يتعين عليه أن يقوم بإرسال نصف إيرادات النوبة إلى السلطان كل عام. كما أصبح يتعين على مسيحيي النوبة أن يقوموا بدفع الجزية إلى السلطان وضُمت المنطقة بأسرها إلى أسوان. وشرع بيبرس في وضع سياسة السلطان المملوكي تجاه النوبة من حيث الخضوع كإقطاعية ودفع الجزية وإجراءات عقابية أخرى. وفشلت هذه السياسة في النهاية بعد وفاة بيبرس حيث كان من المستحيل قمع الثورة في تلك المناطق العدائية.

وكان الشغل الشاغل والوحيد تقريبًا طوال السنوات الباقية من فترة حكم بيبرس هم المغول. وأصبحت الحرب مع المغول في واقع الأمر مأزقًا عميقًا ودائمًا من وجهة نظر المماليك. ومن ذلك الوقت فصاعدًا أصبحت البيرة إلى الشمال الشرقي هي المسرح الرئيسي للحرب، فقد قام المغول بالإغارة على المناطق التي حولها، وحاولت الاستيلاء عليها في العديد من المرات، ولقد مضى على بيبرس أكثر من عشر سنوات حتى الآن وهو يقوم بإمدادها بالطعام والأسلحة ومعدات الحصار. كما أن المماليك كانوا يقومون بإرسال الوافدية ودوريات من جنود المماليك عبر الحدود ليقوموا بتنفيذ حرب استنزاف قذرة على الجانب المغولي منذ عام ١٢٦٠. ولقد حان الوقت، على أي حال، لمبادرة جديدة لشن الحرب على المغول؛ ولقد كان بيبرس ومنذ وقت طويل يدرك نقاط الضعف لدى المغول، وربما لذلك أدرك أن الوقت قد حان لتكون أنطاكية هي ملعبه من الآن فصاعدًا.

وكما أوضحنا آنفًا، فقد كانت أنطاكية محمية مغولية منذ عام ١٢٤٣، ولكن قبضة المغول على المنطقة بصفة خاصة لم تكن مُحكمة بالقدر الكافي، وفي وقت مبكر في عام ١٢٦٢ حاول منشق سلجوقي يختبئ في القسطنطينية أن يحصل على خدمات بيبرس لغزو المحمية. ولم يكن بيبرس يشعر بالرضا عن الأمان في

أراضيه حتى يتبنى عملية الغزو، حتى ولو كان الحاكم أو الوصي الذي يطلق عليه المغول لقب "حامل الأختام" على المنطقة معين الدين سليمان قد قام بالاتصال بالسلطان في عام ١٢٧٢، وإن كان بيبرس قد تكتم الأمر.

وكانت لا تزال مشكلة معالجة الوضع الراهن على جبهة البيرة قائمة، على أي حال، وقبل التفكير في تصعيد أي عمليات ضد أنطاكية. وكما ذكرنا سابقًا، فإن أباقا ازداد نشاطه أكثر فأكثر، كما دخل في مفاوضات جادة مع البابا. ووصلت طبيعة تلك المفاوضات إلى مراحل متقدمة لدرجة تبشير البابا جريجوري الخامس بحملة صليبية في مجمع ليون في عام ١٢٧٤م، وتوحد الكنائس الغربية والشرقية لفترة قصيرة مما وضع الغرب على شفا حرب جديدة في الشرق من أجل مساندة أصدقائهم المغول الذين لا يدينون بالمسيحية. وتوفي البابا الموجود آنذاك لحسن حظوظ بيبرس لتندلع مشاعر العداء مرة أخرى بعدها بين الأمم الغربية وبعضها البعض. وبدا كما لو أن أباقا سيضطر إلى الذهاب للحرب بمفرده. وأعطى بيبرس دفعة أكبر لجهوده الدبلوماسية خلال هذه الفترة مع منكوخان، خان القبيلة الذهبية، وذلك من أجل صرف انتباه أباقا، وللتأكيد له أن العمليات المشتركة ضده، وعلى الرغم من أنها غير ممكنة على أرض الواقع، ولكنها كانت لا تزال في طور التخطيط. وهذه مقتطفات من خطاب بيبرس إلى أباقا في سبتمبر ١٢٧٢:

> يبلغك السلطان تحياته، ويفيدك بأن مبعوثي مونكوتيمور قد وفدوا إليه مرات عديدة حتى يقوم السلطان بمهاجمة أراضيكم من جانبه، ويقوم الملك مونكوتيمور بالهجوم من جانبه. وأينما تصل خيول السلطان فتلك أراضيه، وأينما وصلت خيول مونكوتيمور فتلك أيضًا أراضيه(٥١).

---

(51) In, Amitai-Preiss, Mongols and Mamluks, p. 127.

وقيل إن أباقا أصابه الارتباك من جراء هذه الرسالة الخطية لدرجة أنه ترك الحجرة التي كان يجلس فيها مع وفد بيبرس الذي أصابه الأسى على حاله. وتضمن رده لبيبرس رغبته في إرساء قواعد السلام، أو الصلح. ولم يكن ذلك على أي حال ضعفاً من جانب الخان. فقد كان السلام في المغولية كلمة مرادفة للاستسلام، أو السلام الذي يُمنح بعد الإخضاع والإذعان الكامل. ورفض بيبرس العرض حيث إن السياسة الاستعمارية المغولية التي تعطيهم الحق الإلهي لغزو العالم يفضح ذلك الغلو كغرض من أجل استهلاك رجال أباقا كما هو الأمر أيضًا بالنسبة لجنود المماليك على حد سواء. ووقفت البيرة بعناد في طريق عالم الغزو، وأرسل المغول جيشاً آخر ولمرة أخرى للاستيلاء عليها في نوفمبر ١٢٧٢. وكان بيبرس يقوم بإعداد قواته بالفعل في دمشق بينما كان يقوم باستقبال رسائل مخابراتية غامضة بأن المغول أيضًا يقومون بإعداد عدتهم منذ شهر أغسطس الماضي. وتحرك بيبرس شمالاً مرسلاً قوة مملوكية صغيرة مدعومة بالبدو أمام القوة الرئيسية من أجل دعم حامية البيرة. وسار بيبرس نفسه عبر حماة ليأخذ بعض القوارب الصغيرة التي كان يتم نقلها بالجمال إلى نهر الفرات. ووردت تقارير عن أن ما يقرب من ثلاثة آلاف من المغول احتشدوا على الضفة الشرقية للنهر ووصل بيبرس إلى الضفة الغربية يوم ١١ ديسمبر.

وأحرز المغول تقدمًا في عمليات كسر الحصار مع مرور الوقت الذي وصلت فيه قوات السلطان. وكانت المنجنيقات ومعدات كسر الحصار تحت إشراف المهندسين الصينيين الذين أرسلهم قوبلاي إلى هولاكو، ومعها قوات إضافية تبلغ ثلاثين ألفا من المغول في عام ١٢٦٤ تقوم بالهجوم على الحصون بالفعل. كان قد تم إجبار سلاجقة الأناضول على تقديم ثلاثة آلاف مقاتل؛ وكانت القوات التي تقوم بحراسة النهر تقترب بالفعل من رقم خمسة آلاف مقاتل؛ أي أكثر من الرقم الذي تم الإبلاغ عنه في البداية وهو ثلاثة آلاف مقاتل. وكانت هذه الآلاف الخمسة من المقاتلين تأخذ مواقعها في الأماكن الضحلة من النهر والتي يسهل العبور فيها

ظاهريًا ولكنها غادرة بعض الشيء في حقيقة الأمر، وترجلوا وقاموا ببناء تحصينات عالية. وكان واضحًا أنهم قاموا بالتخطيط لإيقاف المماليك قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى أبعد من ضفاف النهر. وقام بيبرس بإرسال القوارب النهرية وعلى متنها رماة السهام من المشاة ليبحروا في اتجاه التيار؛ وكان على هؤلاء عبور النهر لاستكشاف تحصينات المغول واستخدامهم كغطاء لعبور قواته الأساسية. وعبر المماليك النهر سباحة وهم يمسكون أعنة الخيول عند المخاضة المقابلة لتحصينات المغول. وكان الأمير قلاوون يقود الموجة الأولى للهجوم، بينما كان بيبرس يعبر بالقوة الأساسية. ولابد من أن هذه القوات عبرت بنظام بالغ الدقة لأنها وبمجرد عبورها اشتبكت في قتال متلاحم رجل لرجل مع المغول، وعلى الرغم من التفوق الواضح للمغول من حيث العدد والاستعداد لهذا الهجوم الدقيق فقد واجهوا هزيمة مريرة. وقُتل قائدهم شنكار، كما أُخذ مائتان من المقاتلين أسرى. ولم يكن المغول المحاصرين للبيرة على مرمى البصر ليشهدوا ما حدث، ولكن عندما واجهوا مشهد مقاتلي أجنحة دفاع جيشهم نفسه يفرون تجاههم في مشهد عبثي فإنهم ولوا الأدبار واختلط الحابل بالنابل. ويبدو أنهم كانوا على وشك الاستيلاء على الحصن، ولكن وكما يحدث دائمًا في أقاصيص الماضي الخيالية، فقد وصل الفرسان في آخر لحظة وقام بيبرس بتحرير الحامية المحاصرة. وشعر بيبرس بالسعادة وقام بمكافأة حامية البيرة، وفي نفس الوقت قام بإرسال قوات لملاحقة فلول المغول الهاربة إلى المناطق البعيدة عن النهر. واستشاط أباقا غضبًا لما حدث، وقام بنفي قائد الحملة المهزوم.

الآن وقد أصبحت البيرة آمنة، فقد استدار بيبرس تجاه الأناضول مرة أخرى. وهوجمت قلعة كاينوك الأرمينية في يوليو ١٢٧٣ تحت ذريعة أن رجالها يهاجمون التجار المسلمين. وكان ذلك صحيحًا بالتأكيد حتى ولو كان الأرمن يرتدون غطاء رأس مغولي في غاراتهم في محاولة منهم لإخفاء هويتهم، ولكن كان من الملحوظ أن المدينة التي يقع فيها الحصن قريبة جدًا من إحدى الممرات الجبلية

التي تربط بلاد الشام وسهول الأناضول. ونُهبت المدينة، وأجريت مذبحة شاملة للرجال وأُخذ النساء والأطفال كسبايا وعبيد. ثم استدار الجيش المملوكي ليهاجم مدينة تروش وتقع إلى الجنوب من الأبلستين التي تقع تحت سيطرة المغول.

وقام بيبرس بالدعوة لتجمع عام لكل الفرسان المقاتلين في السلطنة في أواخر العام التالي؛ فقد كانت هناك شائعات عن غزو مغولي، ولكن الأكثر احتمالاً أن السلطان أراد استخدام شائعة التهديد المغولي لضمان أن يكون كل المقاتلين وحتى قوات الاحتياط التركمان ورجال الحلقة كلهم على أهبة الاستعداد. وكان بيبرس يقوم باستعراض الجيش وحتى الرتب الدنيا من قواته المقاتلة، وكان غالبًا ما يربط بين عمليات التفتيش المفاجئة التي يقوم بها والاستعراضات العسكرية التي يتم فيها دفع الأجور، وبذلك يضمن تواجد كل العسكريين بالكامل، كما يمكن تقليل عمليات إقراض ومشاركة الدروع والخيول بين المقاتلين الذين كانوا على استعداد لاستلام أجورهم ولكنهم لا يعدون أنفسهم على الوجه الكافي للقتال. وتُحدثنا "سيرة بيبرس" عن أنه كان يقوم بالتفتيش على أقسام مختلفة من قواته كل يوم من أيام الاثنين والخميس، وأن الاستعراضات كانت تعتبر عروض باهرة تستمر أحيانًا طوال اليوم بأكمله. وتصبغ هذه الممارسات كل المقاتلين بثقافة الاستعداد الدائم والفخر بمهنتهم السامية:

"وأثناء تلك الفترة يأمر السلطان الأمراء، والجنود ومماليكهم أن يحتفظوا بأسلحتهم كاملة. ولذا فإن الجميع كانوا منهمكين في إعداد أغطية سروج الخيل الخاصة بالحروب، وإعداد الدروع، وتنظيفها، وإسدال الخوذ، وإعداد الواقيات الأمامية للخيول، ولا أحد يشغله أي شيء آخر غير استكمال معدات الحرب النافعة، وفي كل عنبر من عنابر الجنود كان هناك مُدرب يقوم بتلقينهم أصول القتال بالرماح، كما أن الكثيرين من المماليك

الظاهرية أجادوا إطلاق النيران من فوق ظهور الخيول المسرعة. ولم يكن هناك أي جندي من الجنود يرغب في أن يشغل تفكيره أي شيء آخر غير إعداد معدات الحرب، وحيث إن الناس يتبعون دين ملوكهم... فإنه كان يحدث قبل ذلك أن الجنود كانوا ينفقون الأموال التي يحصلون عليها في أشياء عديمة الجدوى قد تُغضب الله[٥٢].

ويمكن للمرء أن يتساءل عن ماهية الأشياء عديمة الجدوى التي تشير إليها سيرة بيبرس. ولم يكن التفتيش يتم من أجل اكتشاف عسكريين منهمكين في أمور غير عسكرية فقط؛ وتستمر سيرة بيبرس في رصد الأحداث فتقول: "لم يكن يمر رجل واحد دون أن يقوم السلطان بالنظر جيدًا في أي شكاية له، وإذا ما اشتكى أي جندي من قائده فإنه يأمره بإقامة العدالة". والمقارنة بين موقف بيبرس تجاه العدالة بين جنوده وبين جنكيزخان صادمة للمرء. ويكشف ليدل هارت في كتابه "إماطة اللثام عن قادة عظام" عن موقف جنكيزخان تجاه قواته باعتبار ذلك واحدا من مفاتيح نجاحه كقائد. ولكن من الألغاز العميقة كيف أخفق ليدل هارت في أن يضم بيبرس في دراساته لأولئك القادة العسكريين العظام.

وكانت التعبئة العسكرية لعام ١٢٧٤ أكبر بكثير من عمليات التفتيش العسكري الدقيق الذي كان يقوم به بيبرس على جنوده، والحقيقة أنها كانت جزءًا من الاستعدادات لهجمات جديدة على أرمينيا. وادعى بيبرس أن أرمينيا قد توقفت عن إرسال الجزية، بالإضافة إلى أنها لم تقم بإرسال معلومات حقيقية عن المغول للقاهرة. ولعله كان من الصعوبة بمكان على الملك ليو أن يفي بأي من تعهداته نظرًا لحقيقة أنه كان من رعايا الإليخانات، وكانت لديه حامية مغولية لا تقل عن

---

(٥٢) انظر ما سبق ذكره عن سيرة بيبرس.

عشرين ألف جندي متواجدين فوق تراب أراضيه. ولكن بيبرس كان يريد تبريـزًا لهدفه الحقيقي – حيث إن حامل الأحتام (لقب الملك ليو حاكم أرمينيا عند المغول)، وكان على اتصال مرة أخرى ببيبرس عارضًا عرش الأناضول على السلطان إذا ما حضر السلطان بقواته وادّعى ذلك، وقال أن إرمينيا تقف في طريقه – وكان ذلك بالتأكيد مما لا يمكن إعلانه.

وبدأت عمليات الإعداد التمهيدية للغزو بواسطة قوات المماليك المتمركزة في حلب في أواخر عام ١٢٧٤. وبدأت بالإغارة على مرعش وهي المدينة الواقعة على طريق الريف، كما قامت بتحطيم الأحياء المجاورة للمدينة. وبدأ بيبرس الزحف بقواته الرئيسية في فبراير ١٢٧٥ وبمجرد أن وجد نفسه في بلاد الشام قام بإرسال فصيلة صغيرة من قواته إلى البيرة حتى يُعطي انطباعا بأنه ينتوي التوجه إلى الشمال الشرقي. وأحدثت هذه الفصيلة ذعرًا هائلاً في المناطق المغولية فيما وراء البيرة حتى إن هذه القوات كانت قادرة على الإغارة على الجزيرة بدون أن يعترض طريقها أحد، كما أثبتت جدواها كهجوم مضلل بينما كانت القوات الرئيسية تشق طريقها عبر بوابات بلاد الشام. وتحرك السلطان بقواته عبر الممرات الجبلية في ٢٠ مارس، وقام بإرسال فصائل صغيرة تحت قيادة كبار الأمراء على المرتفعات من الجانبين لحماية أجنحة الجيش. واستمر الجيش في زحفه بطول السهل الساحلي قبل أن يتجه نحو الداخل. كان قلاوون مرة أخرى هو الذي يقود طليعة الجيش عندما قامت قواته بمفاجأة سكان "المصيصة" وذبحهم عن آخرهم. كما تم نهب العاصمة سيس مرة أخرى كما حدث في عام ١٢٦٦، ولكن القلعة قاومت بعناد شديد. وتوجه بيبرس إلى ضواحي المدينة وقام بأسر نساء وأطفال المغول الذين هجرهم رجالهم وفروا هاربين. كما أن القوات الأرمينية كانت غائبة بغرابة شديدة؛ وربما بعد كوارث عام ١٢٦٦ فإن مواجهة جديدة مع المماليك كانت فوق قدرة وطاقة الملك ليو. وكانت هناك معركة ناجحة مؤخرًا مع فصيلة صغيرة من ألف وخمسمائة مقاتل من الأرمن وخمسمائة من الفرنجة بالقرب من الساحل،

ولكن ذلك كان بعد أن استمتع بيبرس بفترة راحة واستجمام في سيس أثناء عطلة الأعياد الدينية المقدسة، وبينما قام بإرسال بعض أمرائه للإغارة على طرسوس وساحل البحر. كما أُحرقت مدينة أياس.. ميناء الإليخانات الرئيسي ومصدر مهم من مصادر الإيرادات لديهم، كما ذُبح سكانها جماعيًا، أما أولئك الذين حاولوا الهرب بالزوارق فقد تم إغراقهم. وعادت القوات بعدئذ إلى بوابات بلاد الشام وقامت بالهجوم على تل حمدون في طريقها. وكان السلطان قد عاد إلى دمشق بحلول يوم ١ يوليو ١٢٧٥.

وأصبحت شكوك قادة المغول تحوم بحامل الأختام أكثر فأكثر؛ وتم استدعاؤه إلى قصر أباقا في سبتمبر ١٢٧٥ مع شقيق الإليخان، والذي سبق إرساله إلى الأناضول منذ عدة سنوات من قبل، والذي كانت الشكوك تحوم حوله أيضًا حول محاولته اغتيال حامل الأختام وتنصيب نفسه كحاكم مستقل تحت حماية بيبرس. وازداد إلحاح حامل الأختام على بيبرس ليقوم بالغزو أكثر وأكثر في عام ١٢٧٥- والذي ظل رغم الحملة الناجحة غير قادر على ضمان النجاح في الأناضول، كما زاد نشاط أباقا أكثر فأكثر. وتم حصار البيرة بواسطة المغول مرة أخرى في نوفمبر ١٢٧٥ بواسطة قوة من ثلاثين ألف رجل، ولكن نصفهم فقط كان من المغول. وأُجبر حامل الأختام مرة أخرى على إرسال قوة من السلاجقة، كما استخدمت قوات من الأكراد والعراقيين. وانطلق بيبرس من دمشق في يوم ٨ ديسمبر ليبدأ المغول انسحابًا عاجلاً في نفس اليوم. ومن الشيق أن نقول إن اسم السلطان بمفرده كان كافيًا ليجعل المغول يسارعون بالانسحاب، ولكن السبب المباشر كان هو موت الخيول نتيجة أحوال الطقس البالغة السوء، ونقص الإمدادات، وحالات وفاة بعض المحاصرين وعدد من الهجمات الناجحة من المدافعين والتي أدت إلى تحطيم الكثير من منجنيقات المغول. وبالإضافة إلى ذلك فإن المغول أصبحوا يشعرون بالرعب وأصبحت تملؤوهم الشكوك تجاه زملائهم المجندين من الأناضول؛ فقد كانت هناك مخاطر حقيقية كبيرة من هروبهم وانضمامهم إلى المماليك بمجرد أن يبدو حملة بيارق جيش بيبرس في الأفق.

وكان بيبرس على أهبة الاستعداد في عام ١٢٧٦ للقيام بحملة على الأناضول. وبينما كان حامل الأختام على ثقة فقط من الولاء الحقيقي المطلق لحفنة من الأمراء، فقد كان هناك إجماع بين الباقيين على أن المغول يجب ألا يكونوا على علم بالمؤامرة، وأنه يتعين عليهم الانتظار لمعرفة الاتجاه الذي تهب إليه الرياح. كما أن بيبرس أيضًا كان قد قرر أن يقوم بممارسة بعض المماطلة والتسويف للتيقن كيف سيكون الالتزام بالولاء. وعندما تسلم بيبرس رسائل تتعهد بالولاء - فقد أرسل رده بأن مستوى المياه لا زال منخفضًا في الأنهار في الوقت الحالي، وأنه سيأتي بعد أمطار الربيع - والغريب أن يصدر هذا الحديث من رجل اعتاد على القيام بحملاته في كل شهر من شهور السنة. وكانت إستراتيجية خدعة حامل الأختام على وشك أن تصبح خارج نطاق السيطرة. فقد قام بإرسال فوج من المقاتلين السلاجقة إلى المغول في الأبلستين بزعم أنه علم أن السلطان كان يسير في ذلك الاتجاه، ولكن بتعليمات سرية للأمراء بأن ينضموا إلى المماليك في أول فرصة تتاح لهم. كما أنه أجرى اتصالات بأحد سادة الأكراد في أراضي الحدود والذي كان يستعد للهروب إلى بلاد الشام بعد أن قام بقتل بعض قادة المغول حتى يعلم بيبرس عن الاستعدادات التي يتم الإعداد لها. وكان على هذا الرجل التعس، بالإضافة إلى ذلك أن يقوم بتنظيم عرس أميرة سلجوقية إلى أباقا خان، وتم استدعاؤه مرة ثانية ليقوم بتوضيح ماذا يجري في الأناضول على وجه التحديد للخان. وعند هذا الحد قام بيبرس بإرسال حملتين إلى أراضي الإليخانات. ولم يتم ذلك بدافع إفساد شهر عسل الخان فقط، ولكن من أجل جمع المعلومات أيضًا. وأُرسلت واحدة إلى ماردين، وتقع إلى الشرق من البيرة وذلك لإخفاء الهدف الحقيقي والمهم لحدود الأناضول والتي عادت مع بعض الأمراء السلاجقة المنشقين وقواتهم، وكانت هناك أنباء مُشجعة بأن الفوضى تعم الإقليم فضلاً عن وصول الكثير من خطابات التأييد للسلطان.

(١) كان القوس والجعبة في رسومات العصور الوسطى عنصرًا دائمًا فيها مما يدل على أهميتها لطبقة المقاتلين في تلك الحقبة. قام الفنان في هذه القطعة الفنية بتمييز الجعب بألوان زاهية وحية، بل وتجشم عناء محاولة إظهار الجعبة للفارس المترجل. كما يمكنك ملاحظة سروج الخيول القوية والثابتة التي تتيح للفارس فرصة الرماية. ديوان الخواجة كارماني "قصة حب أمير وأميرة" بغداد، ١٣٩٦ لوحة رسمها "جونايد Junayd" لوحة المكتبة البريطانية. كل الحقوق محفوظة. رقم ١٨١١٣. F23
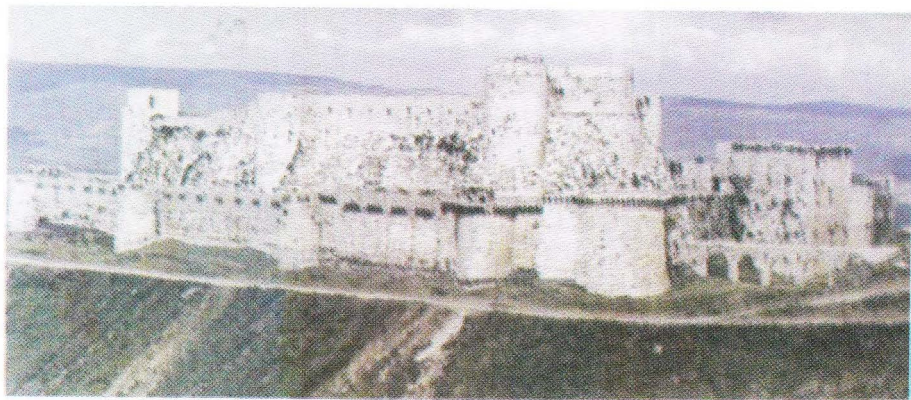
(٢) قيام السلطان بيبرس بإضافة البرج المربع لقلعة الحصن، يمكن رؤيته هنا بوضوح على الطرف القريب. (بيين إيدج)
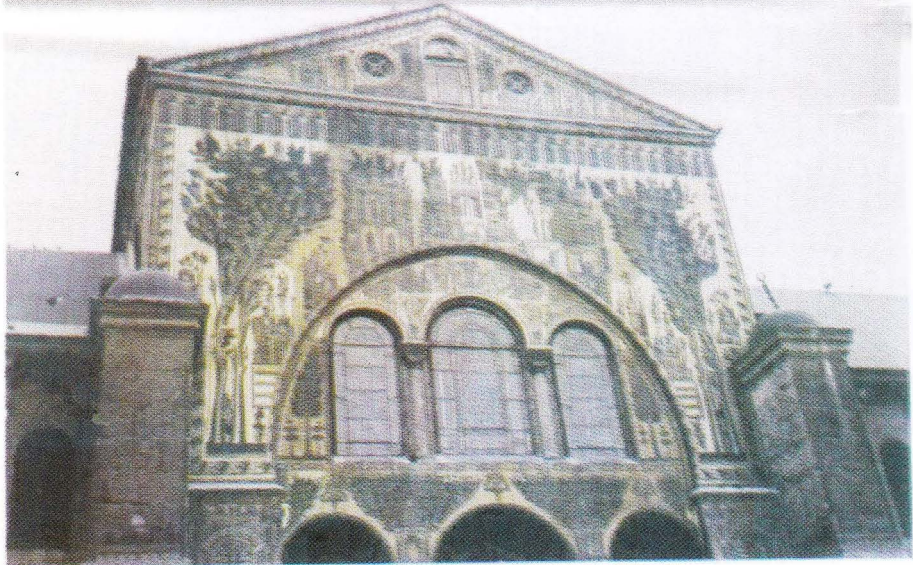
(٣) المسجد الكبير في دمشق حيث نودي للجهاد ضد عكا في عام ١٢٩١ (ببين إيدج)

(٤) قلعة المماليك في حلب وبها خندق مائي من الاتساع بحيث يسمح بسير القوارب فيه (بتصريح من الحكومة السورية).

(٥) ذكرى حياة أعداء الصليبيين في إيطاليا: لوحة في مدينة آرازو؛ ولا تزال المدينة تحتفظ بمسابقات صراع تتطلب ضرب دمية متحركة لمملوك. تصوير المؤلف.

(٦)

على الرغم من أن أصول المماليك تعود إلى عبدة للعديد من الآلهة، فإنهم قاموا ببناء وإصلاح العديد من المساجد. وهذا هو محراب الأزهر بالقاهرة. (ت. ثورنتون).

(٧)

الإنكشاريون العثمانيون أعداء المماليك، كانوا أيضًا من الجنود العبيد، ورماة سهام لا يُشق لهم غبار. (محفوظات مكتبة نيويورك العامة).
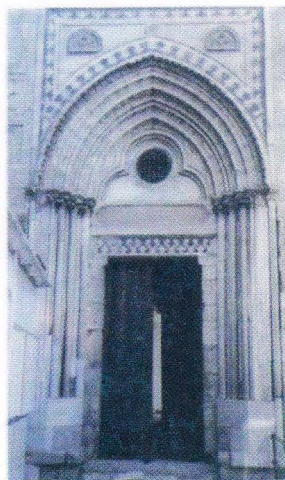
(٨) هذا المدخل في متحف السلطان الناصر قام المماليك بالاستيلاء عليه بالكامل ضمن الغنائم من كنيسة القديس يوحنا في عكا في عام ١٢٩١.

(٩) أربعة من الفرسان يركبون في تناسق حول حوض مائي.

صور من كتب الفروسيـة 'ذروة البحث من أجل الوصـول إلى الكمـال في الفروسية'. عام ١٣٦٦ – مجلس أمناء مكتبة بيتي بدبلن.

(١٠) خيول مطهمة من المدينة كانت تُقدم كجوائز بواسـطة السـلاطين المماليك للمقاتلين المتميزين في التدريبات العسكرية.

(١١) مقاتل مملـوكي يقوم باستعراض فوائد النيـران اليونانية أو النفط، وقد قام بإشعال النيران في درعه عن عمد.
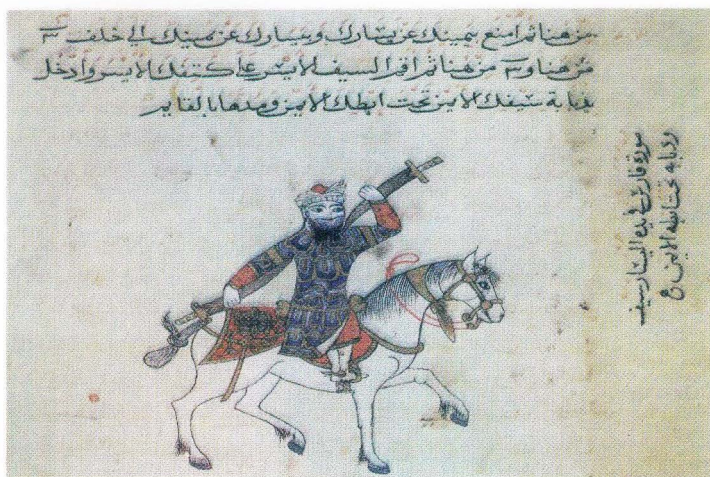
(١٢) استعراض على ظهر الخيل لمقاتل مملوكي يقوم فيه الفارس باستخدام سيفين.

(١٣) تدريبات بلا دماء استعدادًا لحروب دامية.
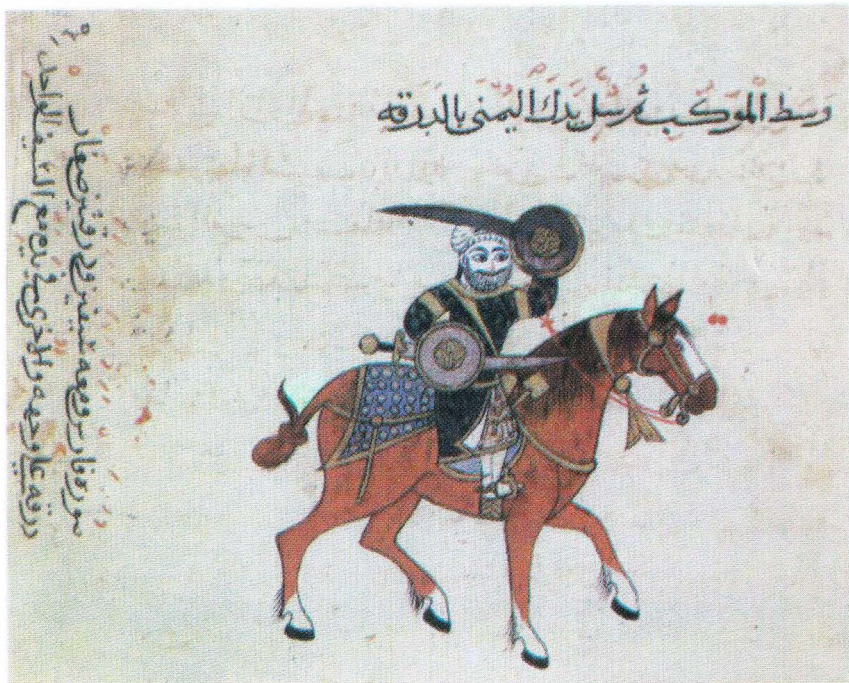
(١٤) محارب مملوكي يحمل سيفًا تقليديًا. وحتى في الوقت الحالي فإن سيوف جنرالات الجيش البريطاني مصنوعة على النمط المملوكي والتي واجهت البريطانيين على أيدي البدو الأتراك إبان حملاتهم في أواسط آسيا في القرن التاسع عشر.

(١٥)

صورة مصاحبة لموضوع حيوي توضح كيفية التعامل مع الذئاب عند صيدها.

(١٦)

وحتى مثل هذا الخندق المائي الضخم في قلعة الحصن لم تكن عائقاً أمام هجمات المماليك ضد قلاع الممالك الصليبية. (ببين إيدج)

(١٧) لوحة جويا وتصور الفوج المملوكي في جيش نابليون في هجومه على الثورة الإسبانية على مادرلين في مايو عام ١٨٠٨- كما أنه قام بالاحتفاظ بحارس شخصي خاص من المماليك يُدَعى رستم رازا والذي رفض ربما بحكمة أن يصاحب الإمبراطور إلى منفاه في سانت هيلانة.
هجوم المماليك – رسم لفرانسيسكو جويا (١٨١٤).

(١٨) الفرسان المدرعون تدريعًا ثقيلاً والذين كانوا يُشكلون القلب من الجيش المملوكي ولهم إرث مديد ومعترف به في الشرق الأوسط بوجه عام. يصف كاتب "مآثر الفرنجة" في وقت مبكر من الحملة الصليبية الأولى "الأجوليري" وهي الخيول الفارسية المُدرعة تدريعًا ثقيلاً. ألكسندر يقاتل زنكي، الحقبة الصفوية. معرض فرير الفني، مؤسسة سيمثونيان (f1908- 279a-b).
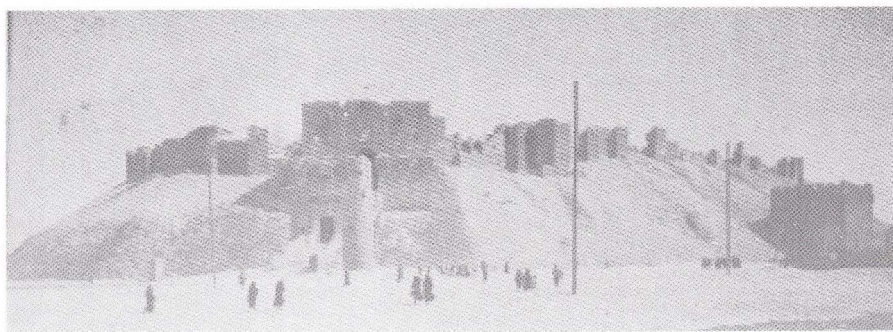
(١٩) كانت حلب هي النقطة الجوهرية في السياسة الدفاعية للمماليك عن بلاد الشام ضد هجمات المغول والعثمانيين.
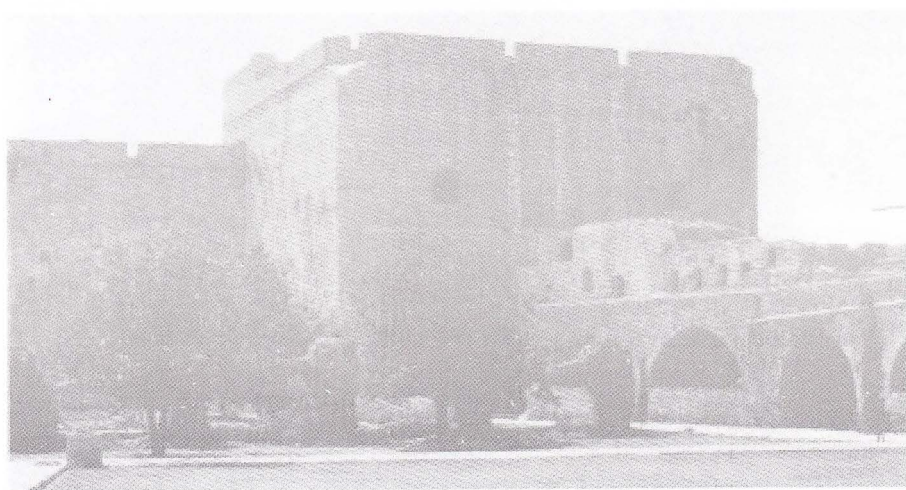
(٢٠) أسوار عكا التي هاجمها المماليك بأكبر دفعة من المنجنيقات شهدها الشرق الأوسط في تاريخه.

(٢١) منارة المماليك الجراكسة وتعكس رعايتهم الأصيلة لمآذن القاهرة. (ببين إيدج).

(٢٢) أمير أربعين مملوكا، والذي يُسمح بـأن ترافقـه فرقـة بـالطبول فـي الاحتفالات - ويبدأ حياته المهنية للدخول في قوة الحراسـة السـلطانية (الخاصكية). تصوير ج. ريللي.

(٢٣) قوات السلطان المملوكي كانوا من أعظم المقاتلين في العصور الوسـطى وكانوا يحملون أقواسا مصرية، وسيوفا دمشقية، ودروعا حلبيـة. نقـل الفرسان الصليبيون الدرع الجلدي الخفيف المصور هنا إلى أوروبا باسـم (هيوبريك جاسيران). تصوير ج. ريللي.
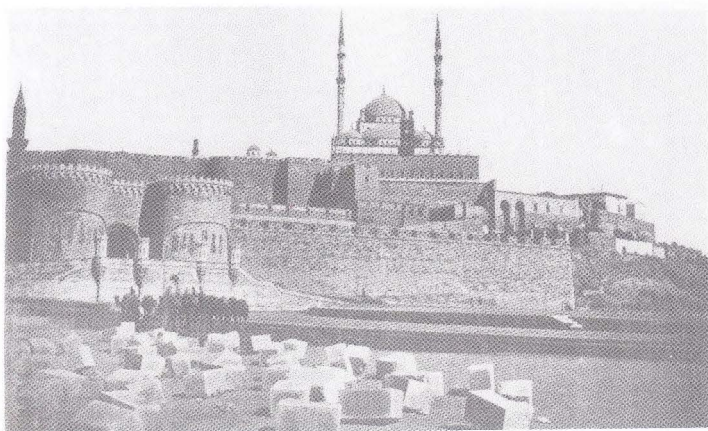
(٢٤) قلعة القاهرة قام بتأسيسها صلاح الدين الأيوبي على الأرجح، ولكنه أصبح مركزًا لسياسات وقوى المماليك والتي أزيلت كل معداتها العسكرية بعد الغزو العثماني لمصر. يمكن رؤية مسجد محمد على العثماني في الخلفية بوضوح.
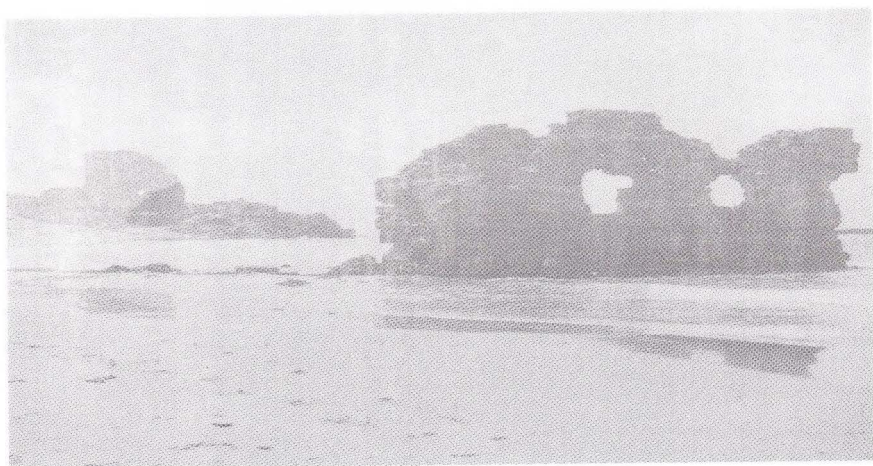
(٢٥) قلعة عتليت التي قام المماليك بتحطيمها من أجل منع الأوروبيين من النزول على سواحل بلاد الشام.

(٢٦) قيسيارية التى فتحها المماليك بعد أن قاموا بصنع سلالم من أحبال إمنـــة خيولهم ليصعدوا على أسوارها.

(٢٧) صانع سيوف دمشقي وهو الحرفي الذي يقوم بصنع السيوف الأكثر طلبًا في الشرق الأوسط.
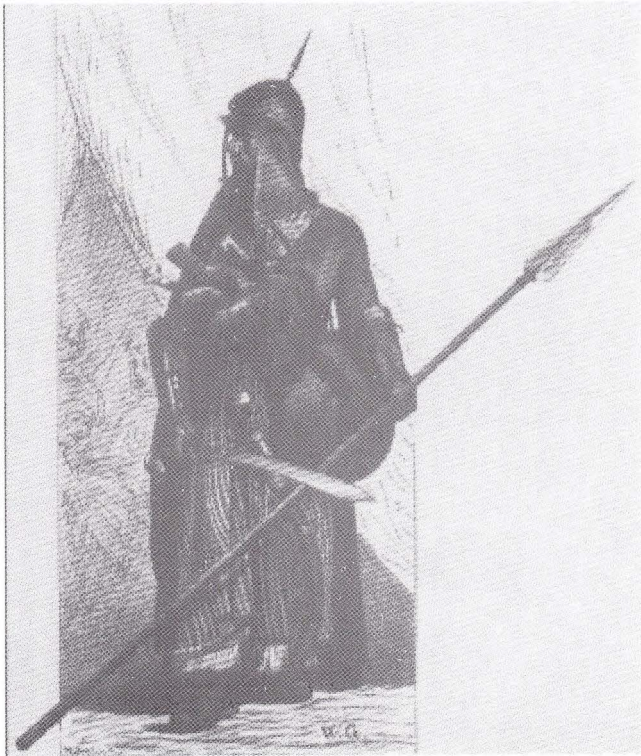
(٢٨) رسم بورتريه من القرن التاسع عشر لمقاتل مملــوكي يحمــل خنجــرًا وخوذة على النمط الجركسي.
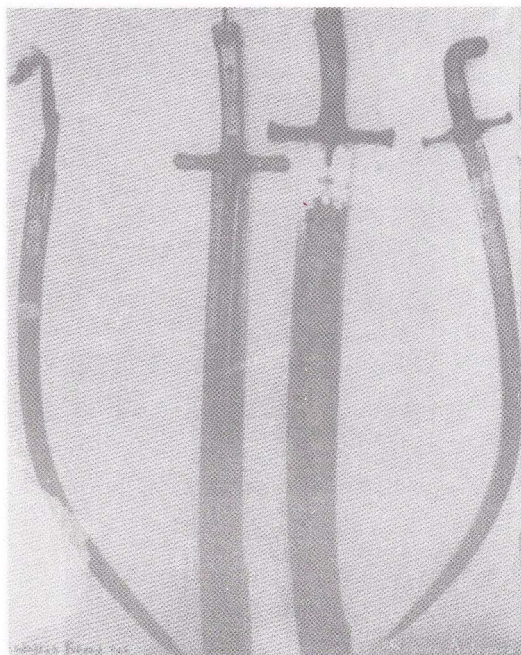
(٢٩) هذه السيوف العثمانية مشابهة إلى حد كبير للنماذج المملوكية.
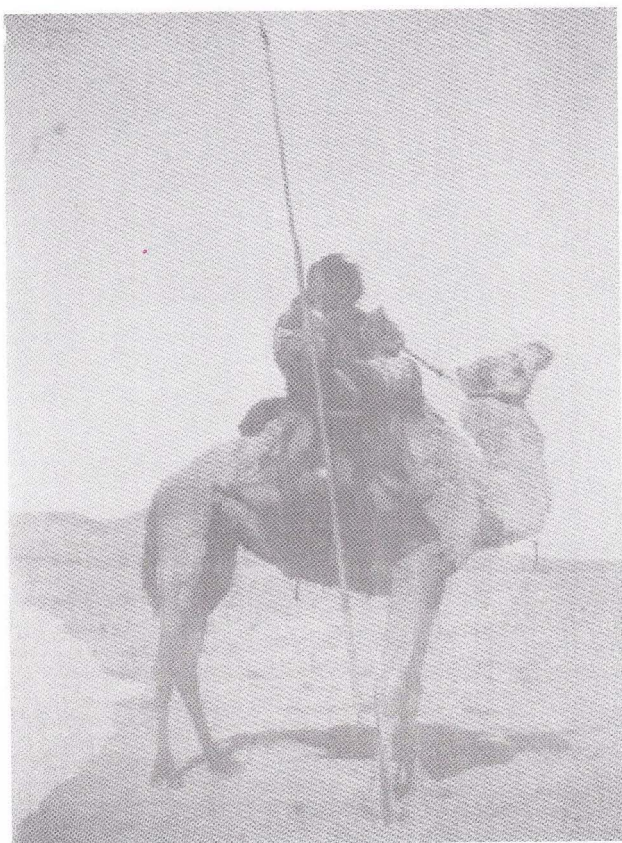
(٣٠) غالبًا ما كان البدو يعملون كقوات احتياط سواء راكبين على الجمال أو الخيول، ولكنهم في نفس الوقت كانوا في ثورات دائمة ضد السلطنة كما استنزفوا المماليك الكثير من الموارد في عمليات انتقام دامية ضد قبائلهم في مصر وبلاد الشام. لاحظ الرماح الطويلة للبدو، وكان ذلك أثناء الحملات الصليبية كرد على هجمات الرماح للقوى الغربية.

(٣١) كانت المتاحف المملوكية من معالم وسط مدينة القاهرة فى العصور الوسطى (تصوير بين إيدج).

(٣٢) رؤوس رسل المغول على أبواب مدينة القاهرة فى عام ١٢٦٠ كـإعلان صريح للحرب (تصوير بين إيدج).

(٣٣) فرسان قلعة المستشفى أو الإسبتارية تحالفوا مع المغول ودفعوا مقابل ذلك ثمناً باهظاً بتحطيم المماليك لمعقلهم.

(٣٤) كان لتحطيم الخوارزمين لأضرحة ملوك القدس وذبحهم رهبـان كنيسـة القيامة المجيدة فى عام ١٢٤٤ سبباً فى مبادرة القديس لويس بـالهجوم على مصر فى عام ١٢٥٠. وكانت الحملة الصليبية التى قـام بهـا هـى الباعث الأول لارتقاء المماليك لعرش السلطة.
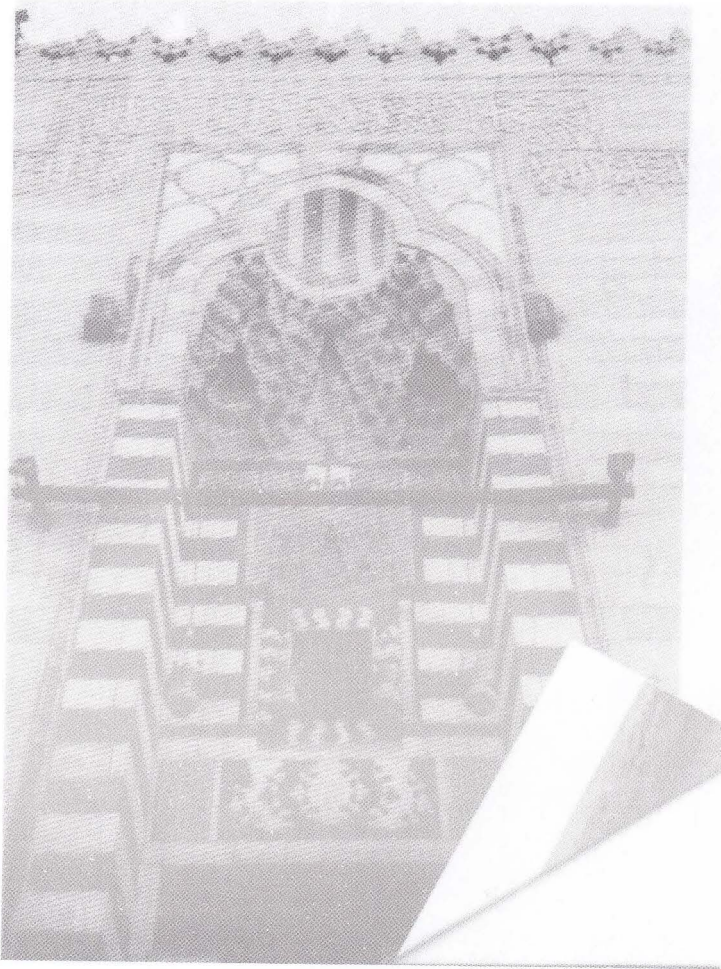
(٣٥) لم يكن المماليك حقيقة إقليمية فقط، ولكنهم كانوا أيضًا ملامح شخصية وعقلية. هذه البوابة السورية الكلاسيكية باللونين الأبيض والأسود هو بناء مملوكي مصري. (ببين إيدج).

(٣٦) توجد القوات الإنكشارية حتى اليوم في الشـرق الأوسـط- ويُشـكلون الحرس الملكي لملك الأردن. هذا المقاتل من العصر العثماني.

(٣٧) هذه الصورة التقطتها بعثة عسكرية بريطانية في بلاد الشام في سنوات الثمانينيات من القرن التاسع عشر في فقرة ترفيهية لاستقبالهم لألعاب أكروباتية يقوم بها الجراكسة على ظهور الخيول. وكانت مثل هذه التدريبات معتادة حتى في أوائل عام ١٢٦٥ عندما كانت وفود القبيلة الذهبية تشاهد مثل تلك العروض في بلاط السلطان بيبرس.

ولم يكن أمراء الأناضول وللأسف الشديد سياسيين من الدرجة الأولى مثل بيبرس، أو حتى من الدرجة الثانية مثل أباقا. فقد كانت هناك نزاعات بين المتآمرين أدت إلى جرائم قتل وعمليات انتقام، وحاولوا تفجير عمليات التمرد قبل أن تكون قوات بيبرس جاهزة، وتنبيه المغول للدرجة التي دعتهم إلى إرسال ثلاثين ألف جندي منغولي إلى الأناضول تحت قيادة حامل الأختام، والقائد توداوان **Tudawa**، والذي كان رقيبًا كفؤًا من قبل المغول. وفر الكثير من الأمراء هاربين إلى بيبرس في بلاد الشام، والذي قام بالترحيب بهم بحرارة على الرغم من إدراكه بقصورهم السياسي، حيث إن القيمة الدعائية لوجودهم عنده كانت هائلة. ووضع المغول هؤلاء الذين لم يستطيعوا الخروج في الوقت الملائم رهن المحاكمة. وكانت أسوأ العقوبات التي يتم توقيعها عليهم أن يتم ضربهم، وإعدامهم ويتم عرض أعضاء أجسادهم حول الولاية كنوع من التحذير للآخرين. ويبدو أن هذا النوع من التحذير لم يجد آذانًا صاغية؛ فقد عاد حامل الأختام مرة أخرى إلى خطاباته السرية للسلطان، وكانت هناك اضطرابات شعبية، وأصبح يتعين على أباقا أن يقوم بإرسال أحد أشقائه الآخرين للأناضول من أجل تدعيم التواجد المغولي فقط في الحياة السياسية للإقليم. وفي نفس الوقت عاد بيبرس إلى القاهرة في أغسطس عام ١٢٧٦ وبدأ في الاستعدادات الجادة من أجل حملته. وتظل الأناضول هي الجبهة الواضحة التي يجب أن يتم التحرك فيها لمواجهة جديدة أمام المغول. وستُغلق عملية احتلال ناجحة للأناضول أي جذور لوجود المغول للدخول إلى شمال بلاد الشام كما تحرمهم من المقاتلين السلاجقة؛ وسيتم عزل أرمينيا عن المدافعين عنها من المغول، كما أن الانقلاب الإعلاني الناتج عن استعادة دولة إسلامية لا يمكن إغفاله أيضًا. ويعني، وإن كنا غير واثقين من ذلك، أن بيبرس يتصور أن الحملة التي يقوم بها على الأناضول هي أكثر قليلاً من هجوم يقصد به صرف انتباه المغول عن خططهم في بلاد الشام.

وشرع الجيش المصري في زحفه في فبراير ١٢٧٧، كما انضمت إليه معظم القوات المتاحة لبيبرس في بلاد الشام بينما هو يتجه شمالاً. وأرسلت قوات حلب مدعومة بقوات من البدو إلى حدود البيرة لاحتمال أن يقوم المغول بالرد بعبور الحدود نحو بلاد الشام. وترجلت قافلة أمتعة قوات بيبرس بالقرب من حلب وتحركت تجاه التلال. وعبر بيبرس نهر جوك سو وبحلول شهر أبريل كان يعبر تلال طوروس؛ وكان المرور عبر النهر والمرتفعات في غاية الصعوبة، وقام بإرسال قوة صغيرة إلى الأمام من أجل الاستطلاع. ويشرح كتاب الفروسية بالتفصيل كيفية تحديد مواقع العدو في الأراضي الجبلية: تقوم قوة الاستطلاع بوضع جعبة خالية على الأرض ثم يضع الكشاف أذنه على جانب الجعبة ليسمع من خلال مكبر الصوت هذا ما إذا كانت هناك أصوات حوافر خيول أو أصوات أقدام تدب على الأرض. وربما تكون هذه الوسيلة هي التي قاموا بها باستكشاف قوة الفرسان المغولية القوية والمكونة من ثلاثة آلاف مقاتل، وتبعًا لذلك قاموا بالاشتباك معها على المرتفعات شرق القوة الرئيسية للجيش. وفر المغول هاربين وتم أسر مجموعة منهم. وعرف بيبرس نتيجة لاستجواب هؤلاء الأسرى أن جيش المغول يعسكر في سهل قريب بالقرب من حامية مدينة الأبلستين. واتُّخذ قرار بالاشتباك مع هذه القوات واتجهت القوات المملوكية إلى السهل الذي تعسكر فيه قوات المغول ودخلتها من جانبها الجنوب الشرقي. وكان المغول تحت قيادة توداوان "**Tudawan**" ومعهم الحليف غير الراغب في التحالف معهم – بالتأكيد حامل الأختام وقواته – وجميعهم كانوا يقومون بسقاية خيولهم في نهر جايهان.

ويذكر لنا رشيد الدين، وهو كاتب فارسي ومن أنصار المغول بدون أدنى شك أنه كانت هناك ثلاثة فصائل من فرسان التومين مع المغول في القتال وهذا يعني أنه كان هناك ثلاثون ألف مقاتل، بينما لم تكن عدد قوات بيبرس تتجاوز الأربعة عشر ألفا بمن فيهم القوات غير النظامية، ولذا فإنه لا يبدو أن قوات كل فارس من التومين كانوا عشرة آلاف مقاتل كما هو مفترض. وبينما يمكن بالتأكيد

أن ننتقص من الدليل الانتقادي لكاتب سيرة قلاوون شافع بن علي الـذي يقـول إن بيبرس قد لاقى فقط خمسة آلاف مقاتل، ولكننا يجب أن نكون واثقين من أن بيبرس لم يكن ليخرج من موطنه إلى هذه المسافة البعيدة بجيشه ليتصدى لقوة أكبر بكثيـر من قواته. ولذا فإن التقدير الذي يقدمه لنا العمري برقم إحدى عشرة فرقة منغولية كل منها ألف جندي هو رقم قريب من الصحة إلى حد كبير، بالإضافة إلى ثلاثـة آلاف جندي من الفرسان الجورجيين بوحدتهم الخاصة. وكانت وحدة قوات حامـل الأختام منفصلة عن القوة الرئيسية بمسافة كبيرة ولذا فلم تتاح له الفرصة للاشتراك في القتال، وربما ببساطة لم تكن هناك ثقة فيهم.

واستهل المغول القتال بميسرة جيشهم الذي اندفع تجـاه المماليـك ووصـلوا بالفعل إلى"السنجقية" أو حملة بيارق السلطان. ومن الصعوبة بمكان أن نحـدد مـن المصادر الموجودة كيف أن ميسرة المغول قد استطاعت أن تصل إلى قلـب جـيش المماليك حيث يكون حملة البيارق في المعتاد ملتفين حول ميدان القتال حتى يتمكنـوا من ضرب قلب الجيش المملوكي بزاوية مائلة، أو أن المماليك كانوا غير منتظمـين أو غير مستعدين في البداية عندما هجم المغول. وأيا كان الأمر، فـإن بيبـرس قـد بوغت وهو غير متأهب لأول مرة، ولإدراكه أنه إذا فقد حملة البيارق بعيـدًا عـن وطنه وعن الأمان، فسيسود الذعر بكل تأكيد حتى بين أكثر قواته تمرسًـا بالقتـال، فانطلق مع حراسه الشخصيين، أو خاصكيته، إلى قلب تلك الهجمة، وكانت الصـدمة الناتجة عن هجوم حرس السلطان كافية تمامًا لدفع المغول للتراجع وتخلـيص قلـب الجيش المملوكـي، ولكن حتى ذلك الحيـن كانت ميسرة المماليك لا تـزال تواجـه المتاعب. وكانت قوات الاحتياط من البدو قد فرت من أرض المعركة والقوات الباقية كانت على وشك الاستسلام تحت وطأة الهجمات المغولية المسعورة. وأصدر بيبرس تعليماته إلى قوات حماة بأن يقوموا بتعزيز الميسرة وكان هذا الإجراء كافيًا لتسـتعيد المعركة توازنها. وكان بيبرس قادرًا حينئذ على إعـادة تنظـيم الهجـوم العـاد والهجوم المضاد. وأجبر المغـول على التراجع، وكما حدث في عين جـالوت فـاز

الطبيعة الدائرية لآلة الحرب المغولية قد تم تحطيمها عن طريق مقدرة المماليك في مجاراتهم في الاشتباكات التمهيدية ثم الانطلاق إلى الهجوم. وكان هناك فارق واحد، على أي حال، في هذه المرة: لم يفر المغول من ميدان القتال. فقد ترجل المغول عن خيولهم وقاتل الكثيرون جدًا منهم حتى الموت. وكان على المماليك أن يخوضوا بخيولهم المدرعة من خلال الجثث الملقاة ولكنهم في النهاية قاموا بذبح ما فيه الكفاية من المغول الشجعان حتى يتمكنوا من سحق إرادة أعدائهم والسيطرة على الميدان. وحتى حينئذ حاولت فصيلة مقاتلة الصمود على التلال المحيطة ولكن قام المماليك بتطويقهم، فترجلوا عن خيولهم ورفضوا الاستسلام، وماتوا حيث كانوا يقفون. وفر حامل الأختام أيضًا ولكن ابنه وآخرون من الأمراء السلاجقة تم أسرهم. وقُتل بعض الأمراء المغول، أما القائد العام توداوان "**Tudawan**" فإما أنه قتل في المعركة أو تم قتله بعد ذلك، وأيا كانت الطريقة التي مات بها فلم يمتد به العمر ليشهد الكارثة المروعة التي حلت بجيشه. وتُرك الكثير من المقاتلين المغول أحرارًا، ربما لأن العملية اللوجستية لنقلهم كانت صعبة للغاية، كما أن العديد منهم انضموا لخدمة المماليك. وأخذ قلاوون اثنين من هؤلاء الرجال، قفجاق وسلار، وقام بضمهما إلى بُطانته الخاصة.

لقد رأينا فرسان المماليك في المعركتين، في هذه المعركة وفي المعركة التي جرت على نهر الفرات حول البيرة وهم يتعاملون مع المقاتلين المترجلين. وتتسم الدراسات العسكرية المملوكية بالتفاصيل الدقيقة في الاشتباك مع المقاتلين المترجلين ولذا فإننا متيقنون من أن التدريبات العملية للتعامل مع المقاتلين المشاة والمقاومة العنيفة جعلت المماليك قادرين على التعامل معها لكونهم تدربوا عليها مرارًا. وتوضح هذه الدراسات الأسلحة الأكثر تناسبًا للتعامل مع المشاة المقاتلة. وتقدم دراسات المماليك النصح للفرسان باستخدام الحربة، والمزاريق والسهام عند ملاقاة المشاة، ولا ينصح باستخدام السيف أو القضبان الشائكة حيث إن استخدامها يجعل الفارس قريبًا جدًا من عدوه. وتوغل الفارس بين المشاة هو أكبر عمل طائش يمكن تصوره من الفارس وتقول هذه الكتيبات إن الانفصال عن الفرسان المعاونين

أثناء قتال المشاة هو بالتأكيد أمر مميت. ويتأثر حديث الكتيب عن المشاة بالتأكيد باستخدام المغول للوهق *(وهو حبل في طرفه أنشوطه لاقتناص الخيل والأبقار وهنا يستخدم للإنسان في الحروب- المترجم)*، وهو خطاف كبير يمكن بواسطته سحب الفارس من على سرج حصانه. وكان يمكن أن يستخدم سواء بواسطة المغولي الفارس والمقاتلين المشاة.

وتعقد نصوص كتيب الفروسية مقارنة بالحكم على كفاءة ومزايا أسلحة كل من الجيشين. ويشرح كيف أن كلاً منهما يتفوق على الآخر بطريقة مختلفة، فإن الفرسان هم سادة ميادين القتال الحقيقيون بلا منازع، لأنهم يتمتعون بتنوع وقوة كبيرة في الأسلحة التي يقومون باستخدامها؛ كما أنهم يملكون سرعة أكبر في الانتشار ويضربون بقوة أكبر على العدو كما يمكنهم أن يتتبعوا العدو بكفاءة أكبر فضلاً عن القدرة على المناورة بالتراجع الزائف. ويقودنا هذا إلى سؤال مثير للاهتمام. فقد كان المغول، إذا قمنا باستثناء المماليك، هم أفضل فرسان العصور الوسطى، فلم قاموا بالترجل في موقعة الأبلستين؟ هناك تفسير واحد لسلوكهم هو أنهم قرروا بكل بساطة القتال حتى آخر رجل منهم، كما أن الترجل عن الخيول يقوم بتحسين دقة تصويب سهامهم، كما يمكنهم استخدام خيولهم كوسيلة للدفاع. ولكن من أجل اتخاذ القرار "لآخر رجل"، و"لآخر سهم" لابد أن الرجال قد تم دفعهم لدرجة اليأس. وبنظرة أكثر عمقًا، نصل مرة أخرى للنتيجة الحتمية وهو أن المماليك بزوا المغول وتفوقوا عليهم في ميادين القتال. وترجل المغول من على ظهور خيولهم لأن ما كانوا يفعلونه في ميدان القتال لم يُجْد نفعًا. وتمدنا العودة إلى ما نعرفه عن أسلحة المغول في الحرب بالكثير من الأسباب لفشل المغول في الأبلستين. ويعدد لنا جون بيانو كاربيني هذه الأسباب:(٥٣)

---

(٥٣) تم إرسال رجل الدين جون بيانو كاربيني من البابوية في روما خلال الأعوام ١٢٤٥ – ١٢٤٧م إلى البلاط المغولي للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية وعقد تحالف بين الغرب الأوروبي والمغول وترك لنا وصفًا عن رحلته وإقامته في المجتمع المغولي عن ذلك راجع: **Dawson, ch, (ed.)Mission to Asia, London , 1996. Pp. 3-72.** (المراجع)

ويجب أن يكون معلومًا أن المغول عندما يلمحون أعداءهم فإنهم يشرعون في الهجوم على الفور، ويقوم كل مقاتل بقذف ثلاث أو أربع سهام على أعدائه فورًا؛ فإذا ما شعروا بأنهم لن يستطيعوا إيقاع الهزيمة بأعدائهم، فإنهم يتراجعون إلى ما خلف خطوطهم، ويفعلون ذلك بطريقة تلقائية من أجل أن يجعلوا العدو يقوم بتتبعهم إلى مكان بعيد حيث يكونون قد أعدوا كمائن فيها، فإذا ما تتبعهم العدو إلى هذه الكمائن، فإن هذه الكمائن تحيط بهم وتقوم بقتل وجرح كل من يقابلها... فإذا ما استطاع المغول تفادي أعدائهم، لأنهم لا يفضلون القتال المتلاحم رجلا لرجل ولكنهم يقومون بجرح وقتل الرجال والخيول بسهامهم، ويقترب المغول للقتال المتلاحم فقط عندما يشعرون بأنهم قاموا بإضعاف أعدائهم ضربًا بالسهام(٥٤).

وكانت المعضلة أن المغول هم الذين تم إضعافهم في تبادل إطلاق السهام، وليس المماليك. القذف الكثيف بالسهام والذي تميز به المماليك، أو وابل السهام، كان يضع المغول تحت ضغط كثيف من معدل النيران يختلف عما يصدر عن أي جيش من جيوش القرون الوسطى. وكان رامي السهام المملوكي يقبض بالعديد من السهام ربما تصل إلى خمسة في وقت واحد، واحدة مُركبة في طرف القوس، وبين راحة يده والأصابع الثلاث الأخير في يده القابضة على القوس، ولذا فإنه أثناء الرماية لا يلجأ إلى جعبته بين كل قذف لسهم وآخر. ويضع اليوناني، مدرب رمي السهام معيارًا لرمي السهام يبلغ ثلاثة سهام خلال ثانية ونصف الثانية كمعدل

(54) In J. Smith, "Mongol Society and Military in the Middle East: Antecedents and Adaptations" in "Parry and Yapp" p. 257.

مطلوب للتخرج من مدرسة الرمي، كما أن كتيبات المماليك توضح لنا مفهومًا مذهلاً لدقة القذف تبلغ مترا واحدا عن الهدف من بعد يصل إلى خمس وسبعين مترًا. وتتطلب إستراتيجيات المغول أن يقتربوا من الهدف لمسافة خمسين مترًا من أجل ضمان اختراق المقذوف للدروع والقذف ثم التراجع. ويتم الهجوم عليهم بمعدل ثلاثة سهام لكل مقاتل مملوكي قبل أن يستطيعوا قذف أي سهم في الخمس وعشرين مترًا الأخيرة. والأكثر من ذلك أن خطط الحرب في كتيبات الفروسية للمماليك تشير إلى أن المماليك كانوا يتخذون خطوطا دفاعية مذهلة بحيث إن كل مجموعة تقوم بإعادة تعبئة الجعاب بالأسهم خلف مجموعة أخرى متحركة وفي وضع هجومي للقذف بالنيران، ولذا فإن عملية القذف عملية مستمرة، كما يوضح لنا الكتيب أن الحملة كانت تصطحب معها حمولة السهام على العديد من الجمال.

ولم يكن فشل المغول يتعلق فقط بمعدل النيران ومدى النيران. ولكن أيضًا الخيول التي يمتطونها. فلم تكن الخيول الصغيرة القادمة من السهوب قادرة حتى على حمل المقاتلين المدرعين تدريعًا خفيفًا وبالسرعة القصوى لفترات طويلة من الوقت، ولكن فقط لوقت قصير ربما يبلغ عشر دقائق قبل أن يتطلب الأمر تغيير الخيول بأخرى(٥٥). وعلى الجانب الآخر فإن الخيول العربية الكبيرة كانت قادرة على حمل مقاتل مدرع تدريعًا كاملاً طوال فترة القتال. ولم يذكر لنا المؤرخون أن المقاتل المملوكي كان يصطحب معه أكثر من حصان واحد إلى ميدان القتال. وذبح المماليك الكثير من المقاتلين المغول في معركة الأبلستين ومن المحتمل

(٥٥) قارن "Smith" **p. 256-8**. الافتراض الذي يقول إن الحصان الصغير الذي وزنه ٣٠٠ كجم لا يمكن أن يحمل أكثر ١٧% من وزنه بكفاءة ويقوم المقاتل المغولي بزيادة الوزن عن ذلك. أما الحصان المصري فيزيد وزنه عن ٥٠٠ كجم وقوة تحمله تزيد بالتأكيد زيادة فائقة عن نظيره المغولي. الجواد المغولي يمكن أن يستمر في القتال من ٨-١٠ دقائق كحد أقصى وبعدها يلزم تغييره. وفي السهول المنغولية الحالية يستخدم الأطفال بدلاً من الكبار في سباقات الخيول الحديثة وحتى مع ذلك فإن معدلات الوفيات والأمراض عالية بدرجة مخيفة بينها.

أن معظم عمليات الذبح قد حدثت في المراحل الأخيرة من القتال عندما ترجل المغول، ولابد من أن قوتهم تقهقرت بشدة في المواجهات المبكرة، وإلا فإنه ليس هناك ما يستدعي اللجوء إلى إجراء متطرف كالترجل عن الخيول. ولقد كانت هجمات المماليك خاطفة وعنيفة للدرجة التي لم تترك لهم متسعا من الوقت ليتمكنوا من إجراء تغيير الخيول. وكان سبب ترجل المغول عن خيولهم ناتجًا عن الإنهاك الشديد الذي كان قد حل بخيولهم، ونظرًا للتفوق الواضح للأعداء عليهم في كل أنواع الحروب والتي كانوا قد برعوا فيها، واليأس الذي تولد نتيجة هذا الإدراك في هؤلاء المقاتلين المنهكين. ويمكننا أن نختصر الأمر برمته ببساطة كان المغول نموذجًا للفرسان الجنود، ولكن مماليك بيبرس كانوا يمثلون جوهر وخلاصة الفرسان.

ويمم بيبرس شطر قيسارية عاصمة السلاجقة بعد اليوم التالي للقتال، وقامت مقدمة جيشه بمفاجأة مجموعة من جيوش المغول التي لم تكن قد علمت بموقعة اليوم السابق، وأسروا مجموعة صغيرة منهم وظلوا يراقبون الآخرين وهم يتبعثرون في ظلام الليل. ووصل بيبرس إلى قيسارية في يوم ٢٠ أبريل حيث كان هناك استقبال حار في انتظارهم، وفُتحت الأسواق وأقيمت الاحتفالات والمهرجانات، ولكن بيبرس بمجرد علمه أن حامل الأختام قد مر لتوه من المدينة مصطحبًا معه السلطان الدمية غياث الدين بعيدًا إلى قلعته في توقات فلم يعد قادرًا على أن يتحمل عبث هذه الاحتفالات الصاخبة. وكانت النقود تُسك وعليها صورته كسلطان جديد للأناضول، ولكنه لم يكن جديرا بالثقة ويمكن أن يتم تعزيز نظام حكمه بينما يظل حامل الأختام حرًا طليقًا ومعه حاكم السلطنة الشرعي. وتسلم بيبرس خطاب مفعم بالتهاني ولكن بدون أي تعهدات من حامل الأختام أثناء الاحتفالات. وكتب بيبرس الرد على الخطاب بسرعة وداعيًا حامل الأختام بسرعة العودة إلى عاصمته لتتم مكافأته وتأكيد تعيينه في وظيفته القديمة. وكان رد حامل الأختام على هذه الرسالة بأنه سيقدم نفسه تحت قدمي السلطان في خلال خمسة عشر يومًا. وكانت لهجة الخطاب تحمل تزلفًا رخيصًا كما أن فترة الخمسة عشر

يوم كانت طويلة جدًا. وأصبح واضحًا أن بيبرس يجب أن يتم تأخيره حتى يتم إخطار أباقا ليتدخل لمصلحة حامل الأختام بقوة مغولية جديدة. وتزود بيبرس بالمؤن، وآخذًا في الاعتبار مؤنه التي استنفذت- اتجهت قافلة مؤنته إلى بلاد الشام- ولبعده عن الإمدادات إذا ما ظهر أباقا على رأس قوة جديدة، فقد قرر أن مخاطر محاولة الاستيلاء على الأناضول عالية جدًا. ولذا فقد شرع الجيش المملوكي في العودة أدراجه للوطن في يوم ٢٠ أبريل، ولكن بيبرس وجد فائدة أخرى لحامل الأختام. فقد رد عليه بيبرس بأنه سيتجه بقواته إلى سيواس. ولأنه واثق أن هذه المعلومة ستطير إلى أباقا على الفور عن طريق وزير غير مؤتمن، فقد اتجه بقواته إلى الناحية الأخرى متجهًا إلى الجنوب الغربي خلف منطقة موقع معركة الأبلستين. وأمر بيبرس بتعداد قتلى المغول: وبلغت ٦٧٧٠ قتيلا، وكانت نسبة الخسائر هائلة في الاتساع، نظرًا لخسائر المماليك الطفيفة. ودخل المماليك منطقة المرتفعات بينما شوهد السلطان مع مؤخرة الجيش. وتم تسجيل هذا السلوك كدرس للقادة من بعده بواسطة الأنصاري:

> إذا ما صادف قائد الجيش ممرًا ضيقًا، أو مرتفعًا جبليًا أو نهرًا أو أي شيء مشابه لذلك في طريق الجيش، فإنه يجب أن يقف حتى يمر الجيش بأمان ولآخر رجل. فإذا لم يفعل ذلك فإن كل واحد سيطلب الأسبقية للمرور لنفسه عن زملائه وتحدث الفوضى كما يمكن أن يشب الخلاف بين أفراد الجيش نتيجة ذلك، ويمكن أن يثير الفتنة. ويروى عن الملك الظاهر بيبرس أنه عندما دخل أراضي الأناضول واكتسح قيسارية، وعندما كان عائدًا بعد تلك الانتصارات، كان هو الذي يراقب هذه الأمور، وينتظر في الممرات الضيقة وعند مخاضة النهر حتى يمر جميع أفراد الجيش فردًا بفرد[٥٦].

---

(56) Al - Ansari, in Scanlon , p. 84.

وكانت الرحلة عبر الهضاب محفوفة بالمتاعب مرة أخرى، ولكن بحلول يوم ٢٠ مايو كان الجيش قد عاد إلى حران حيث تزود الجيش بمؤن جديدة، كما استقبل بيبرس وفودا من مجموعات أخرى تركمانية متمردة من الأناضول والذين ثاروا ضد المغول حول مدينة قونيه. ولم يكن لدي السلطان سوى أن يقدم لهم كلمات دافئة؛ فقد انتهى التحول تجاه الأناضول بالنسبة لبيبرس وعاد إلى دمشق في أوائل شهر يونيو.

وكانت قضية حامل الأختام مميتة. فقد انتابت أباقا نوبة غضب عارمة، بعد أن نجا من موقعة الأبلستين، وشرع في الإعداد لملاحقة بيبرس في بلاد الشام. ولكن تم إثناؤه عن عزمه بواسطة هارب من الجيش المملوكي، ومؤكد أنه أيبك الشيخي الذي أوسعه بيبرس ضربًا وإهانة والآن يعمل تحت إمرة أباقا، بعد أن أعطاه معلومات كاملة كيف تم قهر رجاله، وأن جيش السلطان كان كبيرًا في الحجم وأن صيف بلاد الشام كان كفيلاً بهزيمة المغول بالتأكيد، وحتى قبل أن يقوم بالاشتباك مع المماليك. كما أنه قدم قائمة بالتفاصيل الدقيقة لجرائم حامل الأختام، مزودًا إياها بالتواريخ والتفاصيل الدقيقة لاتصالات الحاكم بالسلطان بيبرس. وقرر أباقا أخيرًا أن الكيل قد طفح به وحان الوقت لوضع حد للأمر. وتم إعدام حامل الأختام، وتناول أباقا وكبار قادة المغول لحم جسده في وجبة عشاء يفترض أنها لم تكن سارة. وتبدو قصة فرار أيبك، وما قيل إنه لقي معاملة مُرعبة من بيبرس بالغة الغرابة، وعلى وجه الأخص أنهما رفاق خشداشية واحدة؛ كما أنه كان يعلم التفاصيل الدقيقة لأنشطة حامل الأختام بما عُرف عن السلطان من حرصه البالغ على السرية. كما أنه من الغريب أيضًا أنه وبعد فترة قصيرة من تعيين أباقا له كمحافظ لملطية وفي رد فعل يتسم بنكران الجميل والجحود قام بتفريغ خزائن المدينة وهرب عائدًا إلى بلاد الشام. فهل كان هو صنيعة السلطان ليضع النهاية المريرة لحامل الأختام، وليزيد من أوجاع ومرارة أباقا؟ مع بيبرس كل الحيل متاحة ويمكن استخدامها بمهارة تفوق الخيال.

الموت! على أي حال فإنه وعلى غرار القصة الكلاسيكية في الشرق الأوسط موعد في سامراء أو الموت في سامراء، فإن الموت، وكدأب بيبرس، لا يمكن خداعه(٥٧)، وتوفي بيبرس في يوم ١ يوليو ١٢٧٧ بينما كان في دمشق. عن عمر يناهز الخمسين عامًا تقريبًا. وكانت إنجازاته هائلة. فقد انتزع مقعد السلاطين المماليك من بين يدي رجل حارب معه ثم قُتل، وكانت الدولة التي انتزعها بأعماله الغادرة مُنْهكة، وحائرة، ومليئة بالخوف. ولكن الدولة التي تركها بعده كانت دولة تتيه فخرًا بجيشها القوي المنظم، وبحدودها الآمنة، وبعلاقتها المنتظمة مع الدول الأجنبية، وبجهازها الإداري والقضائي عالي الكفاءة، وبقاعدة اقتصادية ترتكز على أسس ثابتة. ولكنه أيضًا ترك لخلفائه ما هو أكثر من ذلك. لقد ترك لهم نموذجًا يقومون بالاحتذاء به. فقد قاد حملاته سواء في خلال أيام الصيف القائظ في بلاد الشام، وفي شهور الشتاء القارصة والتي يتردد المغول أنفسهم في القتال فيها. ولقد كان دائم اليقظة والنشاط، ولا ينتظر غير الكمال والتفاني في أداء الواجب، ليس ممن حوله فقط ولكن من نفسه أيضًا. ولقد كان، وبلا أدني درجة من الشك، واحدا من أعظم رجالات عصره، ولكنه كإنسان كان

---

(٥٧) يحكي لنا "**Somerset Maugham**" في الفصل الأخير من مسرحيته "**Sheppey**"، لندن "**Heinemann, 1997**":

الموت يتكلم: أرسل تاجر في بغداد خادمه لشراء بعض المؤن، ولكن الخادم عاد مسرعًا بعد فترة قصيرة، ووجه شاحب وهو يرتعد رعبًا، وقال: سيدي، الآن وأنا في السوق اصطدمت بسيدة في الزحام، وعندما استدرت ناظرًا إليها وجدت أنني اصطدمت بالموت. ونظرت لي شذرًا نظرة وعيد، والآن يا سيدي أعرني جوادك، وسأهرب راكبًا بعيدًا عن هذه المدينة. سأذهب إلى سامراء ولن يجدني الموت. وأعاره التاجر جواده، وركب الخادم حصانه وأخذ يستحث جواده ليسير بأقصى سرعة له إلى سامراء. وجاء التاجر إلى السوق، ورآني واقفًا وسط الزحام فقال لي: لماذا كنت تنظر إلى خادمي نظرة تهديد عندما رأيته هنا هذا الصباح؟ فأجابه الموت:

"لم تكن تلك النظرة نظرة تهديد، فقد كانت نظرة دهشة. فقد رأيته هنا في بغداد، وكان لي موعد معه هذا المساء في سامراء".

كتلة من المتناقضات. فقد قام بتأسيس حصن منيع لتخليد الثقافة الإسلامية كما أن الحرفيين المهرة والباحثين زحفوا إلى مصر المملوكية من كل أرجاء العالم الإسلامي القديم للهرب من نير المغول، وعلى الرغم من أنه هو نفسه الغريب القادم من سهوب آسيا، والهمجي القادم من خارج دار الإسلام والذي كانت تسليته الأساسية كل يوم هو التدرب على فنون القتال منذ الصباح وحتى المساء. وهو الذي وُضع على عرش السلطنة بواسطة خليفة ينحدر من عائلة كانت تحمل لقب خلافة العالم الإسلامي لأكثر من خمسمائة عام بينما هو نفسه ليس لديه أبوين بعد تاجر الرقيق وسيده الأول. ولقد حارب، حتى كسلطان تحت الرايات الصفراء لعائلة صلاح الدين الأيوبي، ولكنه قتل بنفسه آخر سلاطين الدولة الأيوبية في مصر. وهناك قصة واحدة من قصص وفاته تقول إنه توفي بعد أن تناول بعضًا من لبن الخيل أو القميز (**kumiz**)[٥٨] والذي يبدو أنه كان قد فسد. وكان هذا اللبن المتخمر هو المشروب المفضل لدى المغول والأتراك وكان يتم تناوله بلا حساب، ولكنه كان قد قام بحظر المشروبات المتخمرة على أفراد الجيش، حتى لا تؤثر على قدراتهم على الاستمرار في الأعمال الإدارية، والتنظيم والإدارة وأعمال التخطيط ولا تكشف نقاط الضعف بالنسبة لثمل. وكان واثقًا وشجاعًا في تعاملاته مع خصومه على المستوى العام ولكن قيل إنه كان يعاني من قلة النوم ومن عسر الهضم والكوابيس الليلية. وظل محافظًا على ولائه لرفاق الخشداشية، ولكنه كان قاسيًا لأقصى الحدود مع أعدائه. ومع ذلك لم يكن من الأشخاص الذين تدفعهم مشاعر الغضب مثل أباقا أو هولاكو، فقد كان إدخال الرعب في القلوب بالنسبة له أداة سياسية لتحقيق مبتغاة. ولقد كان ملكًا على المصريين ولكنه تزوج ابنة

---

(٥٨) عن شهرة لبن الخيل أو القميز **Kumiz** عند شعوب المغول راجع روايات المبشرين جون بيانو دي كاربيني ووليم أف رويروك – عن ذلك انظر **Daws, ch, Mission to Asia, pp. 17, 96, 98, 105, 108, 112** وكان هذا الشراب يتم صنعه من لبن الخيول بعد تخمرها (المراجع).

خوارزمية ونادرًا ما كان يتكلم اللغة العربية، ولكنه كان زعيما محاربًا تركيًا بقدر ما كان سلطانًا مسلمًا. ولقد بزغ بفضل قدراته في نظام اجتماعي وسياسي لا يمنح شيئًا بالوراثة أو بأواصر الدم، ولكنه حاول أن يظل مقعد السلطان:في أسرته وبغير أن يحقق نجاحًا في ذلك. لقد كان البطل القويم للمسلمين السُنة، ولكنه أيضًا ظل متعلقًا بطريقة صوفية دينية، والتي تُمارس في الشريعة الإسلامية، وكانت هذه الطريقة الصوفية قد تنبأت بسقوط الممالك الصليبية، وكانت تمارس الدين الإسلامي بطريقة أقرب ما تكون لممارسات أهل السهوب أكثر منه لممارسات المدن المصرية. كما أنه كان يحكم من فوق فرس الجهاد أكثر منه من قصر السلطان، ومتحفه في دمشق الآن هو المكتبة الوطنية لبلاد الشام؛ لقد كان نصيرًا لنهضة حضارية في الفنون، فهناك مصاحف رائعة منذ عصره، وأعمال فنية من الزجاج تحمل شعاره، الأسد الأحمر اللون.

كما كان بارعًا في استخدام الدبلوماسية العالمية، ولكنه أيضًا قام باستخدام سلاح الاغتيالات بنفس طريقة استخدامه للمفاوضات. وهناك رواية أخرى عن وفاته تقول إن السلطان قد شرب من الكأس الخطأ والذي تم دس السم في محتوياته من أجل أحد صغار الأمراء الأيوبيين. ويقول كاتب سيرة حياته "جعلته المصادفة سلطانًا، ولكن السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس الصالحي النجمي، وأيضًا قائد الحرب بيبرس البندقداري، كان في حقيقة الأمر مثالاً مُجسدًا للرجل العصامي الذي صنع مجده بنفسه".

الفصل السابع

نمط القوة

آل قلاوون

ما الذي يجب أن تفعله إذا ما كان الجيش ضعيفًا وجيش العدو قويًا:
إن مواجهته في عنفوان قوته وهو على هذا الحال خطأ لا يغتفر. ويشبه ذلك من يقوم باستثارة ثعبان مختبئ في وجاره بينما هو غير مسلح بما يمكنه أن يقوم بمواجهته وقتله، وبذلك يعرض نفسه للخطر ومغازلة الموت بما صنعت يداه. بتأخيرك للقتال فإنك تفعل ما هو نافع لك.

كتيب الأنصاري عن الحرب،
عام ١٣٩٩ تقريبًا

حاول بيبرس جاهدًا أن يقوم بتأمين كرسي السلطنة لنجله بركة عن طريق إشراكه معه في الحكم في عام ١٢٦٤، وعن طريق تزويجه إلى ابنة قلاوون، أهم الأمراء في السلطنة، ولفترة قصيرة نجح هذا الترتيب الذي أرساه السلطان. وقام كبير الوزراء بإخفاء خبر وفاة السلطان عن النخبة في القاهرة ولم يحدث نزاع على التوريث. ولم تمض أسابيع قليلة حتى بادر بركة بمكافأة كبير الوزراء على ولائه لبيت آل بيبرس بدس السم له وقتله. وتم شغل المنصب الشاغر بموت كبير الوزراء من بيت آل بيبرس، وكان يتعين أن يموت هو أيضًا وبدون تأخير ولكن هذه المرة في السجن. وكانت المعضلة الكبيرة التي يواجهها بركة هي أن المماليك الظاهرية الذين كانوا يتبعون والده يشغلون الكثير من المناصب العليا في الحكومة ولم يكن من المحتمل أن يتركوا مناصبهم طواعية. وعلى ذلك فإنهم بادروا إلى تقليص طموحات خاصكية السلطان الجديد. وكان التدرج الوظيفي في الخاصكية

محددًا بطريقة صارمة على النحو التالي: العِتق أو التحرر من الرق ثـم التـدريب الذي يلي ذلك، ثم الخدمة كحراسة شخصية، ثم رفيقًا مؤتمنًا على أسرار السلطان، ثم يلي ذلك ترقب الأمل في أن تتم ترقيته إلى رتبة أمير، ومنحه إقطاعًا، ومنصـبا إداريًا عاليا في الحكومة. وكان بركة يريد أن يُرضي طموحات الرجال المقـربين منه طبقًا للنموذج الخاص به ومن أجل ضمان قوة تدين لــه بــالولاء، ولكنــه لا يستطيع تحمل مغبة إثارة عداء كبار الأمراء وخاصة فــي بــدايات فتــرة حكمــه المبكرة. وما كان حتميًا ولا مفر منه هي لمسة سياسية بارعة وما هو أكثر براعة من المناورات لعملية إحلال بطيئة بمكر ودهاء للحرس القديم، ولسوء الحظ كــان بركة يفتقر إلى المهارة والدهاء الذي كان متوافرًا بسخاء لــدى والــده، وتســببت أخطاؤه الفادحة على الفور في إثارة عداء كبار الأمراء وتحولهم إلى زمرة معادية له. وقابل هو ذلك العداء بنمط أخرق من أعمال القبض العشوائية حتى وصلت إلى أنه قام بسجن شقيق والدته لفترة من الوقت. وبالرغم من الاســتعراض الخــارجي للقوة، فقد كانت قاعدته السياسة هشة للغاية، وربما كان قيامــه بعــزل المماليــك الظاهرية حتميًا، ولكنه عمل على تحقيقها من خلال اضــطهادهم وتباعــده عــن المماليك البحرية. وبدت الأمور هادئة مع كل ذلك عندما اصطحب بركة الجــيش إلى دمشق في مارس ١٢٧٩. ومن هنالك قام بإرسال والد زوجته قلاوون وأميــر آخر من كبار أمراء البحرية وهو البيساري إلى أرمينيا. وقــام الأميــران بتنفيــذ المهمة الموكلة لهما على أكمل وجه، وقام الأمير قلاوون بالإغارة على طرسوس، كما قام البيساري بسلب الأراضي الواقعة حول قلعة الروم، ولكن حتى أثناء فتــرة الإغارة والســلب والنهب فإن هواجسهما كانت لا تزال مركــزة على السلطــان. لم تنطل عليهما حيلة إرسالهما بعيدًا بينما السلطان الجديد يتعامل مع الأمراء مــن أصدقائهم الأقل مكانة في القاهرة ودمشق؛ وأحجما عن التورط الكامل في أرمينيا.

وقام بركة بتعيين سيف الدين كوندك الساقي كنائب للسلطان وهو مغولي من خاصكية السلطان والذي كان قد وقع في يد السلطان بيبرس وهو شاب صغير، وكان كوندك هذا قد شارك بركة في مراحل تعليمه، ولكن بعد أن قلده بركة المنصب، وجد أن نائبه وصديق طفولته لم يكن يملك من المرونة ما كان يأمل فيه. وأزعج كوندك بوجه خاص خاصكية بركة حتى إنهم حاولوا اغتيال نائب السلطان قبل أن يقوم بركة بعزله أخيرًا. وأجرى كوندك اتصالات سريعة بكل من قلاوون والبيساري في أرمينيا بينما كان يقوم بتجميع الدعم من المماليك البحرية في القاهرة من أجل تدبير انقلاب. وخرج بركه والظنون تنهش فكره إلى دمشق، ولكن قلاوون اصطحب قواته من وراء دمشق وكان في القاهرة قبل أن يشتبك في مشادة كلامية مع السلطان عن هجره لحملته في الشمال. وهرع بركة عائدًا إلى القاهرة ليجد أنها وقعت في قبضة المماليك البحرية، وهي الفئة التي يقودها والد زوجته. وحاول بركة أن يقوم بتأمين القلعة ولكنه لم يجد له نصيرًا في المدينة وتم تطويقه. وقامت والدته بالتفاوض نيابة عنه وعن علاقته العائلية مع قلاوون، وكانت ذكريات والده كافية لتأمين الخروج المشرف له وقفص ذهبي يتمثل في القلعة شبة المستقلة – قلعة الكرك – لكي يتقاعد فيها. وكما حدث في عام ١٢٥٠ وضع كبار الأمراء دمية في منصب السلطان، وهو سلامش شقيق بركة ذو السبع سنوات بينما كانوا يقررون كيفية اقتسام النفوذ بينهم. وتم خلع سلامش بعد ثلاثة أشهر، وتم إرساله أيضًا مع شقيق آخر له وهو الخضر إلى الكرك، والتي أثبتت أنها المأوى المناسب للراحة لأشباه السلاطين وضحايا العرش الصغار. وبرز قلاوون من تجارة الخيول التي كانت سائدة آنذاك إلى خيار للأمراء كسلطان للبلاد. ولقد كان خيارًا غير معتاد أثار الكثير من اللغط حيث كان في الستين من عمره عندما اعتلى العرش ولكن ربما رأى فيه البعض من مؤيديه بديلاً مؤقتًا لسد الفراغ بما يعطيهم الوقت الكافي لتجهيز مسوغاتهم في محاولات الصراع على السلطة. كما أنه كان سخيًا جدًا، بل وأكثر من سخي في وعوده التي يبذلها لمؤيديه.

وكان قلاوون ينحدر من القفجاق الأتراك، شأنه في ذلك شأن بيبرس، كما خدم مع المماليك البحرية وهو شاب، ولكنه أُخذ من موطنه وهو رجل في العشرين من عمره وليس كصبي مثلما كان الحال بالنسبة لبيبرس. ونظرًا لتمتعه بالوسامة الفائقة فقد أطلق عليه لقب "الألفي" في إشارة للثمن الذي تم شراؤه به، وكان ذلك سعرًا مرتفعًا جدًا تم دفعه فيه في سوق العبيد في ذلك الوقت، بينما كان قد تم شراء بيبرس كجزء من تصفية حساب بعد أن أعاده سيده السابق بسبب وجود أثر من حَول في عينه. وكان أيضًا عسكريًا مثيرًا للإعجاب، وعلى الرغم من الشكوك العميقة لبيبرس لأي شخص لم يكن ينتمي إلى خشداشيته أو الظاهرية، فإن قلاوون كان يشاركه في عملية صنع القرارات أثناء حروب المغول، كما أنه كان يسيطر على إدارة قلعة نيل القاهرة التي كانت تُعد مركزًا للنشاط السياسي للمماليك البحرية. ولم يفعل السلطان الجديد شيئًا ما من شأنه أن يكدر أمراء المماليك البحرية بل واستخدمهم لتحييد قوة رجال بيبرس من كبار الظاهرية والقيام بعملية تطهير لهم من الرُتب العليا في الجيش. وتمت رشوة خاصكية بركة عن طريق المحاباة السياسية، كما أن المماليك الظاهرية الذين لم يحققوا أي ترقيات وظيفية في عهد بيبرس تمت ترقيتهم عن طريق السلطان الجديد في الوظائف التي خلت بإبعاد كبار رجال الظاهرية؛ وبذلك أصبحوا بالفعل هم رجال قلاوون المقربين. ولأنه يعلم أن أمراء المماليك البحرية قد بلغوا من العمر أرذله، فقد كان ينتظر ببساطة حتى وفاتهم واحد بعد الآخر. وبعيدًا عن كل ذلك، فإن منصب السلطان فلم يكن هناك أمل في توريث المنصب لأولاد المماليك في الفترات الأولى للسلاطين، فقد كان هناك جيل واحد من النخبة وكان يجب على ذريتهم أن يبحثوا عن وظائف في المجال المدني. واستخدم قلاوون خلاصة المماليك الذين كان يملكهم بالفعل كواحد من كبار الأمراء ليقوم بتشكيل قاعدة القوة الخاصة به والذي سيقوم بإحلالهم محل المماليك البحرية في النهاية. وأطلق السلطان الجديد على نفسه بجلوسه على العرش لقب المنصور، وأُطلق على الفوج الخاص بحراسته اسم المنصورية.

وعلى الرغم من حذره التام فقد كانت هناك مقاومة فورية للسلطان الجديد. فقد أعلن الأمير المخضرم سنقر الأشقر نفسه حاكمًا مستقلاً لدمشق بمجرد أن اعتلى قلاوون العرش في صدى مماثل لثورة الحلبي ضد بيبرس في عام ١٢٦٠، ولكن قاعدة المؤيدين لسنقر الأشقر كانت أكثر كثافة مما كان يتمتع به الحلبي. وكانت هناك شائعات بأنه كان قد تلقى وعدًا بإمارة دمشق إبان قيامه بدعم انتخاب قلاوون كسلطان مما أعطاه شرعية في نظر الكثيرين. فقد كان مدعومًا من حماة، وحلب، وصفد وعناصر من البدو. وبادر قلاوون على الفور بإرسال قوة لمواجهة هذا التحدي بقيادة مشتركة لكل من عز الدين أيبك الأفرم، ولسخرية الأقدار مرة أخرى، سنقر الحلبي والذي على الأقل يعرف كيف تنشأ هذه الثورات. ولقي سنقر الهزيمة في غزة في مايو ١٢٨٠ ومرة أخرى في دمشق يوم ٢١ يونيو. وهجره مؤيدوه وفر هو شمالاً حيث قام بالاحتفاظ بعدد من المعاقل القوية. وكان لا يزال قويًا بما يكفي لبسط سيطرته القوية على شمال بلاد الشام، واستمرت هذه السيطرة بموجب اتفاق مع قلاوون في يونيو ١٢٨١ ويتخلى بموجبه عن ادعاءاته بأي حقوق في دمشق ويقدم دعمه الكامل للسلطان ضد المغول. وتمت إزاحته عن أنطاكية واللاذقية بواسطة حاكم بلاد الشام المعين من قِبل قلاوون في عام ١٢٨٧.

وبدا أولاد بيبرس القاطنين في حصن الكرك وكأنهم مستقلين قليلاً وأكثر مما يجب لراحة بال السلطان. وكان ثراؤهم وكونهم من قلب الأسرة المملوكية كافيًا لجذب بعض المغامرين إلى جانب قضيتهم وربما كانوا قد أصبحوا يمثلون تحديًا أكبر لو لم يمت بركة متأثرًا بجراحه في عام ١٢٨٠ بعد سقوطه من ظهر فرسه وهو يمارس بعض الألعاب، وحامت الشكوك حول السلطان بأن له يدا في موته، ولكن لم يتم إثبات شيء على الإطلاق. وتم نفي شقيقيه الآخرين إلى القسطنطينية في النهاية ولكن الأسرة عادت أدراجها إلى القاهرة في القرن الثالث عشر. وأمكن تتبع سلالة بيبرس في القاهرة بعد ذلك حتى وقت متأخر وصل إلى عام ١٤٨٨.

وكان قلاوون يقوم بترتيب شئونه الداخلية في الوقت المناسب تمامًا. وكان أباقا يتسلم تقارير مخابراتية منتظمة عن الصعوبات التي تواجهها السلطنة منذ وفاة بيبرس ولم تمنعه سوى مشاكله الداخلية عن تحين هذه الفرصة. وكان يتعين عليه أن يتعامل مع غزو مغول إليخانات أفغانستان لشرق إيران في عام ١٢٧٨ وعام ١٢٧٩، كما واجه غزوات عديدة من القبيلة الذهبية في أعوام ١٢٧٩ - ١٢٨٠. والأكثر من ذلك أن وباءً كان ينتشر في شرقي إيران طوال تلك السنوات ويهلك قطعان الماشية. وشرع أباقا، رغم كل ذلك في تنظيم حملة على بلاد الشام في وقت مبكر من صيف عام ١٢٨٠، وكان سنقر على اتصال بأباقا في ذلك الوقت مشجعًا إياه على القيام بغزو لدعم تمرده في دمشق. وكان سنقر الأشقر قد تزوج من فتاة مغولية عندما كان أسيرًا لدى هولاكو وأباقا في شبابه فيما بدا أنها كانت فترة أسر مريحة بالنسبة له، كما أنه كان منضمًا إلى تحالف من البدو المناصرين للمغول. وكان ولاؤه، وأقل ما يمكن أن يقال عنه متضارب في مجمله. وتسبب تحالفه الجديد مع السلطان، في أن يدير ظهره لسجانه وصديقه السابق، وبمجرد أن قام قلاوون بإغراق كندك – وهو الأمير الذي أسقط بركة – في بحيرة طبرية لمحاولته البدء في عملية انقلاب للمماليك ذوي الأصول المغولية، وبتجديد معاهدة السلام التي كان بيبرس قد قام بإبرامها مع بوهيموند السابع أمير طرابلس، وتوقيع اتفاقية جديدة مع فرنجة عكا، وإعادة معظم البدو الذين شاركوا سنقر في تمرده إلى حظيرة الجماعة مرة أخرى، فقد أصبح مستعدًا، سياسيًا على الأقل لمواجهة التهديد الماثل أمام ناظريه.

ولكن هل كان مستعدًا عسكريًا؟ وهنت الآلة العسكرية التي أسسها بيبرس بشكل كبير عن طريق عمليات التطهير التي قام بها كل من بركة وقلاوون للظاهرية. ولم يكن المماليك المنصورية الجدد يتمتعون بالخبرة الكافية، كما أن تكريس الجهود للتدريبات العسكرية والصيانة لفاعلية الجيش لم تعد بتلك الكفاءة

المثيرة للإعجاب تحت قيادة بركة، كما كانت تحت قيادة والده. وكما أن أباقا كـان قادمًا إلى بلاد الشام بجيش هائل؛ لقد بدا كما لو كان المغول قـد اسـتوعبوا درس عين جالوت وكانوا يستهدفون بتحقيق تفوق كاسح في أعـداد المقـاتلين. وكانـت استعدادات أباقا تتسم بالبطء، ومع ذلك، وبينما كانت حلب قد تم نهبها بواسطة قـوة صغيرة في سبتمبر ١٢٨٠، فإن المغول قد جلوا عنها بعد إدراكهم أن سنقر لن يمد لهم بعد الآن يد العون، كما أن الحملة الرئيسية لم تصل إلى بلاد الشام حتى خريف عام ١٢٨١. وقام قلاوون وحتى ذلك الوقت بتجميع جيش بصعوبة بالغة، حتى عن طريق تجنيد القوات الاحتياطية من أبناء المماليك البحرية، والذين ربمـا يمكـنهم مواجهة المغول.

وكانت تقديرات الاستخبارات للقوات التي جمعها المغول تتراوح بين ثمانين ألف جندي إلى مائة وعشرين ألف جندي. وكانت القوات تحت قيادة شـقيق أباقـا وهو منكوتيمور ولكن تحت وصاية اثنين من القادة ذوي الخبـرة توكنـا **Tukna**، ودولاداى **Doladi**. ومكث أباقا نفسه على ضفاف نهـر الفـرات ومعـه حراسـة صغيرة في انتظار أنباء النصر. كما كانت هناك معلومـات مـن جواسـيس فـي طرابلس أن المغول قد شوهدوا يعتلون قوارب وصلت المدينة، وبـالرغم مـن أن هؤلاء كانوا من الفرنجة الذين يقومون بارتداء أغطية رؤوس شـبيه بتلـك التـي يرتديها المغول في محاولة منهم لإرباك إستراتيجية المسلمين. فقد وصلت للسلطان معلومات أكثر دقة وتفصيلاً عن ترتيبات القوات المغولية من خلال منشق مغولي. وكان منكوتيمور في قلب الجيش ومعه أربعة وأربعون ألف مقاتل، بينمـا كانـت الميمنة تتشكل من خمسة آلاف مقاتل من الجورجيين، وثلاثة آلاف مقاتل نظـامي من جيش الأناضول تحت قيادة عليا لحاكم منغولي كان قد تم فرضه على أتـراك الأناضول عقب تمرد عام ١٢٧٧، وألفان من رجال القبائل التركمانية وعدد كبيـر من الأرمن تحت قيادة الملك ليو. كما كانت هناك أعداد غير محددة من الفرنجـة،

ويحتمل أنهم كانوا من فرسان الإسبتارية من قلعة المرقب، ويشاركون بلا حماس ولمجرد المشاركة. وكانت الميسرة تشتمل على طوائف مغولية أكثر، وكانت صفوف المقاتلين من المغول تمتد لما يقرب من ٢٤ كيلومترًا من حماة حتى السلمية. وغادروا حماة في مساء يوم ٢٨ أكتوبر واتجهوا جنوبًا طوال الليل. ولم يكن التحرك على شكل طابور أمرًا معتادًا لجيش يحتاج إلى الكلأ والماء وكان التقدم على جبهة واسعة هو الحل الأمثل لكي يجدهما.

ونشبت المعركة، أو المعركتان على وجه أدق في وقت مبكر من صباح يوم ٢٩ أكتوبر. وكان بمقدور قلاوون أن يقوم بتجميع ثلاثين ألف مقاتل من كل أنحاء السلطنة. فوضع في أقصى ميمنة جيشه قوات البدو الشامية، وتمركز في أقصى الميسرة تركمان بلاد الشام وقوات حامية حصن الأكراد الذي أعيد تسميته بحصن الفرسان بعد الاستيلاء عليه. وكانت صفوف قوات المماليك تمتد على الجانب الآخر من صفوف المغول؛ وعلى الرغم من قلة عدد المقاتلين المماليك فإنهم كانوا يملكون أجنحة قوية ولكن على حساب قلب أضعف. وتركزت مخاوف قلاوون في أن الزيادة الهائلة في أعداد المقاتلين المغول يمكن أن تمكّنهم من الالتفاف حول أجنحة المماليك وبالتالي تطويق الجيش بأكمله. وكان على يسار قلب الجيش قوات سنقر وقوات الحلبي مدعومة بسرية من جنود الحلقة، وكان على ميمنة قلب الجيش قوات دمشق وحماة وانضمت إليهم قوات المنصور، بطل المعركة الأولى في حماة عام ١٢٦٠، وكانت مدعومة بمقاتلين أكثر من قوات الحلقة. ووضع قلاوون في القلب من الجيش شباب المماليك من مقاتلي المنصورية ومعهم مقاتلو الوافدية المماليك الأكثر خبرة من الناحية القتالية من المماليك البحرية. وجلس السلطان نفسه في قلب المؤخرة على ربوة صغيرة ومعه حملة البيارق والطبول ومعه أيضًا فيلق من ثمانمائة مقاتل من المماليك السلطانية، وخاصكيته، وجنود الاحتياط من مقاتلي الحلقة. ويعتبر الترتيب الذي وضعه قلاوون في قلب الجيش متسمًا بالحنكة،

حيث يقترح كتيب الأنصاري عن فن الحرب: "إذا ما كانت الزيـــادة العدديـــة فـــي صالح قوات العدو هائلة، فضع الجيش في خمسة صفوف". ويستمر الكتيـــب فـــي تقديم نصائحه فيقول: "عندما يكون الجيش أقل عددًا كما حدث للمماليك في حمص، فأرسل إلى كل جناح من أجنحة الجيش سرية من الفرسان المعاونين كتعويض لهم عن الصف الذي ينعطف نحو القلب. وذلك هو بجلاء ما كان ينتـوي قـلاوون أن يفعله آملاً أن يستطيع سد الفجوات كلما ظهرت عـن طريـق الانتشـار السـريع لمماليكه البحرية وقوات الاحتياط من مقاتلي الحلقة.

وتقدم المغول مهاجمين وحققت ميمنتهم نجاحًا فوريًـا ضـد قـوات سـنقر والحلبي في ميسرة المماليك، والتي تحطمت وتشتت. وأصاب الذعر بعض أمـراء المماليك حتى إنهم فروا ولم يشعروا بالأمان الحقيقي قبل أن يصلوا دمشق وربمـا مصر. تدفق المغول وحلفاؤهم مندفعين إلى شواطئ بحيرة حمص، إلى الجنوب من موقع ميدان القتال الرئيسي، بعد أن قاموا بمطاردة وذبح قـوات المشـاة المحليـة لحمص ونهب قافلة الزاد والمؤن لرجال سنقر والحلبي. ولأنهم كانوا واثقين تمامًـا من الانتصار الكامل للمغول ولأنهم كانوا بعيدين جدًا عن موضع القتال فقد جلسوا للراحة على جوانب البحيرة الساحرة في انتظار الأنباء السـعيدة لميسـرة وقلـب الجيش. وكان ذلك خطأ فادحًا لأن الأمور كان في طريقها للتحسن بالنسبة للمماليك في المواقع الأخرى بين الجيشين.

وصمدت ميمنة المماليك أمام سلسلة من الهجمات المغولية، وبدأت بعدئذ في شن هجمات مضادة. وأدت هذه الهجمات المضادة إلى دفع ميسـرة المغـول إلـى الخلف، وأجبرت صفوفها على أن تنضم إلى قلب قوات المغول. وبدأ مقاتلو البـدو في أقصى اليمين في الانضمام بثقلهم إلى الهجوم وربما استداروا لتطويق كل مـن ميسرة المغول والقلب من أجل مداهمة قافلة المؤن الخاصة بهم. ويقـول مؤرخـو المغول إن التردد الذي أصاب منكوتيمور عند هذه اللحظة منح المماليك النصر في

ميدان القتال الرئيسي، ولكنه كان في موقع المسئولية اسميا فقط وكان معه قائدان من ذوي الخبرة. وما حدث فعلا في ميدان القتال هو أن اندفاع ميمنة المماليك ووصول مقاتلي البدو تزامن مع تقدم مقاتلي المماليك السلطانية والمنصورية في القلب والذين كان يقودهم الأمير المخضرم سيف الدين طورنتاي (Sayf al-Dln Turantay). وكما أنه من المحتمل أن المماليك قاموا بتطبيق الأسلوب الذي تدربوا عليه طويلاً وإلى ما لانهاية له من المرات؛ وهو أن يقوموا بالبحث عن حملة البيارق في صفوف العدو وتوجيه ضربات السهام الأولى إليهم أثناء الهجوم. وتؤدي مثل هذه الهجمات على وسائل اتصالاتهم إلى انتشار الفوضى حتمًا في صفوف الجيش المغولي. كما أنه في لحظة من لحظات الضغط المتواصل والقوي للمماليك السلطانية أُصيب منكوتيمور وسقط من على ظهر جواده. وترجل المقاتلون المغول المحيطون بالأمير من أجل التأمين على حياته، وربما بتأثير ذكرى موقعة الأبلستين التي لا تزال ماثلة في الأذهان، وأضرم ذلك نيران الحماس في مقاتلي المماليك من أجل زيادة جهودهم لتغيير دفة القتال. وأصبح قلب الجيش المغولي وميسرته كتلة واحدة من الفوضى والاضطراب تحاول جاهدة تنظيم نفسها في ميدان القتال تحت رحمة سيوف المماليك ووابل من سهامهم. ويقول المؤرخ الفارسي وصاف وهو يحكي عن الواقعة:

> **خضعت قوات منكوتيمور لكارثة الدمار المُطلق وأطلق الأمير ساقيه للريح هاربًا إلى الطريق العام وتكتنفه مشاعر الرعب والهلع. وفجأة أصيب منكوتيمور بسهم، وكانت إصابته رسالة واضحة عن المصير الذي ينتظر أرواح كل مقاتلي المغول. وأعمل مقاتلو بلاد الشام ورجال مصر الشجعان سيوفهم المشحوذة على كل مقاتلي الجيش المغولي.**

وبلغ الهياج والإثارة أقصاه لدى مقاتلي المماليك لمطاردة المغول لدرجة أن السلطان قلاوون وجد نفسه وحيدًا في الواقع حين عاودت ميمنة الجيش المغولي الظهور في ميدان القتال حين أدركوا من شاطئ البحيرة الذي كانوا يستريحون فيه أن هناك شيئا ما على غير ما يرام. وأمر السلطان بأن تطوى البيارق، ويتم وقف دق الطبول ولا شك في أنه حبس أنفاسه حتى لا يلمحه أحد بهذه القوة الصغيرة التي تصاحبه. وانبلجت حقيقة حجم الكارثة ناصعة أمام القوة المغولية العائدة وشرعوا في الانضمام إلى المغول الهاربين. وكبد هذا التراجع خسائر أفدح للمغول وأكثر مما كان يمكن أن يكبّدهم القتال، وكانت دموية أكثر من المعركة الأساسية نفسها. فقد طاردتهم قوات مقاتلي المماليك والتركمان وفي لحظة من اللحظات نشبت معركة صغيرة بين المغول وبين حلفائهم الجورجيين على توزيع الخيول على ما أصبح هزيمة منكرة أكثر منها انسحابًا. ولقي الكثيرون حتفهم ببساطة سواء من العطش أو الإنهاك بينما تم قتل الآخرين بواسطة القرويين المتيقظين. وشّكل نهر الفرات عائقًا هائلاً أمام أي محاولة للهروب ومات الكثير من المغول غرقًا، أو احترقوا عندما أشعل المماليك الحرائق في أعواد الخيزران التي كانوا يختبئون تحتها. وأبادت حامية البيرة قوة مغولية كما عانت القوات الأرمينية مثلها وهي تحاول العبور أمام الحصن المملوكي بغراس.

وألحق المماليك الهزيمة بالمغول مرة أخرى، ولكنهم كانوا محظوظين في هذه المرة بلا أدنى شك. فقد انتصروا في القتال بالجيش الذي تركه بيبرس لخلفائه وكانت قيادة قلاوون محكمة ولكنها كانت بلا إلهام. ولقد أُجبر حقًا على القتال في حمص عن طريق كبار أمرائه؛ بينما كان يرغب أن يكون القتال في دمشق حتى يتمكن من التراجع إلى مصر إذا ما خسر القتال. وفشل في استيعاب أن واحدة من أهم أسباب نجاحات المماليك المستمرة ضد المغول هو في الحماس المتقد لكبار المماليك لمحاربة أعدائهم ورغبتهم الجامحة في الدفاع عن كل بلاد الشام

وتطهيرها من المغول. ويضع المجتمع المملوكي الأولوية القصوى لمهنته العسكرية، كما أن أمنهم الأساسي يستند على نماذج شامخة من أنماط التخطيط والتنفيذ والتسليح وأساليب القتال، ولم تكن خبرتهم العسكرية تساوي شيئًا بدون احترام الذات والكرامة الشخصية. وبمواجهة المغول وإلحاق الهزيمة بهم باستمرار فقد كانوا يقومون ببناء مشاعر عميقة بالمناعة ضد الهزيمة؛ وخطط القتال التي تفتقر إلى الحماسة لا تقوم ببناء مثل تلك المشاعر. ولعبت الفوضى التي ضربت أطنابها في صفوف قيادات المغول وفشل ميمنة جيشها في العودة إلى ميدان القتال في الوقت المناسب دورها في النصر الذي أحرزه المماليك، كما يجب أن نمتدح قلاوون على حفاظه بالاتصال على الأقل بميمنة الجيش وقلبه وخاصة ومع الوضع في الاعتبار نقص الخبرة القتالية للكثير من المقاتلين وبالذات في قلب الجيش وتوظيفه الصحيح للمقاتلين البدو ذوي الأنفاس القصيرة دائمًا في الحروب في أقصى الميمنة. ومما لا شك فيه أن المغول كانوا مُنهكين من مسيرتهم طوال الليل، كما أن الخطأ التكتيكي الذي ارتكبوه جعل الأمر كله هزيمة فاضحة حيث تركوا المماليك يستمتعون بثلاثة أيام من الراحة قبل بدء القتال.

وربما كانت الأفكار تتصارع في ذهن أباقا عندما أدمن شراب القميز في شهوره الأخيرة وحتى الموت وهو يتساءل عن سر فشله المستمر ضد المماليك. وليس هناك شك في أنه ارتكب خطأ فادحًا في عام ١٢٧١ عندما لم يكثف جهوده من أجل شن عمليات مشتركة مع إدوارد، وبموجب هذا الفشل في التنسيق مع الصليبيين للعمل المشترك في عام ١٢٨١. ولقد حاول أباقا أن يقوم بإصلاح أخطائه بإيفاد المبعوثين إلى إيطاليا في عام ١٢٧٦، وإلى إنجلترا في عام ١٢٧٧، ولكن صدى تراخيه في السابق كان أعلى صوتًا من كلمات مبعوثيه في الوقت الحالي. ولقد كان من المؤسف لكل من أباقا والفرنجة أن انتصار قلاوون قد تحقق بصعوبة بالغة وفي وجود قوات الفرنجة في مؤخرته، وأيا كان حجمهم، فقد كان يمكنهم تغيير موازين القتال وبالتالي المعركة بأسرها. وقام قادة الممالك الصليبية بإلزام قواتهم بمعاهدات الحياد التي

أبرموها مع المماليك فيما عدا القليل من فرسان الإسبتارية المتمردين وكان على هـذا الوضع أن يستمر. وكانت تعبيرات المعاهدة التي تم إبرامها بين قلاوون وعكا في عام ١٢٨٣ تشير بوضوح إلى أن رجال الممالك الصليبية قد فقدوا الأمل في أي إمـدادات يمكن أن تصلهم من الغرب أو الشرق، وكانوا يأملون في العـيش فـي ظـل تسـامح السلطان فقط. ولم يكن يفترض منهم حتى بذل الجهد ليجعلوا أمر إنهاء وجـود مملكـة عكا مهمة عسيرة على المماليك:

> لن يقوم الفرنجة باستعادة أي أسوار، أو أبراج أو حصون، سواء كانت قديمة أو جديدة خارج أسوار عكا، وعتليت وصيدا.
> إذا ما حاولت قوات أحد ملوك الفرنجة البحرية أو غيرهم التحرك عن طريق البحر من أجل إلحاق الأذى بسيدنا السلطان أو ولده في أراضيهم التي تنطبق عليها هذه المعاهدة، فإنه يجب علـى قـادة الممالك الصليبية وكبارهم في عكا أن يقومـوا بإخطـار سـيدنا السلطان ونجله عن تحركاتهم قبل شهرين من وصولهم إلى الأراضي الإسلامية التي تشملها هذه المعاهدة.
> إذا ما أتى الأعداء من المغول أو من أي مكان آخر، فإن أي من الطرفين الذي يعرف أولاً يقوم بإخطار الطرف الثاني. فإذا ما — لا قدّر الله! — زحف مثل ذلك العـدو ضـد بـلاد الشـام، وانسحبت قوات السلطان أمامه، فإن على قادة عكا وكبارهم القيام بحماية أنفسهم وممتلكاتهم وأراضيهم بأقصى ما يستطيعون من جهد[٥٩].

(59) **In Holt, Early Mamluk Diplomacy, p. 81.**

وأصبحت الممالك الصليبية في أمان في هذه الفترة حيث إن جيش المماليك لم يكن في حالة تسمح له بالقيام بشن أي هجمات ضدهم. ولم يكن قلاوون قادرًا حتى على منع سنقر من الاستيلاء على إقطاعيته القديمة في شمال بلاد الشام. ويُقدر مؤرخو المماليك لوقائع معركة حمص رقمًا صغيرًا لقتلى المماليك بشكل لا يُصدق بمائتي قتيل، ولكن الحقيقة أن الجيش قد اهتز بعنف من قواعده في جهوده المبذولة لصد المغول. وأصبح هاجس السلطان الأول، من أجل ذلك، هو إعادة بناء الجيش. وكانت الطريقة التي شرع بها قلاوون من أجل استعادة جوهر الجيش المملوكي ذات شأن عظيم بعد ذلك. فقد قام بتوسيع شبكة استجلاب الأسرى، وشراء المماليك وأكثرهم من جراكسة القوقاز الشرقية(٦٠)، وأيضًا من المغول، والجورجين، والبيزنطيين والدول الأوروبية الأخرى؛ وكان من ضمنهم لاجين من بروسيا، والذي سيصبح فيما بعد سلطانًا. وسيصبح عدد المماليك مع نهاية فترة حكم قلاوون أكثر من ضعف العدد الذي كان بيبرس قادرًا على توفيره. وكانت النخبة الخاصة به تتمثل في مماليك قلعة القاهرة، وهي وحدة قوية تتكون من حوالي ثلاثة آلاف فرد، وتعسكر في البرج – وهي أبراج القلعة – ومن هذا اُشتق اسمهم، المماليك البرجية. وكان قلاوون نشيطًا وجادًا في برامج تدريبهم كما كان بيبرس، ولهذا فإن استعادة الجيش لكامل قوته مرة أخرى كانت عملية شاقة وبطيئة ولكنها كانت تستحق ما يُبذل من أجلها.

وكان قلاوون قويًا بما يكفي في السنوات الأولى لإعادة بناء الجيش لشن حملتين ضد أرمينيا، في عام ١٢٨٣ وعام ١٢٨٤. وكانت الحاجة ماسة إلى الحديد والأخشاب من أجل إصلاح آلة الحرب وكانت مصر فقيرة في مواردها من الحديد والخشب بينما كانت أرمينيا غنية بهما وضعيفة بما يكفي لإجبارها على توقيع معاهدة في عام ١٢٨٥، لتقوم بدفع جزية سنوية تعادل ٢٥٠,٠٠٠ درهم وما

---

(٦٠) يُشكل الجراكسة اليوم حرس الشرف لملك الأردن.(المؤلف).

يساويها أيضًا من الأخشاب والحديد والأنعام. وهكذا فإن أرمينيا قد عوقبت بشدة على اشتراكها في موقعة حمص.

وابتسم الحظ لقلاوون عندما ضربت المشاكل الداخلية إليخانات المغول بعد وفاة أباقا. ووجهت الدعوة للقورتلاي والذي قام بانتخاب تكودار بن هولاكو لخلافته والتغاضي عن ادعاءات نجله أرغون بن أباقا. وأثبت تكودار أنه قائد لا يتمتع بالكفاءة وربما تأكد من اغتياله في النهاية بتحوله إلى الإسلام واتخاذ اسم أحمد لنفسه. وكان تحركه الأول في السياسة الخارجية هو القيام بعرض مباحثات السلام مع المماليك. وتأكدت عيون السلطان من إحاطة السلطان علمًا بعدم استعداد الإليخانات للحرب، فقد تفجرت الانقسامات بين كبار قادة المغول كما أن حروب الاستنزاف المستمرة التي اضطر المغول فيها لمحاربة المتمردين الأتراك. وقوبلت العروض التي تقدم بها المغول في أعوام ١٢٨٢، ١٢٨٣ بفتور بالغ من قبل قلاوون، وقد أضعف هذا الفتور كثيرًا من موقف أحمد تكودار بين نخبة المغول. وباختصار، فقد تم القبض على تكودار بواسطة جنوده بينما كان يقاتل حربًا أهلية ضد أرغون في عام ١٢٨٤، وتم إعدامه عن طريق كسر عموده الفقري- لأن الدم الملكي، بالطبع كان محظورًا إراقته.

وكان أرغون أفضل قليلاً من أحمد. فقد كان يقوم بتفويض العمل الحكومي اليومي للمتخصصين من الموظفين اليهود والفرس ولم يقم بقيادة الجيش سوى مرتين. وفرضت عليه الجولتان اللتان خرج فيهما بالجيش عن طريق الهجمات التي شنتها عليه القبيلة الذهبية في عام ١٢٨٨، وعام ١٢٩١. وربما قتلته الهواجس المسيطرة عليه – عن طريق تناول المشروبات السحرية التي يُعتقد أنها تؤدي لطول العمر والتي أساسها الزئبق والكبريت في عام ١٢٩١- وجعلته يحجم عن المخاطرة بنفسه بالذهاب إلى ميادين القتال. وكانت منطقة خراسان بأسرها في حالة تمرد منذ عام ١٢٨٩ وحتى عام ١٢٩٤ تحت قيادة حاكمها المغولي

العسكري، نيروز. وكانت طبيعة قوات نيروز المرعبة والدموية المتعطشة للدماء التي تقوم بتخريب خراسان للدرجة التي دعت رعاة الماشية في المنطقة يقولون إنهم لا يتركون قطعان ماشيتهم تشرب من الماء حيث يوجد نيروز لأنها تعكس صورته الشريرة. وكان التفسخ والانحلال السياسي للإليخانات وعدم كفاءة أرغون تتطلب أن يتم التصديق على دبلوماسيته مع الغرب عن طريق الخان الأعظم وحتى أن يتم تنفيذه عن طريق مبعوثي قوبلاي خان إلى أوروبا. ويقدم لنا الإليخان في خطاباته الأشياء التي لا يستطيع أن يقوم بتقديمها، والدليل هذا الخطاب العجيب منه إلى البابا هونوريوس الرابع في عام ١٢٨٥:

> **لقد أرسلنا لكم السفيرين السابقين، وطلبنا منكم أن ترسلوا حملة وجيشًا إلى أرض مصر، ويجب أن يكون الآن، نحن من هذا الجانب وأنت من الجانب الآخر يمكن أن نقوم بسحقهم بين مقاتلين لا يُشق لهم غبار؛ وأن تقوم بإرسال رجال أكفاء إلينا حيث ترغب أن يتم ما سبق ذكره، سيتم طرد السراكنة (المسلمين) من بيننا، وأن السيد البابا والخان الأعظم قوبلاي سيصبحون أسيادًا[٦١].**

ولم يتسلم أي رد على هذا الخطاب ولكن بحلول عام ١٢٩١ كان راغبًا في تقديم إغراءات أكثر تركيزًا من تلك العروض البسيطة التي قدمها بطحن السراكنة. فكتب أرغون في خطابه إلى فيليب ملك فرنسا يقول: "والآن، إذا ما وفيت بوعدك المخلص، بأن تقوم بإرسال قوات في الوقت الذي اتفقنا عليه، وإذا ما باركتك

---

(٦١) الترجمة اللاتينية لها موجودة في مكتبة الفاتيكان. وتم اقتباسها من
A. Moule, *Christians in China before 1550*, London, 1930

السماء بتوفيقها، وقمنا بإلحاق الهزيمة بهؤلاء الناس، فإننا سنقوم بمنحك مدينة القدس". وكان يتم معاملة البابا والملك على قدم المساواة مع الخان الأعظم في هذه المراسلات؛ ويبدو بوضوح أن الأمور كانت سيئة للغاية من ناحية الصورة الذاتية للمغول، ثم إنها كانت على وشك الانحدار إلى الأكثر سوءًا. فقد أضاف شقيق أرغون وخليفته أجايخوتو الفسق والغواية إلى عدم الكفاءة. فيقول ابن العبري في تكملة يومياته: "إنه لا يفكر في أي شيء باستثناء.. كيفية الحصول على أولاد وبنات النبلاء وإرضاء شهواته الجسدية•معهم". وأدى الطاعون الذي انتشر في عام ١٢٩٤ بالإضافة إلى الفوضى المالية التي نشأت عن محاولة إجهاضية لإدخال استعمال النقود الورقية في الإليخانات، ولم يكن هنالك حتى شاة واحدة يمكن العثور عليها من أجل مائدة الإليخان. وجاءت محاولة التمرد الناجحة التي قام بها بايدو ابن عم أجايخوتو ضده في عام ١٢٩٤ نتيجة للضرب المبرح الذي تلقاه من حاشية أجايخوتو بعد أن قام بإهانة الخان في جلسة شراب استمرت الليل بأكمله أكثر منه لأي سبب سياسي. وتم شنق أجايخوتو بوتر قوس[٦٢]، ولكن بايدو أيضًا لم يُكتب له أن يعش طويلاً بعده. فقد قتل بواسطة مؤيديه أنفسهم في أكتوبر ١٢٩٥ في حديقة ساحرة في تبريز بعد أن تلاقى مع ابن أرغون، غازان في قتال لم ينتهي بنتيجة حاسمة. وكان يمكن لغازان أن يوقف الفساد بل وكان يمكنه أن يتمتع بنجاح قصير حققه على المماليك، ولكن هذه القائمة الخرقاء من الأحداث بين الإليخانات في الفترة ما بين عام ١٢٨١ وعام ١٢٩٥ حررت المماليك فعليًا من أي خوف من تدخلهم. وإذا ما كان للمرء أن يستطيع أن يتطلع إلى جنكيزخان داخل مقبرته حينئذ فربما كان سيراه وهو يهذي من مثل تلك الذرية.

كان قلاوون سعيدًا بالسلام الذي استتب مع المغول. وتصف يوميات الأنصاري ذلك بقوله:

---

(٦٢) (لاحظ من جديد القتل بدون إراقة دماء – المراجع)

كان يتعامل معهم بلطف، ويحافظ على علاقته بهم، ويقوم بمنحهم الهدايا.. استمع يومًا إلى بعض أفراد خشداشيته وهم يتسامرون معًا. وكان بعضهم يقول إن السلطان يقوم بإرسال الهدايا للمغول خشية منهم. فقام السلطان بتوبيخهم قائلاً "ما أقوم بإرساله للمغول من هبات، بأكملها لا تساوي قيمة تكلفة سنابك خيولكم عندما أخرج لقتالهم"(٦٣).

ومنح عقد اتفاقية سلام مع مصدر التهديد الأساسي حرية التعامل مع التهديدات الأخرى الأقل خطورة، وقد قام قلاوون باستخدام هذه الحرية بطريقة جيدة. فزحف بجيشه في عام ١٢٨٥ تجاه أسوار قلعة المرقب. وكان يتعين على فرسان الإسبتارية، كما هو الحال بالنسبة للأرمن، أن يدفعوا نظير إقامتهم في حمص، ولكن الحصن كان يقع على تل مرتفع وكانت منجنيقاتها قد قامت بإطلاق نيرانها على المماليك بينما يحاولون سحبها لتكون في المدى المؤثر للنيران. وتحطمت أعداد كبيرة من معدات الحصار المملوكية آنذاك وفشلت عملية الحصار طوال شهر كامل قبل أن يتمكن الألف وخمسمائة مهندس التابعين لقلاوون من قذف النفق الذي كان الصليبيون قد حفروه تحت واحدة من الأبراج الرئيسية والتوغل داخل دفاعات الحصن. وبعد انهيار هذه الأسوار، بدت المقاومة تبدو بوضوح بلا جدوى، ومُنح انسحاب مُشرف لفرسان الإسبتارية إلى طرابلس. وقام قلاوون بإعادة بنائها وترك فيها حامية وتحرك بعد ذلك.

وكان عدم وجود أسطول مملوكي قوى، وللمرة الثانية، يعني تخفيض هدف قلاوون التالي، وهي قلعة مراسليا أو مراقية، القلعة الصغيرة التي استعصت على بيبرس، وستكون مضيعة للوقت وصعبة في آن واحد، ولكن عندما قام قلاوون

---

(63) In Amitai – Preiss, "Mamluk Espionage Among the Mongols and Franks".

بتهديد طرابلس وقام بتقديم مقابل للانسحاب أن يتم تفريغ حصن مراقية فإن بوهيموند السابع أسرع بالترتيب لذلك.

وأصيبت عكا بالرعب نتيجة لفقدان حصن المرقب، كما أوضحنا آنفًا، فإنها لا تستطيع أن تنتظر أن يمد لها المغول أو أوروبا يد العون، وبصفة خاصة لأن شارل الأول كونت أنجو، هو الملك الشرفي المتغيب للمالك الصليبية، وقد سقط في تمرد عُرف باسم "نواقيس الصلاة الصقلية" والتي وقعت في مارس ١٢٨٢، وكانت باقي الدول الأوروبية، بمن فيهم نجله، منهمكين في اختيار الجانب الذين سيقفون معه، أو اختيار الحلفاء من أجل مواجهة تحالف شعبي أنجيو- وأراجون "**Angevin-Aragonese**" حول مصير جنوب إيطاليا والتي يجتاحها القلق بشأن الممالك الصليبية. وربما كانت رسالة البابا ردًا على توسلات قادة عكا في طلب المساعدة والتي طلبت منهم اليقظة، نصيحة مفيدة ولكن الفائدة منها كانت ضئيلة. وصلت أنباء مصرع شارل للشرق في عام ١٢٨٥، ولكن قلاوون لم يسترد نشاطه إلا في عام ١٢٨٧، وذلك عندما تسبب زلزال مدمر في تقويض أجزاء كبيرة من أسوار اللاذقية، وزحف المماليك إليها ببساطة وطلبوا منهم الاستسلام. وربما كانت الصدمة الناتجة عن أن الطبيعة نفسها أصبحت تقف ضده كانت كافية لقتل سيدها الأكبر، بوهيموند السابع في أكتوبر ١٢٨٧، وربما نظرًا لكبر سنه تحرك قلاوون ببطء أكثر مما كان بيبرس يفعل؛ فلم يتحرك ضد طرابلس حتى عام ١٢٨٩. وربما كان أكثر براعة، فاليونيني يدّعي أن قلاوون كان يتآمر مع أسرة حاكم طرابلس براتراند إمبرياكو ضد بوهيموند السابع منذ ١٢٧٩، وربما يمكن أن يكون قد قام بإرسال رجال القبائل المسلمين من قاطني التلال إلى براتراند إمبرياكو لأجل استخدامهم ضد ممتلكات أعدائهم. وكما أن السلطان ترك الشقاق الذي نشب في طرابلس بعد وفاة بوهيموند الذي لم يكن رُزق بأطفال يختمر تمامًا قبل أن يقوم بشن هجومه. ووضعت المناورات السياسية داخل المدينة النبلاء ضد العسكريين.

والتجار من عامة الشعب ضد كل من واحد من الآخرين، بين الحين والآخر. وكانت الكراهية، حقًا بين البندقية وجنوه في المدينة، وانتهت بأن قامت جنوه بدعم مطالبة أخت بوهيموند بالمدينة، وأدت مناشدة البندقية للسلطان لمساعدتهم في صراعهم مع جنوه، بمنحه الذريعة ليقوم بفسخ معاهدة عام ١٢٨٣.

وكان قلاوون قد استكمل استعداداته بالزحف نحو طرابلس في عام ١٢٨٨ ولكن وفاة ابنه الأثير جعلته يتسمر في موضعه. وبدأ الجيش المصري، على الرغم من ذلك، في ضرب الحصار حول طرابلس في مارس ١٢٨٩. وتوحدت الطوائف المسيحية داخل أسوار المدينة فجأة. وتم تجميع ست سفن شراعية تحت أعلام البندقية وجنوه في الميناء، كما قامت بيزا بمنح سفن أصغر حجمًا من أجل إمداد المدينة بلوازمها. وزحفت الفرقة الفرنسية والذي تم تقديمها إلى الممالك الصليبية بواسطة الملك لويس التاسع من عكا من أجل تدعيم الحامية كما تدفق الفرسان والسفن من قبرص. وشرح الأمير الأيوبي ذو الستة عشر عامًا أبو الفداء إسماعيل بن كثير والذي شهد المعركة الصعوبات التي واجهتهم لإخضاع طرابلس: "تحاط مدينة طرابلس بالبحر ولا يمكن مهاجمتها من اليابسة إلا من الجانب الشرقي ومن خلال ممر ضيق. وبعد وضع معدات الحصار، قام السلطان بترتيب أعداد كبيرة من المنجنيقات من كل الأحجام قبالة المدينة وتم فرض حصار صارم عليها". لقد كان أمرًا عسيرًا حقًا على رجال قلاوون، فقد حدد الخليج الضيق معظم الخيارات على الهجوم، كما أنه بات من الصعب استخدام أعداد الجنود الكبيرة للتأثير على مثل هذه الجبهة الضيقة. وتمكن المدافعون من استخدام كل قوتهم الصغيرة على نحو لا يمكن إنكاره على جانب واحد صغير من سور الحصن. سقطت المدينة، في النهاية، تحت الضغوط الهائلة للقذف. وتركزت النيران على الركن الجنوب الشرقي من الأسوار، وبعد شهر كامل بالتقريب من الضربات العنيفة التي تم توجيهها لبرج فرسان الإسبتارية، وبرج الأسقف، انهارت نقطتا الدفاع الأساسيتان.

وشد مقاتلو البندقية الرحال عند هذه النقطة، وبدءوا في سحب سفنهم من الميناء، وحذا مقاتلو جنوه حذوهم. وكان هناك وقت كاف ليكون هناك نزاع عاجل ودموي بين الفئتين حول ملكية القوارب قبل أن يرحلا معًا. وساد الذعر والهرج والمرج داخل المدينة بعد هذه الخيانة، واختار قلاوون هذه اللحظة، وأمر بشن هجوم شامل على المدينة يوم ٢٦ أبريل. وقُتل كل الرجال الذين أُلقي القبض عليهم، وأخذ النساء والأطفال توطئة لبيعهم في سوق العبيد. ونجح كبار قادة الفرنجة في الفرار من المدينة والوصول إلى قبرص، ولكن قائد فرسان المعبد تم ذبحه، وكذا حاكم المدينة والصديق السابق لقلاوون، إمبرياكو. وينقل لنا أبو الفداء كلا من حجم المذابح بل والأكثر من ذلك الحماس للقتل بين المماليك:

"على مقربة من طرابلس، وفي البحر الأبيض المتوسط، كانت هناك جزيرة صغيرة، بها كنيسة. عندما سقطت المدينة هرع إليها الكثير من الفرنجة بأسرهم، ولكن قوات المسلمين عندما استولت على المدينة عبرت إلى المدينة سباحة، وقتلوا كل الرجال الذين لجأوا إلى هناك، وأخذوا النساء والأطفال مع الغنائم. وركبت بنفسي إلى المدينة بعد المذبحة، ولكنني لم أحتمل البقاء فيها، كانت رائحة الجثث النتنة قوية للغاية".

وتقول المصادر الأخرى إن المماليك امتطوا خيولهم لأبعد مسافة أمكنهم السير فيها ثم قاموا بعبور باقي المسافة سباحة بينما يسحبون خيولهم من أعنتهم خلفهم إلى الجزيرة. ولقد بدا وكأنهم، وحتى في الحروب التي تنشب داخل المدن، لا يمكن أن يتركوا خيولهم المُعدة للقتال. وتم نبش عظام بوهيموند السابع ونثرها حول المدينة بواسطة عامة المسلمين. وكانت الحملة على طرابلس أكثر بكثير من

الجهاد، وعلى الرغم من أنها تستهدف منع جنوه من استبدال سلطة المماليك الصليبية القديمة الزائلة في الشرق. ونعم كان التجار الإيطاليون، هم الحلفاء التجاريين للسلطنة المملوكية، ولكن بناء إمبراطورية على سواحل بلاد الشام كان أمرًا لا يمكن السماح به، وسقطت حصون البترون **(Botron)**، و**(Nephin)** بسهولة بعد الاستيلاء على طرابلس، وبينما كان قلاوون يقوم بمراقبة تقويض أسوار مملكة طرابلس عرض عليه بيتر إمبرياكو استسلام الجبيل.

وبعد تحقيق هذا النجاح والكميات الهائلة من الغنائم التي حصدها للأمراء، ارتفعت صيحات تنادي بتقويض أسوار عكا. وكان قلاوون، من ناحية أخرى، يحتفظ بحذره المعتاد، فبينما يقوم بإرسال مبعوثين إلى عكا ليبدي غضبه لوجود مقاتلين من الفرسان التيوتون، وفرسان الإسبتارية، ومقاتلين من حامية فرسان الهيكل مع المدافعين عن مملكة طرابلس، فقد قَبل بسهولة التبرير الذي يقول إن الهدنة مع عكا قد تم عقدها مع الملك هنري، وليس مع الفرسان المقاتلين، وأعيد تجديد الهدنة بالصيغة الدينية المعتادة لفترة عشرة سنوات، وعشرة شهور، وعشرة أيام. ويُدرك السلطان جيدًا أن القضاء على عكا سوف يتطلب استثمارات أخرى بالغة الضخامة في صنع معدات الحصار، وقد قام باستخدام السلام المزيف (الهدنة) من أجل بناء أكبر منجنيق في تاريخ الشرق الأوسط آنذاك وهي المنصورة، من بين أشياء أخرى عديدة.

ولأن عكا كانت واثقة بأن السلام مصطنع، فقد انهمكوا في أنشطة دبلوماسية محمومة، وبينما حاول أهل جنوه في الشرق الانتقام من مصر عن طريق حملة قرصنة. ووصلت حملة القرصنة إلى منعطف خطير وعلى نحو مفاجئ عندما قام السلطان بإغلاق ميناء الإسكندرية أمام رعاة القراصنة وعندما حضر سفير جنوه إلى بلاط السلطان من أجل رأب العلاقات فإنه وجد أن عليه أن ينتظر بعد دخول سفير بيزنطة وممثلي الإمبراطورية الرومانية المقدسة. أحضر سفير اليمن خرتيتًا

من أجل إثارة دهشة السلطان وإعجابه، أما مبعوث جنوه فرغم أنه أحضر كلبًا كان حجمه في مثل حجم الأسد، فلابد وأنه شعر أنه عومل في وقت من الأوقات معاملة بروتوكولية أقل مما يجب. والآن وقد حان بوضوح وقت الحساب لعكا، فقد كان كل طرف من الأطراف يرغب في أن ينال جزءا من كعكة الميناء المصري. وكانت حكومة قلاوون في ذلك الوقت تقوم بإصدار تصاريح السفر والتجارة للهنود والصينيين، كما تقوم بتحصيل الجمارك على واردات البضائع من الشرق وكذا على الصادرات الناتجة عنها لدول أوروبا. كما أن مصر كانت تقوم بتحصيل أموال تفرضها على صادرات النحاس من أوروبا إلى الشرق. وكانت الأموال التي يقوم السلطان بتجنيبها للطوارئ كافية تمامًا، كما أن مناشدات عكا للمساعدة لم تلق في الأغلب سوى آذانًا صماء؛ كان إدوارد الأول في ورطة مع المشاكل الإسكتلندية مع كل جهة، وباقي أوروبا كانت غارقة لأذنيها في مشكلة سقوط شارل الأول. وأتت الاستجابة الوحيدة لصرخات الممالك الصليبية من أراغون، والتي كانت للغرابة الشديدة تتبادل الفتور الشديد مع الكرسي البابوي والبندقية من عواقب مشكلة ملكية شمال إيطاليا، وقامت بإرسال خمس سفن، كما قامت كل من توسكانا ولومبارديا بإرسال عصابات مسلحة غير مُجندة من المدينة ومن الفلاحين الذين تم استثارتهم بحمل الصليب. وتم تجميعهم في عناية مطران طرابلس للاجئين وأرسلوا إلى بيوتهم الجديدة عن طريق البندقية التي كانت في صراع مستمر مع جنوه حول الهيمنة التجارية في البحر الأبيض المتوسط، والتي بذلت العناية الكافية من أجل الوفاء بوعدها بتقديم عشرين سفينة من أجل دفاعاتها. وتطلب الرعاع الايطاليون الذين حملتهم إلى عكا أن تتم إجراءات دفاعية ضدهم.

وكان يبدو ظاهريًا، أن عام ١٢٩٠ كان عامًا ساد فيه السلام، فقد كان التجار المسلمون يحملون بضائعهم إلى عكا ليتم نقلها إلى أوروبا كالمعتاد، ولكن الرعاع الإيطاليين الذين وصلوا لتوهم لم يكونوا مُدركين للتعاقدات الاجتماعية التي جعلت من عكا موطنًا للأعمال، ونظرًا للروح الدينية القوية التي كانت تملؤهم،

وربما لأمزجة أخرى من تأثير الكحوليات المتنوعة فقد بدأو في إثارة المتاعب، بل وفي الهجوم المباشر على التجار المسلمين. ثم حدث في شهر أغسطس إخلال بالأمن وفوضي نتيجة لما وصفه المؤرخ شافع بن على بإغواء سيدة مسيحية، كما هو محتمل بواسطة معسول الكلام الذي وجهها لها أحد تجار الشرق. واندفع الرعاع الإيطاليون إلى الشوارع يقتلون كل رجل ملتح يجدونه أمامهم والذي كان لسوء حظه يمكن أن يكون إما مسيحيًا أو يهوديًا ذا لحية وشارب. وتمكنت سلطات المدينة من استعادة الانضباط ولكن الأمر كان متأخرًا جدًا: فقد وجد قلاوون الذريعة التي كان يبحث عنها كما كان جيشه على أهبة الاستعداد من أجل الحصار الكبير. ودفع قلاوون عجلة الجهاد نحو التحرك، ونشر رسالة، للاستهلاك الخارجي، بأنه سيقوم بإرسال حملة إلى النوبة. وأخيرًا فإن السلطان الذي كان محظوظًا جدًا في الطريقة التي جرت بها الأحداث إبان فترة حكمه، تخلى عنه الحظ أخيرًا. وقاد الملك المنصور سيف الدين قلاوون المالكي الصالحي جيشه خارج القاهرة في ٤ نوفمبر ١٢٩٠، ولكنه مات بعد خمسة أميال من المسير. وبالإضافة إلى اليأس الذي شعر به أثناء وفاته نتيجة عدم اكتمال إخراج الفرنجة من بلاد الشام أثناء حياته كما كان يأمل، فقد أضيف إليها ألم عدم تمكنه من جعل ابنه الأثير الذي توفي إبان حياته على عرش السلطان، ولكن بدلاً منه جلس الابن الأصغر غير الموثوق به على الإطلاق من ذريته، الأشرف خليل، والذي قال عنه قلاوون ذات مرة: "لن أولي خليل على المسلمين".

الفصل الثامن

النصر والشقاق
نهاية الممالك الصليبية فيما وراء البحار

لم تتـــرك بفضلك مدينـــة يمكن أن تعود الحياة للكفر فيهـــا،
لا أمل للديانة المسيحية!
تحررنا بيد السلطان الأشرف خليل من التثليـــث، والتوحيـــد
يبتهج بالجهاد!
الحمد والشكر لله، سقطت أمة الصليب.
وقد انتصرت ديانة العرب المختارين بيد الأتراك!

من مديح للسلطان بعد سقوط عكا كتبه ابن الفرات المتــوفي عام ١٤٠٥.

على الرغم من تحفظ والده الواضح تجاهه، فـــإن اعـــتلاء خليـــل لعـــرش السلطان كان سلسًا ولم يتطلب الأمر إلا مقتل القليل مـــن القضـــاة. وربمـــا قمـــع السلطان قلاوون في حياته وإبان حكمه لكل مقاومة بين الأمراء قد جعـــل الأمـــر كذلك، وقد كان عدد المشكوك في ولائهم بين المناوئين السياســـيين كبيـــرًا أثنـــاء سنوات حكمه، على الأقل كما كان الحال في سنوات حكم بيبـــرس، وربمـــا كـــان الجهاد ضد عكا يتطلب أن يقودها سلطان، وبالرغم من وفاة قـــلاوون، فـــإن روح الحماس للمغامرة كان لا يزال عاليًا. ونبذ خليل مناشدات الرحمة التي وصلته مـــن عكا في عام ١٢٩١، وزحف إلي بلاد الشام في مارس وقام باستخدام جنازة والـــده لإلهاب حماس المصريين أكثر تجاه الحرب المقدسة؛ أما دعوات الجهاد لأهل الشام فقد صدرت من الجامع الكبير في دمشق. وكان تأثير الدعوة للجهاد فعالاً للدرجـــة التي جعلت أعداد العامة الذين لبوا نداء الدعوة من أجل الغزو تفوق أعداد الجنـــود النظاميين الذين تم تجنيدهم من أجل تحرير مدينة، كما أسهم رجال القلم والقضـــاة

ورجال الدعوة في دفع منجنيقات جديدة إلى ضواحي دمشق. وكان هؤلاء الرجال شوكة في جنب أي ديكتاتور عسكري بشرق أوسط العصور الوسطى، بنفس القدر الذي هم عليه الآن، ولكن الجهاد في العصور الوسطى جعل النخبة العسكرية قادرة على شحذ طاقاتهم، ولذا فإن هناك أشياء لا تطولها يد التغيير. وأبطأت الثلوج المتساقطة جيش حماة في زحفه من الشمال وتحريك المنصورة، أكبر المنجنيقات حجمًا، من حصن الأكراد إلى عكا، وهي الرحلة التي تستغرق ثمانية أيام فقط في الظروف المعتادة، ولكنها استغرقت شهرًا كاملاً حيث كانت الثيران تقوم بجر مائة عربة تحمل الأجزاء المفكوكة منها وتحتاج إلى إعادة تشكيلها نظرًا لتعرضها للعوامل الجوية. ولم تتوقف المتاعب عن الحدوث بمجرد وصول الجيش إلى عكا. وكان الفرنجة قد قاموا بإعداد دفاعاتهم جيدًا ومنحهم اليأس مزيدًا من الشجاعة. ويصف لنا اليونيني وصول السلطان إلى المدينة فيقول:

> بحث الفرنجة عن العون عند الشعب القبرصى والجزر الأخرى وذلك بإرسال خطابات إلى ملوكهم العظام، وكان من نتيجتها أن تجمع عدد كبير من فرسان الإسبتارية وفرسان الهيكل واحتشدوا في المدينة. وذكر أهل عكا في خطاباتهم إلى ملوك الفرنجة، والرهبان، والكهنة، أنه لا يوجد ميناء للفرنجة على طول الساحل كما لا يوجد مكان آمن يمكنهم اللجوء إليه سوى حصن عكا، وإذا ما سقط الحصن فلن يكون هناك موضع قدم للفرنجة. وتبعًا لذلك قام الملوك بإرسال العديد من الرجال كما تم تقوية حصون المدينة.(٦٤)

---

(64) in "D. Little "The Fall of Akka in 690/1291: The Muslim Version In M. Sharon (ed), Studies in Islamic History in Honour of Professor Dr. Ayalon, Leiden: EJ Brill, 1986. pp 159-81.

وللمرة الثانية كان ضعف المماليك في المجال البحـــري عـــاملاً ضـــدهم. ويصف أبو الفداء إسماعيل دفاع الفرنجة من البحر والبر فيقول:

> تمركزت الفرقة الخاصة بنا من حماة إلى مقدمة ميمنة الجـــيش، كما اعتادت ذلك، ولذا فقد كنا بالقرب من البحر، والبحـــر على يميننا ونحن في اتجاه عكا. واتجهت إلينا ســـفن بســـقالات خشبية ومغطاة بجلد الثيران وهي تقذفنا بالسهام وتقاتل.. كما قاموا بإحضار سفينة تحمل منجنيقًا قذفت نيرانها علينا وعلـــى خيامنا من اتجاه البحر. وتسبب ذلك في حدوث ضائقة شديدة لنا حتى جاءت ذات ليلة كانت هناك عاصفة هوجاء، للدرجة التي جعلت السفينة تنقلب على الأمواج وتحطم المنجنيق الذي كانت تحمله.. وحدث أثناء الحصار، أن خرج الفرنجـــة لـــيلاً، وفاجأوا القوات، وأجبروا حراس الحصن على الفرار. وولجـــوا بسرعة إلى الخيام، وتعرقلوا في أحبال الخيام. أحد الفرسان فـــر إلى دورة مياه أحد الأمراء حيث قُتل هناك(٦٥).

ويشرح لنا كتاب "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" أن الفرنجـــة لـــم يقومـــوا بإغلاق معظم البوابات، ولم يقوموا بإسدال ستار على هـــذه البوابـــات، وتركوهـــا مفتوحة من أجل قتال المسلمين أسفل الأسوار. وتثبـــت المصـــادر الإســـلامية أن الفرسان المسيحيين كانوا مستمرين في الخروج يوميًا مـــن أجـــل اقتـــراح القتـــال الفردي والمبارزة. وقد سجلوا بالطبع، نسبة نجاح بلغت ١٠٠% لأبطال المماليـــك

---

(65) In P. Holt "The Memoirs of a Syrian Prince, Wiesbaden: Steiner, 1983, pp. 16-17.

رأس سهم قصير ثقيل ومربع الشكل

في هذه المبارزات. واستخدم المماليك معدات كسر الحصار ضد دفاعات عكا. واستمر القذف ستة أسابيع، واشترك فيها ثمانون منجنيقاً، وهو العدد الأكبر من المنجنيقات التي تم تجميعها ضد أسوار أي مدينة في الشرق الأوسط حتى ذلك الحين. ويشرح لنا أبو الفداء أن هناك أربعة أنواع هي: الفرنج، والشيطاني، والكرباج، واللعوب: أما الإفرنجي فهو سلاح ذو عارضة خفيفة، أما الشيطاني فكان عبارة عن جهاز جر بسيط، ولكنه كان سهل الحركة والنقل، كما كان يمكن تحريكه بالقليل من الرجال، أما الكرباج أو الأخرق الأسود فقد تم تحويره لقذف السهام الكبيرة، وكان يُطلق عليه اسم اللعوب على سبيل السُخرية.

قام الفرنجة بتبطين الأسوار الخارجية ببقايا الأقمشة والقش للتخفيف من تأثير صواريخ المنجنيقات، ولكن السهام الحارقة للمماليك قامت بإزالة هذه العوائق من طريقها من أجل تحطيم هذه الأسوار. وكانت الإجراءات حول المدينة والتي تم تسجيلها بواسطة المهاجمين، تتشابه إلى حد غريب مع قتال الشوارع في القرن العشرين، حيث يتم إحداث فتحات خلال العوائق بواسطة المدفعية، ثم يقوم بضعة مقاتلين من المشاة باحتلال المناطق الرئيسية التي من خلالها يتحركون ويقومون باختبار المداخل والوثوب من واحدة لأخرى إلى قلب المدينة. ونستقي هذا التصوير من كاتب سيرة قلاوون وهو المملوك بيبرس المنصوري وبطل موقعة حمص:

> كنت أبحث عن مكان في وسط كل هذا حيث يمكن أن تتاح فرصة، أو ركن يمكن أن يسمح بخدعة، ولكن لم أجد أيا من ذلك. وبينما كنت أعمل فكري وأطيل بناظري وإدراكي طويلاً، فقد وجدت فجأة أنه يمكن الوصول إلى واحدة من هذه الأبراج التي تم تدمير جانب منها بواسطة المنجنيقات. وتوجد مساحة واسعة بين هذا البرج والأسوار ولم تتم تغطيتها، ولكنها محاطة بأقواس قاذفة، ولا يمكن اجتيازها إلا إذا تم وضع ستارة

على كامل المنطقة لحماية أي من يدخل منها. ولذا فقد قمت بتغطية نفسي ببعض اللباد، وقمت بخياطتها بأكملها على شكل حجاب كبير، طويل وواسع. بين العمودين وواجهة البرج المتهدم، وضعت بكرة قمت بتغطيتها بالأحبال الشبيهة بتلك المستخدمة في السفن. وهناك رفعت حجاب اللباد الذي أرتديه وجعلته كساتر. وحدث كل ذلك ليلاً وبدون أن يُدرك أي واحد من عكا، وعندما يستيقظون في الصباح ويشاهدون الستار فسيقومون بقذف المنجنيقات والسهام عليها. ويقوم اللباد بإضعاف قوة الدفع وقاذفات الأقواس لا يمكن أن تخترقها بسهامها(٦٦).

وتحرك رجاله للأمام والخلف عبر الأرض الشاسعة والمكشوفة شديدة الخطورة تحت هذه الستارة المرتجلة، وقاموا بردم الخنادق بالأتربة والدبش بينما هم تحت وابل من السهام الآتية من الأبراج. وكان هذا هو الطريق الذي سيسلكه المماليك في النهاية من أجل اقتحام المدينة.

يقر اليوسفي في شهادته على شجاعة فرسان الهيكل في صد الهجوم المضاد، والذي يحكي كيف أن الفرنجة كانوا يستعرضون التروس والدروع التي قاموا بخطفها أثناء هجماتهم على معسكرات المماليك حول أسوار عكا. وأثارت هذه الهجمات حنق السلطان وقام بالقبض على بعض أمرائه في يوم ٩ مايو لشكوكه في وجود تآمر مع العدو وقام بتوبيخ الآخرين جميعًا على الأداء السيئ. أما في جانب الصليبيين فقد وصل ملك قبرص وارتفعت الروح المعنوية للمحاصرين. ولم يستمر الابتهاج طويلاً، بينما الملك الذي كان مريضًا يغادر

---

(66) In Little, pp 159-81.

المدينة بعد ثلاثة أيام، وبعد أن أدرك أن الوضع ميئوس منه ولا يمكن الدفاع عنه. وقام المماليك بمضاعفة قاذفاتهم وقاموا بوضع المهندسين بجانب كل واحدة من الأبراج، والتي تهاوت واحدة بعد الأخرى. وفر الصليبيون بعد أن قاموا بحرق برج الملك هيو في يوم ٨ مايو حيث إنه كان قد بدأ يتهاوى من الخنادق الموجودة بأسفله. وكان التالي له في الانهيار هو البرج الإنجليزي، وبعده البرج المجاور له برج الكونتيسة بلو، وجانب من الأسوار التي تلي بوابة القديس أنطوني، وبرج القديس نيكولاس. وبسقوط برج الملك هنري الثاني كان المماليك قادرين على الهجوم من خلال الأسوار الخارجية، وتطهيرها من آخر المدافعين عنها واستغلال الأسوار الداخلية للمدينة. وكما كان هناك قتال شرس حول بوابة القديس أنطوني، حيث أمكن بشجاعة فرسان الهيكل وفرسان الإسبتارية بمفردهم إيقاف دخول المماليك للمدينة. وخرج قادة عكا لمناشدة طلب الهدنة مع قبولهم دفع الجزية في يوم ١٧ مايو. وتم رفض هذا الالتماس، وكان العرض المضاد الذي تقدموا به هو أن يقوم الصليبيون بمغادرة المدينة ومنحهم الخروج الآمن من المدينة. وانفض الاجتماع فجأة بمحاولة الصليبيين قتل السلطان بواسطة صخرة تم توجيهها بدقة بواسطة منجنيق. ورد المماليك على ذلك باستئناف القصف العنيف بوابل من القذائف.

أمر السلطان خليل ببدء الهجوم الشامل يوم ١٨ مايو. وبدأ الهجوم عند الفجر بواسطة دقات الطبول العنيفة المستمرة لثلاثمائة طبلة ووابل بعد الآخر من قذائف السهام المتتالية تسقط على رؤوس المدافعين. وبدأ شن الهجمات من كل جزء من أجزاء الأسوار ولكن التركيز كان على البرج اللعين. واقتحم المماليك البرج وعلى الرغم من الهجوم المضاد اليائس من فرسان الهيكل وفرسان الإسبتارية كان المماليك قادرين على شق طريقهم بالقوة عبر الأسوار وتأمين الأسوار الداخلية لبوابة القديس أنطوني؛ وبعدها تدفق المسلمون ببساطة إلى الداخل. وعلى مدى ساعات ثلاث كان المماليك وبيارق الغزاة يضعون أيديهم على

الجدران التي كانت تنطلق منها النيران. وبدأ نهب المدينة من القوات غير النظامية على قدم وساق، لدرجة أن سكان المدينة من المسلمين لقوا حتفهم حينما اندفع جنود من الرعاع لعمليات القتل والقبض على النساء والأطفال دون تمييز. وكـــان يـــتم تعذيب الأثرياء من السكان حتى يقوموا بالكشف عـــن الـــذهب والفضـــة الـــذي يقومـــون بإخفائه.

ولم يكن في مقدور القوات النظامية من المماليك الاشـــتراك فـــي عمليـــات النهب حيث كانوا لا يزالون منهمكيـــن في إخضـــاع أربعـــة أبراج كبيرة أخـــرى لا يزال يختبئ فيها بعض فرسان الهيكل، والفرسان التيوتون، وفرسان الإسبتارية، والفرسان الأرمن. وطلب فرسان الهيكل السماح لهـــم بـــالخروج الآمـــن مقابـــل الاستسلام ومُنح لهم ذلك، ولكن بمجرد دخول المماليك البرج فإنهم شـــرعوا فـــي القبض على النساء والأطفال من أجل تأمين الحصول على أفضـــل النتـــائج مـــن العملية. واستشاط فرسان الهيكل من الغضب وقاموا بإغلاق بوابات البرج ثم قاموا بقتل كل المماليك المتواجدين داخلها وقاموا بإلقاء البيرق الذي أرسله السلطان معهم لضمان سلامتهم من أعلى البرج. وبالرغم مما حدث هنا فإن المجموعات الأخرى المحاصرة هجروا مواقعهم بعد تعهدات جديدة بضمان سلامتهم من الأمير كتبغـــا. وصمد فرسان الهيكل لثلاثة أيام أخرى قبـــل أن يقومـــوا بقبـــول عـــرض آخـــر بالاستسلام المُشرف، وبمجرد أن غادروا البرج، اندفع إليها المماليك لانتزاع الثأر لمقتل الأمير آقبغا الذي قتله فرسان المعبد وهو يتفاوض باسم السلطان. ونتج عـــن ذلك على الفور وقوع مذبحة ورد باقي فرسان الهيكل بإلقاء خمسة من المســـلمين الأسرى من نوافذ البرج. ثم انقلب الاستسلام إلى فوضى شاملة ومعركـــة دمويـــة صاخبة مع المماليك، كما أن المدنيين من المسلمين أصـــبحوا محاصـــرين داخـــل البرج وفرسان المعبد يقومون بهجمات عنيفة ويائسة من بواباتها وأسوارها. وذكر مصدر مملوكي مجهول وقائعه عن هذه المعركة بقوله:

كنت ضمن المجموعة التي اتجهت إلى البرج وعندما تم إغلاق بواباتها ظللنا هناك مع الكثير من الآخرين. وقتل الفرنجة كثير من الناس ثم أتوا إلى مكان فيه مجموعة صغيرة، بمن فيهم أنا ورفيقي وأخذونا كأسرى. وقاتلناهم لفترة تقترب من الساعة، ولقي معظم من كانوا معي من المجموعة وفيهم رفيقي حتفهم، ولكنني قمت بالهروب في جماعة من عشرة أشخاص استطاعوا أن يلوذوا بالفرار. ولأننا كنا أقل عددًا، فإننا هرعنا إلى البحر. ومات بعضنا، وعجز آخرون عن الهروب، واستثني آخرون من الهجوم لبعض الوقت[٦٧].

واستشاط السلطان غضبًا، في هذه اللحظة، وأمر بأن يتم حفر أنفاق تحت الأبراج. ويقول ابن العبري إنه أمر ألفي مقاتل بالاتجاه إلى البرج وأن البرج قد انهار حينئذ، وقتل كل من كان بداخله، ولكن المصادر الإسلامية التي وصفت الحادث تحدثت عن عملية إخلاء ثم الهدم. وأمر السلطان بأن يتم تدمير أسوار عكا تدميرًا تامًا قبل التحرك لقبول استسلام قليل من المدن التي يتحكم فيها الفرنجة. ويصف أبو الفداء هذه المهمة اليسيرة بقوله: "بعد تحطيم عكا، ألقى الله الرعب في قلوب الفرنجة الذين ما زالوا على سواحل بلاد الشام. ولذا فإنهم قاموا على عجل بإخلاء صيدا، وبيروت، وصور وكل المدن الأخرى. ولذا فإن حظوظ السلطان كانت طيبة للغاية، بما لم يتح لأحد، فقام بكل سهولة بفتح كل هذه المعاقل القوية، التي قام بتفكيكها على الفور"[٦٨].

---

(67) In, Little, pp. 159-81.

(68) In, Maalouf, p. 261.

ويقول تاكيتوس في بيان عن صنع السلام في رومانيا، "يجعلونها منطقة جدباء، ويقولون عنها إنها في سلام"، وتنطبق هذه المقولة مع مراعاة ما يقتضيه اختلاف الحال على سياسة مماليك بلاد الشام، فإن جراح هذه العمليات من التدمير كانت تصيبهم هم وليس الآخرين. فقد قاموا بتدمير أجزاء كاملة من السواحل القابلة للسكنى، خوفاً من عودة الصليبيين المقاتلين، وبفعلتهم هذه فإنهم قاموا بتخريب موانئهم ومدنهم الساحلية، كما قاموا بتخريب اقتصاد بلاد الشام لقرون تالية. وكان من العسير فهم مثل تلك التصرفات ضد الحملات الصليبية المتأخرة لأنه كان من المؤكد أن الخطر قد تلاشى، ولكن لوجود أسطورة إسلامية من القرن الرابع عشر تقول إن ملوك قبرص الجدد سيقومون بالإبحار في ظلام الليل إلى أطلال عكا من أجل عملية تتويج سرية مما يدل على أن أشباح الفرنجة استمرت مسيطرة على عقول المسلمين حتى بعد تلك الفترة. وتُختتم أفكار أبو الفداء النهائية عن حملة السلطان خليل بما يشبه الضراعة: "وبكل هذه الفتوحات فإن كل أراضي الساحل قد عادت بأكملها للمسلمين، وهي النتيجة التي لم يكن يحلم بها أحد. وهكذا فإن الفرنجة، الذين قاموا في وقت من الأوقات باحتلال دمشق، ومصر، والكثير من الأراضي الأخرى، تم طردهم من كل بلاد الشام والمناطق الساحلية. ولقد قدّر الله ألا تطأ أقدامهم مرة أخرى هناك!"(٦٩)

وكان للصراع الإسلامي- الصليبي اتجاهان واضحان يمكن تمييزهما بوضوح. فقد كان هناك اتحاد مسيحي قوي في أوائل القرن الثاني عشر والذي تدهور مع الوقت إلى الدرجة التي كان فيها من الممكن إلى حد كبير أن يقوم التفوق البحري الغربي بجعل السلطنة المملوكية تجثو على ركبتيها من خلال حصار الموانئ المصرية، وهذا السلاح لم يتم تطبيقه حيث كان يعوقه العداء والدفاع عن المكاسب بين الإمبراطور والبابا، والبندقية وبيزا وجنوه وإنجو، وكل

(69) In Maalouf, p. 261.

شخص آخر على وجه التقريب. وكان يجرى بالتوازي مع ذلك رد فعل إسلامي مبكر لمملكة بيت المقدس التي عرقلها كل من نقص القوات النظامية المُدربة تدريبًا جيدًا في منطقة بلاد الشام والافتقار إلى استجابة ثابتة وموحدة تجاه الخطر الصليبي. وكان المماليك يقومون بشن حملاتهم كل عام على وجه التقريب مستقطبين قواهم لهذا الهدف وفي فصلي الشتاء والصيف ضد الفرنجة، كما أنهم كانوا قد أسسوا أفضل جيش في العالم في حقبة العصور الوسطى التي لم تكن الممالك الصليبية تملك شيئًا إزائها.

وعندما تلفت السلطان خليل ناظرًا حوله بعد سقوط عكا، ربما انتابه القلق الشديد. فلم يتبق هناك عدو واضح لمحاربته. فقد ضربت الفوضى أطناب المغول كما ذهب الفرنجة أدراج الرياح. ولا شك أنه الآن آمن، ولكنه يدرك تمامًا أن استرخاء الجيش سيؤدي فورًا إلى المطالبة بزيادة الأجور والمكافآت، وبالطبع كان المماليك مجتمعًا حضريًا أرستقراطيًا؛ فكبار الأمراء يقطنون القاهرة مع مماليكهم الخاصة، أما صغار الأمراء، فقد تزايدت أعدادهم زيادة كبيرة كلما ازدادت الإيرادات الناتجة عن تجارة الشرق ومن الغنائم التي تم تجميعها من غزو الإمارات اللاتينية في بلاد الشام وأرمينيا. ويمكن أن تتجسد المعضلة الإمبراطورية التي واجهها الخلفاء في القرن التاسع مرة أخرى في مصر. وقرر الخليفة أن القيام بأعمال جديدة هو الحل الأمثل لهذه المعضلة. لقد ذهب الفرنجة إلى غير رجعة، ولكن الخليفة، الذي لم يكن حقًا قد رأى ضوء النهار إلا عندما احتاجه السلاطين، لم يكن أمامه إلى أن يستدير إلى إعلان جهاد جديد ضد المنشقين وزنادقة بلاد الشام وضد أرمينيا.

وكان قد تم إخضاع الحصن الرئيسى لأرمينيا على نهر الفرات، وهي قلعة الروم في مهمة قصيرة بالمنجنيقات التي تبقت من عملية تحطيم عكا في مايو ١٢٩٢، كما تم إجبارهم على تسليم ثلاثة حصون أخرى في ربيع عام ١٢٩٣ فقط عن طريق تهديد المماليك لهم بعمل عسكري. وكان بيدار كبير أمراء السلطان

العامل على بلاد الشام قد اختبأ في مكمن أثناء محاولة إخضاع الشيعة النصيريين، والدروز والمسيحيين المارونيين في مرتفعات شمال بيروت، وكان موقفه بالغ الصعوبة بعد هذا الهجوم المفاجئ لأنه تفاوض مع رجال القبائل أثناء مهمته التي أُرسل من أجلها للقضاء عليهم وذلك من أجل العودة بقواته، أو ما تبقى منها، سالمًا من تلك المرتفعات. وتم إعدام بيدارا بواسطة السلطان، والذي انتقم لنفسه أيضًا من العديد من رفاق بيدارا في الحملة، وأصبح واضحًا عند هذا الحد أن السلطان يقوم بإلقاء القبض على الأمراء وإعدامهم ببساطة من أجل الاستيلاء على أصولهم وإيراداتهم. وبدأ كبار الأمراء في التآمر حيث بدأ واضحًا رغبة السلطان في الاستيلاء على أرض بالقاهرة من أجل إنشاء ميدان ومسجد كبير مستقل والتي ستكون القطعة المحورية فيها هو كامل مدخل كنيسة القديس أنطوني التي تم الاستيلاء عليها كنصب تذكاري من عكا والتي سوف تحتاج الكثير من الاستقطاعات المالية من الأمراء المخلوعين.

ثم كانت خططه التي تتسم بالمبالغة في سبيل الغزو. فقد قام بإرسال خطابات إلى جايخاتو يهدده بأن يجعل بغداد عاصمته الجديدة. وفي الحقيقة، فإن فكرته هذه لم تكن سخيفة إلى ذلك الحد بالنظر إلى الحالة المتردية التي كان عليها الإليخانات تحت حكم أباقا وغازان- ولكن كما ذكرنا آنفًا - فإن الإستراتيجية الكبرى للمماليك، بل وطريقة تفكيرهم قد تشكلت في قالب اهتمامهم بشئون سواحل بلاد الشام، كما أن التوسع لم يكن يناسب مفهومهم الذي يتلخص في التركيز على ما هو مطلوب لحماية دولتهم. كما أن السلطان خليل قام بحكمة بتصحيح الخطأ الذي كان بيبرس قد وقع فيه عن طريق بناء أسطول إلى الدرجة التي كانت على الأقل قادرة على حماية السواحل من قراصنة الفرنجة، ولكنه صرح حينئذ بأنه يريد أن يقوم بغزو قبرص ولذا فإنه في حاجة إلى المزيد من السفن. وتحتاج مثل أحلام الغزو هذه بالطبع للكثير من الأموال، ولذا فإن السلطان خليل قام بإعادة توزيع إقطاع مصر، وإعادة ترسيم خريطة الدخول من التجارة من أجل تغذية

خزينة السلطان على حساب كل فرد، وبالطبع جعل الكثير من الأمراء ضده. وارتكب خليل خطيئة بأن جعل لاجين، وهو أحد أصهاره من خلال زواجه بإحدى بنات قلاوون، يتفادى عملية التطهير التي أعقبت كارثة تلال بلاد الشام بعد مناشدة بيدارا. وحاول السلطان إلحاق المهانة بلاجين عن طريق جعله مملوكًا لبيدارا ولكنه في الحقيقة نجح فقط في توثيق أواصر الصداقة بين الرجلين. وتشاجر السلطان خليل مع بيدارا في أواخر عام ١٢٩٣ بشأن الاستقطاعات في حصة الأمراء على الدخول من التجارة، ولكنه طرح جانبًا الشجار مع بيدارا وخرج للصيد في غرب القاهرة في ديسمبر ١٢٩٣. ولم تكن الحراسة الخاصة ترافقه عندما هاجمه لاجين وبيدارا وشرذمة أخرى. وصرخ لاجين بصوت عال بينما كان يقوم بذبح السلطان: "دع من سيحكم مصر وبلاد الشام يتلقى ضربة كهذه!" ولكن يبدو أن الكثير من الدماء سيتم إراقتها قبل أن يتمكن لاجين من الحكم.

وعادت الأمور إلى سيرتها الأولى بأن يوضع طفل على كرسي السلطان تحت رعاية مجموعة من الأوصياء على العرش، وكلهم يلهثون وراء السلطة الحقيقية. وطالب بيدارا بالعرش لنفسه، ولكنه سقط قتيلاً خلال بضعة أيام. فقد تم انتزاع كبده والتهامه نيئًا بواسطة أحد الأمراء الذين قاموا بقتله؛ وتم قطع أيدي مناصريه قبل أن يتم صلبهم ووضعهم على ظهور الحمير التي طافت بشوارع القاهرة. وأفلت لاجين من قبضة الزمرة الحاكمة التي وضعت ابن قلاوون الناصر محمد ذى الثمانية عشر عامًا على العرش. وأصبح كتبغا المغولي الذي جلبه قلاوون بعد موقعة الأبلستين هو القائد الفعلي بعد أن قام بضمان منصب نائب السلطان في مصر. وكان خصمه الأساسي طوال السنوات التي تلت هو سنجر الشجاعي الذي شغل واحدًا من أهم منصبين في السلطنة، وهو منصب كبير الوزراء. وباختصار فإن الشجاعي حاول أن يقوم بقتل كتبغا وتم قتله بواسطة المماليك المغولية والوافدية المغولية في معركة حدثت وقائعها في شوارع القاهرة، وتجاوز جانب عنصري جديد في السياسات المملوكية الولاء المملوكي التقليدي القديم لرفاق الخشداشية.

وأعلن كتبغا نفسه سلطانًا بنهاية عام ١٢٩٤، ولكنه وجد أن قاعدة سلطته من المماليك المغولية الجدد، ورجال من خارج حكومة قلاوون القديمة هي قاعدة هشة فأخذ يلتمس دعم لاجين الذي ظهر مرة أخرى لقيادة المماليك البرجية. حاول لاجين الذي أصبح في ذلك الحين نائب للسلطان في عام ١٢٩٦، قتل كتبغا، وكانت هذه المحاولة كافية لإقناع السلطان بأن الاستقالة خير من الاغتيال. ولقي لاجين مصرعه في يناير عام ١٢٩٩ بينما كان يصلي في مسجد القلعة حيث قام بقتله اثنان من مماليك السلطان خليل، الأشرفية. وكان لاجين يحاول القيام بإصلاحات في نظام الإقطاع وكان الثمن هو نفس الثمن الذي دفعه السلطان خليل، فقط حياته.

لم تكن محاولات هؤلاء السلاطين من أجل إعادة تنظيم نظام الإقطاع تتعلق بالطمع تمامًا. فعلى الرغم من إصلاحات بيبرس، فإن تقسيم الإيرادات في السلطنة كان يعتمد أساسًا على نفس الأسس التي وضعها صلاح الدين منذ قرن مضى. فعلى سبيل المثال، كانت الحلقة في طريقها للأفول كسلطة منذ نوبة الشراء بأعداد كبيرة للمماليك في عهد بيبرس، كما أن الإيرادات المطلوبة للاحتفاظ بهم كانت أقل بكثير مما يحتاجه السلطان وكبار الأمراء من أجل الحصول على المزيد من المماليك والاحتفاظ بهم. ويتكبد السلطان العبء الأكبر من هذه النفقات، لأنه يملك العدد الأكبر من المماليك، وكان من المنطقي أن تكون الإيرادات التي يحصل عليها هي الأكبر. ولكن لم يكن هذا الرأي هو ما يراه الأمراء، لسوء حظ السلطان خليل ولاجين، كما أن قوة الأمراء تعاظمت أكثر وأكثر في سنوات التسعينيات من القرن الثالث عشر. وكانت قوة الأمير، بطبيعة الحال، تعتمد على عدد المماليك في حوزته وفي تلك الفترة هبطت أسعار الرقيق من القوقاز نتيجة لنشوب الحرب الأهلية في داخل القبيلة الذهبية بين توقطاي خان (**Toqta Khan**) وقائد جيوشه نوجاي (**Noghai**). وكان الأسرى يباعون بواسطة كل طرف من الأطراف إلى تجار جنوه بأسعار متدنية. ولم يوقف انتصار توقطاي خان في نهاية عام ١٢٩٩ تدهور أسعار الرقيق بينما كان الجفاف والأوبئة التي تحصد قطعان الماشية تؤثر

على مناطق السهوب من عام ١٣٠٠ وحتى عام ١٣٠٣، وكان الكثير من البدو الرّحل يضطرون لبيع أولادهم إلى تجار الرقيق. وكان عدم الاستقرار الذي يسود السلطنة المملوكية وضعف سلاطينهم في تلك الفترة يرتبط بعلاقة مباشرة مع الحجم المتزايد لقوة مماليك الحراسة الشخصية التي يمتلكها هؤلاء الأقطاب.

وتم إعادة الناصر للسلطة، وهو الطفل السلطان الذي سبق أن طرده لاجين. وأصبح، هذه المرة، واجهة للصراع على السلطة بين الأميرين بيبرس الجاشنكير وسيف الدين سلار. وكان بيبرس يمثل الرجال الجدد، الجراكسة، بينما كان سلار يمثل القفجاق. وكان عام ١٢٩٩ يتشكل في قالب بالغ الخطورة من الناحية السياسية شأنه شأن السنوات السابقة، كما أن هناك خطرا إضافيا آخر بدا يطفو على السطح حيث كان شبح المغول يعود إلى الحياة. وكان غازان، حاكم الإليخانات من عام ١٢٩٥ وحتى عام ١٣٠٤ هو بلا أدنى شك الأكثر موهبة من كل الخانات، ولكن كان من سوء طالعه أن جاء بعد سلسلة من الخانات الأقل كفاءة بكثير. وكانت الإصلاحات الزراعية التي قام بتطبيقها ترتكز على المنطق الواعي لوزيره رشيد الدين. "إنه من المناسب أن يكون لكل حاكم ثلاثة أنواع من خزانات الدولة، أولها للنقود، وثانيهما للأسلحة، والثالثة للطعام والملابس – وهذه هي خزانة الإنفاق. ولكن خزانة الإيرادات هم الفلاحون أنفسهم، حيث إن الخزانة تمتلئ بجهودهم الطيبة"(٧٠). ولا يبدو ذلك مرعبًا على الإطلاق، ولكنه كان مرعبًا بوضوح بالنسبة للمغول. فقد كانوا، وحتى تلك اللحظة، لم يقوموا بعد بالربط بين الدفع لجيش يتسم بالكفاءة وبين عدم قتل الإوزة التي تبيض لهم ذهبًا وكان على غازان أن يشرح خطته هذه بمنتهى الوضوح ويقنعهم بها. "أنا لا أقوم بحماية الفلاح الفارسي. إذا ما كان ذلك مناسبًا للمصلحة الذاتية، إذن دعني أسرق وأنهب منهم جميعًا. ولكن يجب أن نأخذ في الاعتبار، إذا ما قمت بسلب الفلاحين، واغتصبت ثيرانهم وحبوبهم وقمت باستهلاك كل محاصيلهم فما الذي سنفعله في المستقبل؟"(٧١).

---

(70) In, Petrushevsky.
(71) In Morgan, The Mongols, pp. 167-71.

وعلى الرغم من المعارضة الشرسة، فقد مضى غازان في تنفيذ خططه، وتحسن الاقتصاد. وكان في حاجة للاقتصاد لأنه قرر اتخاذ منهج مختلف للحرب مع المماليك وإرسال نوع مختلف من الجيش إلى بلاد الشام. فقد سبق أن قام المغول في خمص عام ١٢٨١ بالغزو بقوات أكثر عددًا ولكنها لم تكن كافية لتحقيق النصر. وكان غازان يرمي إلى تحقيق الكثرة العددية مرة أخرى ولكنه كان يريد أن يضيف الفاعلية إلى الجيش عن طريق تطوير قلب الجيش ليجعلها من الفرسان الراكبة العالية الكفاءة. وكان يريد أن يحاول تغيير جيش المغول، في واقع الأمر، ليكون أفضل من جيش المماليك. وكانت المعضلة الأولى التي واجهته هي انخفاض كفاءة الجيش المغولي. ولم يكن المغول الرحالة الذين قاموا بغزو الشرق الأوسط يملكون قاعدة صناعية ويقومون بالاعتماد بصفة كلية على أسلحة مصنوعة داخل المنازل. ويمكن مقارنة هذا الوضع: فالقوس المركب الذي كان يستخدمه المماليك كان يتطلب عامًا كاملاً على يد صانع ماهر، وكمنتج جانبي يتم صنع درع شديد الإتقان، بمواصفات ذات معايير خاصة. وكان أثرياء المغول يقومون باستيراد الدروع الجيدة الصنع من أوروبا والصين وكان أعداد الفرسان الذين يقتنون هذه الأسلحة مميزًا جدًا من الناحية التكتيكية. وكان يمكن للمغول أن يقوموا باستخدام الموارد الاقتصادية والصناع المهرة من إيران، قبل أن يقوموا بغزو واحدة من أغنى الدول في العالم، من أجل تعزيز إمدادات جيشهم ولكن إيران المغول كانت حالة ميئوسا منها قبل تطبيق إصلاحات غازان، واقتصاد حرب ذو فاعلية لم تتم تنميته بالشكل الملائم.

وقام غازان بصنع جعب الأقواس على النمط المملوكي وتأمين توافر الرماح، والقضبان الشائكة، والسيوف لكل المقاتلين وليس فقط لهؤلاء القادرين على دفع ثمنها. كما حاول زيادة إنتاج الدروع من ألفي وحدة إلى عشرة آلاف وحدة في العام. ولم تكن بلاد فارس بمفردها قادرة لتحقيق هذا، وتم سد النقص من خلال الاستيراد من إيطاليا. وكان للدرع المغولي الجديد غطاء يصل إلى الركبة، ومقسم

في الوسط بحيث يغطي الفخذين، مع شرائح جلدية متشابكة معها عرضيًا ومقـواة بطبقة من القطع المعدنية الضيقة الطولية؛ وهي أثقل بكثير جدًا من سابقتها، وعلى نفس المنوال كانت خيول هذا النمط الجديد من الجيش. وكانت هناك أعداد أقل من الخيول لكل مقاتل، ولكنها ستكون أقوى من سابقتها حيث إنها في الواقع تتغذي في مرابطها أيضًا وليس مجرد تغذيتها في المراعي فقط. وكان الأمل معقودًا على أن تقليل أعداد الخيول لكل مقاتل من خمسة إلى ثلاثة خيول فقط يمكن أن يجعلها تبقى في بلاد الشام لفترة أطول.

وكان الجزء الأخير من إصلاحات غازان في الجيش في نوعيـة تـدريبها: وبينما كان المماليك منضبطين من حيث ولائهم لقائدهم – فإن جوهر العقيدة القتالية لجنكيزخان أو "الياسا" يتمثل في أنهم كـانوا يعملـون كوحـدات أثنـاء عمليـات المطاردات العظيمة وذلك بالنسبة للمبتدئين، ومع ذلك يظلون أقـل مسـتوى مـن المماليك الذين يقضون جل حياتهم في التدريبات العسكرية. ويؤنب طيبغا مـدرب الرماية المملوكي أولئك الذي ينادون بعدم أهمية التـدريب الرسـمي والمراجعـة المستمرة للمهارات. "الغرض من هذا الكتيب هو تعليم الجاهل وتذكير العارف بما يمكن أن يكون قد نسيه أو تغاضى عنه"، بينما ينكر كتاب الفروسية الأحدث منـه عام ١٤١٩ والذي كتبه الصغير "**al-Sughayyir**" لقب الأستاذ أو المعلم على طيبغا لأنه لا يعتبر قد تعلم فن رمي السهام حقًا. وتعتبر درجة الكمال التي تـم إنجازهـا من خلال هذا التدريب الذي لا ينقطع واضحًا في التصـوير المعاصـر لإطـلاق السهام غير المُستدقة على حد سيف. وتعني الإصابة الناجحة أن يقوم السهم بشـق السيف نصفين بحيث يقل طوله. وكان يتم التدريب على هذه المهارة راجـلاً، ثـم يمكنك أن تقوم بإعادة التدريب عليها راكبًا على الفرس، وقاذفًا عدة سهام مع العدو بالفرس بالتتابع مصوبًا تجاه حدود العديد من السيوف". كل ما يمكن أن أقولـه لأي قارئ يمكن أن يرغب في تكرار إنجازاته، أن الحظ الأوفر ومثل تلـك المـآثر لا يمكن أن يتلاقيا بغير التدريب اليومي الشاق والتطبيق بالمحاكاة.

وكانت معضلة غازان الأساسية، في النهاية - هي أن المغول كانوا أحرارًا، وبدو رُحّل اعتادوا على حرية السهوب، ولا يمكن ترتيب حياتهم على النحو الذي تجري به حياة المملوك الذي تم شراؤه. ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن القوة التي قامت بتدمير المماليك نهائيًا، وهي القوات الانكشارية للعثمانيين كانوا أيضًا من العبيد الذين تم تحريرهم كما أن تدريباتهم الشاقة كانت تتطلب تحقيق معدلات عالية وشديدة التطرف مثل شد وتر القوس لخمسمائة مرة في حصص التدريب يوميًا. ويبدو إلى جانبها حظر إدوارد الأول لكرة القدم ومصارعة الديوك في إنجلترا حتى يتمكن الرجال من التركيز في رمي السهام، ضعيفًا بالمقارنة بما سبق.

وكان غازان، على الرغم من هذه المعضلات، مفعمًا بالآمال العريضة في النجاح ضد المماليك في عام ١٢٩٩ عندما نشبت الأعمال العدائية. ولم تفت في عضد السلطان المملوكي كثيرًا شلالات الدماء التي سالت طوال عقد كامل من الزمان بين كبار القادة من أجل الجلوس على العرش. فلم تكن هناك حرب أهلية حتى يمكنها أن تؤثر على كل من إيرادات الدولة أو الاستقرار ككل، ولم يزد الأمر إلا عن مناوشات شوارع بين الطوائف المختلفة، وبينما ساد الجفاف عامي ١٢٩٤-١٢٩٥ والمجاعة في الفترة ١٢٩٤-١٢٩٦، فقد كانت التجارة كالمعتاد هي مصدر مصر الرئيسي كما كانت الأعمال الحربية في سنوات التسعينيات من القرن الثالث عشر. وكان الجيش لا يزال مستعدًا وقادرًا على مواجهة غزو وطموحات غازان، ولكن ما تأثر حقًا كان هو التماسك السياسي للمماليك. وكان هناك حقًا، حادث انشقاق حاكم دمشق المملوك المغولي قبجاق، وانضمامه للمغول، خشية على حياته من السلطان لاجين في عام ١٢٩٨، مما شجع غازان على الغزو. وكان غازان يرغب في عمل أي شيء ضد المماليك وذلك ببساطة لأنهم كانوا يثيرون له الكثير من المتاعب في الأناضول. وكان لاجين قد قام بغزو أرمينيا الصغرى (قيليقية) مرة أخرى في عام ١٢٩٧، كما قام بالاستيلاء أيضًا

على ماردين في شمال العراق، كما أن عملاء من المماليك كانوا يقومون بتحريض المتمردين في الأناضول بل إنهم قاموا بإقناع حاكم الإقليم المغولي، سلامش، بالتمرد والثورة ضد غازان في عام ١٢٩٨.

ولذا فإن الرجل القبجاقي التعس وجد نفسه يعمل في جيش قوامه من المغول، والأرمن، والجورجين الذي يقومون بغزو بلاد الشام بينما السلطان الذي هرب من بطشه، لاجين، كان قد مات الآن بالفعل. وزحفت قوات غازان عبر حلب وحماة ويممت شطر حمص. وفشل نظام الإنذار المبكر المملوكي، وربما للمرة الأولى؛ فلم يتوقعوا أن يقوم المغول بالغزو شتاءً. وتم حشد الجيش المصري متأخرًا ولكن بسرعة، ومضى الجيش في سيره الحثيث لملاقاة المغول. وتسببت ثورة نشبت بين المغول الغربيين (الوافدية) الذين قاموا بالتخطيط لقتل الصبي السلطان، الناصر، وإحلال كتبغا المتقاعد بدلاً منه في تباطؤ حركة الجيش. وكان المغول الغربيون قد دخلوا بلاد الشام في عام ١٢٩٥ كلاجئين سياسيين هاربين من غازان. وقام الإليخانات، بدءًا من غازان فصاعدًا، بالتحول إلى الإسلام كعملية سياسية من أجل اكتساب الشرعية في فارس بعد فترات الحكم الكارثية لأسلافهم. واستتبع تحول غازان إلى الإسلام انتشار عمليات اضطهاد واسعة للمسيحيين، والشامان والبوذيين وفر المغول الغربيون، ولسخرية الأقدار، إلى الأحضان العطوفة للسلطان المملوك المغولي وقائد العالم الإسلامي، كتبغا. والآن تم إعدام المئات منهم بواسطة المماليك عندما تم سحق الثورة قبل أن يستأنف الجيش تحركه.

وكان زحف الجيش المملوكي سريعًا بطريقة تدعو للإعجاب، وفي ٢٣ ديسمبر ١٢٩٩ قام المماليك بشق قلب الجيش المغولي في وادي الخازندار بالقرب من شمال حمص تمامًا. وتراجع غازان ليقوم بإعادة ترتيب جيشه. وقام غازان بإرسال ميسرة جيشه بأكملها في عملية التفاف واسعة ومن مسافة بعيدة خلف جيش المماليك لضرب مؤخرتهم، ومتذكرًا موقعة عام ١٢٨١، فإنه قام بإرسال بعض

المقاتلين الإضافيين وجعلهم يتمركزون قبل قواته الأساسية مستعدين لمواجهة أي هجمات سريعة من قوات البدو الاحتياطية للمماليك. وقرر غازان أن يستريح من القتال في اليوم التالي ولهذا فقد أمر رجاله أن يترجلوا للراحة وسقي الخيول في الوادي. ويذكر لنا كتاب "مآثر القبارصة"(٧٢) كيف كان النصر قريبًا جدًا من المماليك:

واندفع المسلمون القادمون في دروعهم وهم على خيولهم، ومدرعين تدريعًا كاملاً، وكانوا يرتدون خوذات على رؤوسهم، وحرابهم مرفوعة، وألقوا بأنفسهم ضد التتار حتى إن التتار تراجعوا إلى أبعد من المسافة التي تغطيها أربعة سهام، واستطاعوا إسقاط الكثيرين بضربات من رماحهم. وعندما رأى ملك التتار جيشه يتراجع من ميدان القتال، والأتراك يقومون بتوجيه ضربات قوية إليهم، وأنهم يمتطون خيولاً أفضل ومسلحين تسليحًا أفضل انتابته الشكوك في أن يفتقد قومه الشجاعة للمضي في القتال ويعدون أنفسهم للفرار. ولذا فإنه أخذ يفكر في شيء عظيم، فالمقاتلون على ظهور الخيول لا يرغبون في القتال، ولذا فإنه ترجّل عن فرسه على الأرض وأمر مقاتليه بأن يرفعوا أكداس الحمولة الموضوعة على الخيول ووضعها على الأرض كحواجز حيث إن المماليك لن يكون في مقدورهم القتال وسط هذه الأكداس.(٧٣)

---

(٧٢) تمت ترجمة كتاب مآثر القبارصة (Gesta Chiproi) حديثًا للغة العربية- راجع: الفارس الصوري جيرارد أوف مونتريال، أعمال القبارصة، ترجمة سهيل زكار، دمشق، ٢٠٠٨م (المراجع).

(73) "J. Boyle "Dynastic and Political History of the Ilkhans' in "J. Boyle (ed.) The Cambridge History of Iran, Vol. 5 – Cambridge: Cambridge University Press, 1968, ch. 4, PP 303-421. "

وفقد الهجوم قوته الدافعة ضد حوائط الخيول ووقف المغول بشجاعة وقذفوا المماليك بالنيران، وجذبوهم من على ظهور الخيول بينما تحول القتال إلى فوضى. وعادت درجة من النظام إلى صفوف المماليك عندما سمعوا طبول الحرب لقائد المغول على ميمنة المغول، ولاعتقادهم أن بمقدورهم شق طريقهم تجاه غازان وقتله، فإنهم أعادوا تنظيم صفوفهم وقام بشن هجوم ثان تجاه أصوات الطبول. وقتلوا أعدادًا كبيرة من الحرس الشخصي لغازان ولكن الحقيقة أن الطبول كانت خدعة، فقد كان غازان يقاتل في قلب جيشه، وقام المغول باكتساح المماليك حينئذ بواسطة ميسرة جيشهم الذي كان قد انفصل عن الجيش وعاد لميدان القتال الرئيسي وهجم على المماليك من مؤخرتهم. وحاول فرسان البدو مساعدة المماليك الذين وقعوا في الشرك ولكن قوات الاحتياط لغازان قامت بتشتيتهم فهربوا من جبهة القتال؛ وفي هذا الوقت كان كل واحد من جيش المماليك يحاول الفرار. وكانت المذبحة مروعة. فقد كتب المؤرخ الأرميني هيتوم عنها في عام ١٣٠٦، "ضرب التتار العدو بقوة لدرجة أنه من الأعداد الكبيرة التي أحضرها السلطان من حاشيته، فإن القليل منهم هو الذي تمكن من الهروب ممن لم يُقتل أو يصب بإصابة مميتة".

وأمر بيبرس وسلار بإخلاء الميدان، كما أن حلول الظلام أنقذ المماليك من كارثة أشد وطأة. وتم تنظيم الانسحاب، وتتبعهم المغول بحذر ولكنهم لم يذهبوا بعيدًا للقتل، ربما خشي غازان أن ذلك الانسحاب المنظم كان خدعة من أجل جر أقدامهم إلى كمين، ورغم ذلك، فقد قام بإرسال فوج صغير سريع للإغارة على غزة. وهاجم الجيش المملوكي بعنف وهو في طريقه عودته على مرتفعات لبنان بنفس الشيعة النصيرية، والدروز، والمسيحيين المارونيين الذين كانوا قد كفوا عنهم في عام ١٢٩٢. وكانت الآثار المتراكمة لهذه الكوارث العسكرية أن كل بلاد الشام، باستثناء المدن المُحصنة والقلاع قد سقطت في أيدي المغول. فقد ساروا إلى دمشق بعد أن وضعوا أيديهم على ثروة السلطان، والذي وجدوه مهجورًا في ميدان القتال، كما أنهم وضعوا أيديهم على كمية ضخمة من معدات الجيش المملوكي التي

وجدوها متروكة في المـــدينة. ولم يكونوا قادرين، علـــى الرغم من ذلـــك، علـــى الاستيلاء على القلعة، التي دافع عنها قائدها المملوكي سنجر ببسالة فائقة، والأكثر من ذلك، أنه قام بغارات على المدينة الأساسية، وقام بـــإحراق المنجنيقـــات التـــي أحضرها معه غازان لاستخدامها ضده. وقيدت مقاومته قوات الاحتلال المغوليـــة، ولكن الأهم من ذلك أنه أوضحت للشعب في بلاد الشام، وللذين يمكن أن يتبادر إلى أذهانهم تغيير ولائهم صوب المغول المسلمين القادمين، أن المماليك لـــم ينـــدحروا بعد. وكان رد سنجر لنداءات الاستسلام التي تصدر عن دمشـــق "إن ســـلطانكم لا يزال قابضًا على صولجان السلطة!".

وجد المغول أن الصعوبات تزداد أكثر فأكثر من أجل التحكم في بلاد الشـــام حيث تمرد السكان على النهب الذي يقومون بممارسته كما أن معـــدات الحصـــار الخاصة بهم كانت منخفضة الكفاءة في عملية تحطيم معاقل المماليك. والأكثر مـــن ذلك أن ولاء المماليك الذين انضموا إليهم بالمصادفة في عام ١٢٩٩ كانت تحيط به الكثير من الشكوك. فقد قام القفجاق، على سبيل المثال، برشوة الحـــاكم المغـــولي لدمشق ليقوم بسحب قواته، وبحلول عام ١٣٠٠ كان كل مغولي قد عاد أدراجه إلى ما وراء نهر الفرات وبذلك عادت بلاد الشام إلى الحكم المملوكي. وكـــان بوســـع غازان أن يدرك بوضوح، على الرغم من أنه قد كسب معركة فإنـــه لـــم يســـتطع تدمير القدرة العسكرية للمماليك، كما أن الجيش المصري كان يقوم بإعـــداد نفســـه لاسترداد بلاد الشام. وربما لو كان قد قام بمطاردة المماليك بقسوة بعـــد المعركـــة لكان في مقدوره أن يستكمل إبادة جيشهم، وهي من المتطلبات الرئيســـية لاحـــتلال بلاد الشام، وربما كانت هذه الفكرة بالإضافة إلى حقيقة أن المغول وأخيرًا تمكنـــوا من حصار المماليك في ميدان القتال هي التي جعلت غازان يفكر في شـــن حملـــة أخرى في العام التالي مباشرة.

ويشرح لنا وصاف أنه في الإعداد لحملة عام ١٣٠٠ قد تم تحميل ٥٠,٠٠٠ جمل بغذاء الخيول، كما أن المقاتليـــن مُنحوا ما يكفي لستة أسابيـــع من المـــؤن.

ولم يكن غازان يريد أن يعيش على نتاج الأرض فقط، ولكنه كان ينتوي البقاء في بلاد الشام للوقت الكافى للانتهاء من مهمته. وواجه المغول من موقعة عين جالوت فصاعدًا مشكلة الاحتياج إلى التفوق العددي الكبير في القوات من أجل إلحاق الهزيمة بالمماليك، ولكن لا يمكن إيجاد مثل تلك المساحات الشاسعة من المراعي من بلاد الشام بمفردها لهذا العدد الهائل؛ ويمكنهم ترتيب حملة عسكرية قصيرة فقط وليس احتلالاً طويل الأمد. ويوضح الخطاب الذي أرسله هولاكو إلى لويس التاسع ملك فرنسا بجلاء، "إن الجزء الأكبر من مواردنا ومن المراعي قد تم استهلاكه؛ ولذا فقد سررنا للعودة لفترة وجيزة إلى مرتفعات أرمينيا". وكان ذلك سببًا آخر لنشر قوات أقل للغزو في عام ١٢٩٩، وعدم مطاردة المماليك بالجيش بأكمله - فالجيوش لا تسير على أقدامها فقط ولكنها تعدو على بطونها. وغالبًا ما كان يُلهي هذا العمل البسيط للبحث عن المراعي للجيش الكبير الذي يقومون بتجنيده عن الأهداف الإستراتيجية، كتب عنها القلقشندي يقول: "لقد كان من عادة المغول ألا يشغلوا أنفسهم بالعلف. إذا ما كانت الأراضي خصبة فإنهم يسيرون في طريقهم، أما إذا كانت بوارًا، فإنهم يبتعدون عنها". ولقد كان إحراق المحاصيل والأراضي العُشبية، بطبيعة الحال، ملمحًا مؤثرًا من ملامح خطط المماليك الدفاعية، ولقد أثبت ذلك في عام ١٢٩٩ أنهم حتى لو انهزموا في أرض المعركة، فإن الأمر سيستغرق وقتًا طويلاً حتى يمكن زحزحة المماليك من الحصون والقلاع في بلاد الشام.

وشن غازان هجومه عبر نهر الفرات في سبتمبر ١٣٠٠، زاحفًا نحو أنطاكية في المقام الأول. وعرقل تقدمه سوء الطقس المروع، بينما كان تقدم قوات المماليك على طول الطريق الساحلي وهي تندفع شمالاً لإيقاف سبيله. وكسب الطقس الحرب في النهاية. ولم يقترب الجيشان من بعضهما البعض حتى يتلاقيا وكان على غازان أن يعود أدراجه في يوم ٢ فبراير؛ فقد أوقعت الأمطار الموسمية والفيضانات التي تلتها الجيش بأكمله في خضم الأوحال. وقتل البرد الذي أعقب

الفيضان كلا من الإنسان والحيوان. كما أن الجيش المملوكي كان قد أصبح في ورطة أيضًا في ذلك الوقت، حيث كانت قافلة المؤن قد ضلت طريقها وابتعدت عن الجيش، وأقصى ما كان بوسعهم أن يفعلوه هو أن قاموا بإرسال سرية صغيرة من الفرسان إلى شمال بلاد الشام لطمأنة الحامية المتمركزة هناك بأن المغول ينسحبون وأن المماليك سيظلون متواجدين في البلاد.

وأدار غازان دفته إلى اتجاه آخر في عام ١٣٠١، حيث قام بإرسال العديد من الخطابات وبينما كان يعدد فيها جرائم المماليك ضد حاكم العالم، فإنه يطلب دفع الجزية إلى غازان، ووضع صورته على عملات المماليك والدعاء له في خطب الجمعة في كل مساجد المماليك. وكان يمكن للمماليك، في واقع الأمر، منح غازان كل شيء يمكنه الحصول عليه إذا ما كان قد قام باحتلال مصر وبلاد الشام بالفعل. وأُرسلت خطابات أخرى للبابا، بونيفاس الثامن، شارحًا فيها بالتفصيل كيف يمكن للمغول والأوروبيين أن يعملوا في تناغم من أجل إلحاق الهزيمة بالمماليك. "عن الوقت الحالي، فإننا نقوم بعمل الاستعدادات اللازمة بنفس الطريقة التي رسمت بها الخطط السابقة. كما يجب عليكم أيضًا أن تقوموا بإعداد قواتكم، وإرسال خطابات إلى حكام الأمم المختلفة وتفادي الفشل في المقابلة في الموعد المحدد. إرادة الله أن نقوم بعمل مجيد لهدفنا الوحيد". يعطينا هذا الخطاب لمحة فقط عما كان يدور، ومن الناحية النظرية على الأقل، وتم الاتفاق عليها بين السفارات. ومن الثابت في هذه الفترة أن الإيليخان كان يُخفي عن البابا الأمر المُحرج له سياسيًا بتحوله إلى الإسلام، وأن التآمر بين البابا وغازان جاء نتيجة للشائعات التي راجت في أوروبا عن تحرير القدس بعد انسحاب المماليك من بلاد الشام عام ١٣٠٠. ولم تُسفر هذه الاتصالات، على أي حال، عن شيء في النهاية حيث إن غازان لم يكن قادرًا على تحقيق ما يكفي من النجاح ضد المماليك لإغراء الدول الأوروبية للتعاون معه. ولم يكن أي من أمراء أوروبا يمكن أن يفكر في الالتزام بعمليات برمائية ضد مصر بدون ضمانات قوية لهزيمة المماليك في بلاد الشام.

وشعر غازان أن الفرصة سانحة في عام ١٣٠٢ حيث انضم إليه بعض الأمراء المماليك السوريين المنشقين الذين شعروا بخطر مباشر يحدق بهم من جراء إحدى الفئات المتصارعة على السلطة في القاهرة. ومستمدًا الشجاعة من التفاصيل القادمة من القاهرة عن الصراع السياسي، فإن غازان بدأ في تنظيم الجيش الذي سيقوم بعبور نهر الفرات في ربيع عام ١٣٠٣ تحت قيادة قائده العام قتلغ شاه. ولم يلق المغول أي مقاومة وهم يدخلون بلاد الشام، ووصلوا ضواحي مدينة دمشق بدون أن يقابلوا أي جيش مملوكي. ووجدوا الجيش المملوكي في يوم ٢٠ أبريل ينتظرهم وهو على أهبة الاستعداد في مرج الصفر بالقرب من شمالي دمشق. وكانت صفوف الجيش المملوكي تمتد عبر تلال صخرية ونهر صغير يجري من الشرق للغرب عبر الوادي، وكان موقعًا نموذجيًا للدفاع والحروب الدفاعية وهي نوعية الحرب التي قرر المماليك خوضها. وكسب المماليك حروب الماضي بأكملها عن طريق الدفاع الجيد ثم الهجوم المضاد؛ وكان يتعين على المغول أن يبادروا بالهجوم، ففي النهاية، فهم آتون للغزو والاحتلال، وكانت موقعة وادي الخازندار درسًا مريرًا لآثار تغيير الإستراتيجية. وكما أن المماليك كانوا أقل عددًا من أعدائهم، فكانوا ما يقرب من عشرين ألف مقاتل يواجهون ثلاثين ألفا من المغول.

وكان السلطان في قلب الجيش ومعه بيبرس وسلار. وكانت الروح المعنوية قد تلقت ضربة بعد موقعة وادي الخازندار. ويقول "المقريزي" المؤرخ المعروف إن المقاتلين كان يتم توبيخهم في الشوارع عندما صُدرت الأوامر بفرض ضرائب جديدة لإعادة بناء الجيش. وكان الناس يصرخون، "بالأمس هربتم أمام العدو، والآن تريدون سلب أموالنا. وأنتم شجعان بما فيه الكفاية أمام المدنيين، ولكن شجاعتكم خانتكم أمام المغول!" كما أن الخليفة الجديد ناله منهم ما نال الجنود. وأعطاه المقريزي خطابًا قصيرًا ليقوم بإلقائه على الجنود قبل بدء القتال ونصه: "أيها المدافعون عن العقيدة! ها هو السلطان معكم. وقاتلوا من أجل نسائكم والدفاع

عن نبيكم!" ويقول المؤرخ إن الدموع ترقرقت في أعين الجنود وهم يستمعون إلى الخليفة، ولكن الجنود لم يكونوا ينتحبون من أجل كلماته الطيبة أكثر من رغبتهم في استرداد كرامتهم التي هُضمت في عام ١٢٩٩. ولقد كانوا ينتحبون من أجل التشويه الذي ألحقته موقعة الخازندار بالسلطنة المملوكية وأنهم سيقاتلون من أجل غسل ذلك العار. وسيقاتلون من أجل أن يضموا أسماءهم إلى المقاتلين العظام قطز، وبيبرس، وقلاوون، كما سيقاتلون من أجل اسم مصر. وسيقاتلون من أجل الخشداشية وهي القيمة المثالية التي لوثتها النزاعات السياسية في القاهرة ولكنها ستظل مكرمة في ساحات القتال وأنهم سيقاتلون ببساطة لإلحاق الهزيمة بالمغول لأن النصر هو مبرر وجوهر وجود أي جندي محترف في نهاية الأمر. وباختصار، فإنهم سيقاتلون من أجل الشرف، وعندما تحين الساعة فإنهم سيقاتلون بشراسة كما فعل أبطال عين جالوت والأبلستين وحمص.

وصلت قوات قتلغ شاه في منتصف النهار تقريبًا وكانت ميسرة جيشه هي الجزء الأول من جيشه الذي سيلاقي المماليك في البداية. وبدأت صفوف المماليك في محاولة التطويق بسرعة بينما أخذ قتلغ شاه يضغط لصالحه وأخذ معه رجالا من قلب جيشه للضغط على ميمنة المماليك. ونجحت الإستراتيجية في البداية حيث تفككت ميمنة المماليك تحت وطأة هجمات المغول ولكن قلب الجيش المملوكي وميسرته تلاقيا ونجحا في شل حركة قلب وميمنة المغول. وقاتل البرجية خاصة بشجاعة وشراسة بالغة. وتقدم قلب وميسرة المماليك حينئذ وانتشروا بسرعة من أجل الالتفاف ثم تطويق جيش المغول. وتراجع المغول، وتم إعادة الميسرة، التي كانت تقوم بالضغط على ميمنة المماليك الذي كان قد تفرق، ولكن الوقت كان قد تأخر كثيرًا لمنع حلقة الكماشة التي قام بها المماليك لتطويق المغول والتي كانت تقع تحت أعين قتلغ شاه. وعمل قتلغ شاه على التراجع إلى تل صغير ولكنه كان قد أصبح الآن محاصرًا تمامًا. وقام المماليك بإغلاق قاعدة التل كما قاموا بتقوية مواقعهم بينما كانت أضواء النهار في طريقها للأفول. واستمرت طبول الحرب

تدق طوال المساء من أجل استدعاء المماليك البعيدين عن الركب ومن أجل إدخال الرعب على المغول المحاصرين على التل.

ومع شروق أضواء النهار فتح المماليك مساحة صغيرة بين خطوطهم تكفي فقط لإعطاء الفرصة للمغول لمحاولة الهروب؛ فقد كانوا يعلمون تمامًا أن المغول قد أوشكوا على الوصول لدرجة الجنون من العطش وأنهم في وقت من الأوقات سيندفعون لمحاولة الهروب منه. ويقول كتاب الأنصاري عن الحرب: "لا يجب على أي مقاتل أن يقوم بالمرور من أي ممر أمام أي جيش أو يحاول المناورة للهروب من أي منفذ أمامه، أو يحاول منع المهزومين من الوصول إلى الماء إذا كانوا يبحثون عنه. الوقوف في الممر المباشر بين المقاتلين ليس قرارًا حكيمًا". ونجحت الإستراتيجية وبدأت مجموعات من المغول في السعي لمحاولة الهروب من التل واتجهوا مباشرة إلى النهر الذي يعتبر خط الدفاع بالنسبة للمماليك. وكانت هناك مشاهد هلاك مفزعة بينما يقوم المغول بإلقاء أنفسهم وخيولهم في النهر فقط ليجدوا المماليك ينقضون عليهم. ويقول المقريزي: "لقد حصدوا رؤوسهم كما يحصد الرجال المحاصيل بالمنجل". حاول الرجال الذين نجوا من المذبحة الترتيب للتراجع في حقول شمال مرج الصفر، ولكن السكان المحليين قاموا بتحطيم قنوات الري لإغراق الحقول. وفقد خمسة آلاف آخرين من المغول خيولهم في أوحال الحقول وأصبح يتعين عليهم العودة سيرًا على الأقدام – في رحلة تستغرق شهرين. ولكن ربما كان هؤلاء هم المحظوظين حيث هجم المماليك على أولئك الذين كانوا لا يزالون على ظهور خيولهم وقاموا بدحرهم مرة أخرى. وكان انتقام المماليك بالغًا حد الكمال وقيل عن رد فعل غازان تجاه الأنباء إهانات بالغة لحقت بالبهجة التي كانت تسودهم.

وكان غازان بالتأكيد يرغب في الانتقام من المماليك ولكنه توفي في يوم ١١ مايو ١٣٠٤. وكان يعاني سكرات الموت بشدة قبل ما يقرب من عام من وفاته

ولكنه كان مستمرًا في الاستعداد للحرب. ربما تنفست مصر وبلاد الشام الصعداء لموته؛ فقد كان أخطر عدو كان يتعين على المماليك مواجهته.

واعتلى شقيق غازان العرش واختار اسم التتويج أوليجايتو أو المحظوظ، وبدا تقريبًا في مستهل حكمه أنه من المحتمل أن يرقى إلى معنى اسمه، حيث تشير واحدة من خطاباته الأولى إلى فيليب ملك فرنسا:

> تشاورنا نحن، أحفاد جنكيزخان، بعد أن تبادلنا الاتهامات بين بعضنا البعض ومنذ أربعين عامًا وحتى الوقت الحاضر، وتوصلنا إلى اتفاق مشترك، جميعنا، الأخوة الكبار والصغار، وهنا من أرض الصين حيث تُشرق الشمس إلى بحر تالو (Talu)- ربما يقصد البحر المتوسط – أن تنضم دولنا إلى بعضها البعض. والآن، فهؤلاء الذين لن يقبلوا بالانضمام سواء إليكم أو إلينا، فلنترك السماء تقرر الوسيلة التي بها، وبقوة الله، أن يربطنا جميعًا ضدهم، ويجب أن نتخذ موقفًا موحدًا ضدهم(٧٤).

ويبدو أنه من نافلة القول التساؤل عن من هم هؤلاء الذين لن يقبلوا، في ذلك الحين كان المماليك بالتأكيد هم العدو القديم الذي على أي حال من الأحوال كان قادرًا على الوقوف ضد الإمبراطورية المغولية بأسرها، ولكن الأمر الواقع أنهم لم يكونوا مضطرين لذلك على أي حال. وكانت مثل تلك الفكرة المثالية للوحدة ضَرب من الخيال. فقد هاجم الإليخانات في عام ١٣١٣ مغول أفغانستان، كما قام مغول الجغطاى بغزو الإليخانات في رد فعل على ذلك؛ وحتى قبل ذلك فإن كل من الإليخانات كانت لها مشاكلها الخاصة بها الكافية، وبدون الارتباط بمشاكل

---

(74) In Boyd.

الآخرين. كما لا يوجد دليل واحد على وجود أي رد من البلاط الفرنسي على هـذا الخطاب، على الرغم من أن إدوارد الأول كان قد قام بالرد على سـفيرهم وتمنـى للإليخانات الحظ السعيد في استئصال شأفة الملة البغيضة التابعة لمحمد.

وتم تعليق الاستئصال، من ناحية ثانية، عن طريق حملة مدمرة ضد الأعداء داخل بلاد فارس. ودخل جيش الإليخانات أدغال جنوب بحر قزوين فـي محاولـة منهم لإخضاع تمرد الجيلاك، الذين ظلوا غير قابلين للخضوع لهم على الرغم من خمسين عامًا من الحكم المغولي لهم. فلو كان هناك نصر فقد كان نصـرًا بـاهظ الثمن، حيث كان قد تم ذبح أحد المقاتلين المغول وما استتبع ذلك من حملة انتقامية لم يكن في مقدورها القتال مع عدو ذاب بين أشجار الأدغال. ولم تشـرع الحملـة المغولية الأولى لحرب طويلة ضد المماليك حتى شهر ديسمبر مـن عـام ١٣١٢ ومرة أخـرى كان تشجيـع الإليخانات للغزو بإيعـاز مـن أمـراء مماليـك منشـقين عن السلطنة.

الفصل التاسع

الانتصار وأعداء جدد
نهايـــة الإليخانـــات

إذا ما لاقيتهم، فقف بسرعة. لا يمكن للمرء أن يشعر بالضجر من تباطؤ عدوه، حيث إن أوقات الانتظار هي الأوقات الـــتي يجب استغلالها لمعرفة المزايا المحتملة وظروف العدو وما يمكن أن يكون خافيًا من شئونهم؛ لا يجـــب للمرء أن يبحث عن النصر من خـــلال الاندفاع طالما يمكن أن يصـــل إلى النصـــر عـــن طريق المكيدة.

كتيب الأنصاري عن الحرب،
حوالي ١٣٩٩م

قضي المماليك السنوات الأولى من القرن الرابع عشر فــي إعـــادة تقويـــة دفاعاتهم في بلاد الشام وفي الأمن الداخلي لهم. ومرة أخرى قاموا بشن حملة على الزنادقة في مرتفعات لبنان. وكان قد سبق توجيه ضربة ضدهم في المنطقة عـــام ١٣٠٠ كقصاص على هجمات قبائل تلك المرتفعات على قـــوات المماليـــك التـــي تراجعت عام ١٢٩٩، ولكن شُنت هجمات تم تدبيرها بدقة في عـــام ١٣٠٥ حيـــث كانت المنطقة في ثورة كاملة. سُحقت قبائل المرتفعات بقسوة في حملة تم شنها مع صدور فتوى نادى بها شيوخ السنة في مصر. وتم تقسيم المنطقة إلـــى إقطاعيـــات وتم توطين التركمان فيها. وكانت للحملة أهميتها لتأكيد الطريقة التي سوف يسيطر بها المماليك على كافة أنحاء بلاد الشام، وكانت دموية بمـــا يكفـــي لإقنـــاع أي مجموعة أخرى أن تُفكر مرتين قبل أن يخطر على بالها أن تجازف بالتمرد علـــى جماعة المماليك – أو كما يقول المثل الصيني – اقتل الدجاجة لكي يخاف القـــرد. ونفس الأمر تم تطبيقه على سحق تمرد ثورة البدو المصريين التي أعقبت هزيمـــة عـــام ١٢٩٩.

وشهد النشاط الاستخباري الذي فشل فشلاً مؤثرًا في عام ١٢٩٩ إجراء إصلاحات مؤثرة في تلك الفترة. ويبدو أن يد الإهمال كانت قد امتدت إليها لأن عميلاً للسلطان يسمى داو بن صباح قد أبدى تذمره بخصوص الأجور إلى حاكم دمشق في عام ١٣٠٩. وتقول مذكرة حاكم دمشق إلى الإدارة المركزية في القاهرة: "لقد قطعتم أجور العملاء الذين هم عيون الإسلام". وأُجريت التصحيحات اللازمة على وجه السرعة بواسطة قرار سلطاني وتم استئناف نشاط الاستخبارات كالمعتاد(٧٥). وقُبض على خلية كاملة من الجواسيس المماليك في عام ١٣١٣ في بغداد ولكنهم كانوا قد أتموا إمداد القاهرة بالمعلومات الضرورية المطلوبة عن حملة المغول التي تم شنها في عام ١٣١٢.

كما أن الأمور السياسية مضت أكثر سلاسة لدى المماليك بعد عام ١٣١٠. فقد حاول الناصر الثورة ضد الأوصياء عليه عام ١٣٠٧، سلار وبيبرس، ولكن أُكتشفت الخطة التي كان يقوم بتدبيرها مع مماليكه الصغار. وأشاع بين الناس أنه في طريقه لأداء فريضة الحج، وفي الحقيقة فإنه عاد إلى الكرك مع حاشيته وقام بعزل نفسه فعليًا. وشعر بيبرس ومؤيديه من الجراكسة أن الفرصة سانحة وتم تسمية بيبرس سلطانًا على وجه السرعة. ولكنه ربما كان أسوأ السلاطين حظًا على الإطلاق حتى تلك الفترة. ففي خلال فترة حكمه التي بلغت عامًا واحدًا فقط نقصت مياه النيل، كما حدثت مجاعة وأوبئة، وكانت القاذورات تُلقى عليه بواسطة العامة في كل وقت يرون فيه وجهه خارج قلعة القاهرة؛ وتبخرت المساندة التي كان يلقاها نظام حكمه بسرعة، وبينما كان الناصر يلقى دعم كل أمراء بلاد الشام فعليًا. فقد تلاشى التأييد لبيبرس ببساطة عندما سار إلى القاهرة، فهرب السلطان الذي حكم عامًا واحدًا إلى غزة. وتم القبض عليه على وجه السرعة وشُنق في حضور الناصر. وسُمح لسلار بالبقاء في القصر حتى يقوم الناصر بإحكام قبضته على

(75) Cf. Amitai- Preiss, "Mamluk Espionage among the Mongols and Franks", pp. 173-81.

السلطة ثم بعد ذلك تُرك ليموت جوعًا أثناء استجوابه عن المكان الذي توجد فيه ثروته. وتوفي في أغسطس ١٣١٠ بعد أن اختنق وهو يحاول تناول غائطه.

وكان الناصر في الرابعة والعشرين من عمره، ولكن عقله كان أكبر من سنوات عمره في خبراته عن تدبير المكائد وتقديره لاستخدام القسوة وضعفه تجاه رغد العيش. وقام بتعيين ٤٦ أميرًا من خاصكيته في عام ١٣١٢. ثم بدأ آنذاك في التخلص من قدامى الأمراء السوريين، وهم نفس الرجال الذين وضعوه على كرسي السلطة. وتم تنفيذ هذه الخطة عبر الوسيلة الراسخة التي جرى التقيد بها وهي ترقيتهم إلى أعلى مما هم عليه ثم إسقاطهم للأبد. ونجا اثنان من حكام بلاد الشام من عملية التطهير هذه وهما: قاران سنقر، والأفرم وهما حاكما دمشق وطرابلس، اللذان فرا إلى أراضي المغول ومعهما ستمائة من مماليكهما. وهما الرجلان اللذان سيقومان بإغراء أوليجاتو للقيام بالهجوم الأخير للمغول على بلاد الشام.

وشرع المغول في التحرك في أكتوبر عام ١٣١٢، ولكن حلقة الجواسيس في بغداد كانوا قد أعطوا المماليك الكثير من المعلومات عن تحركاتهم. وكان المغول، في حقيقة الأمر، يتحركون ببطء ويقطعون فقط ثمانية أميال في اليوم، ولذا فإن الإنذار المبكر كان مطلوبًا بالكاد، كما أن المماليك قاموا باستغلال الوقت المتاح جيدًا وبوضوح، فعندما بدا أوليجاتو حصار رحبة الشام في يوم ٢٣ ديسمبر وجدها احتاطت وحصنت نفسها بطريقة جيدة وجاهزة للمقاومة لدرجة أن المغول تكبدوا خسائر فادحة في هجماتهم المبدئية وعلى الفور وجدوا أنفسهم يتعقبون قضية خاسرة. كما أنهم لم يحضروا معهم الكمية الكافية من المؤن والعلف معهم. والادعاء الغريب الذي كتبه المؤرخون المغول تبريرًا لفشل أوليجاتو هو أن الطقس كان شديد الحرارة حتى يمكن الاستمرار في الحصار؛ وتوقف المغول عن تشديد الحصار وشدوا رحالهم وغادروا بلاد الشام – بلا عودة وذلك في يوم ٢٦ يناير١٣١٣، بافتراض أنهم خشوا حقيقة من لهيب شهر فبراير.

وكانت كارثة رحبة الشام صورة مصغرة من حالة الإليخانات المتداعية في تلك الفترة. فقد تدهورت قيمة عملتهم، كما انقسمت الخانات إلى مجالين إداريين في محاولة لتهدئة الانقسامات في الحكومة. وكان رد فعل أوليجاتو هو العودة للانكباب على الشراب، أو إدمان الشراب لأكثر مما ينبغي في المعتاد لأمير مغولي، وتوفي في ديسمبر عام ١٣١٦. وورث العرش نجله أبوسعيد ذو الاثني عشر عامًا ولكن كان كدمية في يد القائد العام للجيش، شوبان. وتم إعدام رشيد الدين عام ١٣١٨ وهو الرجل الذي كان قد قام بإنقاذ اقتصاد الإليخانات في عهد غازان على خلفية اتهامات مفتعلة، وفي عام ١٣١٩ كان هناك غزو متزامن من الجغطاى والقبيلة الذهبية. وتمرد ابن تشوبان حاكم أنطاكية في عام ١٣٢٢ بتحريض من أبيه، ولكن تعلق أبوسعيد بامرأة متزوجة، بغداد خاتون، وفشل شوبان في تأمين حق الخاقان في الاستمتاع بالعذارى في أول ليلة قبل زواجهن (حق الليلة الأولى) جعل أبو سعيد يعقد العزم في التخلص من الوصي عليه في عام ١٣٢٦[٧٦].

وخرج الاثنان للغزو في عام ١٣٢٧ وسرعان ما هجرت القوات المصاحبة لشوبان وتركته بمفرده، وتم القبض عليه وشنقه بواسطة أنصاره الذين قاموا بإرسال أصبع من أصابع يديه إلى الخاقان كدليل على ولائهم له. وفر ابن شوبان حاكم أنطاكية إلى المماليك ولكن الناصر قتله بهدوء؛ حيث إنه كان سيمثل إحراجا سياسيًا لأن السلام كان قد أُعلن رسميًا في عام ١٣٢٢. واصل الإليخانات تحت السيطرة الكاملة لأبوسعيد لفترة أطول قليلاً وتأهبوا لملاقاة غزو آخر من قبائل الجغطاى، ولكن اللعبة كانت قد انتهت. فقد توفي أبوسعيد في ٣٠ نوفمبر ١٣٣٥، ربما تم تسميمه عن طريق بغداد خاتون، التي هي زوجته الآن، في نوبة غيرة عمياء من زوجة أصغر سنًا. ولم ينجب أبوسعيد أطفالاً، وللغرابة الشديدة، فبعد سنوات من الإدارة السيئة، والسياسات الخاطئة التي يمكن أن تجعل أي شعب

---

(٧٦) يعطي قانون "الياسا" الذي وضعه جنكيز خان الحق للخاقان في الاستمتاع بأي امرأة.

يتمرد، فقد كان كل ذلك كافيًا في عام ١٣٣٦ لانتهاء حقبة الإليخانات. حيث تفرقت إلى دويلات صغيرة وأصبحت إيران بدءا من هذه الفترة كيانًا سياسيًا لا علاقة لها بهم وحتى ظهور تيمورلنك في نهاية القرن.

وكانت اتفاقية السلام الموقعة عام ١٣٢٢ بمثابة اعتراف ضمني من المغول بعجزهم عن الاستيلاء على مصر وبلاد الشام من المماليك، ولكن لماذا كانوا يكررون المحاولة مرة بعد الأخرى؟ فقد جابه الإليخانات أعداء أكبر من المماليك بكثير. وكانت القبيلة الذهبية عدوًا دائمًا، كما كان الحال بالنسبة لقبائل الجغطاى، ولكن الإليخانات استمروا في العودة إلى منطقة بلاد الشام. وكان السبب الجوهري في الهواجس المستحوذة عليهم بشأن بلاد الشام يتعلق باعتقادهم أن كل العالم هو من حق شعب جنكيزخان وملكية خالصة لهم. وتشير رسالة خطية من المغول إلى المماليك لنظرتهم للعالم وهزائمهم المستمرة من المماليك لم تكن مجرد إهانة للفكرة الخيالية ولكنها تثير حنقهم لما يعتبر حقوقهم الخاصة. وكانت السياسات الاستباقية للظاهر بيبرس، وبالذات هجماته على أرمينيا الصغرى ووجود مخاطر هجوم مزدوج ومتناغم من المماليك والقبيلة الذهبية على الإليخانات تتطلب من المغول أن يقوموا على الأقل بتطويق المماليك، أو إذا أمكن على الأقل إخضاع شمال بلاد الشام لنفوذهم إن لم يكن ضمها لأملاكهم. ويمكن أن يثير الذعر لدى الإليخانات انتشار عقيدة الإسلام بين طوائف القبيلة الذهبية ووجود خليفة عباسي في مصر، يعتبر دمية باعتراف الجميع، وحتى تحولهم للإسلام في أوائل القرن الرابع عشر. وأصبح المماليك بالفعل هم قادة العالم الإسلامي وكانت الأغلبية الساحقة من مواطني الإليخانات يدينون بالإسلام. وكانت كل هذه الأسباب قهرية بما يكفي بالنسبة للمغول من أجل ضم بلاد الشام، كما أنه من الممكن ببساطة أنهم كانوا يريدون الوصول إلى سواحل بلاد الشام من أجل استكمال الهيمنة على طرق التجارة التي تمتد من السواحل الشرقية للصين وحتى العراق. ولا يبدو أن ذلك هو

الأرجح، على الرغم من أن الطرق البعيدة عن الخليج الفارسي كانت مُربحة بما يكفي وكانت لها منافذ للبحر الأبيض المتوسط من خلال أياس في أرمينيا.

وقامت القبائل المجاورة للقبائل المغولية – مغول الجغطاى، والقبيلة الذهبية، ومغول أفغانستان – بإغلاق الطرق الأخرى لأغراض التوسع. ويبدو أن الهند لم تؤخذ في الاعتبار، وربما جعلها الطقس السائد فيها وجغرافيتها غير جذابة لأهل السهوب. ودأب البيزنطيون على العمل بدبلوماسية متميزة للوصول مع الإليخانات إلى اتفاقية وكان هناك خطر ماثل دائمًا بأن تعقد القسطنطينية اتفاقًا مع القبيلة الذهبية أو المماليك إذا ما هاجم الإليخانات الممتلكات البيزنطية. وغالبًا ما كان البيزنطيون يميلون في تحركاتهم الدبلوماسية تجاه الإليخانات ولكنهم كانوا يرتبون دائمًا، في الغالب، بالحفاظ على علاقات ودية مع كل من المماليك والقبيلة الذهبية. فلم يكن الأمر ليستغرق الكثير جدًا من أجل دفعهم إلى المعسكر المعادي للإليخانات. ولذا فإنه في واقع الأمر لم يتبق إلا بلاد الشام فقط كمخرج لعمليات العدوان والتوسع المستمر للإليخانات، كما أن العدوان والتوسع كانت سياسة لا مناص منها في الحكومة المغولية؛ فقد كان الاستحواذ المستمر على الأراضي هو الأمر الذي لا غنى عنه للإمبراطورية المغولية. وتعتبر محاولاتهم الدءوبة لإخضاع فيتنام واليابان خير مثال على ذلك. وتعتبر حقًا واحدة من الافتراضات الكبرى في التاريخ تلك التي تتساءل عما الذي كان يمكن أن يحدث إذا ما كان المغول قد قاموا بمحاولة الخروج من رأس الجسر الخاص بهم على شواطئ بحر اليابان في عام ١٢٨١. أو لم تأت رياح الكاميكازي العظيمة *(وهي تعني الروح المقدسة وتشير إلى إعصار أنقذ اليابان من غزو أسطول مغولي بقيادة قابلاي خان في عام ١٢٨١ – المترجم)*، هل كان مقاتلو الساموراى يمكن أن يدافعوا عن اليابان كما دافع المماليك عن بلاد الشام ومصر؟ ثم كان رجال الخانات أنفسهم. فقد كان رجال القبائل المغولية راغبين دائمًا في السلب والنهب للذهب والرقيق والمراعي الجديدة. فليست هناك فائدة تُرجى من السلام كما أنه ليس هناك فخار أيضًا.

وشنت واحدة من الهجمات الرئيسية ضد قابلاي خان بواسطة أريق بوكا في الحرب الأهلية لعام ١٢٦٠ لنفس سبب العداءات الأخيرة ضده من قبائل الجغطاى، وهو أن قابلاي خان كان يهجر أساليب أهل السهوب إلى حياة أكثر دعة واستقرارًا، وفي الأساس كان غير راغب في شن عمليات النهب والقتل بما يكفي. وكان ذلك مساويًا للقول بأنه أصبح رخوًا. وكان يحكم الإليخانات، حينذاك، دولة تعيش حياة الدعة، ولا يقومون بعمليات سلب ونهب من السهوب، وهي نفس المعضلة التي واجهت قابلاي خان. ولكن السؤال هو كيف تنشغل كلاب الحرب بنفسها؟ كيف تجعلها تنأى عن تخريب فارس عن آخرها وفي نفس الوقت تحتفظ بشخصيتك المغولية؟ كانت الإجابة بالنسبة للإليخانات هي الاتجاه بالجيش إلى بلاد الشام حيث يمكن إثارة المتاعب في الفناء الخلفي للآخرين.

ومن يمكنه أن يجرؤ على القول بأن الاستيلاء على بلاد الشام بعيدة عن قدراتهم؟ لم يكن المغول بمثل تلك السذاجة السياسية والعسكرية للاستمرار في الهجوم على منطقة لا يمكن قهرها. وبالتأكيد كانت التسهيلات اللوجستية لمثل تلك الحملات معضلة تمثل تحديًا، ولكن على الأقل يجب أن تكون لديهم الفرصة المعقولة لضم تلك المنطقة إليهم بصفة مستمرة، فإذا لم يكن تفكيرهم على هذا النحو، فما الذي كانوا يحاولون تحقيقه بإرسال الجيوش إلى الحرب؟ قال الجنرال الفرنسي فايول في مدينة سوم عام ١٩١٦ إذا لم يكن القتال بغرض الاختراق فما الداعي له؟

وكان المغول يريدون بلاد الشام بالتأكيد، كما كانوا واثقين من قدرتهم على الاستيلاء عليها ولكن المماليك ما كانوا ليدعونهم يفعلون ذلك، ولم يكن في وسع المغول وضع يدهم عليها لأن المماليك كانوا جنودًا أفضل ويؤمنون بما يفعلونه. وكان سلاطينهم الأوائل مقاتلين شجعان وأذكياء كما كان بيبرس وقلاوون رجال دولة من الطراز الأول والأكثر براعة في المناورات الدبلوماسية من المغول، بل والقدرة على هزيمتهم في ميادين القتال وخلق المتاعب لهم على حدودهم.

وهذا لا يعنى أننا نفترض أن المماليك كانت لهم القدرة على تدمير الإليخانات. وقد أثبتت حملة بيبرس على الأناضول، وعن حق، أن موارده كانت قريبة من الكفاية لمثل هذه المشروعات البالغة الضخامة. وقرر المماليك لذلك تهيئة أنفسهم للعمل المحدود بالدفاع عن بلاد الشام والتمسك بها وبالتالي الدفاع عن مصر. وتكمن الأسباب الفنية والإستراتيجية لعدم نجاح المغول ضد المماليك والتي أوضحناها آنفًا، معركة بعد أخرى، ولكن في النهاية فإن فشل المغول يتضح في إخلائهم للبيرة في عام ١٢٧٢، عندما عبر قلاوون وبيبرس نهر الفرات سباحة وهم يقودون خيولهم. وهاجم المماليك المغول حينئذ، والذين بالرغم من تفوقهم العددي وحماية الحواجز الرملية الشديدة الانحدار لم ينجحوا في إيقاف فرسان الإسلام بسهامهم وسيوفهم. وتتطلب مثل هذه الأعمال الفذة حكمة القيادة، والشجاعة، والإيمان والمهارة. وباختصار فإن رغبة المماليك في الانتصار كانت أكبر من رغبة المغول وكل انتصار كان يضيف خبرة ومعرفة للرغبة في عدم الإذعان لغزاة العالم.

ولكن المعضلة الكبرى كانت تكمن في أنه بمجرد اندحار المغول بدأ المماليك في التدهور المنتظم الذي لم يتوقف. وتحمل عبارات نبل أهل السهوب والحرب جوهر الحقيقة رغم أنها كلمات مبتذلة. وتعد مواطن القبائل التركية-المغولية هي الأماكن التي يشب فيها الرجال ولديهم المقدرة على القيادة، كما كان الحال بالنسبة لجنكيزخان، وتيمورلنك، وعثمان مؤسس الإمبراطورية العثمانية. وكان الحكم في السلطنة المملوكية في بدايات عهدها طبقًا للجدارة وشبيهًا لتلك السائدة في قبائل السهوب ولكن مع طغيان هيكل جيش دولة متقدمة، أصبح الترقي يتم على أساس المآثر الفذة والخبرة. فقد كان بيبرس المنصوري قد دخل في خدمة السلطان بيبرس في عام ١٢٦١، وبعد اثنين وعشرين عامًا، وبعد سنوات من الخدمة الطيبة في سنوات الحرب أصبح أميرًا لعشرة. ومُنحت له الدرجة لأنه "كان يملك فطنة القائد وخدمة طويلة بما يكفي ليسمح باختياره أميرًا"[٧٧]. ولاحظ أنه

---

(77) **Baybars al-Mansuri, in A. Levanoni "A Turning Point in History: The Third Reign of al-Nasir Muhammad Ibn Kalavun", Leiden: EJ Brill, 1995, P. 24.**

دائمًا ما كان بالاختيار، والسلطان لم يكن يملك حق ترقيته بدون استشارة كبار قادته. وكانت الترقية لها احترامها. ولذا فإن بيلك وهو واحد من مماليك بيبرس الأثيرين لديه عندما فشل في التعرف على كيفية التعبير بكلمات الشكر لمجموعة من الأمراء، تم جلده، وطبقًا للأوامر الصريحة للسلطان بيبرس نفسه. وعندما سُئل بيبرس عن ذلك أجاب:

> **هناك بين حراسي رجال يحبونني وأنا أحبهم، ودخولهم من ريع الأراضي قليل، كما أن هناك رجال يمقتونني وأمقتهم، ولكن دخولهم من ريع الأراضي عظيم. ولا يمكنني أن أتحمل نتائج أن آخذ من هؤلاء الذين أمقتهم وأعطي إلى هؤلاء الذين أحبهم، لأنني فقط سيد بيلك**[٧٨].

وقام الناصر، على الجانب الآخر، في سنوات العشرينيات من القرن الرابع عشر، وبضعفه أمام صغار الشباب الأكثر وسامة، بشراء قوصون وهو رجل بالغ. ولم يتدرج قوصون في سلك التدريب الذي لابد للمماليك من اجتيازه، ولم يحضر قيادة ميدانية ومع ذلك فقد تم منحه إقطاعًا ولقب أمير. بل وكان قوصون يتباهى: "لقد اشتراني السلطان، وأصبحت واحدًا من المقربين منه؛ وجعلني أميرًا، وجعلني قائدًا لألف، كما زوجني ابنته، بينما الآخرون يأتون من تجار الرقيق إلى المدارس العسكرية مباشرة"[٧٩]. ولم تتم ترقية بيبرس المنصوري لأمير ألف إلا في عام ١٢٩٣ وبعد ما يقرب من اثنين وعشرين عامًا من عِتقه.

وكان الترقي، يرتبط بالطبع، بالزيادة في الراتب. وكانت واحدة من الإصلاحات الأساسية التي سنّها بيبرس هي دفع الرواتب بانتظام والتي كان يتم

---

(٧٨) ابن واصل، في "**Levanoni**" ص ٣٥.

(٧٩) ابن حجر العسقلاني. في "**Levanoni**" ص ٣٥.

دفعها طبقًا لمستوى المسئولية، وطول مدة الخدمة، والدرجة التي يشغلها المملـوك. وأطمأن بيبرس بذلك إلى أن المماليك سيجتهدون في البحث عن الترقي من خـلال المقدرة، والخبرة في الإدارة وكذلك في ميادين القتال من خلال الاشـتراك الفعلـي فيها. ربما كانت الأجور منخفضة، ولكن المكافآت التي تُمنح للبسالة والإبداع فـي ميادين القتال كانت طيبة. فقد مُنح قلاوون مكافأة خاصة من أجل قيادتـه لهجـوم عبر النهر في البيرة عام ١٢٧٢. ولكن طموح الناصر كان أن يصبح مثل الملوك وليس كمقاتل وقائد جيش مثل قطز، وبيبرس أو حتى والده قلاوون. وبالتالي فقـد قام بمكافأة المقربين منه بالذهب والإطراء وتجاهل قواعد العدالـة والتعويضـات المناسبة. ودب الفساد والعفن إلى الجيش سريعًا، وكان الأمراء يقضون جل وقـتهم في القصر، حيث يمكنهم أن ينالوا المكافآت أكثر من بقائهم في الثكنات أو ميـادين التدريب. ولجأ عامة الجنود إلى الشغب والإخلال بالأمن من أجل الحصول علـى النقود في المعتاد، وحتى السلطان نفسه فإنه تجاهل مقتضيات الرتب الوظيفية التي وضعها بيبرس موضع التنفيذ، ويقوم بالاحتجاج ضـد المقـاتلين بنفسـه، ويقـوم بتوبيخهم، وحتى ضربهم بالهراوة بنفسه كما حدث ذات مرة. ويولد رفـع الكلفـة والاعتياد عدم الاحترام، وفي فترة حكم الناصر حدث في العديد مـن المـرات أن ذهب المماليك إلى التنزه بالمراكب في النيل بدلاً من التدريب في الميـدان وكـان هؤلاء المماليك هم مماليك "مقدم المماليك" وهو الضابط المسـئول عـن انضـباط الجيش. ويمكن أن تبين لنا مقارنة سريعة بموقف قلاوون تجاه المتـدربين الجـدد كيف تبدلت الأمور. فقد قام قلاوون بتربية مملوكه الخاص، لاجين فـي منزلـه، ولكننا نعلم من ابن الدويداري كيف كان قلاوون يتعامل مع مماليكه، فقد كان يُلقي الرعب في قلوبهم ولم يكن يسمح لهم بأي أفعال بغيضة على الإطـلاق: "فعنـدما اقترح أحد كبار الأمراء أن تتم ترقية مملوك مبتدئ إلى أول سلم الترقيـات وهـو أمير عشرة، وكان هو سلار، والذي سيصبح فيما بعد الوصي على الناصر، ضحك قلاوون وقال "يا الله، البلد الذي يـمكن أن يكون فيه سـلار أميـرًا لعشـرة لا

يــصح أن يكــون بلدًا"[٨٠] وصف اليوناني، بعد ذلك بسنوات، سلار بأنه واحد من أشجع وأعقل الرجال في البلاد. وأظهر كل من بيبرس وقلاوون، على الرغم مــن عمليات التطهير التي قاما بها، ارتباطًا موصولاً بالرجــال ذوي الــولاء؛ وتــوفي الكثير من كبار رجال بيبرس وهم في الخدمة، كما أن كبير معلمي مدرسة المماليك السلطانية في عهد بيبرس احتفظ به قلاوون في عهده ببساطة لأنه كان مرموقًا في أداءه لعمله:

> **لقد كان رهيبًا يبعث على الاحترام، كما كان له حضور طاغ، وكان يلقى عظيم الاحترام من المماليك. لقــد كــان يلقــى الاحترام من الملوك والأمراء، بل وكان من النادر جدًا أن يكون هناك أمير من الأمراء لم يُضرب أو يُشتم أو يحاكم من المختص بالطواشي (Tawashi Mukhtass). وكانوا يهابونــه مــن أعماقهم كما يبجلونه[٨١].**

ولم يكن هنالك رقيب عسكري مخصص لمراقبة التدريب في حقبة الناصر، ولكن الناصر نفسه كان كارهًا للتدريب أيضًا. ولقد كان الأمر يســتغرق ســنوات عديدة للتخرج من مدارس التدريب العسكرية في عهد بيبرس وقلاوون، بينما كــان الناصر يسمح بتخرج دفعتين خلال العام. وكان يتم اصطحاب المتدربين الجدد في عهود السلاطين الأوائل إلى الحملات الحربية، فقد اصطحب بيبرس المنصــوري المبتدئيــن معه ليشاهدوا ويدعمــوا عملية حصار حصن أرســوف عــام ١٢٦٤. ولم يحدث أي شيء مماثل في عهد الناصر. وكان هناك سبعة عشر طباقًا في عهد

---

(٨٠) النويري في "**Levanoni**" ص ٢٢.

(٨١) النويري في "**Levanoni**" ص ١٨.

بيبرس، بينما احتفظ الناصر فقط باثنتي عشر منها، وعلى الرغم من أن بيبرس لو كان يمتلك عددا مماثلا لما يملكه الناصر من مماليك لواجـه الإليخانـات خطـر غزوهم بواسطة بيبرس.

وحتى نكون منصفين للناصر، ويجب أن نوضح أنه في الأربعينيـات مـن القرن الرابع عشر أصبح الحصول على المماليك أكثر تكلفة. فقد انتشـر الإسـلام عبر بلاد السهوب وكانت الإغراءات تقدم للشباب اليافع بالدفع لهم لتقديم أنفسهم في نقاط التجنيد بدلاً من إلقاء القبض عليهم؛ وتبعًا لذلك ارتفعت الأسعار ارتفاعًا بالغًا. وكانت تكلفة شراء قلاوون عالية بصفة استثنائية في عصره وبلغت ١,٠٠٠ درهم ***(حيث كان يشار إليه باسم الألفي إشارة إلى ثمنه المرتفع - المترجم)***. بينما كان شراء المملوك المبتدئ في عهد الناصر بمبلغ ٦,٠٠٠ درهم رقمًا معتادًا، ولذا فإن المماليـك المبتدئين كانوا مدللين بالمقارنـة بالمماليك فـي عهـود السلاطيـن المماليك الأوائل.

وكان للسلطان، بطبيعة الحال، أن يختار من يريده أولاً من سوق المماليـك بدءًا من أصل نظام المماليك في القرن الثامن، حيث كان في حاجة إلى أفضل مـن يؤمل فيهم النجاح كعسكريين ليحافظ على تميزه بين أقرانـه. ونـرى فـي عهـد الناصر، من ناحية ثانية، أنه يختار المبتدئين من رقيق المغـول ببسـاطة لأنهـم يحملون شبهًا لأبى سعيد، الإليخان الأخير. ويمكننـا أن نـرى كيـف أن اختيـار المملوك المأمول منهم مثل بيبرس، وأعظم سلاطين المماليك قاطبة، كان يمكن أن يمر مرور الكرام بدون اختياره، إذا ما كانت عملية الشراء قد تحولت إلى عمليـة تشبه مسابقات ملكات الجمال، وكما يُخبرنا في وقت مبكر من عام ١٣٣٥ كل من جيمس من مدينة فيرونا ووليام آدم عن استيراد الأولاد الأكثر سمنة لدولة المماليك من أجل مسألة الميل إلى العلاقات المثلية(٨٢).

---

(82) CF. Irwin, The Middle East in the Middle Ages, p 136.

وعمل بيبرس جاهدًا من أجل خلق إدارة موحدة للجيش ومن أجل جعل الجيش كيانًا متميزًا في آلية الدولة. ويجب أن نتذكر أنه قد ورث جيشًا من الأيوبيين كان مخصصًا لخدمة القلة من النخبة الحاكمة. وأصبح الجيش وعناصره الرئيسية هي النخبة وأصبحت الدولة في خدمة احتياجات الجيش. واضمحلت مثل هذه الأفكار تحت حكم الناصر، فبينما ظلت عناصر الجيش هي النخبة، وتنضم إلى العصبة الحاكمة، وتتمسح فيها، فإنها أصبحت تمتلك مهارات رجال الحاشية أكثر من المقدرات العسكرية، وكان سخاء الدولة يتم إنفاقه في شراء الخيول من أجل اصطبلات السلطان وموائده. وليس معنى ذلك أن تناول لحوم الخيول كان نوعًا من أنواع الرفاهية أو حتى شيئًا مبتدعًا، بل كان ذلك أمرًا معتادًا لأهل السهوب، واحتفظ المماليك بهذه العادة لفترة طويلة. وكانت مآدب السلطان الناصر، على كل حال، تتسم بالفخامة البالغة ومنتظمة إلى حد كبير رغم أنه لا يمكن وصفه بالنهم.

ظل الاحتفاظ بموكب السلطان الذي كان بيبرس قد استحدثه كشكل جديد يعبر عن هويته، بل وزاد عليه الناصر بإضافة بعض التحسينات. وظل موكب السلطان وأمرائه الذي يمر من خلال شوارع المدينة - والذي يجب أن يرتدي فيه السلطان عمامة سوداء وحلة مذهبة، وبصحبته مجموعة من السيوف، وسهمان، ودرع أو يقوم بارتداء سروال من القطيفة الحمراء، ومعطف مبطن بالفراء الأسود الذي يمثل كبير الأمراء، والشربوش[٨٣]، وهو تاج مثلث الشكل أو الكلوته

---

(٨٣) الشربوش هو غطاء يلبس على الرأس ويشبه التاج لأنه على شكل مثلث أو قلنسوة طويلة تلبس بدل العمامة. وكان يلبسه أيضًا رجال العلم كالقضاة والكتاب. راجع في ذلك المقريزي، والخطط المقريزية، الجزء الثاني، القاهرة، د.ت ٩٩، دوزي، المعجم المفصل لأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، ١٩٧١، ص ١٨٤-١٨٥، ورجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٢٦٢، وانظر أيضًا: ماير، ل ١٠، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة، ١٩٥٢م، ص ٣٩ هامش ١، ص ١٠٢ (المراجع).

(الكلفتاه)[٨٤]، وهو غطاء للرأس أصفر اللون لا يجب أن يرتديه إلا السلطان فقط – حدثًا منتظمًا ولكنه كان مجرد مظهرًا بلا مضمون. وظلت مصر بنهاية حكم الناصر القوة الأعظم في الشرق الأوسط، ولكنها كانت تعيش على أمجاد الماضي وعبقرية قادة الماضي العظام، وبينما ظل المماليك قادرين بفضل تسليحهم الثقيل والتنظيم الأفضل، على قمع تمرد البدو، وعلى الأقل التحكم في مشكلات النوبة والوجه القبلي، فإنهم احتفظوا بمراكزهم كقوة إقليمية عظمى، وذلك ببساطة لأن المنطقة لم تكن فيها قوة أخرى. وعندما يواجهون، في الوقت الملائم، أعداء أقوياء لديهم العزم والتصميم فإن الدمار الذي أحدثه الناصر سيصبح واضحًا للعيان. وكان يتحتم عليهم أولاً، على الرغم من ذلك، مواجهة أعداء أكثر تدميرًا وليس في مقدورهم إخضاعهم: الوباء، والمجاعة، والانشقاق، والفساد.

كانت هناك نجاحات عسكرية على أعداء من الدرجة الثانية إبان حكم الناصر. فقد تم إرسال حملات صغيرة إلى اليمن في أعوام ١٣١٥، و١٣٢٢، و١٣٣١ لضمان أن قادتهم قد استوعبوا جيدًا التزاماتهم تجاه سادتهم في القاهرة. وجرت نفس المحاولات ضد النوبة في عام ١٣١٥، وعام ١٣٢٣، ولكن العمليات عبر نهر النيل كانت أكثر صعوبة، كما أن بدو الوجه القبلي كانوا يقومون بعرقلة الإمدادات والتعزيزات العسكرية؛ ولم تكن هناك هيمنة كاملة على المنطقة، ولكن ميناء عيذاب على البحر الأحمر كان قد تم تأمينه بصفة مؤقتة من غزوات كل من قبائل النوبة والبدو. وكانت العمليات ضد أرمينيا أكثر نجاحًا. وضُوعفت الجزية السنوية على أرمينيا في عام ١٣١٥ لتبلغ مليون درهم، كما شُنت غارات انتقامية في أعوام ١٣٢٠، ١٣٢٢، ١٣٣٢، ١٣٣٥، ١٣٣٧ للتأخير في إرسال الجزية.

---

(٨٤) الكلفتاه، أوالكلوته، لباس كان شائعًا في العصر المملوكي من القماش المزركش على شكل طاقية، وهي كلمة فارسية تركية. راجع: دوزي، المرجع السابق ص ٣١٢-٣١٣، رجب عبد الجواد، المرجع السابق، ص ٤٣٣، وماير المرجع السابق، ص ٣٩ هامش ١، و ص ٥١ (المراجع).

وكان جليًا من عام ١٣٤٠ أن السلطان في طريقه للموت، ولفظ بالفعل أنفاسه الأخيرة في ٤ يونيو ١٣٤١ بعد أن قام بتسمية ابنه أبى بكر كخليفة له. وكانت فترة حكم الناصر الثالثة طويلة وناجحة في مظهرها: فقد اندحر المغول نهائيًا، كما كان هناك استقرار سياسي، وكان السلطان قادرًا على التعديلات المُلحة على نظام الإقطاع كما كانت إيرادات التجارة مرتفعة. ولكنه بأعماله تلك وضع بنفسه بذور التدهور الاقتصادي والعسكري وحصد نتائجها المريرة بيده؛ وشعر كتاب الفروسية المتأخرون بالذعر من جراء التدهور الحاد الذي حدث في عهد السلطان الناصر في مستوى الرماية بالسهام وهي حجر الزاوية في آلة المماليك العسكرية. وكان سلطانًا متقلب النزوات، جل تركيزه على الاتهام بالخيانة العظمى، غالبًا كنتيجة لخبراته عن نظم الحكم السابقة ولكن عمليات التطهير والاضطهاد التي كان يقوم بها كانت ذات صفة انتقامية واضحة. وكانت السموم تُعد بيدي السلطان، كما كان التعذيب هو الأسلوب المفضل للاستجواب، والتجويع حتى الموت هو أقلها تكلفة والاختيار المعتاد للعقاب. ومات أحد الأمراء من الرعب ببساطة لأنه تلقى استدعاء ليمثل بين يدي السلطان، كما أن عمليات القبض كانت تتم فقط من أجل مصادرة ثروات هؤلاء الرجال. وكان يتعين على كبار الأمراء إخفاء ثرواتهم من أجل تجنب الضرائب الفلكية الباهظة المفروضة على الإقطاع من إنتاج السكر والتعدين. كما أن السلطان كان يؤثر الحكم عن طريق ولاءات الزواج والمصاهرة عوضًا عن الاعتماد على ولاء الخشداشية، وقام بتجميع السلطات في يده وأيدي مريديه أكثر فأكثر. وكانت الشكوك وعدم الثقة تملؤه حيال كل من حوله. وتأصل رد فعله هذا في كل مساعديه وانعكس على كل أسلافه وحتى نهاية ذريتهم.

وكان أبوبكر أول أبناء الناصر، في العشرينيات من عمره عند توليه العرش، ولكنه لم يكن ناضجًا بما يكفي كما كان سهل الانقياد. وكان قوصون وهو مملوك الناصر الأثير والذي أسلفنا آنفًا كيف تمت ترقيته بسرعة غير معتادة

وبشكل استثنائي، يقوم بتوجيهه كيفما يشاء، ثم قام باستبداله بشقيقه ذي السنوات السبع، علاء الدين كجك، وأصبح يده اليمنى في توقيع المستندات. وأُرسل أبوبكر وسبعة من أشقائه إلى المنفى، ولكن قوصون تغاضى عن شقيق واحد هو أحمد لأنه كان يعيش في الكرك حيث تم إرساله هناك طفلاً لأن الناصر كان يمقته بشدة. وتزايدت الزمرة المناوئة لقوصون حوله بشدة وحكم لفترة قصيرة قبل أن تتم إعادته للكرك، مخلوعًا، ولكنه ظل يحوز جانبًا طائلاً من ثروة الخزانة وشعارات ورموز السلطنة. ولم يتم استعادة هذه الممتلكات إلا بعد مقتله بواسطة رسول من شقيقه الصالح، السلطان الجديد في عام ١٣٤٤. ولم يمكث الصالح على العرش إلا بما يكفيه لإصدار أوامره بقتل شقيقه الآخر، الصغير كوندك، قبل أن يموت هو نفسه إثر مرض استغرق شهرًا واحدًا، وأرجعتها أمه إلى عملية سحر من فعل أم كوندك. وحكم زوج والدة الصالح، أرغون، وهو من الأمراء الأقل رتبة لفترة قصيرة، وحل محله أخ آخر، وهو شعبان في أغسطس ١٣٤٥. وتم إعدامه في عام ١٣٤٦ وتلتها عملية تمرد شملت كل قدامى الأمراء في بلاد الشام ومصر، وكانت شكواهم الأساسية هي أن أغوات القصر يتم تفضيلهم على مماليك المؤسسة العسكرية، ولكن إسرافه في الشراب، وقسوته المتناهية وقراره بتسمية نفسه بالثعبان[٨٥] كانت من العوامل الأخرى المؤثرة أيضًا. ووقف أرغون بجانبه على الأقل ومات بعده في المنفى.

ولقد كان من حسن الحظ أن الناصر كان استثنائيًا في كثرة إنجابه للأطفال. وجاء بعده المظفر حاج، وفقط كنوع من الاختلاف فإنه خرج من السلطة لأنه ارتبط بأمة سوداء والبذخ الذي كان يجعله يمطرها بالهدايا في حقبة سادت فيها المجاعة والجفاف. وهجره كل مؤيديه بعد أن قام بالإعداد لقتال ضار خارج القاهرة مع مجموعة من الأمراء الشراكسة الذين أجبرهم حكم القضاء بذبح واحد

(٨٥) تحريف اسمه "ثعبان" بدلاً من شعبان.

من مجموعتهم العِرقية، وهو جورلو (Ghurlu)، الذي كان في السابق أثيرًا لدى السلطان. وشعر المظفر الحاج بالذعر عندما اقترح كبار الأمراء من المماليك القفجاق أن يتم خلعه إذا لم يقم بقتل جورلو. وتم اصطياد الحاج بسهولة بواسطة الجراكسة الذين يُعتبرون مؤيديه بصفة رسمية وتم قتله في ديسمبر عام ١٣٤٧. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتصرف فيها الجراكسة طبقًا للعوامل السياسية فقط وضد الروابط العرقية. فقد كانت الروابط العرقية قد أصبحت أكثر أهمية من روابط الخشداشية، وذلك لأن الناصر ببساطة قد فعل الكثير من أجل إلغاء المثاليات السابقة للأخوة بقيامه بتطبيق محسوبية السلالة، ولأن أعداد الجراكسة في الدولة كان قد أصبح هائلاً آنذاك. وسجل ابن الوردي عداءهم مع القفجاق الذين استولوا على نصيب الأسد من السلطة من خلال الاعتلاء المتواصل لأحفاد السلطان قلاوون وحتى فترة حكم الحاج فقال: "هؤلاء الجراكسة هم أعداء سلالة التتار (القفجاق)، واستدار المظفر حاج بعيدًا عن التتار وتوجه للجراكسة وتفضيلاتهم.......".

ودخل الطاعون الأسود للإسكندرية على خلفية الاضطرابات السياسية من خلال سفن التجارة القادمة من البحر الأسود وانتشر في مصر عام ١٣٤٧. كما أنه من المعروف جيدًا في مناطق الحصاد التقليدية للمماليك أن القبيلة الذهبية كانت تقوم باستخدام أجساد ضحايا الطاعون كأسلحة بيولوجية عن طريق إطلاقها على مركز تجارة الرقيق الجنويه في ميناء كافا على البحر الأسود قبل أن يُسمع عن المرض في مصر. وأصبح التأثير المباشر لانتشار المرض في الشرق الأوسط يقدر تقريبًا بنفس التأثير الذي مرت به أوروبا في تلك الفترة وهو فناء ثلث السكان تقريبًا. وبدا وكأن التأثير لدى كبار المسئولين المماليك كان طفيفًا. ومات ثلاثة من الأربعة وعشرين أميرًا من إجمالي الأمراء البالغين مائة في السلطنة بأكملها قبل أن ينحسر المرض في عام ١٣٤٩. وكانت لقدرتهم على مغادرة المدينة لرحلات صيد مطولة، وعدم وجود اختلاط بالعامة، وموائدهم الغنية، ما يكفي ليكون أغلبهم

بعيدًا عن الوباء. ولم يكن ذلك نهاية الأوبئة في مصر وبلاد الشام حيث زارهما وباء السل بعد ذلك. فقد وصل هذا الوباء شديد العدوى في كل مصر وبلاد الشام ما بين عام ١٣٤٧ وعام ١٥١٧ إلى ما يزيد عن خمسة وخمسين مرة(٨٦). وأودى الوباء بحياة الكثيرين من المماليك، وبصفة خاصة أولئك المتدربين الجدد القادمين حديثًا، حيث لم تكن أجسامهم قد اكتسبت مناعة بعد. وتضرب في مثل هذه الظروف أمراض نفسية وموجات من الكآبة التشاؤمية قلب المجتمع العسكري، وليس من المستغرب غالبًا أن تضرب الفوضى أطنابها في نسيج الجيش في مثل تلك الفترات من الموت الجماعي. كما أن نظام الإقطاع تم ضربه في مقتل أيضًا. فقد مات الفلاحون، وبقيت الأرض بلا زراعة ولم تدر دخلاً، كما زادت النزاعات حول ملكية الإقطاعيات حيث إن المماليك الذين كانوا يقومون بسحب أجورهم من قطع الأراضي قد ماتوا بأعداد كبيرة. وتقلصت إيرادات الجيش حينما بدأ المدنيون في بيع أنفسهم للرتب الدنيا (جنود الحلقة) من أجل الحصول على أموال من الإقطاعيات غير المشغولة.

وانتهت الحرب السياسية بين أغوات القصر وكبار المماليك بوفاة المظفر حاج. وأصر المماليك على سلطاتهم ضد أولاد الناصر بالاتحاد معًا وتخويف أي مرشح آخر محتمل للعرش. وأطلقوا على اتحادهم اسم "الحلف" كولاء متحد خلف السلطان، ولكنه في واقع الأمر كان يعني في حقيقة الأمر أن يصبح السلطان مجرد صورة بينما يحتدم الصراع على السلطة الحقيقة خلف العرش بين أمراء المماليك الأكثر قوة ونفوذًا. وكان أنجح "صانع للملوك" من وراء الستار هو المملوك مانجاك "**Manjak**" الذي قام بتعيين نفسه وزيرًا بعد تعيين الناصر حسن كسلطان. وحاول مانجاك أن يوازن حساباته عن طريق الاستقطاع من أجور المماليك السلطانية والتخلص من المدفوعات للمتسلقين والتي تزايدت عبر نصف قرن

---

(86) CF. Irwin, The Middle East in the Middle Ages, pp. 134 - 6.

مضى. وقام بالترتيب مع الناصر للاستمرار لسنوات أربع؛ وكان النظام محبوبًا من العامة ولكنه لم يكن كذلك من الأمراء المماليك، الذين اعتادوا على مستوى معين من المعيشة. وتم القبض على مانجاك في عام ١٣٥١، كما تم استبدال الناصر ولكن بشقيق آخر له، وهو صالح الصالح في أغسطس، وسُجن هو في الحرملك، حيث للغرابة الشديدة، وباعتبار تواجد كل أسباب اللهو والتسلية هناك، فإنه كرس نفسه للدراسة.

وقام محركو الأحداث من وراء الستار بالإفراج عن مانجاك وشريكه السابق في السلطة بايبغا "**Baybugha**" من السجن من أجل كسب التأييد للنظام الجديد من أتباعهم. وكان ذلك خطأ منهم، وتفاقم الخطأ بإرسال بايبغا كحاكم إلى حلب. حيث كان قادرًا من هناك على تنظيم تمرد في عام ١٣٥٤ مستخدمًا قوات من حلب وطرابلس وقبائل التركمان والبدو المحليين. ونهب التركمان وأحرقوا أثناء تقدمهم عبر بلاد الشام بطريقة أعادت ذكرى المغول. وأُرسلت قوات من مصر لمجابهتها ولكن القوات المتحالفة مع بايبغا تفسخت قبل حدوث أي مواجهة. وأُلقي القبض عليه وعلى قائد التركمان بسهولة وتم إعدامهما.

وشهد عام ١٣٥٤ تبادلا للمراكز بين صالح الصالح مع الناصر حسن والذهاب إلى الحرملك بينما استعاد شقيقه العرش. وتكون حلف غير مقدس وراء العرش بين الأميرين صرغمتش (**Sarghimish**) وشيخون. وبالرغم من الكراهية المتبادلة بينهما فإن تفاهمًا قد حدث بين الرجلين باستبعاد الآخرين من إدارة القصر والدولة. واستمر شيخون، على الرغم من ذلك، فقط حتى عام ١٣٥٧ عندما تم قتله أمام السلطان، بزعم وجود عداءات مع مملوك سلطاني آخر. وربما يجعل القبض المتأخر على صرغمتش وشنقه عن طريق خاصكية السلطان، المرء يفكر في أن الناصر كان يدرس في مُعتزله في الحرملك شيئًا أكثر خداعًا وانتهازية عن الدراسات الدينية، إن لم يكن لشيء إلا لحقيقة أن السنوات الثماني الأخيرة من حكمه سيتم إدارتها بالأمير الغاشم في حقيقة أمره يلبغا الخاصكي.

وبينما يبدو لنا واضحًا بأن تاريخ السلطنة المملوكية قائمة طويلة من القسوة، فإن هذا الحكم يجب ألا يُصدر قبل مقارنة الرجال الذين كانوا يديرون الدولة كما يجب أن تتم مقارنتهم بأقرانهم المعاصرين لهم في المجتمعات العظيمة الأخرى في تلك الحقبة. ولم تكن الأسر الحاكمة في فلورنسا لتتردد لحظة قبل أن تقوم بإطلاق جنود البرافي "bravi" ***(وهم نوعية فظة من الجنود القساة كان ملاك الأراضي يقومون باستخدامهم - المترجم)*** على خصومهم، كما أن البيزنطيين كان لهم ولع بسمل عيون خصومهم السياسيين (إفقادهم البصر)، وعلى الرغم من أن رجال كلتا الحضارتين يمكنهما أن يكونوا دارسين ومثقفين كما يمكن أن يكون الحال نفسه بالنسبة للأمراء المماليك. كما آلت إلينا مجمعات أضرحة متألقة وغاية في الفخامة تم تشييدها تحت رعاية المماليك، وحققوا نهضة حضارية في الأعمال المعدنية الإسلامية، بالإضافة إلى دراسات الفروسية المتميزة والمؤلفات التاريخية التي تتميز بالبصيرة والحكمة. وكان شيخون يرعى جنازات الموتى في أوقات الأوبئة كما أن لاجين كان يشتهر بزهده وورعه. أما يلبغا فقد كان، على الرغم من ذلك، رجلاً مختلفًا عن كل الأمراء العظام الذين سبقوه لأنه كان رجلاً غاشمًا ومتوحشًا. فقد كان نظام المماليك تحت قيادة السلاطين العظام قاسيًا ولكنه كان عادلاً بينما كان نظام يلبغا بالغ القسوة والاستبدادية وعشوائيًا في التطبيق. وسقط عن السلطة أخيرًا في عام ١٣٦٦ بعد أن فشل في الشروع في الرد المناسب على الحملة الصليبية التي قام بها بطرس حاكم قبرص كنتيجة لجنون العظمة الذي اندفع فيه حتى مع خاصكيته الذين قاموا بقتله بدلاً من السكوت على عملية القتل والعقاب العشوائية التي يقوم بها. وأسدى قبل موته، بالرغم من كل ذلك، خدمتين للسلطنة. فقد شرع في بناء أسطول للسلطنة وذلك إما لحماية ممتلكاتها من جانب، أو للانتقام لنفسه من القبارصة من جانب آخر، كما كانت هناك نهضة حضارية صغيرة تحت رعايته لتدريبات الفروسية والتي استمرت بعد وفاته.

وتصاعد التوتر بين الناصر حسن ويلبغا بدءًا من عام ١٣٦٠ فصاعدًا وبصفة خاصة لأن الناصر حسن كان يقوم بالاستيلاء على المنح الحكومية المخصصة للعسكريين من أجل بناء مجمع مساجد. ولذا فلم يكن محبوبًا من العسكريين، كما أن سقوط منارات مسجد ومقتل المئات من المدنيين نتيجة لذلك تسببت في نهاية شعبيته بين العامة أيضًا. وكانت هناك مواجهة عسكرية بين الطرفين حينما توجه مماليك الناصر لمراجعة يلبغا قبل أن يبدأ القتال بالفعل. وفر السلطان هاربًا ولكن تم القبض عليه وقتله سرًا. وبذلك استهلك الأمراء المماليك كل أولاد الناصر وحان الوقت للبدء في استخدام أحفاده. وتم وضع المنصور محمد على العرش، ولكن يلبغا قام بخلعه في عام ١٣٦٣ بعد أن علم بميوله السادية غير الصحية. وتلاه الأشرف شعبان، الذي ربما ابتسم لمقتل يلبغا في عام ١٣٦٦ كابن للناصر حسن ولكن ذلك لم يمنح السلطان حرية أكبر حيث كان مماليك يلبغا قد استمروا في السير على منهجه في الحكم. وأصبح الفارق الوحيد هو وجود عنصر جركسي قوي في الطغمة الحاكمة.

وكان الأشرف شعبان يمتلك شعبية طيبة بين العامة بالرغم من الجفاف المدمر والمجاعة التي سادت في الفترة ١٣٧٤- ١٣٧٥ وبدا كما لو كان كل شيء هادئًا في العاصمة المصرية عندما شرع للذهاب إلى رحلة الحج عام ١٣٧٧. ربما كان ذا شعبية طاغية؛ فلم يصل إلى مكة مطلقًا، ولكن تم نصب كمين له في الطريق فلما فر عائدًا إلى القاهرة تم قتله. وجرت وقائع الجزء الثاني من خطة الاستيلاء على السلطة في القلعة. وقام برقوق، أقدم الأمراء الجراكسة على الإطلاق بوضع المنصور علي، على العرش، وهو نجل الأشرف ذو السبعة أعوام، وبعد موته بعد أربعة أعوام تم استبداله بشقيقه الصالح الحاج. وجعلت عمليات التمرد المستمرة في بلاد الشام كبار الأمراء يقررون وضع رجل بالغ على العرش وبذلك اعتلى برقوق العرش عام ١٣٨٢. وكان برقوق هو أول سلطان من الجراكسة، كما برز من وظيفة من خارج المماليك السلطانية، وهو رجل جديد

تمامًا. ولُقب باسم الظاهر، على اسم السلطان العظيم بيبرس، وعلى الرغم من أنه لم يكن شبيهًا ببيبرس فإنه كان لا بأس به في القدرة على الاستمرار في الحياة السياسية. وقام بتدبير تفادي عملية إعدامه واللجوء إلى الكرك عندما تم خلعه عن العرش في عام ١٣٨٩، واعتلى الصالح حاج العرش مرة أخرى بواسطة (حكومة ثنائية) من اثنين من أقوى كبار الأمراء. وتفككت الحكومة الثنائية من خلال الكراهية المتبادلة وكان برقوق قادرًا على العودة من المنفى والمطالبة بالعرش. وكان الصالح وبرقوق يقومان بترتيب حفلات الشراب معًا، ومع ذلك لم يكن هناك أدنى شك فيمن هو الملك الآن، فعندما أسرف الصالح في شرابه، وتباسط معه في حديثه، أمر برقوق مماليكه: "خذوا الأمير حاج إلى المنزل". ووضع برقوق مماليكه الجراكسة في كل وظيفة رئيسية في الحكومة، ثم استدار ليقوم بتركيز جل انتباهه لتأسيس أسرة حاكمة. وتوفي السلطان برقوق عام ١٣٩٩ بعد أن قام بترتيب تولية العرش لنجله الناصر فرج.

الفصل العاشر

أعداء من الخارج وأعداء بالداخل
ظهــور العثمانيين وتيمورلنــــك

أنا سخط الله وغضبه الآتي
الخوف والرعب الوحيد بالعالم
سأقوم أولاً بإخضاع الأتراك

تيمورلنك العظيم – الجزء الأول

تم شن الحملة الصليبية لبطرس الأول حاكم قبرص ضد الإسكندرية في أكتوبر عام ١٣٦٥، والتي جاءت كمفاجأة تامة للمماليك رغم وجود نُذر كانت تنبئ عن ذلك. فقد تمركز فرسان الإسبتارية في رودس البيزنطية بواسطة الجنويه، كما قام الأسطول القبرصي في عام ١٣٠٨ بنقل القوات العسكرية للغرب الأوروبي مرة أخرى إلى شرق البحر الأبيض المتوسط، كما أن بطرس كان يتجول في أوروبا منذ عام ١٣٦٢ يبحث عن العون من أجل شن حملة صليبية على مصر. وحصل بالفعل على وعود من فرسان الإسبتارية، ومن البندقية بالإضافة إلى البابا. وكانت الانتصارات الإنجليزية في كريسي وكاليه في حرب المائة عام تعني أن الأعداد الكبيرة من الجنود والتي سبق أن وعد بها الملك الفرنسي لن تتجسد على أرض الواقع وبالرغم من ذلك فقد ظلت متاحة ١٦٥ سفينة، وعشرة آلاف رجل و١٤٠٠ جواد وتم تجميعها في جزيرة رودس من أجل الحملة. وأشاعوا أن مقصد الأسطول هو طرابلس ونجحت هذه الخدعة البسيطة في أن يعتقد المصريون عندما وصلت إلى الإسكندرية أن الأسطول هو أسطول تجاري. وكان بطرس ينتوي مهاجمة الإسكندرية واحتلالها ثم يتفاوض مع السلطان ويقدم له اقتراحًا بالحصول على القدس مقابل الإسكندرية. ولا شك أن احتلال الميناء الرئيسي الأول لمصر كان سيقوض المماليك من الناحية المالية وسيجعلهم يرضخون للمفاوضات.

وكان هناك ميناءان للإسكندرية يقعان شرق وغرب منارتها العظيمة، ودخل الصليبيون الميناء الغربي والتي كانت مخصصة للمراكب القادمة من الدول الإسلامية فقط. وأدرك أهل الإسكندرية في تلك اللحظة فقط أن هناك خطأ ما، وأن شيئًا غير عادي يأخذ مجراه، ولكن حاكم المدينة كان يؤدي فريضة الحج ولم يكن نائبه يملك إلا حامية من المجندين العرب تحت إمرته. فقام بوضع رجاله خلف أسوار المدينة حول الميناء بأمل أن يستطيع إيقاف الصليبيين من دخول المدينة بسهولة. وهاجم بطرس السور الغربي من المدينة ولكن القوة التي كانت على الشاطئ لم تكن كافية للاستيلاء عليها. فقام بإنزال المزيد من الرجال واستدار بهجومه تجاه السور الشرقي. وشعر المسلمون بالإحباط في تلك اللحظة، عندما قام مسئول الجمارك بسد منطقة الجمارك التي تُقسم المنطقة التي تقع خلف أسوار الميناء من الناحية الفعلية إلى نصفين؛ وكان يعتقد أنه يدعم الدفاع عن المدينة بهذا العمل، ولكنه في واقع الأمر قام بمنع القوات الإسلامية من التحرك إلى الأسوار الشرقية لمنع الهجوم الجديد. واقتحم الصليبيون على الفور الأسوار الشرقية، ولأن نائب الحاكم أدرك أنهم قاموا بتطويقها فكان يتعين عليه أن يضطر إلى سرعة تعلم فن الحرب أثناء أولى تجارب الحياة له في إطلاق النار فتراجع برجاله إلى البوابة الجنوبية. وكان لا يزال هناك قتال شوارع يتعين أن يقوم به الفرسان كما كان يجب عليهم أن يقوموا بصد هجوم مضاد للقوات الإسلامية ولكن في خلال يومين كانت المدينة قد وقعت في قبضتهم بالكامل ونتج عن ذلك أعمال نهب ومذابح وحشية. وربما دفعهم لذلك أعمال القتل التي مارسها بيبرس لفرسان الإسبتارية أثناء سقوط الممالك الصليبية في القرن الثالث عشر وأخذه للنساء والأطفال سبايا ورقيق، وربما كان الدافع هو فقط ثراء الإسكندرية الفاحش، وهي في ذلك الوقت واحدة من أغنى المدن في العالم. وبالتأكيد كانت أعمال الذبح بدون تمييز، وشملت اليهود والمسلمين والمسيحيين وتم ذبحهم من أجل الاستيلاء على الذهب الذي يحوزونه.

وكانت أعمال النهب معضلة كبيرة بالنسبة لبطرس. فقد خرجت الأمور من يده كما تحدث في مثل هذه الحالات، وقبل أن يمر وقت طويل كانت بوابات المدينة قد تم إضرام النيران فيها بواسطة الصليبيين بينما هم ينهبون المدينة بجنون وقواتهم متخمة من كثرة الغنائم التي نهبوها لدرجة أن كل ما كانوا يرغبون فيه الآن هو العودة لأوروبا، وبالطبع الفرار بالثروة الجديدة. وقام بطرس بتدمير الجسر الذي يربط الطريق بالقاهرة وذلك من أجل إبطاء وصول نجدة من قوات المماليك والذي يعرف أنهم قادمون الآن من أجل عملية إنقاذ متأخرة للمدينة وحاول تجميع أفراد قواته، ولكنها كانت عملية يائسة. وفر الإنجليز والفرنسيون بسرعة وحينما وصل المماليك إلى ضواحي الإسكندرية فإن بطرس وفرسانه القبرصيون كانوا قد تراجعوا قبله. وأبحر الأسطول الصليبي بعد ٦ أيام فقط في المدينة، وفي الواقع وهم يسخرون من المماليك الذين يراقبونهم من الشاطئ.

كان المماليك، كما رأينا من قبل، مشتتين في عمليات قتال وحشية قبل وبعد الحروب الصليبية وأيضًا بسلسلة من عمليات التمرد للبدو في الوجه القبلي من أربعينيات القرن الرابع عشر فصاعدًا مما أدى إلى انقطاع إمدادات الحبوب عن القاهرة. كما قامت قوات المماليك بتنفيذ مذابح انتقامية في المناطق التي يقطنها البدو العرب، والفلاحين أيضًا، وهم العمود الفقري للاقتصاد الزراعي، وكان يتم ذبحهم مع المتمردين، وجلبت هذه الأعمال المماليك الكثير جدًا من العرب المستقرين في أراضيهم لينضموا إلى البدو في تمردهم. وبحلول عام ١٣٥٠ وما بعده كان الوجه القبلي بأكمله في حالة تمرد فعلية وضاعت الإيرادات التي كانت تصل للمماليك منه. كما كانت هناك مشكلات مع بدو بلاد الشام أيضًا. كما شُنت حملات تأديبية متكررة ضد التركمان في شمال بلاد الشام في سنوات الستينيات والسبعينيات من القرن الرابع عشر، ولكنهم كانوا يفرون إلى داخل الأناضول بكل بساطة عند وصول قوات المماليك ويعاودون الظهور مرة أخرى عندما ينسحبون.

ولم يكن المماليك وحدهم هم الذين يعانون المتاعب من الأتراك. فبعد انهيار الإليخانات قام أتراك الأناضول باستغلال حريتهم الجديدة في اغتصاب أراضي في الأناضول البيزنطية. وتكونت عصابات حرب حول قادة الشخصيات البارزة ليجلبوا لهم الغنائم والنجاح في الحرب. كانت المنطقة كلها تتشكل من دويلات صغيرة أو (beyliks) تتشكل من قبيلة واحدة. وكان العثمانيون هم أنجح هذه القبائل في شبه الجزيرة في أوائل القرن الرابع عشر في الشمال الشرقي وقرمان في الجنوب الغربي، كما أن القبائل التي كانت موجودة حول هذه العائلات التركية كانت تضم أيضًا البيزنطيين، والأكراد والأرمن. وشد قراصنة الأناضول انتباه البندقية وجنوه في المقام الأول، فتم الاستيلاء على ميناء سميرنا التركي (أزمير الحالي) بقوة مؤلفة من البنادقة والقبارصة وقوات تابعة للكرسي البابوي في عام ١٣٤٤ من أجل منع استخدامها بواسطة الأمراء القراصنة.

وعلى الرغم من ذلك، لم تكن قرصنة، ولكنها كانت عملية تدخل في شئون الإمبراطورية البيزنطية والتي ستؤدي إلى تأسيس دولة العثمانيين بنهاية القرن، لتكون في نفس مستوى السلطنة المملوكية. ويمكن تلخيص نمو الإمبراطورية العثمانية من إمارات صغيرة أو (beyliks) إلى إمبراطورية ضخمة كالآتي. فقد ناشد حنا كانتاكوزينوس أورخان خليفة عثمان أن يمد له يد المساعدة في الحرب الأهلية البيزنطية عام ١٣٤٥. وتم نقل العثمانيين بواسطة الأسطول البيزنطي عبر الدردنيل، ولكن حتى بعد انتهاء الحرب فإن حنا كانتاكوزينوس وجد نفسه لا يستطيع أن يفعل شيئًا بدون أورخان. فقام بتزويج ابنته إليه عام ١٣٤٦ ليضمن قيامه بمساعدته ومرة أخرى احتاج لمساعدته ضد الصرب. وبدا واضحًا في ذلك الوقت للعثمانيين أن الوقت ملائم لغزو الأراضي البيزنطية والبلقان، وبحلول عام ١٣٦٩ قام مراد الأول، وخليفة أورخان بغزو تراقيا الشرقية بالرغم من الحملة الصليبية التي تم إرسالها بمساعدة من البندقية في عام ١٣٦٦. وعاد سفراء بيزنطة

الذين كانوا يتوسلون في طلب العون إلى بلادهم من البابا يجرون أذيال الخيبة، مما دعا كبير مستشاري الإمبراطور إلى أن يصرح: "سوف تسقط القسطنطينية، وبمجرد أن يتم ذلك فسوف يُجبر الفرنجة على محاربة هؤلاء البرابرة في إيطاليا وعلى ضفاف الراين"(٨٧) وتسببت هذه القضية في ابتعاد انتباه الدول الغربية عن المماليك. فقام المماليك بتوقيع اتفاقية سلام رسمية مع قبرص في عام ١٣٧٠، وفي عام ١٣٧٥ وقف القبارصة لا مبالين بينما المماليك يقومون بتمزيق أوصال أرمينيا إلى النهاية ويقومون بضمها إلى السلطنة. وكان العثمانيون في نفس الوقت يقومون بإخضاع بلاد اليونان وصربيا، وعلى الرغم من مقتل مراد الأول في موقعة كوسوفو في عام ١٣٨٩، فإن الدمار الذي لحق بصربيا في ذلك الحين كان كافيًا لانهيارها(٨٨). وكان مراد الأول قد قام بتدشين "المماليك الجدد" قبل وفاته.

من هؤلاء الأسرى الذين يعود بهم المقاتلون في الحرب المقدسة، فإن خُمْسهم يخص السلطان طبقًا للشريعة الإسلامية.

فقاموا بتجميع الرجال الصغار. ويأخذون واحدا من كل خمسة من هؤلاء الأسرى الذين تم القبض عليهم أثناء الحملات ويقومون بتسليمهم للباب العالي. ثم يعطون باقي هؤلاء الرجال إلى الأتراك في الأقاليم حتى يقومون بتعليمهم اللغة التركية، ثم يقومون بإرسالهم إلى الأناضول. وبعد سنوات قلائل يقومون

---

(٨٧) Demetrios Kydones, in C. Imber, in C. Imber, The Ottoman Empire 1300-1481, Istanbul: Isis Press, 1990, p. 29, ربط تردد البابا في مساعدة البيزنطيين بالرغبة في إضعاف الكنيسة الأرثوذكسية وتتحدث أبحاث عن الحاجة إلى نشر الكاثوليكية في البلدان الشرقية. Phillipe de Mezieres'sof the fourteen century.

(٨٨) يعود انهيار صربيا إلى تمرد النبلاء الصربيين بعد المعركة. لم تكن المعركة نفسها معركة استشهاد لنبلاء صربيا ولكنها كانت معركة دموية جدًا للجانبين. حديث سلوبيدان ميلوسيفك عن التضحيات الصربية لأوروبا كان تبريرًا للحرب الأهلية يستند على أوهام من العصور الوسطى.

بإحضارهم إلى الباب العالي وبذلك ينضمون إلى قوات "الإنكشارية" ويعطونهم مسمى يني جري[٨٩] "Yeni Ceri" وتعود أصولهم إلى ذلك الوقت من الزمان[٩٠].

قام السلطان التالي بايزيد يلدرم، أو الصاعقة كما يُطلق عليه، بنشر العثمانيين حتى وصلوا إلى حدود سلطنة المماليك عن طريق شن سلسلة من الحملات الصاعقة التي تليق باسمه. وقام بإخضاع أراضي غرب ووسط الأناضول لسيطرته بحلول عام ١٤٠٠. وطالب بايزيد من السلطان برقوق في عام ١٣٩٩ بأن يقوم بتسليمه قاعدة أمامية للسلطنة المملوكية في أقصى شمال بلاد الشام وهي ملطية. وكان ذلك في تفكير بايزيد له علاقة بتدعيم مركزه بشأن صراعه ضد قبائل الآق قويونلو *(ويعني اسمها الخراف البيضاء لأن القبيلة كانت تُقدس هذا الحيوان- المترجم)*، وهو تجمع لقبائل تركمانية قامت بالاستيلاء على أراض في شمال العراق وشمال غرب إيران بعد انهيار الإليخانات، بدلاً من الهجوم المباشر على المماليك. واستولت مشاعر الدهشة والغضب معًا على السلطان برقوق من جراء هذا الطلب، ولكن وافته المنية قبل أن يستطيع القيام بأي إجراء،

---

(٨٩) تعني هذه الكلمة بالتركية العثمانية والحديثة أيضًا "الجيش الحديث" أو الإنكشارية" الذين عملوا في حرس السلطان العثماني أولاً، وبعد أن تم جلبهم من وسط المجتمعات المسيحية حسب نظام الدوشرمه العثماني. وقد لعبت فرقة الإنكشارية التي تأسست منذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادي دورًا هامًا في الانتصارات التي حققتها القوات العثمانية في البلقان، وكذلك لدى حصار واقتحام مدينة القسطنطينية ١٤٥٣ م. وعن ذلك انظر:

Bayerle, G., Pashas, Begs, and Efendis: A Historical Dictionary of Titles and Terms in the Ottoman Empire, Istanbul, 1997, pp. 159-160

وعن دورهم العسكري الكبير في الدولة العثمانية وفتوحاتها راجع: سونيا محمد البنا، فرقة الإنكشارية: نشأتها ودورها في الدولة العثمانية من خلال المصادر التركية، القاهرة، ٢٠٠٦. إيرين بيتروسيان، الإنكشارية في الإمبراطورية العثمانية، دبي، ٢٠٠٦م **(المراجع)**.

(٩٠) عن مؤرخ عثماني مجهول، انظر "**Lewis p. 226 -7**" صفحات ٢٢٦-٧. كان الباب العالي هو مقر السلطان المتحرك.

وسقطت المدينة في أيدي العثمانيين بعد حصار دام شهرين خلال فترة الركود السياسي التي تسود السلطنة غالبًا قبل أن يتولى السلطان الجديد عرش السلطة. وقام بايزيد وحلفاؤه الصرب في أوروبا بتدمير ولاشيا في عام ١٣٩٥ وموقعة نيقوبولس عام ١٣٩٦. وبحلول عام ١٤٠٢ استطاع أن يقوم بإخضاع القسطنطينية بعملية تطويق على الأرض وحصار من البحار، إلى الدرجة التي جعلت الاستسلام له أمرًا لا مفر منه. غير أن بيزنطة بقيت في أمان وتأخر الاشتباك بين العثمانيين والمماليك نتيجة لهبوب عاصفة قوية من الشرق. فقد وصل تيمورلنك، سخط الله إلى الشرق الأوسط.

وكان تيمورلنك ينتمي إلى النصف الشرقي مما أصبح بعدئذ إليخانات الجغطاي، ولكن جيشه كان من المغول والتركمان كما كان يتكلم اللغة التركية. وكان مسلمًا ويّدعي أنه من سلالة الخانات من خلال زواجه لأميرة من سلالة جنكيزخان. وقام بتجميع جيش كونفيدرالي ضخم من حوله في أعقاب فراغ السلطة الذي حدث في آسيا الوسطى بعد انهيار سلالة يوان الحاكمة، والإليخانات، وإليخانات الجغطاي. وكان تيمورلنك قد بدأ حياته كجندي مرتزق ولكن بفترة طويلة قبل أن تسمح له براعته العسكرية غير العادية أن يقوم بغزوات باسمه فقط. ولقد كان من حسن حظ المماليك والعثمانيين أنه بينما يرى تيمورلنك نفسه كجنكيزخان جديد، فلا هو أو أي من أسلافه كان يملك القدرات الإدارية التي كان يتميز بها جنكيزخان أو قوبلاي خان؛ ولذا فإن الإمبراطورية التي قام بتأسيسها كانت متداعية كما أنه استغرق وقتًا طويلاً يقوم فيه بغزو أراضي كان قد قام بإخضاعها بالفعل من قبل.

وكان أول لقاء بين تيمورلنك والمماليك في عام ١٣٩٣ عندما قام بحملة في أواسط آسيا ضد الدول الوارثة للإليخانات وضد القبيلة الذهبية. وقام السلطان برقوق بمنح حق اللجوء للسلطان أحمد حاكم بغداد السابق، بل وقام بإعادته ومعه قوة من أجل استعادة مدينته بمجرد أن قام تيمورلنك بسحب الجزء الأكبر من

قواته. كما قام السلطان برقوق بإعادة تأكيد المعاهدة التاريخية لخطة الدفاع المشترك ضد تيمورلنك وقام بإعدام مبعوثي تيمورلنك. ولقيت القبيلة الذهبية، ولسوء حظ السلطان، هزيمة منكرة في قتال دام ثلاثة أيام قرب مدينة جروزني الحالية الواقعة شمال تلال القوقاز مباشرة في أبريل ١٣٩٥. ولذا فقد كانت لدى تيمورلنك أسبابه الوجيهة لشن الحرب على مصر، كما أن ثراء مصر، والحاجة إلى التعامل السريع مع التوسع العثماني، بالإضافة إلى حقيقة أن المماليك ومرة أخرى لديهم طفل يجلس على العرش بينما الأمراء يتصارعون من أجل السلطة كل ذلك كانت إغراءات إضافية من أجل شن حملة على الشرق الأوسط في عام ١٣٩٩، على الرغم من حقيقة أنه قد استكمل لتوه فقط حملة دامية لعام كامل ضد الهند.

وقام بايزيد بإرسال مبعوثيه للمماليك بحثًا عن حلفاء ضد تيمورلنك ولكن كبار الأمراء أجابوا، "الآن أصبح بايزيد صديقًا لنا. وعندما مات سيدنا برقوق فإنه قام بغزو بلادنا وقام بالاستيلاء على ملطية. إنه ليس بصديق لنا. دعه يحارب عن بلاده، وسنحارب نحن من أجل بلادنا"(٩١). وتحرك تيمورلنك تجاه العثمانيين أولاً. وقام بحصار سيواس، وهي البوابة التي تؤدي إلى الأناضول، في أغسطس ١٤٠٠. واستسلمت الحامية القوية المكونة من ثلاثة آلاف رجل بعد ثلاثة أسابيع بشرط ألا تراق دماؤهم وكان تيمورلنك وفيًا بوعده – فقد تم دفنهم أحياء. ولم يكن هناك أي رد فعل من العثمانيين لسقوط سيواس كما أصيب المماليك بالشلل من جراء النزاعات الداخلية، ولكن المذبحة التي وقعت في سيواس كان يجب أن تكون نذيرًا كافيًا لكليهما لما يمكن أن يرتكبه تيمورلنك في أراضيهما. أكد خطابه للناصر فرج، السلطان الطفل، نواياه:

---

(91) "in P. Holt "The Age of the Crusades: The Near East from the 11th century to 1517, .London: Longman, 1986, P.179.

لقد ارتكب والدك السلطان أقبح الجرائم ضدنا، ومن ذلك مقتل مبعوثينا بدون سبب.. ولأن والدك بين يدي الله، فإن العقاب على جرائمه سيكون أمام المحكمة الإلهية. وأما عنك، فيجب أن تتدبر في حياتك وحياة مواطنيك.. خشية أن يقوم جنودنا الثائرون بالانقضاض على الناس في مصر وبلاد الشام في مذبحة قاسية، وحرق ونهب ممتلكاتهم. فإذا ما كنت عنيدًا لدرجة أن ترفض هذه النصيحة، فإنك مسئول عن إراقة دماء المسلمين وفقدانك الكامل لكل سلطنتك[٩٢].

اختار الأمراء أن يقوموا بإهمال الخطاب، وقام حاكم دمشق بشطر أجساد مبعوثي تيمورلنك إلى نصفين. وكان رد فعلهم، إذا نظرنا إليه بمنظار اليوم، يتسم بالحماقة، ولكن في ذلك الوقت، وبالرغم من التفسخ الذي أصابه، فإن الجيش المملوكي كان لا يزال أفضل الجيوش في الشرق الأوسط، كما أن مدن بلاد الشام الحصينة قد صمدت ضد الجيوش الشرقية في الماضي، بالإضافة إلى أن قوات تيمورلنك قد ظلت منهمكة في قتال متواصل في الهند، وجورجيا والأناضول في العام المنصرم؛ ولذا فإن الإنهاك الذي يمكن أن يكون قد حل بمعنويات جنوده والموارد اللوجستية لهم أمر متوقع. ووصلوا إلى استنتاج مفاده أن تيمورلنك لن يكون قادرًا على البقاء بحملته في بلاد الشام من أجل الاستيلاء على المدن المُحصنة ويمكن أن يلجأ إلى الانسحاب تحت تهديد الجيش المصري. ولا يزال قرارهم بعدم تحريك الجيش المصري في الحال أمرًا يستعصى على الفهم إن لم يكن خوفًا واضحًا من المؤامرات التي يمكن أن يتم تدبيرها في القاهرة بمجرد

---

(92) " In J. Marozzi "Tamerlane, Sword of Islam, Conqueror of the World, London: HarperCollins, 2004, pp. 291-2

مغادرتهم لها. واندفع تيمورلنك تجاه بلاد الشام وتوقف في حلب في أكتوبر ١٤٠٠. واحتشدت قوات المماليك السورية من دمشق وأنطاكية، وحمص، وحماة داخل أسوار حلب تحت قيادة أمير حلب تيمورطاش. وكان هناك انقسام بين قادة الجيش، فكان هناك فريق ينادي بالتفاوض مع تيمورلنك. وكان هناك اعتراض على هذا الاقتراح ولكن كانت هناك خلافات بين الصقور: فالبعض كان ينادي بهجوم شامل وفوري، وأُلقي عليهم هذا الخطاب الذي يورده مؤرخ تيمورلنك: "إذا كنتم تخشون مقاتليهم ويساوركم القلق بشأن ضخامة عدتهم وعتادهم، ولكن الحمد لله فهناك فرق بيننا وبينهم. فأقواسنا وسهامنا دمشقية، وسيوفنا مصرية، ورماحنا عربية، ودروعنا حلبية...."[٩٣].

وكان هناك اقتراح أكثر حذرًا قدمه بعض المغول المماليك بالصمود أمام الحصار ببساطة. "نحن نعرف الكثير عن هؤلاء الناس، ونعرفهم جيدًا، ونحن نعرف كيف سينتهي هذا. ولا تسارعوا بالقتال. ولا تستهينوا بهذا الأمر"[٩٤]. وقوبلت نصائحهم هذه بآذان صماء في النهاية، لأنه كان يُنظر إليهم بعين الشك بواسطة الجراكسة ولأن تيمورلنك قام بسحب جيش المماليك للخارج بكل ما في وسعه ليبين أن جيشه لن يقوم بالضغط على الحصار. وقام رجاله بحفر خنادق حول خيمته كما قاموا بنصب أستار من جلود الثيران المدبوغة وكما لو كانوا هم المحَاصرين وليسوا المُحاصرين. وعندما شاهد المماليك ذلك، فإنهم أيضًا نصبوا معسكرًا خارج المدينة وأعدوا أنفسهم لدحر المعتدي للخارج.

وشرع تيمورلنك في إرسال قوات استطلاع ضخمة لمضايقة المماليك وجر أقدامهم للمواجهة الكاملة. واحتشد المماليك بنهاية أكتوبر من أجل خوض القتال. وكانت قوات دمشق تحت قيادة الأمير سودون وتُشكل ميمنة الجيش، أما قوات

---

(٩٣) نظام الدين شامي، انظر "Lewis, pp. 104-9"

(٩٤) نظام الدين شامي، انظر "Lewis, pp. 104-9"

حلب تحت قيادة تيمورطاش فكانت تشكل ميسرة الجيش. ووضعت قوات مشاة من المحليين في قلب الجيش وربما تم التخطيط بحيث يؤدي التفاف الجناحين إلى تطويق جيش تيمورلنك. وكانت ميمنة تيمورلنك تحت قيادة ابنه شاه رخ بينما كانت ميسرته تحت قيادة اثنين من أحفاده. وكانت الأفيال المُدرعة، ذكرى لتدميره لدلهي في الهند تحت إمرته المباشرة في أقصى اليمين كما كان يحتفظ بقوة احتياطية من الفرسان في مؤخرة جيشه وعلى ربوة صغيرة.

واندفعت ميمنة تيمورلنك للأمام أولاً للاشتباك مع ميسرة المماليك. واستمرت في تقدمها ولكن عندما تم إطلاق سراح الأفيال ضدهم فإن مماليك حلب انشقوا ولاذوا بالفرار. وهرعوا تجاه أسوار حلب وأدى فرارهم إلى تفشي الفزع في الجيش بأكمله. كما تفككت قوات دمشق وفرت جنوبًا. ويصف لنا مؤرخ تيمورلنك المشهد كالآتي: "لاحقتهم القوات المنتصرة بأقصى سرعتها وهاجمتهم. كما قاموا بقتل الكثيرين من فرسانهم ومن مشاتهم لدرجة أن أكوام القتلى ارتفعت واكتظت شوارع وبوابات مدينة حلب بالجثث لدرجة أن الفرسان المنتصرين كان يتعين عليهم أن يمروا من فوق الجثث وكانت الجياد والبغال تعبر الطريق بصعوبة شديدة من فوقها"(٩٥).

وصمد سودون وتيمورطاش في القلعة كما فعل سنجر في دمشق عام ١٣٠٠. وكانت تحصينات قلعة حلب مذهلة وربما كان يمكنها أن تمنع تيمورلنك كما صمدت قلعة دمشق أمام غازان. وكان يمكن للمراكب الشراعية أن تمر في الخنادق المائية حيث كان حجمها يسمح بذلك، كما أن أعمال الحفر الأرضية كانت من العمق بحيث لا يمكن للرجال المرور فيها. وكان سنجر واثقًا من أن الجيش المصري قادم بينما كان قد اتضح جليًا لمماليك حلب أنه ليس هناك جيش في طريقه إليهم من القاهرة. والأكثر من ذلك، وبينما كانت المشاعر الدينية حائلاً أمام

---

(٩٥) نظام الدين شامي، انظر "Lewis, pp. 104-9"

غازان من الإقدام على العنف البالغ تجاه المسلمين في دمشق، فإن تيمورلنك المسلم شرع في مذابح لن تنتهي إلا باستسلام القلعة. وكانت رسالته الموجهة إلى تيمورطاش تقول: "إذا ما كنت راغبًا في الحفاظ على حياتك، فستمضي الأمور طيبة بالنسبة لك، وإلا فإنك تُضحي بحياتك، وحياة زوجاتك، وأطفالك"(٩٦).

واستسلم تيمورطاش وسودون ولكن مصير حلب لم يتغير نتيجة لذلك؛ فقد استمرت المذابح. وكان يتم اغتصاب النساء في المسجد الكبير وتم إعمال السيف في أطفالهم. واكتظت شوارع حلب بجثث القتلى وحينئذ استدار جنود تيمورلنك لأعمال النهب. وكان هناك ٢٠ ألف رأس مكدسة في أكوام حول أسوار المدينة. وتحطمت مدينة نور الدين، بطل الجهاد ضد الصليبيين، وأصبحت خرائب هائلة كما أصبح الطريق إلى دمشق مفتوحًا أمام تيمورلنك. وسقطت مدن حماة، وحمص، وبيروت، وصيدا بسرعة بالغة. وأخيرًا وفي يوم ٢٦ نوفمبر فقط تحرك السلطان وجيشه من القاهرة. ووصل جيش فرج بالقرب من جنوب دمشق في الوقت المحدد ليشهدوا عملية حصارها بجيش تيمورلنك. وخشي كبار الأمراء من احتمال أن يتم حصارهم أيضًا، ولذا فقد غادر الجيش المصري المكان بمجرد وصوله. وقام فرج بإرسال الحشاشين من أجل قتل تيمورلنك، ولكن تم إلقاء القبض عليهم وإعادتهم إليه، بعد قطع أنوفهم وآذانهم. وحينما لمحت قوات دمشق، أفراد الجيش المصري، فإنهم قاموا بالهجوم على مؤخرة جيش تيمورلنك حيث إن قواته الأساسية كانت قد تحركت بعيدًا من أجل البحث عن مراعى أفضل لخيولهم. وأثار ذلك ثائرة تيمورلنك أكثر من مشاعر الضغينة العادية فقام بإرسال سرية عسكرية وراء فرج قامت بقتل بعض حراس السلطان.

وتحادث تيمورلنك عن السلام مع دمشق بطريقة ما. ونجمت عن مفاوضات مطولة له مع المؤرخ والفيلسوف ابن خلدون الذي تم إنزاله من أعلى أسوار

---

(٩٦) نظام الدين شامي، انظر "Lewis, pp. 104-9"

المدينة من أجل السماح لتيمورلنك بالمرور الآمن من دمشق في بواكير عام ١٤٠١. وكان من نتائج المفاوضات أن تركت دمشق مفتوحة، وقام تيمورلنك بوضع حراس له على كل بوابة من بوابات المدينة لمنع قبائله من نهب المدينة. وبدا كل شيء هادئا في البداية، ولكن فجأة قام المماليك داخل القلعة بنقض استسلامهم وهجموا على رجال تيمورلنك وذبحوا ألفًا من رجاله. وقام تيمورلنك بنصب معدات الحصار ومهندسي الحصار لفترة ٢٩ يوم قبالة أسوار المدينة. وبقي ٤٠ مملوكًا فقط على قيد الحياة بعد القصف المكثف الذي قام به تيمورلنك فخرجوا يجرجرون أقدامهم مستسلمين؛ وقُطع رأس حاكم الإقليم المملوكي، وقرر تيمورلنك تدمير دمشق بأسرها في انتقام نهائي منه. وأضيفت إلى عمليات القتل والاغتصاب التي خضعت لها حلب عمليات التعذيب. وكان يتم صلب الرجال على الحوائط، ويتم سحقهم في عصارات الزيتون، أو إشعال النيران فيهم أو تعليقهم على النيران، أو يتم دفنهم أحياء ليتم استخراجهم بعد دقائق قبل موتهم ثم يتم تكرار العملية نفسها، أو يتم سحلهم بربطهم مع الخيول. وتم تجميع المدنيين في المسجد الكبير وبعد أن امتلأ المسجد تم إشعال النيران فيه. وبعد أن انسحب تيمورلنك تبقى فقط هيكل أسود يكتظ بالأيتام مما كان يعتبر أعظم المدن السورية. وساد الرعب في شوارع القاهرة عندما وصلت الأنباء من دمشق، ولكن تيمورلنك لم يكن ليأت للقاهرة من أجل القتل والنهب. فالقوات التي قام بإرسالها إلى بغداد لم تحقق النجاح، ولكن ما كان في غاية الأهمية هو أنه بينما تم إدخال الرعب في قلوب المماليك فإن العثمانيين لا يزالون هناك إلى الشمال منهم. ولذا فقد استدار تيمورلنك شمالاً حيث المراعي الأفضل ومن حيث يمكنه مراقبة بايزيد وإعداد نفسه للزحف على بغداد.

وأحيطت بغداد بمائة وعشرين برجًا من جماجم القتلى، كما تخضب نهر دجلة بالدماء وأصبح لونه أحمر قانيًا ومكتظًا بجثث الموتى عندما أنهى تيمورلنك مهمته فيها في صيف عام ١٤٠١. وتحرك بعدئذ ببطء ليتحدى بايزيد. وقام

المماليك، في نفس الوقت، بإعادة توطيد أنفسهم في مدن بلاد الشام المتهدمة وكانوا يشهدون المعارك الكبرى التي يخوضها تيمورلنك حتى ذلك الحين. وقابل تيمورلنك العثمانيين في أنقره يوم ٢٨ يوليو ١٤٠٢. وكان انشقاق مجموعة ضخمة من المجندين التتار في جيش بايزيد قد حدد بشكل نهائي مصير السلطان؛ فتم القبض عليه بواسطة تيمورلنك كما تم تدمير جيشه. وبدا كما لو كان ذلك نهاية العثمانيين، ولكن تم العفو عنهم في محاكاة لجنكيزخان فاتح العالم. وبحلول ربيع عام ١٤٠٣ كان تيمورلنك يقوم بعبور الأناضول بالفعل، والزحف تجاه سمرقند ومن هنالك قرر الشروع في غزو الصين. ومات وهو في طريقه لتحدي الإمبراطور منج في عام ١٤٠٥. وكان قد قام بتأسيس إمارات صغيرة ومتناثرة لا قيمة لها في الأناضول قبل وفاته. وكانت سيطرته للمنطقة واهية وكل ما كان ينتظره من الدول التابعة هو الجزية. واستطاع محمد وهو واحد من أبناء بايزيد المتوفى في مثل تلك المستعمرات المتداعية أن يقوم بتجميع رجال من بقايا الجيش العثماني بما يكفي لهزيمة إخوته في حرب أهليه بدون تدخل من أتباع تيمورلنك وكان لا يزال قادرًا على الاعتماد على مساعدة أتباعه الإقطاعيين من الصرب ضد هجمات البيزنطيين، وولاشيا والبندقية. وكان العثمانيون قادرون على العودة للحياة كما يحدث في الأساطير، فبحلول عام ١٤١٧ أصبحوا يضاهون أي قوة في الأناضول أو في البلقان. وبدأت عمليات الغزو مرة أخرى بحلول عام ١٤٢١ وكانت إمبراطورية تيمورلنك في طريقها للاضمحلال.

وتفاقم اضمحلال المماليك بالفعل بإعادة احتلال بلاد الشام حيث أدى ذلك إلى توسيع مجالات الانشقاقات السياسية داخل السلطنة، كما أن عمليات إعادة التعمير استنزفت الخزانة العامة. كان شيخ المحمودي حاكم دمشق، وهو واحد من حراس برقوق السابقين يقوم بإيواء اللاجئين من القاهرة والفارين من خضم الصراعات المستمرة حول عرش السلطان فرج. وكان يشبك أهم هؤلاء اللاجئين إلى شيخ المحمودي، وهو معلم السلطان الصغير، والذي كان لفترة قصيرة الرجل

القوي الذي يحرك الأحداث من وراء أستار العرش. انضم حاكم حلب، جقم، إلى هؤلاء في تمرد نشب في مايو ١٤٠٥، ولكن بعد قتال ضار جرت وقائعه حول قلعة القاهرة فإن القطبين السوريين فرا إلى صفد وحلب بينما لجأ يشبك إلى الاختباء في القاهرة. وقام بالتصالح مع السلطان ولكن فرج تخلى فجأة عن العرش بعد أن انغمس في جلسة شراب أخيرة بشراهة ثم لجأ إلى مخبأ في سبتمبر ١٤٠٥. ولم ينزعج القطبان الكبيران لذلك، وإنما استبدلوه بكل بساطة بأخيه غير الشقيق، ولكن بحلول شهر نوفمبر فإن فرج أفاق لنفسه وأعاد تنظيم حساباته. وعمل يشبك على جمع التأييد لنفسه داخل المدينة من أجل العودة، والذي كان في النهاية بلا اعتراض تقريبًا وكان يشبه عودة المنتصرين. وفر الحزب المساند لأخيه غير الشقيق، المنصور، من المدينة وتم إرسال السلطان السابق إلى الإسكندرية حيث مات هناك على الفور وسط شائعات عن تسميمه.

ويمكن تلخيص فترة الحكم الثانية لفرج في كلمة واحدة، بلاد الشام. فقد قام بشن خمس حملات على الإقليم، ليس على أعداء الخارج، ولكن ضد المتمردين المماليك. وأعلن جقم نفسه سلطانًا على حلب بدعم من شيخ المحمودي، وفي عام ١٤٠٧ قام يشبك – دونًا عن كل البشر – بالانضمام إلى شيخ المحمودي واستوليا معًا على دمشق. ولقي يشبك مصرعه في معركة في بعلبك في سبتمبر من نفس العام ولكن شيخ المحمودي كان قد فر من ميدان القتال. ولقد كان قتال مماليك برقوق يشبه قتال وحش الأساطير الخرافي كلما قمت بقطع رأس له ظهرت له عدة رؤوس. وتمرد حاكم دمشق الذي كان مواليًا في السابق في يناير عام ١٤١١ وانضم إلى شيخ للإغارة على القاهرة بينما كان فرج منهمكًا في بلاد الشام مع تمرد أمير آخر. وعندما بلغ التعب منه مبلغه من قطع الرؤوس التي ينمو بديلا لها عدة رؤوس على الفور، فإنه قرر التعامل مع البدن، ولذا لجأ فرج إلى مهاجمة جسم الوحش مباشرة؛ وقام بتطهير مصر من مماليك برقوق، ولكن ذلك لم يؤد

إلا إلى زيادة في ضراوة المقاومة ضده في بلاد الشام وتآكل التأييد الذي كان يلقاه في القاهرة. وقع فرج والحملة التي كانت تصاحبه في كمين نُصب لهم داخل دمشق في مارس ١٤١٢ بعد أن هوجم وهو في طريقه للعاصمة السورية. وفاوض شيخ المحمودي، رأس الفتنة السلطان فرج بأن يقوم بالاستسلام في يوم ٢٣ مايو. وخضع فرج للمحاكمة بواسطة الأمراء، ولكي يتم منح هذه المحاكمة ثوب الشرعية فإنهم وضعوا قضاة شرعيين على لائحة القضاء. ولكن الخطة جاءت بنتائج عكسية حيث إن القضاة الشرعيين كانوا غير راغبين في إدانة فرج ولكن شيخ قرر اصطناع سلاحه السري الخاص. فقد قام بإلقاء القبض على الخليفة المستعين ومعه السلطان، وأخذ يضغط على الخليفة لقبول عرش السلطان. كان الخليفة قادرًا – بوصفه من الناحية النظرية على الأقل – قائد العالم الإسلامي السني – التأثير على القضاء وتم الحكم على فرج بالموت. ولم تكن مأساة الخليفة خطيرة كما هو الحال بالنسبة لفرج، ولكنها أثارت عليه مشاعر شفقة ابن تغري بردي. وشعر الخليفة بالحنين إلى عشيرته في البقاع النائية عن القلعة؛ فقد كان يشعر بالملل من قلة الزائرين. وكان اعتذاره عن المنصب الذي فُرض عليه بلا جدوى. وأن يصرح باعتذاره أو ندمه لم يكن ليجعل أحدا من الأمراء أو أي شخص آخر يهرع لمعاونته، ولذا فإنه التزم الصمت واحتفظ بآلامه بين جوانحه"(٩٧).

ولم يكن يتعين عليه أن يقاسي الوحدة طويلاً، فقد دخل إلى القاهرة كخليفة وسلطان في يوليو ١٤١٢ ولكنه أصبح خليفة فقط بحلول شهر نوفمبر حيث تولى شيخ المحمودي عرش السلطان. وتوفي المستعين بعدها بقليل وأصبح يتعين على العالم الإسلامي بأسره أن ينتظر الغزو العثماني لمصر ليصبح الجمع بين منصب السلطان والخليفة تقليدًا ساريًا وموائمًا سياسيًا للحكام العثمانيين. وتحرك شيخ المحمودي في مارس ١٤١٤ ضد أمراء بلاد الشام الذين وضعوه على كرسي

(97) in Holt, The Age of the Crusades, p. 182.

السلطة. وكان قائدهم نوروز يعمل كحاكم مستقل في دمشق وأصبح يتعين على شيخ أن يقوم بإحضار الجيش المصري بأكمله إلى بلاد الشام من أجل إخضاعه. واستطاع شيخ وبعد أربعة أشهر من القتال وبعد خسائر فادحة للطرفين أن يقوم بحصار فلول قوات نوروز في دمشق. وعرض شيخ العفو عن نوروز وتم تسجيل كتاب قانوني مُلزم لهذا الغرض. وجعل نوروز مستشاريه يفحصون المستند ولكن مهاراتهم كانت غير مكتملة حيث إن اللغة العربية التي كُتبت بها كانت رديئة للغاية، وكانت متعمدة، بحيث كانت غير ذات قيمة تُذكر. وقام شيخ بالقبض على نوروز وأعوانه في اللحظة التي وطأت أقدامهم خارج أسوار المدينة وتم إعدامهم في الحال. واحتاج الأمر لحملة عسكرية أخرى في العام التالي من أجل إرغام بلاد الشام على قبول سلطانها الجديد وعندئذ فقط كان شيخ مستعدًا لاسترداد الأراضي التي فقدها لصالح الدويلات الصغيرة والتي كان تيمورلنك قد قام بتأسيسها قبل مغادرته المنطقة. وشرع في الخروج في مارس ١٤١٧؛ وتم إخضاع طرسوس بعد عملية حصار قصيرة كما أن الأبلستين قد تم نهبها. وعاد السلطان إلى القاهرة في الشتاء بعد أن قام بإخضاع معظم جنوب غرب الأناضول إليه. وتم تقليم أجنحة قرمان المنافس السابق للعثمانيين، كما أن إمارة ذولقادر (**Dulkadarids**) الواقعة إلى الشرق منها قد تم إخضاعها أيضًا لتصبح دولة تابعة للسلطان. وقام الصارمي، نجل شيخ بحملة ناجحة في عام ١٤١٩ وصل فيها إلى قيصرية عاصمة قرمان، ولكن خطط شيخ لإقامة سلالة حاكمة، وهو الحلم الفاشل لكل سلطان مملوكي، بدأ يذوي عندما توفي الصارمي في يونيو ١٤٢٠، وأصبح السلطان نفسه رجلاً مريضًا. وهرع إلى كبار الأمراء لينال منهم قسم البيعة لنجله أحمد ذو العام الواحد قبل وفاته ولكن ذلك لم يكن كافيًا ليمنع حدوث انقلاب تزعمه الأقطاب الكبار وحتى قبل أن يوارى جسد شيخ الثرى. وتوفي شيخ في ١٤ يناير ١٤٢١ ولكن بحلول شهر أغسطس من نفس العام أُزيح أحمد عن العرش وجلس الأمير ططر على العرش. وكانت فترة حكم ططر، ولسخرية الأقدار، أقل من فترة حكم الطفل

أحمد، ووضع ابنه ذو السنوات العشر، الصالح، خليفة له، وأُزيح الصالح أيضاً بواسطة طغمة عسكرية وبالضبط كما حدث مع أحمد في ١٤ مارس ١٤٢٢. وكان أتابك الصالح والداعم الأول له هو جاني بك. وتم إلقاؤه في السجن بواسطة الطغمة العسكرية ولكنه فر هاربًا ليكون منبعًا للمشاكل فيما بعد.

وكان برسباي الظاهري كسلطان هو اختيار الأمراء العسكريين الذين قاموا بإنهاء حكم سلالة ططر قبل أن تبدأ بالفعل، وأدى اختيارهم للدولة العسكرية المملوكية خدمات جمة. فعلى مدار فترة حكمه التي ناهزت ستة عشر عامًا قام بعكس مسار ثروة السلطنة بدرجة كبيرة وملموسة، كما قام بتحقيق ما عجز عنه كل السلاطين من قبله بتحقيق انتصارات بحرية كبيرة. وكان القراصنة الفرنجة الذين يبحرون من قبرص يقومون بشن هجمات على السفن التجارية المصرية وفي يونيو عام ١٤٢٤، وبعد أن أنهى التعامل مع سلسلة من أعمال التمرد الصغيرة في بلاد الشام، قام برسباي بإرسال سفن مصرية وسورية ضد قبرص. وكانت الهجمات صغيرة ولكنها كانت ناجحة وعادت السفن بكل من الأسرى وهبات سخية من ليماسول. وشرع برسباي في بناء المزيد من السفن الحربية، كما قام بتوظيف التكنولوجيا الجديدة وهي المدافع في كل سفينة من السفن، والتخطيط للمزيد من الغارات ضد ليماسول من أجل تمويل هذه الطموحات. وربما يكون قد انتفع من قراءة كتاب الفروسية الوحيد المعروف في مجال الحروب البحرية آنذاك والذي كتبه ابن منجلي القاهري في حقبة حكم السلطان شعبان، والتي تقدم نصائح جمة في التكنيك، وتسليح السفن والإرشادات المفيدة في القتال الفردي في البحر.

وعرض حاكم ميناء فاماغوستا بقبرص الذي تعود أصوله إلى جنوه تقديم المساعدة إلى برسباي وأبحرت السفن المملوكية إلى هناك في صيف عام ١٤٢٥. ونزل أفواج من الفرسان من السفينة ثم أبحر الأسطول تجاه الغرب على طول الساحل الجنوبي بينما قام الفرسان بغزو الداخل. وكان أسطول ليماسول قد اشتبك

في القتال مرتين، كما كان هناك قتال ضار داخل الأراضي القبرصية نفسها. وانسحب المماليك قبل أن يشترك الملك جانوس وجيشه الميداني في القتال. وهاجم برسباي الجزيرة مرة أخرى في صيف عام ١٤٢٦، واتجه الأسطول مباشرة إلى ليماسول واستولى على حصنها في ٣ يوليو. وزحف المماليك بعدئذ إلى نيقوسيا، حيث عاصمة الملك جانوس، ولكن الملك فاجأهم وهم منتشرون على مسافة واسعة ويسيرون في طابور طويل. وكان الكثيرون منهم قد نزعوا دروعهم نظرًا لدرجة الحرارة العالية ولم يكن الكثيرون منهم حقًا في وضع الاستعداد للقتال، والأكثر من ذلك أنهم كانوا أقل عددًا بدرجة خطيرة، وخاصة في المرحلة الأولى للقتال، حيث واجه سبعون مقاتلاً من المماليك كل القوات اللاتينية لقبرص تقريبًا. وكانت الهزيمة هي الاحتمال الأرجح بنسبة كبيرة ولكن كما لو كان المماليك قد تذكروا فجأة أنهم كانوا محاربي الإسلام العظماء. وقد كان في طليعة الجيش فوج المماليك السلطانية وهجموا على الجيش القبرصي وهم يهتفون: "ها هم غنائم الحرب!" وساد الاضطراب في صفوف الجيش القبرصي بعد هذا الهجوم الأول، ولكن جيشهم كان من الضخامة بحيث كان الملك جانوس قادرًا على الصمود على الأرض وتنظيم صفوف جيشه. ووصلت أفواج من الجيش المملوكي تباعًا لميدان المعركة وأضيفت هجماتهم إلى الهجمة الأولى المبدئية للسبعين مقاتلاً. وترنح الجيش القبرصي تحت وطأة الهجمات المملوكية وبدأ في الانهيار. وتم أسر الملك جانوس وقام المماليك بمطاردة فلول قواته المنهزمة حتى ليماسول نفسها حيث قاموا بنهب قصر الملك. وبدا الأمر وكأن مجد سنوات الجهاد الذهبية للمماليك البحرية في القاهرة قد عادت إلى الوجود. وقدمت القوات المنتصرة الملك الأسير في استعراض عسكري في شوارع القاهرة للعامة والذي انحنى في خنوع أمام السلطان. ولم يتم السماح له بالعودة إلى قبرص إلا بعد دفع فدية باهظة وبعد التعهد بأن يظل هو وخلفاؤه تابعين للسلطان للأبد.

ووصل وفد من جزيرة رودس في عــام ١٤٢٧ لتقــديم البيعــة للســلطان برسباي؛ فقد أدخل شن الحرب على قبرص الرعب في قلوب قادتهم ليبحثوا عــن الأمان حتى لا يكون أي منهم هو الهدف التالي. وتدل الدراسة العامة الجارية عــن تلك الحقبة في أعقاب الحروب الصليبية عن تفوق بحري كاسح للدول الغربية، ولذا فإنه وللوهلة الأولى فإن حرية العمل التي تمتع بها هذا الأسطول الصغير لبرسباي ضد قبرص يبدو أمرًا مثيرًا للدهشة، بالنظر إلى أن البندقية كانت هي أقوى صناع الأساطيل اللاتينية، وبيزنطة، والتي تدهور أسطولها ولكنها مع ذلــك ظلــت قــوة بحريــة لا يستهان بها، وظلت القوتان في صراع مع العثمــانيين والــذين كــانوا يهددون مصالح البندقية في اليونان وكانوا يحاصرون القسطنطينية مرة أخــرى في عام ١٤٢٣.

وقام برسباي بتحويل اهتمامه تجاه الجزيرة العربية حيث كان شاه رخ، الذي خلف تيمورلنك يقوم بالخلط بين السياسة والدين. وكانت مكة والمدينة تحت الحماية المملوكية منذ عام ١٢٦٩ ولكن شاه رخ كان يحاول اغتصاب هذه الحمايــة عــن طريق عرض إرسال كسوة جديدة للكعبة بدلاً من تلك التي يقدمها المماليــك. ثــم عرض على برسباي أن يكون حاكمًا على مصر تحت سيادته، حيث كان قــد قــام بمنح منصب الحاكم للعثمانيين والحكام الآخرين في الأناضول والجزيرة، وبالرغم من حقيقة أن أرضه تقع شرق بغداد وتبريز كما أن التداخل المباشر في سياســات الشرق ستكون في الواقع عسيرة جدًا عليه - حيث لم تكن إمبراطوريته على نفــس الحالة التي كانت عليه إبان عصر أبيه. وأثارت ثائرة برسباي الإهانة التي وجهها إليه شاه رخ بعرضه لدرجة أنه ضرب مبعوثه بالسياط وكاد يقوم بإغراقه في بركة بعد أن قام بتمزيق ثوب منصب الحاكم الذي أرسله شاه إلى قطع صــغيرة. وأدرك برسباي بعد أن ذهبت سورة الغضب وأخذ يفكر في هدوء أن القيمة الدعائية لكونه حامي الأماكن المقدسة أصبحت أيضًا في خطر، ولن يدعها تقع في أيدي شاه رخ.

فقام بإرسال حملة للقادة المحليين في مكة ليضمن أن يعرفوا من هو الحاكم حقًا. وكما أن الحملة قامت بفتح جدة وهي ميناء مكة للسفن الهندية والصينية لكمية أكبر من حجم التجارة مارة باليمن مما يزيد من إيرادات السلطنة من الجمارك.

وقام برسباي بتقليد حنا الثاني، ابن جانوس، منصب الحاكم للجلوس على عرش قبرص بعد وفاة الملك العجوز. وكان برسباي في عنفوان قوته، ولكن ظهر له وجه من الماضي ليثير له المتاعب وحتى وفاته. فقد ظهر جاني بك على سطح الأحداث مرة أخرى في الأناضول في عام ١٤٣٥ واستطاع بوسائل عديدة أن يجذب انتباه برسباي إلى معضلات أكثر عمقًا على الحدود الشمالية للسلطنة. فقد استقر تحالف القبائل السنية التركمانية القراقويونلو أو الخراف السوداء في أذربيجان والعراق بينما تحركت القبائل الشيعية الأق قويونلو أو الخراف البيضاء إلى منطقة أرض الجزيرة (بالعراق). وتقع اثنتان من الولايات التركية وهما ذولقادر، وقرمان إلى الغرب من أق قويونلو، وكانت كلتاهما مرة أخرى تحت ضغوط من العثمانيين الذين دب فيهم النشاط من جديد. وأخذ جاني بك يبحث عن مساعدة قبيلة أق قويونلو ولكن هذا المشروع لم يكتب له الحياة حيث إن القبيلة انشغلت في حرب مع قبيلة القراقويونلو. واستمر في حصار ملطية، المدينة الحدودية للمماليك، ولكنه فشل مرة أخرى وتم سجنه بواسطة أمير الأبلستين المجهول. وطلب مبعوث برسباي قتل السجين ولكن قوبل مطلبه بالتجاهل؛ فلقد بات واضحًا أن شاه رخ يملك نفوذًا سياسيًا في الأناضول في ذلك الوقت وأنه يريد أن يطلق سراح المشاغب. ولذا فقد أرسل برسباي حملة تأديبية للأناضول في يوليو ١٤٣٦ وتم ضمان الخضوع الكامل لولاية الأبلستين، ولكن المتمرد جاني بك استطاع الهروب مرة أخرى. واقتضى الأمر خيانة أمراء أق قويونلو من أجل تسليم رأس المشاغب المراوغ إلى القاهرة في أكتوبر عام ١٤٣٧، وحيث أدرك السلطان أنه في أمان حينما عرف أنه سيعيش أطول ممن جعله يعيش في هم مقيم.

وربما خففت من مرارة الموت؛ حيث مات برسباي في ٧ يونيو ١٤٣٧، وخلفه ابنه العزيز يوسف، وكان قد جعل كبار الأمراء يقسمون له قسم البيعة قبل موته.

وكانت فترة الحكم القصيرة كالعادة للابن. واغتصب أحد كبار الأمراء في أواخر الخمسينيات من عمره، وهو جقمق، العرش في شهر سبتمبر. وكان الإنجاز الوحيد الذي تحقق في فترة حكمه هو أنه ظل يجلس على العرش حتى وفاته في سن متأخرة في فبراير ١٤٥٣. وغطت على كل الأحداث التي جرت في فترة حكمه، وحملاته البحرية الثلاث ضد رودس، والتي فشلت جميعها، ووفاته، والظاهرة الشائعة آنذاك لاعتلاء ابنه المنصور لفترة قصيرة كالمعتاد، واغتصاب العرش بواسطة الأمير الأشرف أينال وهو في السبعينيات من عمره، تلك الوقائع التي جرت في الشمال. حيث دمر العثمانيون الجيش الصليبي الضخم في فارنا في عام ١٤٤٤ والحملة الصليبية لترانسيلفانيا والذي شنه حنا هونيادى في الموقعة الثانية لكوسوفو عام ١٤٤٨. وسقطت القسطنطينية في يد محمد الثاني تحت وابل من قصف المدفعية؛ وكان هناك بصفة خاصة مدفع قادر على قذف حجارة يزيد وزنها عن ألف كيلوجرام وكانت تحتاج إلى ستين ثورًا ومائتي رجل من أجل سحبها إلى منطقة الحصار. وبذل المسلمون الكثير من الجهد ومنذ القرن السابع وقد فعلها العثمانيون الآن. وربما تساءل الناس في شوارع القاهرة عمّا يتعين على المماليك أن يفعلوه من أجل مجاراة العثمانيين.

الفصل الحادي عشر

الانطلاق مع أشباح الماضي
سقــوط السلالة الحاكمة

كل لهو باطل، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة: ترويض الرجل فرسه، وملاعبته لأهله، ورميه بين الغرضين.

من حديث رسول ﷺ

لم تكن لفترة حكم الأشرف أينال أهمية تُذكر إلا فيما يخص تمكين المماليك للابن غير الشرعي للملك حنا الثاني ملك قبرص من اغتصاب العرش بالرغم من مطالبات أخته غير الشقيقة. وبدعمهم للملك تيقن المماليك من استمرار وصول الجزية من الجزيرة حتى بعد سقوطها تحت سيطرة البندقية من خلال زواج الملك جمس من نبيلة من البندقية ووفاة الأخيرة. وكان ذلك من بالغ حسن الحظ حيث إن السلطنة كانت ستحتاج إلى كل قرش تستطيع الحصول عليه من هذه الثروة بعد فترة وجيزة. وأدى سقوط القسطنطينية تحت وطأة مدافع محمد الكبيرة إلى إشعال شرارة سباق للتسلح في مجال المدفعية في الشرق الأوسط وكان المماليك في وضع ضعيف لا يمكنهم من الفوز فيه.

وتوفي أينال في فبراير ١٤٦١ وخَلْفه نجله أحمد لفترة بلغت في جملتها أربعة أشهر، وحينئذ استولى خوشقدم أحد كبار مماليك شيخ على العرش، وبذلك أعاد العرش إلى بيت آل برقوق، أحد أوائل السلاطين الجراكسة. ولكنهم كانوا سلالة واحدة من عديد من السلالات المملوكية لا تزال متواجدة في الدولة. ولقد رأينا كيف أن الكثير من السلاطين قد عمروا طويلاً أكثر من معدل الأعمار السائد في القرون الوسطى – فقد كان قلاوون مقاربا للسبعين من عمره وبعد سنوات من القيام بحملات صعبة، كما أن كلا من جقمق والأشرف أينال حكما في السبعينيات

من عمريهما. وكان الوباء لا يزال يحصد أعدادا كبيرة من المماليك، ولكن ذلك كان ينطبق على الوافدين الجدد في الأغلب، ولذا فقد برزت مشكلة جديدة في الدولة، أنه هناك العديد من القادة المخضرمين لا يزالون في عنفوان نشاطهم السياسي إن لم يكن العسكري أيضًا وجميعهم ينتظرون جزءا من كعكة الإيرادات في الدولة. وكان إقناع هؤلاء القادة بكل سهولة من أجل القيام بانقلابات أو الانغماس في أنشطة فساد من أجل تدعيم حياة الرفاهية ومن أجل مساعدة أسرهم الكبيرة والممتدة أمرًا بالغ السهولة. ورغم أنه كان يحظر على أطفال المماليك من الناحية النظرية وراثة مناصب آبائهم لكن كان يمكن للمماليك وقف ثرواتهم للأعمال الدينية أو الخيرية، أو عن طريق أوصيائهم، والذين هم بطبيعة الحال أولادهم – وكانوا يقومون بإدارة هذه الأوقاف وبالتالي يقومون بضمان وسيلة معيشتهم الخاصة. ولا يعني ذلك أننا نفترض بالضرورة أن فكرة الأوقاف فكرة فاسدة. فقد تم تأسيس معظم الآثار الدينية التاريخية كنتيجة لأوقاف المماليك والكثير من المستشفيات التي كان يُطلق عليها اسم المارستان تدين بإنشائها أو صيانتها لأوقاف السلاطين المماليك وكبار الأمراء. وكانت المشكلة تكمن في أن الأمير المملوكي يتعين عليه أن يقوم بتكديس هذه الثروات في حياته ليتم تجريده منها عند وفاته مما يتطلب منه أن يجعل جمع الثروة مقدمًا على دوره العسكري. وكانت ميادين التدريبات العسكرية خالية وآخذة في الانهيار بينما يتم إهمال التدريبات العسكرية. وتُظهر لنا تأملات ابن خلدون التي سطرها في القرن الرابع عشر كيف أن المماليك كانوا متميزين حتى بعد الضعف التدريجي الذي حدث أثناء وبعد حقبة حكم الناصر:

برز من هذه الأمة التركية ومن قبائلها العديدة والعظيمة، قادة للدفاع عنهم ومعاونين ذوي ولاء مطلق، والذين تم استقدامهم

> من دار الحرب إلى دار الإسلام تحت قاعدة المملوكية، والتي كانت تُخفي نفسها وراء نعمة إلهية. تعلموا من خلال المملوكية المجد والتمجيد وتعرضوا للأقدار الإلهية؛ وتعافوا من العبودية عندما دخلوا إلى الدين الإسلامي بالعزم الأكيد للمؤمنين، ولكن بقيم بدوية لم تفسدها طبيعتهم المتواضعة، ولم تدنسهم فواحش المتعة، ولم تلطخهم أساليب الحياة المدنية، وبغيرتهم الملتهبة التي لم تُحد منها وفورات الرفاهية(٩٨).

وأصبحت المؤسسة العسكرية المملوكية عُرضة للخطر، وتحولت إلى أكثر قليلاً من أبهة مواكب أصابها الشلل بحلول منتصف القرن الخامس عشر، فقد صدر مرسوم تم إعلانه في عام ١٤٥١ يحظر على عامة المواطنين ركوب الخيل، كما لو كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لتمييز أنفسهم والمُفترض فيهم أنهم مقاتلون عظماء.

ولابد من أن الفساد وأعمال الخيانة التي كانت سائدة بين كبار الأمراء قد استشرت في الرتب الدنيا والمساعدة من المماليك، ووصل عدم الولاء إلى مستويات غير مسبوقة من قبل وتمثل في أعمال الشغب لتأخر الرواتب والتغيب بدون إذن إبان حقبة حكم الناصر. كما أن قتل وسرقة المواطنين لم تعد أمورا غير عادية؛ فقد تم رجم الأشرف أينال بواسطة مماليكه بينما كان يقوم بأضحية عامة. وكان في مقدور اثنين فقط من سلاطين هذه الحقبة الأخيرة رفع شأن الجيش من المنحدر الذي وصل إليه، وبينما كانت بعض هذه الحلول تعود إلى التقاليد الماضية، فإن بعض هذه الحلول كانت ثورية وغير تقليدية وغالبًا من خارج عالم المماليك.

---

(98) Lewis, pp. 97-9 .

وكان هناك الكثير والكثير من المماليك في شيخوختهم من النخبة والفائضين عن حاجة الدولة، ولكن الآن ليس هناك فائض. فقد افترس الوباء المستمر الفلاحين في مصر، وأصبحت الحبوب شحيحة من أجل حاجة أي شخص لزراعتها والقيام بأعمال الري المطلوبة، وبالتالي تدهورت الإيرادات الناتجة عن الإقطاع بنفس النسبة. وتفاقمت هذه المشاكل من جراء احتكار الإنتاج، والفساد في أعمال سك النقود بواسطة الخزانة العامة وتثبيت الأسعار بواسطة كبار الأمراء. وأصبحت الحرب، في نفس الوقت، وكما أظهر العثمانيون في القسطنطينية، أكثر تقدمًا من الناحية التكنولوجية أكثر فأكثر، وبالتالي أكثر تكلفة بكثير عما كانت عليه من قبل. ولذا فلم يعد من المستغرب على الإطلاق، إذا ما أخذنا تلك الأمور في الاعتبار، والتكلفة العالية للتدريب المعتاد المماليك أن ينحدر جيش المماليك من نخبة عسكرية متميزة، ليصبح في وقت من الأوقات قوة عسكرية من الدرجة الثانية في أواخر القرن الخامس عشر. وتعود حقيقة أنهم كانوا لا يزالون قادرين على إلحاق الهزيمة بأعداء أقوياء إلى أنهم كانوا قد وصلوا إلى مستويات عالية تقترب من درجة الكمال والتي تحققت في عهد المماليك البحرية، وأن النخبة الصغيرة نسبيًا من الجيش لم تكن قد تأثرت إلا قليلاً بالظروف الاقتصادية بعكس الأعداد الكبيرة من المقاتلين المجندين.

وبذل الظاهر سيف الدين خوشقدم جهودًا متميزة، على الرغم من كل المشكلات السابقة لمحاولة الاحتفاظ بفترة حكم تستتب فيه دعائم الهدوء والسلام نسبيًا، وعلى الرغم من احتمال أنه عانى من مرحلة متقدمة من أعراض ذات الرئة وتوفي من جرائها في عام ١٤٦٧، وكان ذلك نتيجة قيامه بارتداء الدروع باستمرار، حتى عندما كان يأوي إلى فراشه، من أجل تحاشي محاولات الاغتيال. وكان خوشقدم من أصول يونانية، وتبعه الظاهر سيف الدين يبلغا المؤيدي، الذي كان مرشحًا توفيقيا بين الجراكسة، الذين استمرت مشاحناتهم حتى بعد تنصيبه. وارتكب يلبغا خطأين: فقد فشل في دفع إكرامية اعتلائه للعرش لحرسه الخاص

والتي يترقبونها كأمر اعتيادي، وأنه قام بشنق ١٢٠ من البدو المتمردين وتقسيم أجسادهم إلى أربعة أجزاء وتعليقها فاندلعت ثورة البدو بعدئذ على الفور. وتم توجيه اللوم للسلطان لهذه الثورات، وتم تنحيته لحساب آخر من الغرباء وهو الألباني الظاهر تمربغا الرومي. وسُجن يلبغا في الإسكندرية وتوفي هناك نتيجة للوباء. واستمر السلطان الجديد أقل من شهرين وبذلك حطم الرقم المسجل لأقل فترة لتولي العرش لسلطان مملوكي بيوم واحد. وكان يبدو سعيدًا وهو يقوم بتوريث ما يشبه كأس القربان المسموم إلى الأمير قايتباي.

وكان قايتباي في العشرين من عمره عندما دخل السلطنة كمملوك، ثم أصبح مُدربًا للرماح في الطباق، ثم أصبح حارسًا في البلاط تحت رئاسة السلطان برسباي. وكان من خاصكية السلطان جقمق، ثم مُنح لقب أمير لمائة في عهد السلطان خوشقدم؛ وكان يمسك بالمظلة الواقية على رأس تمربغا أثناء احتفالات تنصيبه، وطوال تلك الفترة لم تظهر له أية طموحات سياسية ولم يشترك في أي من المؤامرات أو الدسائس التي لا تنتهي، والتي كانت الخبز اليومي لحكومة كبار أمراء المماليك. كما كانت سمعته الطيبة تسبقه كرجل يتمسك بقيم الخشداشية، ويحفظ للأصدقاء حقوقهم، كما أنه كان متزوجًا من ابنة السلطان أينال ويحظى بدعم المماليك الأينالية. وظل يقود السلطنة المملوكية لما يقرب من ثلاثين عامًا، وهكذا وبعد سلسلة من الأطفال الذين تم وضعهم على العرش كدمي فقد تم تنصيب سلطان راشد مرة أخرى، فعندما اعتلى العرش كان في الرابعة والخمسين من عمره، وفوق الثمانين عندما وافته المنية. وقيل إنه رفض العرش عدة مرات قبل أن يقبل في النهاية، ولكن ابن تغري بردي، وهو مؤرخ معاصر له من المماليك، كتب يقول إن قايتباي عندما قام بإلقاء عمامة السلطان بعيدًا عنه عدة مرات، وعندما ضغط عليه زملاؤه للجلوس على العرش، فإنه كان يقوم بتنفيذ تمثيلية مُدبرة بينه وبين أحد رفاق خشداشيته وهو يشبك، والذي يبدو أنه لعب نفس الدور الذي لعبه مارك أنطونيوس مع قيصره.

ولم يكن يبدو على الإطلاق في بداية حقبة قايتباي أنـه مـن المحتمـل أن يستمر أكثر من سلفه، ولكنه استطاع تحقيق ذلك باستخدام مزيج من الفطنة البديهية بإبداء الامتنان لكل أولئك الذين أجلسوه على كرسي السـلطة، وتوطيـد أواصـر الصداقة مع هؤلاء الذين يمكن كسب ولائهم، ونفي أولئك الـذين يبـدو سـلوكهم السياسي باهتًا ومشكوكًا فيهم، والعمل على تأمين إيرادات سريعة ومعقولـة إلـى جانب تدبير إيرادات من المخصصات المالية المُصادرة للمنشقين. وكـان معتـدلاً، ولكنه كان يمكن أن يتحول، كما يقول ابن تغري بردي "يقذف رعدًا وبرقًا" عنـدما يتطلب الأمر ذلك. كما كان هو أول سلطان يتجول في القاهرة راكبًا وبدون حراسة ترافقه منذ عصر خوشقدم.

وتحول قايتباي باهتماماته تجاه بدو مصر. فقد أصبحت سـيطرة المماليـك على دلتا النيل هشة للغاية حيث كان رجال القبائل يقومون بنهـب المتـاجر فـي ضواحي القاهرة بالفعل قبل أن يتم تنظيم فوج من المماليك للقيام بصـدهم وتنفيـذ أعمال انتقامية ضدهم. وتم استخدام إجراءات تأديبية ضد بدو مصر فـي الوجـه القبلي، ولكن أعمال المماليك بدت كأعمال انتقامية أكثر منها كرادع حقيقـي ضـد التمرد. فقد تم اختطاف النساء والأطفال وبيعهم في سوق الرقيق على الرغم من أن الشريعة تحظر بيع المسلمين، كما أن زعماء الفتنة تم تعذيبهم بـالنيران، أو سـلخ جلودهم ودفنهم أحياء أو وضعهم على الخازوق بكل بساطة. وكانـت الأداة التـي يستخدمها قايتباي في تنفيذ هذه الجرائم هو صديقه يشبك، ولكنـه كـان شخصـية مختلفة تمامًا عن شخصية السلطان المهذبة، والورعة والمحبـة لأعمـال الخيـر، والذي كان نقاؤه الروحي مهمًا جدًا لمؤرخي العصر تمامًا مثـل أهميـة نجاحاتـه العسكرية(٩٩). وعلى الرغم من تـلك الدرجة العالية من الضغينة لدى المماليـك

(٩٩) من الجدير بالذكر أن معظم المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى كانوا باحثين دينيين. وكـان مـوقفهم بصفة عامة تجاه الحرب أن الله بصفته الأقوى هو الذي يمنح النصر أكثر مما تمنحه أفعال الرجـال، وهـذا يفسر ضعفهم في النواحي العسكرية، وتقديرهم البالغ للحكام الورعين مثل قايتباي. (المؤلف).

فقد خمدت أعمال التمرد في المدى القصير ولكن المشكلة لم يتم حلها حقًا في الأمد الطويل. وتسبب يشبك في ثورة البدو عندما قام بتكرار هذه الممارسات في بلاد الشام وخروجهم لتأييد السلطان المخلوع تمربغا. وتم القبض على تمربغا بكل سهولة وتم إعادة النظر في إجراءات تقاعده، ويفترض أن يكون قد تم التحفظ عليه في مكان آمن، ولكن كانت هنالك أخطار أكثر سوءا تتفجر بالفعل.

وكانت الأراضي القديمة لأرمينيا تخضع للسيادة المملوكية ولفترة طويلة، ولكن شاه سوار التركماني بدأ في عام ١٤٦٨ بالتخلي عن علاقته بمصر وبدأ في تجميع التركمان من حوله سواء أولئك الذين عانوا من حكم المماليك بما يكفي أو من تشردوا نتيجة لاندفاع العثمانيين شرقًا، وهي الدولة المركزية الأخرى التي تقع إلى الغرب منهم. وغادرت القاهرة حملة بقيادة الأتابك قولاقسيز (Qulaqsiz) في يوم ٧ مارس لسحق هذا المغرور. ولأن سلاطين تلك الحقبة كانوا جميعًا في منتصف العمر أو أكبر، فإن الأتابك في ذلك الوقت كان في الأساس قائدًا ميدانيًا يضاهي المارشال ويمارس كامل اختصاصات السلطان في الميدان.

وتحرك سوار تجاه الظهير السوري وتقابل الجيشان في مدينة عنتاب. وتزحزح سوار وتراجع، ولكن القتال كان شرسًا، وبدا أن سوار يتمتع بدعم من العثمانيين الذين كانوا يهاجمون قرمان إلى الغرب من سوار وكانوا سعداء لامتلاكهم قوات للتطويق إلى الشرق من أعدائهم. ووصلت قايتباي في يوم ١٤ يونيو أنباء الكارثة، فقد استولى سوار مرة أخرى على عنتاب، وعندما خرجت حملة مصرية من حلب لملاقاته كَمَن لملاقاتها في الطريق، وقام سوار بالقبض على قوات الاستطلاع المتقدمة للجيش وتركها تتخبط قبل أن يقوم بالهجوم عليها بقوات الفرسان. وكانت القوات المملوكية تتفوق من حيث العدد بل وقامت بتغيير دفة القتال لصالحها ثلاث مرات ولكن في النهاية قام الأتابك ومعه الكثير من كبار المقاتلين بالاستسلام مقابل الفدية. وتم إعدام هؤلاء الأمراء الذين رفضوا الانحناء أمام سوار. وفر واحد من كبار الأمراء وهو أوزبك منتوتخ من ميدان القتال ومعه قوة صغيرة ووصل إلى حلب.

وأصيب قايتباي بالذهول، فقد تم تدمير قوة كبيرة يقودها عدد من كبار القادة المخضرمين بواسطة حاكم صغير يقود جيشًا صغيرًا يتكون من قطاع الطرق والبدو؛ وأظهر في تلك اللحظة شخصيته الحقيقية. ولم يكن قايتباي رجل إستراتيجية عسكرية عظيما أو عبقرية في ميدان القتال ولكنه كان قادرًا على أن يطبع بالثقة قلوب معاونيه، كما كان قادرًا على مواجهة أسوأ الظروف المُحبطة، كما كان ذا قدرة على رفع الروح المعنوية للجنود والدولة وهي الصفة التي تلازم كل القادة العظام. ووجه الدعوة لكل الرجال لتلبية نداء حماية بلاد الشام، ووعد يشبك بأن يقوم بصرف حوافز لكل القادة من حسابه الخاص وتم رفض الفدية التي كان يطالب بها سوار. وتقرر إرسال رد سريع من قوة مؤلفة من خمسمائة من المماليك إلى بلاد الشام من أجل استعادة الثقة ولمنع سوار من شن غارات، على أن تتبعها حملة كبيرة وبقوة أكبر. واُستدعي المماليك المتقاعدين وتم إعلان الاستنفار العام، والاستيلاء بالقوة على الخيول والبغال من العامة كما تم فرض ضرائب طارئة. وكان يتعين على قايتباي أن يقوم باستدعاء الجيش عدة مرات للتفتيش والمراجعة قبل أن يستطيع تجميع قوة كافية للسريتين المطلوبتين.

ولم تتحرك القوة المؤقتة التي تم تشكيلها حتى يوم ٢٤ أكتوبر، وحتى ذلك الحين كان سوار قد قام بالاستيلاء على حصن دارندا الواقع على نهر الفرات وكان يبدو على العامة في بلاد الشام أنهم سيكونون سعداء بقبول حكمه كبديل عن حكامهم المماليك. وكانت واحدة من الأسباب الجوهرية لاستعادة المماليك لقواهم بعد قيام غازان بغزو بلاد الشام في عام ١٣٠٠ وتيمورلنك في عام ١٤٠٢ هو الولاء والإخلاص، الذي يُحسدون عليه، والذي أبداه فلاحو بلاد الشام، والذي يبدو الآن قد تلاشى كنتيجة لسنوات من الضرائب الباهظة والفساد المُستشري.

ومُنح أوزبك منتوتخ لقب أتابك وعُهد إليه بالقيادة المشتركة للجيش الثاني. ويصف المؤرخون أوزبك منتوتخ بأنه كان بلا طموح وصديقًا حميمًا لقايتباي طوال فترة حكمه، وعلى الرغم من أنه من الثابت أنه في أثناء الفترة الحرجة

لقايتباي والصعوبات التي واجهها في تجهيز الحملة الثانية ضد سوار، فإن كلا من أوزبك منتوتخ والقائد الآخر قرقماز (Kurkumas) رفضا أن يقودا الجيش قبل أن يتسلما دفعة مقدمة من الحوافز المثيلة لتلك التي كان يمنحها بيبرس لأمرائه فقط بعد نجاح الحملة. وشرعت الحملة الثانية في التحرك في فبراير ١٤٦٩، وسط انتشار أنباء طيبة بأن هناك مجاعات وأعمال تمرد في صفوف جيش سوار، ووصلت الحملة إلى حلب خلال شهر واحد. واندفع كل من أوزبك منتوتخ وقرقماز داخل أراضي سوار وشرعا في حرق ونهب مدنه وحقوله. ولذا فقد كان يتعين على سوار أن يبادر بالقتال، وفي معركة قصيرة الأمد للفرسان لقيت قواته هزيمة منكرة كما لقي أخوه مصرعه. وتم إرسال رأس شقيقه للقاهرة وقامت قوات المماليك بمطاردة سوار على طول الطريق حتى حدود العثمانيين. واعتقدوا أنهم أوقعوا به في شرك في ممر ضيق، وكان هناك جدال محتدم بين كبار القادة عما إذا كان يجب عليهم استكمال المطاردة في داخل هذا الوادي الضيق أم لا.

وعندما أصر قرقماز على الموضوع هجره نصف الجيش وعادوا إلى حلب. ولا يمكن بالطبع تخيل حدوث مثل هذا العصيان في العصور الأولى للمماليك، وربما كان قرقماز غير قادر على قيادة الأمراء كما كان يفعل الأمراء المخضرمون. ولم يكن قراره، وبطبيعة الحال، بالدخول إلى الممر الضيق وبدون الاستطلاع عنه كما يجب ليزرع الثقة المطلوبة في قلوب الجنود، ولكنها أدت إلى الكارثة الثانية للمماليك ضد سوار. وحاول أوزبك في خطاب له إلى يشبك أن يقوم بتقديم التبريرات عن دوره في الكارثة التي أدت إلى وفاة قرقماز. وتم سحق جزء كبير من الجيش تحت الصخور الهائلة التي دحرجها رجال سوار المختبئين في أعلى الوادي، ثم إن الهجوم الذي تلا ذلك أثار الذعر والتراجع لأولئك الذين بقوا على قيد الحياة من صفوف المماليك في الوادي العميق. ويقول أوزبك شارحًا الموقف: "لقد قدمت النصيحة للجيش بألا يسلكوا طريق الوادي الضيق، ولكنهم لم

يتفقوا معي. وعندما وصلنا إلى نهاية الممرات الضيق قابلنا التركمان المرافقين لسوار وجهًا لوجهًا وقُتل منهم الكثير. ولكن الأمور انتهت بكارثة عندما قاموا بقطع أوتار أقدام الخيول والجمال والبغال وتعجيزها، وبذلك لم يكن في وسع أي مملوك الخروج من هناك"(١٠٠).

وتحول الجيش المملوكي إلى حشد من الرعاع عند العودة إلى حلب، ولم تكن هناك أجور يتم دفعها لهم لأربعة شهور، وكان المقاتلون جائعين ومتمردين. وقام قايتباي بإرسال النقود ولكن مبعوثه رُجم بالحجارة من الجنود، وبدت الأمور بنهاية العام وكأنها تسير للأسوأ بالنسبة للسلطان. وبدأ الجيش المملوكي يتعرى شيئًا فشيئًا، وأخذ يبدو وكأنه نمر من ورق. ولكن الحظ ابتسم للسلطان. فقد لحقت أضرار هائلة بقوات سوار نتيجة للمواجهة معه كما أنه لقي هزيمة مُنكرة أمام حامية ملطية؛ وكانت هناك شائعات بأنه أُصيب إصابة بالغة بواسطة سهم أطلقه واحد من رجاله، كما كان يتم الهجوم عليه من القبائل المجاورة له. وأطلق سوار سراح رهائنه من الحملة الأولى وأخذ في البحث عن سُبل السلام. وبدا كما لو كان منهج التصميم الذي نهجه قايتباي قد أتى ثماره، لذا فإن مبادرات سوار قد تم رفضها. وبدأ يشبك في الإعداد لحملة عسكرية، والتي غادرت في ٢٦ مارس ١٤٧٠. وبدأ سيرًا حثيثًا تجاه حلب بقواته البالغة ألفين من المقاتلين. وقام باستخدام صف من الفرسان المسرعين ليتقدموا للأمام وإغراء قوات سوار للتقدم تجاه المناطق المفتوحة حيث تلقفتهم القوة الرئيسية في قتال ضار. وكانت للحملة معضلاتها؛ حيث إن سوار عدو ماكر فعند نقطة معينة التف عائدًا للإغارة على ملطية للمرة الثانية، وفي هذه المرة قام بالقبض على قائد الحامية وحكم عليه

---

(100) "in C. Petry"Twilight of Miajesty: The Reigns of the Mamluk Sultans al-Ashraf Qaytbay and Kansawh al- Ghawori in Egypt, Seattle: University of Washington Press, 1993, p. 65.

بالموت البطيء بالخازوق بغرزه على شجرة، ولكن بحلول شهر أغسطس كانت ليشبك اليد العليا وكانت هناك مواجهة حاسمة على نهر جيخان في شهر نوفمبر ١٤٧١.

وقفت قوات سوار على إحدى ضفتي النهر، وأخذوا في توجيه الشتائم والاتهامات لقوات المماليك المصطفين على الناحية الأخرى من النهر. وكان الهدف من ذلك هو دفعهم إلى الهجوم عليهم ولكن يشبك ظل متحكمًا في قواته ومنعهم من الاندفاع. وكان يعلم أن سوار غير مستعد للاشتباك ولكن ليس أمامه خيار آخر إلا ملاقاة المماليك الذين كانوا يقومون بحرق ونهب مدنه. وكانت قواته تتوق إلى الطعام وعلى وشك أن تتبدد، ويمكن فقط لنصر سريع أن يجمع شتاتهم مرة أخرى ويجعلهم متماسكين. وأرسل يشبك قوة للاستطلاع والاتصال بفرق التركمان التي تتشكل منها قوات سوار، وبدون أي تلكؤ فإنهم هجروه وانضموا إلى قوات المماليك. ولاذ سوار بالفرار، وظل كذلك لعدة أشهر مطلق السراح؛ وأخيرًا أثار يشبك غضب الكثيرين من أمرائه عندما قام بعرض المرور الآمن لسوار ولكن عندئذ قام بإلقاء القبض عليه وسجنه بسرعة كخائن. ونُقل سوار وكل أفراد أسرته من الذكور الذين تم العثور عليهم وعرضهم في شوارع القاهرة، عرايا، وجالسين ووجوههم إلى الخلف على ظهور الجمال، قبل أن يتم شنقهم وتقسيم جثثهم إلى أربعة أجزاء. وظلت أجزاء أجسادهم معلقة على بوابات المدينة.

وكانت الحملة مكلفة ومدمرة لأجل مجد نظام الحكم. وكتب "جيبون" في كتابه "تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية" بطريقة مطولة عن أهمية "رعب الجيش الروماني"، والأخطار التي نشأت عن اختفاء هذه الواجهة من التفوق العسكري. لقد كشف سوار الضعف الخطير الذي طرأ على آلة الحرب المملوكية وإدراك هذا الضعف يمكن أن يُشجع على المزيد من الاضطرابات سواء من التحالفات التركمانية أو من العثمانيين. ولذا فقد كان على قايتباي أن يتحسس

موضع قدميه بعناية قبل أن يتعامل حتى مع الحكام الصغار لشرق الأناضول. وكان يمتلك ولحسن الحظ براعة فائقة وحكمة في حسن التصرف. ووضعت هذه الدبلوماسية موضع الاختبار في عام ١٤٧٣ في النزاع الذي نشب بين محمد الثاني، والذي كان منذ غزوه للقسطنطينية صعب المراس شأنه شأن تيمورلنك في حملاته، وبين أوزون حسن وهو قائد قبيلة الأق قويونلو.

وكانت تحالفات أوزون حسن تتزايد في الحجم، وأصبح يمتلك الآن قوة عسكرية كبيرة، كما أن ممتلكاته كانت تتمدد لتضغط على الحدود الشمالية للمماليك في بلاد الشام والأناضول. وبينما كان محمد الثاني يقوم بالضغط شرقًا عبر الأناضول وبينما كان جيشه يرتكب ما أثار حفيظته ألا وهو مواجهة الأعداء القدامى للعثمانيين وهم أسرة قرمان، فإنه كان قد أصبح مستعدًا لمواجهة طموحات حسن وجهًا لوجه في عام ١٤٦٨. وبينما وقف قايتباي غير مبال في حرب عام ١٤٦٨، على الرغم من توافد مبعوثي قرمان إلى بلاطه يناشدونه مد يد العون. فقد كان لا يزال جديدًا في منصب السلطان ولم يكن قد قام بالقضاء على كل المقاومة ضد نظام حكمه بعد سواء من حكومة المماليك أو من داخل مصر. وكان عليه الآن في عام ١٤٧٣ أن يفكر مرة أخرى في شأن العثمانيين. فلا شك أنهم أعداء خطرون وأن أي هزيمة على يد قبائل الأق قويونلو ستجعل محمد الثاني يُحجم عن التدخل في المسيرات بين الأناضول وبين شمال بلاد الشام، ولكن حسن قام بعبور نهر الفرات في نوفمبر ١٤٧٢ بجيش كبير وقام بالاستيلاء على ملطية وانتزاعها من يد قايتباي. وعُهد بأمر إزاحة حسن مرة أخرى إلى يشبك الضابط الموثوق فيه لدي قايتباي، والذي قام بالمهمة برباطة جأش، وأجبره على التقهقر مرة أخرى إلى ما وراء نهر الفرات في أبريل ١٤٧٣.

وشهد نفس الشهر مهمة دبلوماسية لوفد من العثمانيين إلى يشبك في بلاد الشام يقومون فيها بعرض مساعداتهم في الحرب ضد الأق قويونلو.

ويقول ابن إياس إن الوفد قد جاء وهو محمل بالكثير من الهدايا والخطابات، وذلك حتى يمكن توطيد أواصر الصداقة بين العثمانيين والسلاطين المماليك ضد أوزون حسن. كما كان هناك، وفي نفس الوقت، مبعوث من العثمانيين لقصر السلطان قايتباي في القاهرة ليطلع السلطان على الخطابات التي تم الاستيلاء عليها من حسن ومرسلة إلى البابا وإلى دوج البندقية يقترح فيها أن يقوموا بمهاجمة العثمانيين وسلاطين المماليك من البحر بينما يقوم حسن بالهجوم عليهم من البر. كما أبلغ العثمانيون السلطان أنهم قد علموا أن حسن يقوم بإعلان نفسه تيمورلنك جديد. وكان ذلك كافيًا ليجعل قايتباي يعطي عهدًا بأن المماليك سيظلون على الحياد في النزاع، ولذا فإنه عندما تحرك الجيش العثماني على طول نهر الفرات من أجل ملاقاة حسن للقتال فإنهم قابلوا أحد عشر من سفراء قايتباي على الجمال بالقرب من ملطية ليقدموا لهم تأكيدات إضافية مجددة بعدم حدوث اعتداء من المماليك. وبذلك اطمأن العثمانيون على مؤخرة جيشهم الجنوبي، واتجهوا شمالاً لملاقاة جيش حسن. ولذا فإنه عندما وصل إلى قايتباي رأس الأمير زينل نجل حسن كهدية من محمد الثاني، ربما يكون قد ابتهج كثيرًا لأن عدوًا خطيرًا جدًا للسلطنة قد تم محوه من الوجود بدون أن يضطر إلى نشر جندي واحد ضده. ولكن القصة الكاملة لما يحدث في الشمال من أراضي المماليك لم تكن قد اكتملت بعد.

وصرخ أحد ضباط حسن عندما تجسس لأول مرة على جيش العثمانيين من الذهول: "يا ابن العاهرة، يا له من خضم من المقاتلين!"، ولكن المؤرخين العثمانيين قاموا بتسجيل قلق محمد الثاني الشديد من حجم جيش حسن، لدرجة أنه دعا إلى أن تقام الصلوات، والصيام، والابتهالات الدينية في كل أنحاء الإمبراطورية قبل القتال، ورغم أن القوات العثمانية التي تم نشرها كانت بالغة الضخامة(١٠١).

---

(١٠١) ربما كان أوزون حسن هو أخطر رجل يمكن أن يلاقيه محمد إبان فترة حكمه، ومثله مثل تيمورلنك فإنه كان يضم تحالفًا لكل أعداء الدولة العثمانية المركزية، كما يمكنه أن يقوم بجذب كل العناصر التركمانية المناوئة للعثمانيين. وكان يمكن أن تنتهي حملة محمد بنفس النتيجة الكارثية التي انتهت بها=

فقد تناقصت أُعداد مقاتلي المماليك السلطانية خلال تلك الفترة من ١٢ ألف مقاتل تحت حكم الناصر في العشرينيات من القرن الرابع عشر إلى نصف ذلك الرقم في بداية عهد حكم قايتباي. وقام قايتباي بشراء ما يقرب من ثمانية آلاف رجل جديد إبان سنوات حكمه، ولكن وباء الطاعون يمكن أن يكون قد قضى على نصفهم. والأكثر من ذلك، فقد أفادت التقارير أن أوزون حسن كان سعيدًا بالرغم من هزيمته في ١١ أغسطس، وذلك ببساطة لأنه استطاع الهرب من ميدان القتال، لأنه لم ير في حياته قتالاً بالبنادق اليدوية والمدافع، ولأنه كان لا حول له ولا قوة أمام العثمانيين"(١٠٢). فإذا لم يكن قايتباي قد نظر إلى النصر الساحق الذي حققه العثمانيون في عام ١٤٧٣ كنذير لخطر ماحق يحدق بعالمه، فإن محمد الثاني سيكون قد أكد له ذلك بأفعاله فيما بعد. وسقط ميناء كافا، وميناء جنوه الذي يقع على البحر الأسود عام ١٤٧٥ في أيدي العثمانيين، كما أن خان القبيلة الذهبية منجلي جيري تم تقليم أظافره وإخضاعه ليصبح تابعًا للدولة العثمانية، حيث كان محمد الثاني سيذهب لمقاتلة قبائل الجراكسة بالنيابة عن منجلي جيري في عام ١٤٧٨. وأدى نهاية وجود جنوه في منطقة الجراكسة وإخضاع القبيلة الذهبية لتكون خاضعة لمحمد الثاني إلى تقليل موارد مصر من المماليك من مصادرها المفضلة، لتكون في أفضل الظروف، معرضة للخطر أو في أيدي أعدائها المحتملين فى أسوأ الظروف وفي وقت كان السلطان يريد فيه تجديد جيشه.

وبدا واضحًا بجلاء أن محمد الثاني قد حول انتباهه إلى المماليك بحلول عام ١٤٨٠. وقد حاول في عام ١٤٨٠ أن يستلب رودس من فرسان القديس يوحنا،

=حملة بايزيد عام ١٤٠٢. وعلى الرغم من ذلك، لم يحدث لأن العثمانيين في هذه الحقبة أصبحوا أكثر تقدمًا من ناحية فن الحرب عن أعدائهم، كما أن السلطان قد قام بتأمين ولاء قواته لشخصه فقط. (المؤلف).

(102) "Imber, p. 217."

متهمًا إياهم بالقرصنة ضد السفن التجارية للمسلمين. ولكن ما كان واضحًا بجلاء، على الرغم من ذلك، أن رودس تقع على الجانب المقابل للإسكندرية، وأن السيطرة عليها جزء من إستراتيجية أكبر لتأمين الممر البحري من القسطنطينية إلى مصر أولاً وذلك قبل شن الحرب على مصر في عام ١٤٨١. وفشلت الحملة ضد رودس نتيجة لقلعتها الحصينة بطريقة تثير الإعجاب والمقاومة الباسلة لفرسانها، ولكن قايتباي كان قد قرأ النُذر الكامنة وراء ذلك. ويؤكد خطاب صادر من قادة مدينة نابولي في سبتمبر عام ١٤٨٠ إلى دوق فيرارا أن "السلطان قايتباي قد قام بإرسال إعادة تأكيد للقائد الأعلى لفرسان رودس لوعده بتقديم أقصى مساعدة ممكنة ضد الأتراك"(١٠٣). وجمع محمد الثاني كل المجندين من آسيا في نهاية أبريل ١٤٨١ إلى قونيه، وكتب المؤرخون العثمانيون في وقت لاحق أنه كان "يتأهب لمهاجمة السلطان المملوكي شخصيًا، والذي كان في خصام دائم مع قادة حلب ودمشق". ولكن في الحقيقة كان من المحال معرفة أين كان السلطان يرغب في الذهاب. وحتى قادة جيشه لم يكونوا يعرفون؛ كان محمد الثاني يحتضر، وحتى وهو كذلك فقد كان يرغب في قيادة حملة. وتوفي في إزميت نيقية بالأناضول في ٣ مايو ١٤٨١.

ولم يذرف أحد من مواطنيه دمعة واحدة لوفاته. فقد كانت غزواته وصراعاته مع ما يربو على عشرين دولة مختلفة من أعدائه تتطلب فرض معدلات عالية من الضرائب، وثلاثين عامًا من الحملات المتواصلة تقريبًا لجيشه. ولكن ما تركه من إرث للعثمانيين، بالرغم من ذلك، كان إرثًا بالغ الخطورة لكل جيرانه. وكان مماليك القرن الثالث عشر يرون أنفسهم كأبطال للإسلام، ويعملون تقريبًا بتكليف من الله من أجل هزيمة المغول والصليبيين، كما أن بيبرس وقلاوون منحوا المماليك القيادة والمقدرة العسكرية من أجل تنفيذ ذلك. وبنفس الطريقة، فإن محمد

---

(103) Imber p. 217.

الثاني قد أورث العثمانيين وعيًا استعماريًا متناميًا وعظيمًا، وعلى وجه الأخص من خلال فتح القسطنطينية. ولقد قام بمنح العثمانيين الوسائل التي يدركون بها الطموح من أجل تأسيس إمبراطورية من خلال تنفيذ مركزية الدولـة، وتنظـيم الجـيش، وإعادة ترتيب الأمور المالية للدولة، والتوسع فـي تكـوين الفيـالق الإنكشـارية، والاستثمار في إنشاء أسطول قوي، وبناء قوة مدفعية سـواء مـن أجـل الجـيش الميداني، وأعمال الحصار، وصناعة البنادق اليدوية.

وقضى قايتباي جل سنوات السبعينيات من القرن الخامس عشر في تطهيـر الأينالية من أي معارضة لنظام حكمه، وقام باستخدام أسلوب غير مألوف من قبـل بقيامه بوضع الأمراء المطرودين على لائحة البيع كما لو أنهم عادوا عبيـدًا فـي سوق الرقيق مرة أخرى، وذلك من أجل استكمال سقوطهم الكامـل عـن السـلطة وزيادة الإيرادات. كما كان يقوم بجولات رسمية في من أجل التفتيش شخصيًا على دفاعات السلطنة. وقام بتعزيز وتقوية دفاعات الإسكندرية مما يعتبر اعترافًا ضمنيًا بالتفوق البحري للعثمانيين. وبدت الأمور هادئة بشكل معقول لعقد مـن الزمـان، وشرع قايتباي في تنفيذ إصلاحات في الجيش. وقام بتكوين وحدة مشاة مـن أولاد الناس، والنوبيين، والمجندين المصريين، وأولاد المماليك في محاولة منه لتعويض التناقص في القوة البشرية وارتفاع تكلفة تدريب المماليك. ولإدراكه اليقيني بأنه من المحال أن يجعل هؤلاء الرجال رماة سهام أكفاء فإنه بدلاً من ذلك قـام بتسـليحهم بقربينات بدائية (طراز عتيق من البنادق) كانت متاحة بالنسبة له. وكان برسباي قد حصل على البنادق من بعض التجار الأوروبيين في وقت مبكر في عـام ١٤٥١، وبينما كانت كفاءة هذه الأسلحة أقل بكثير مما يمكن تحقيقـه بواسـطة الأقـواس المُركبة، فإن كتيبات الفروسية للقرن الخامس عشر لا تزال تصف وتصـور لنـا استخدامات هذه الأسلحة الجديدة. وشعر السلطان بالبهجة عندما تسلم شحنة سـفينة من أسلحة نارية أكثر تقدمًا من فرديناند حاكم مدينة نـابولي فـي عـام ١٤٨٢،

وعلى وجه العموم كانت سنوات طيبة، ولكن الضربة القاصمة لنظام الحكم جاءت في عام ١٤٨٠ بوفاة يشبك فيما يمكن وصفه بالمجازفة المثيرة.

وكان ابن أوزون حسن قد تقرب من يشبك في يونيو ١٤٨٠ وقص عليه عن حالة الارتباك التي تسود قبائل الأق قويونلو منذ هزيمتهم سابقًا على يد العثمانيين في عام ١٤٧٣. ولم يستطع يشبك أن يقاوم إغراء أن يقوم باصطحاب قوة معه إلى الجزيرة من أجل تأمين قيادة الاتحاد لنفسه. وكان قد حصل على موافقة ضمنية من قايتباي من أجل القيام بهذه المغامرة حيث كانت المخاوف العميقة تنتاب السلطان من تطلعات يشبك وطموحاته. كما أنه أصبح واضحًا للعيان أنه منذ انتصار محمد الثاني في عام ١٤٧٣ فإن السياسات الدفاعية للمماليك في الزحف عن طريق استخدام دول عازلة تعترف بالسيادة المملوكية عليها في النزاعات بينها وبين العثمانيين أصبحت عُرضة للخطر. ومنحه قايتباي قوة تتألف من خمسمائة مملوك، كما أن يشبك قام بقتل منافس سياسي له وهو آزدامار قبل أن يشرع في الزحف حيث إن أحد العرافين أنبأه أن من يُدعى آزدامار سيقوم بقتله. وانتهت الحملة فجأة نهاية سيئة وبمجرد عبور نهر الفرات للوصول إلى أراضي قبائل الأق قويونلو. فقد حاول يشبك أن يقتحم أسوار حصن الرها الحدودية عندما قامت حامية الحصن بهجوم مباغت على قواته وقامت بتحطيمها وإلقاء القبض عليه. وقام قائد الحامية بإرسال عبد أسود للمملوك في سجنه لقطع رأسه. وقبل أن يتم قطع رأسه مباشرة كان مطلب يشبك أن يعرف اسم قاتله فنزلت الإجابة على رأسه كالصاعقة: آزدامار!. وأصيب قايتباي بالصدمة لأنباء موت يشبك، فقد كان أقرب حلفائه وعندما كان قايتباي يصارع الموت نتيجة للحمى في عام ١٤٦٩ كان يشبك يقوم على تمريضه بنفسه. كما كان يتعين عليه أن يقوم بإرسال صديقه الحميم، والباقي على قيد الحياة أوزبك، إلى بلاد الشام خشية من قيام قبائل الأق قويونلو بغزو بلاد الشام نتيجة لرؤيتهم لرأس قائد جيوش السلطان والذي كان الأكثر إثارة للذعر

في النفوس وهو يتم عرضه في أراضيهم. ولقد قاموا بعملية إجهاضية ضد ملطية في حقيقة الأمر، ولكن فيما عدا ذلك فقد ظلت الأمور هادئة على الحدود.

وتأجلت المواجهة مع العثمانيين في منطقة الأناضول الشرقية بوفاة محمد الثاني وكانت هناك مبادرات دبلوماسية من جانب نجله، السلطان الجديد بايزيد الثاني، وكانت تستهدف حفظ السلام بين كل من الإمبراطوريتين. وكانت معضلة بايزيد أن اعتلاءه للعرش كان محل نزاع مع شقيقه الأصغر جم، والذي قام بحشد الدعم لنفسه من قبائل التركمان التي كانت لا تزال تستخدم كقوات احتياط عن طريق العثمانيين في الأناضول ثم طالب لنفسه بجزء من الإمبراطورية. ولكن قوات جم اندحرت بسرعة ولكن لم يتم القبض عليه وظل شوكة في جنب أخيه لعدة سنوات قادمة. وفر هاربًا من بايزيد إلى السلطنة المملوكية في أغسطس ١٤٨١. وقام قايتباي باستقباله، ولكن بدون أي مراسم، في بهو من قاعات قلعة القاهرة بدلاً من بهو العرش السلطاني. كما أنه ظل جالسًا عندما تم تقديم جم إليه وكان واضحًا أن السلطان يبذل كل ما عنده من حنكة لضمان أن يتردد صدى تأييده لبايزيد في إسطنبول. ولكن قايتباي لم يمنح جم استقبالاً رسميًا كسلطان، وذلك ببساطة لأنه كان يريد أن يتفادى حربًا مع بايزيد وبأي ثمن. ومُنح جم، على أي حال، شرف التجوال في المدينة وظل في مصر لعدة شهور. وعندما قام بزيارة قايتباي يحمل خططًا لغزو الإمبراطورية العثمانية في مارس ١٤٨٢، ولم تكن هنالك أي مساندة تلوح في الأفق، وشعر كبار الأمراء في حقيقة الأمر أنه يقوم ببناء قصور في الهواء حيث لم تكن هناك أي واقعية في خططه. وتم السماح له بمغادرة السلطنة وبدون أن يتلقى أي دعم مادي ولقي هزيمة أخرى من شقيقه في أغسطس ١٤٨٢، ولكنه فر إلى الغرب في هذه المرة، حيث انتهى به الأمر بالنزول في الفاتيكان واستخدامه بواسطة البابا والبندقية لمراقبة طموحات شقيقه تجاه أوروبا حتى وافته المنية في عام ١٤٩٥.

من المؤكد أن قايتباي قد قام بارتكاب خطأ استراتيجي بالامتناع عن دعم جم: فعدم فعل شيء على الإطلاق كان أسوأ من فعل شيء. فقد سبق أن قام بيبرس باستخدام المنشقين المغول والأكراد المعزولين من مناصبهم كما قام باستخدام الخليفة المصري الأول في مغامرات ضد أراضي المغول ولمجرد أن يقوم بإقلاق مضاجع أعدائه وتخريب حركة التجارة المعتادة لديهم. وكان بيبرس يُدرك تمامًا أن هدفهم هو إخضاع بلاد الشام إلى نفوذهم وأن أي عمل يفعله من شأنه أن يشتت انتباههم عن تحقيق هذا المسعى هو أمر يستحق الاهتمام، ولكن قايتباي أساء قراءة المقاصد الإستراتيجية للسياسة العثمانية. وكان يقصد أن يكون محايدًا سياسيًا في مسألة جم، ولكن الحياد لم يكن أمرًا جائزًا لأن الحرب القادمة بين العثمانيين والمماليك لم تكن بشأن الأمراء، فقد كانت بخصوص من تكن له السيادة في شرق الأناضول وبالتالي في الشرق الأوسط بأسره. فقد كان العثمانيون يرون أنفسهم الورثة الطبيعيين لكل أراضي الرومان، كما أنهم الآن خلفاء الإمبراطورية البيزنطية، وكان ذلك بالطبع قبل أن يقوم الفتح العربي بضم مصر وبلاد الشام. ولذا فقد كان يتعين على قايتباي أن يكون أكثر جرأة وأكثر دموية في مسألة جم ولكن الإستراتيجية والفلسفة المملوكية كانت دائمًا ما تشي بالتحفظ في منهجها الذي يستهدف الدفاع عن عالمها فقط. وكان الاستثناء لهذه الإستراتيجية يتمثل في حملات بيبرس وبرسباي في أعوام ١٢٧٧، وسنوات العشرينيات من القرن الخامس عشر، ولم تكن أي منهما تستهدف الاحتلال الدائم لهذه المناطق. ولقد ساعدت السياسة التي قاموا بتنفيذها في القرن الثالث عشر وهي السياسية الدفاعية لسواحل بلاد الشام على تعزيز هذه الحالة العقلية، وبحلول القرن الخامس عشر التزمت السياسة المملوكية بالحفاظ على كل من الإرث الأيديولوجي والإقليمي الذي يشمل مصر وبلاد الشام وبأقل تغييرات محتملة. فالتغيير يعني المخاطرة،

والأنظمة التي تعاني من الشيخوخة ترى التغيير شيئًا بغيضًا. ولـذا فقـد كانـت الإستراتيجية العظمى للمماليك في أواخر القرن الخامس عشر محددة بطريقة فعالة بالحفاظ على الحدود والتدخل فقط في الأناضول من أجل المحافظة على ما يسـمى "دفاع الخطوط الثلاث"(١٠٤). ضد إمكانية غزو بلاد الشـام مـن الشـمال. وكـان العنصر الرئيسي في هذه الإستراتيجية هو جغرافية المنطقة. فقـد كانـت جبـال طوروس ونهر الفرات عوائق طبيعية تُحد من حرية اقتراب أي غازي، ولذا فـإن التحكم في الممرات الجبلية ومناطق المَخاضات في النهر كان أمرًا حيويًا. وكانـت هنالك سيطرة مباشرة من حاميات مملوكية على جبال طـوروس، وسـيرفيندكار، وأياس وملطية. وكان الخط الدفاعي الثاني هو إخضاع الإمارات التركمانيـة فـي قيليقية الواقعة في ما كان يُطلق عليها أرمينيا، والتي كانت تسيطر على بقاع تعتبر ممرات رئيسية خلال المناطق الجبلية. أمـا المنطقـة الخارجيـة الثالثـة لتلـك الإستراتيجية الدفاعية فكانت دولة قرمان الصديقة أو على الأقل المعادية للعثمانيين، ولكن هذا الخط الدفاعي قد تم تحطيمه في واقع الأمر بواسطة محمد الثاني في عام ١٤٧٠، تاركًا فقط جيوبا قليلة للمقاومة في قرمان، وصغار الأمراء التركمان فـي جنوب شرق الأناضول والحاميات المملوكية التي تقع بين العثمانيين وحدود بـلاد الشام الأصلية.

وبدأ بايزيد في تجزئة خطة الدفاع المملوكية في وقت مبكر من عام ١٤٨٤ والتعامل معها بتهديدات بالغزو مقرونة بوعود بالحماية – وفـي كلمـة واحـدة – ابتزاز قادة قبائل التركمان في جنوب شرق الأناضول. وكانت يد بايزيـد طليقـة حيث كانت المجر في حرب مع آل هابسبورج، كما أن هناك معاهدة موقعـة مـع البندقية. وقام قايتباي بإرسال وفد محمل بالهدايا ومقترحات بالهدنة والتعاون بـين

---

(104) S. Har-El, Struggle for Domination in the Middle East. The Ottoman – Mamluk War 1485-91, Leiden: EJ Brill, 1995, pp. 35-54.

الإمبراطورتين مع نهاية العام، ولكن بايزيد ترك الوفد في انتظار رده، وفي يونيو ١٤٨٥ وصلت قايتباي رسالة عبر البريد أن العثمانيين يتحركون عبر سيس وطرسوس. وأُرسل يشبك إلى الشمال مع جيش غير مستعد وتم تكوينه كيفما اتفق. وكانت كراهية المماليك المصرية لمغادرة القاهرة تتزايد أكثر فأكثر، كما أن الاتصالات مع حامية بلاد الشام كانت تعوقها ثورات البدو. وكانت القوة تتشكل من ثلاثة آلاف من المماليك السلطانية المعمرين وعدد كبير من الخاصكية. وكان وجود مثل هذه القوة الجديرة بالاحترام كافيًا لاجتذاب بعض قادة الأناضول الصغار مرة أخرى إلى معسكر المماليك وحينئذ وردت أنباء مدهشة إلى القاهرة تفيد بتحقيق انتصار ضخم قرب أضنه، وفقد العثمانيون أربعين ألف رجل في ميدان القتال وتم إلقاء القبض على قائدهم ومعهم العديد من حملة البيارق. وقام أوزبك بإرسال رؤوس مائتين من الضباط العثمانيين للقاهرة كإعلان عن انتصاره. وهناك نقش في القاهرة تم إهداؤه للسلطان قايتباي يحكي قصة النصر:

> لقد قام بإرسال الجيش المظفر إلى بلاد الروم من أجل ردع جيشهم، وعندما تقابل الجيشان، هجم عليهم الجيش المظفر ببسالة الأسود، وقاموا بإحاطتهم إحاطة السوار بالمعصم ولم يتركوا لهم أي ثغرة للفرار منها وجعلهم يتقافزون كالحمير الوجلة. وقاموا بأسر قائد جيوشهم، ابن هرسك وآخرين معه، وتركوا جثث قتلاهم كفرائس للضباع، والذئاب، والنسور والصقور. وقد جلبوا الأسرى مصفدين في القيود والأغلال، وتقبع أعلامهم الآن مُنْكسة في القصر السلطاني. لم يتم تسجيل مثل هذا النصر المؤزر في تاريخ الملوك السابقين(١٠٥).

(105) In Har- El, p. 133.

وتحقق الانتصار في المعركة التي قام المؤرخون الغربيون بتسجيلها بوصفها أكبر الهزائم التي عانى منها العثمانيون، ولكن الحرب ظلت مستمرة، وكان ذلك هو مشكلة من يواجه العثمانيين. فقد تكفلت القدرات الفذة للمماليك في الماضي بهزيمة المغول حتى عندما كان الفرق في أعداد المقاتلين ضدهم بثلاثة أمثال العدد، لأن الدولة المغولية كان يتم إدارتها بطريقة سيئة كما أنها لم تكن قادرة على تطوير اقتصاد حرب قابل للنمو أو إستراتيجية موثوق بها للتعامل مع المماليك على المدى الطويل. ولكن الأمر أصبح مختلفًا مع العثمانيين. فالعدو الجديد لديه حكومة مركزية وسياسة تجارية فعالة وقاعدة صناعية من أجل تمويل الحروب الشرسة ومدارس تعليمية من أجل تدريب الجنود الإنكشارية وطبقة الضباط. كما أنها عالية الكثافة السكانية فيما يخص الرجال الذين يمكن تجنيدهم في الخدمة العسكرية، بينما الجيش المملوكي بغرابة طبيعة تكوينه لا يمكنه أن ينمو بطريقة متزايدة بدون ضخ استثمارات متزايدة في المماليك الجدد أو استجلاب الرقيق. وكان هذا التوسع مطلوبًا، كما رأينا من قبل، ولكن اقتصاد السلطان في أزمة دائمة، كما تسبب التوسع العثماني في عهد محمد الثاني في عرقلة طرق تجارة العبيد بصرامة. ولم يكن في مقدور الجيش المملوكي مجاراة أعداد المقاتلين لدى العدو حتى مع كتائب قايتباي الجديدة حملة القربينات ومع توظيف فرسان من البدو في الجيش؛ وكان سباق الكم هذا مع العدو سباقًا خاسرًا مقدمًا، ومع إهمال تدريبات الفروسية فلن يكون هناك اعتماد على المقدرات الفردية للتغلب على الكثرة العددية لجيوش العدو. على وجه العموم، وفي الحقيقة من المدهش أن جيش المماليك قد صمد كل هذه الفترة أمام العثمانيين.

وقام العثمانيون بتعويض خسائرهم بحلول شهر يناير بجيش ميداني جديد يتكون من قوات مسيحية من أوروبا والذين تم استثناؤهم من دفع الجزية للخدمة في الأناضول وبحلول شهر أبريل ١٤٨٧ كانوا قد استطاعوا إعادة احتلال أضنه

وقلعة أياس. وتقهقرت الحاميات المملوكية على الحدود إلى حلب. وأصبحت مواقعهم المكشوفة غير قابلة للدفاع عنها، وذلك لأن كل الأمراء الصغار المحيطين بهم قد تحولوا، ومرة أخرى، إلى جانب العثمانيين. وتمرد الجلبان الذين تم إرسالهم إلى حلب لمواجهة ندرة أفراد الجيش نتيجة لعدم تسلم رواتبهم ورحل الكثيرون، ولكن المحاربون المحنكون لحاكم حلب كانوا قادرين على إعاقة تهديد تقدم القوات العثمانية وخلق مانع مؤقت أمامهم. واستمر ذلك الوضع حتى ظهر الأسطول العثماني في بواكير عام ١٤٨٨ بالقرب من قلعة للمماليك تسمى "باب الملك" على الساحل. وكان بايزيد يحاول فتح جبهة جديدة إلى الجنوب من الجبهة الأمامية لقلاع المماليك على جبال طرسوس وإعاقة أي محاولة من المماليك لنقل قوات عن طريق البحر من بلاد الشام إلى قيليقية. واندفعت قوة مكونة من ثلاثة آلاف من الفرسان ذوي التسليح الثقيل، وستة آلاف من الجنود الإنكشارية، ومعهم عدد من الفرسان العادية، وعدد من قوات الاحتياط من المجندين المسيحيين، وبذلك يصل إجمالي عدد القوات إلى ستين ألف مقاتل عبر الإمارات الصغيرة مرة أخرى، وبنفس الطريقة التي أتوا بها في العام الماضي. وسقطت سيس تحت وابل من ضربات المدفعية الثقيلة، وتم أسر حاميتها كما تم غزو قيليقية في أبريل ١٤٨٨. وتوقف العثمانيون هنا، وبدأو في تعزيز تحصيناتهم. فهم واثقون من أن المماليك يجب عليهم أن يأتوا من خلال بوابات بلاد الشام الضيقة من أجل دفعهم وإعادتهم إلى قيليقية؛ سيتم ضربهم بالنيران وهم يفعلون ذلك عن طريق الأسطول العثماني.

- وكان هذا هو الموقف الذي سيواجه أوزبك في يوليو ١٤٨٨ حينما جاء على رأس جيش من حلب من أجل مواجهة العثمانيين. وأُرسل جزء من الجيش يتشكل من قوات حماة كمقدمة إلى بوابات بلاد الشام أولاً، ومعهم قوات من البدو الفرسان ولكن تم القضاء عليهم بواسطة نيران المدفعية من الأسطول العثماني ومن المواقع الثابتة على الجبال بينما يحاولون المرور من الممر الضيق. وتراجع أوزبك، ولكنه

قرر في يوم ٩ أغسطس أن يقوم بدفع جيشه خلال الممر. وكان الموقف أبعد ما يكون عن المثالية فقد كان هناك نهر يجب أن يقوموا بعبوره، كما أن المعنويات كانت منخفضة حيث يتطلع المقاتلون إلى الممر ليرونه وقد تحول إلى منطقة للموت بواسطة المدفعية العثمانية، كما أن التراجع لم يكن خيارًا حينما يكون ملتزمًا بالتحرك. وتحرك للأمام، بالرغم من ذلك، وحالفه حسن الحظ. فقد هبت عاصفة قوية في الخليج أجبرت الأسطول العثماني إلى التوجه للمياه العميقة، وتحطمت العديد من السفن وخرج الناجون من الحطام تغطيهم الأوحال لتتلقفهم قوات المماليك على الشاطئ ليقوموا بذبحهم وهم في قمة الابتهاج. واستعاد المقاتلون الروح المعنوية العالية حيث أرجعوا هبوب العاصفة إلى غضبة إلهية على العثمانيين لأنهم أحضروا معهم قوات مسيحية في حرب إسلامية. وتم الاستيلاء على ما يقرب من خمسة وعشرين سفينة كانت ترسو بالقرب من الشاطئ ومربوطة بالسلاسل مع بعضها البعض بواسطة المماليك.

وتحرك أوزبك على الطريق الساحلي إلى قيليقية واندفع زاحفًا إلى أضنه حيث قابله العثمانيون في سهل يبعد ميلين عن المدينة. وقرر أوزبك وبعد أن تشاور مع أمرائه أن يهاجم العثمانيين بمجرد وصولهم على الفور حيث كان المماليك قد وصلوا قبلهم وهم لم ينظموا صفوفهم. وكان يحتل خُمس الجيش تقليديًا بواسطة قوات أوزبك، يمين ووسط الجيش، المقدمة والمؤخرة، ومعهم المماليك السلطانية في القلب أما فرسان البدو فكان يتم الاحتفاظ بها كاحتياط. وكان مقاتلو دمشق يشكلون ميمنة الجيش ومقاتلي حلب ميسرته. ودفع العثمانيون بسرعة بفرسانهم ذوي التسليح والدروع الثقيلة إلى الوسط وكانوا يقومون بتغطية عملياتهم بصف من رماة السهام والقربينات الإنكشارية. وكمُن في الخط الأمامي للجيش العثماني الأساسي مقاتلون بالأسلحة الخفيفة ورماة سهام. وقام أوزبك بالمثل بوضع حملة القربينات أمام مقدمة الجيش المملوكي. وكانت أجنحة القوات العثمانية تتشكل

من مقاتلي الأناضول في الميمنة، والمجندين الأوربيين في الميسرة إلى جانب قوات أمراء الأناضول الصغار.

وعندما اشتبك الجيشان، تقدمت ميسرة العثمانيين بسرعة وضربت مماليك دمشق بقوة؛ وكانت ميمنة أوزبك تتهاوى تحت هجمات الأوروبيين وفي مقدمته كانت القوات الإنكشارية تنهك قوى حملة القربينات، ولكن قواته من المماليك السلطانية كانت تقف بقوة ضد كل من الإنكشارية والفرسان العثمانيين ذوي التسليح الثقيل. ثم قام حاكم دمشق بتنفيذ تحرك ممتاز لجزء من الجيش تحت ضغط مكثف من المجندين الأوروبيين. فقد كان يرى أن قواته على وشك التخلي عنه وفي الحقيقة فإنهم كانوا على وشك الاستسلام ولذا فقد قام بقيادتهم على وجه السرعة من الميمنة، وراكبًا خلف كافة خطوط المماليك لينضم إلى الميسرة حيث كان مماليك حلب على وشك تحقيق تقدم ضد مقاتلي الأناضول من ميمنة الجيش العثماني. وكانت حركته جريئة وتم تنفيذها بسرعة هائلة لدرجة أدت إلى تغيير موازيين القتال. وأدركت قوات المماليك السلطانية تحت قيادة أوزبك ما هو مطلوب منها، فقامت بمناورة للانتشار تجاه الميمنة وتغطية انسحاب قوات دمشق وبالتالي منع حصار الجيش. وكانوا حينئذ قادرين ليس فقط على السيطرة على الأوروبيين إلى اليمين منهم وعلى الإنكشارية أمامهم ولكنهم أيضًا كانوا قادرين على التحرك للأمام ككل في الثغرة المتزايدة بين قلب العثمانيين وميمنة جيشهم.

وتحطمت ميمنة الجيش العثماني تحت وطأة هذا الهجوم الثلاثي ودب الذعر والفوضى في أوصالهم وبدأت قوات الأناضول في الفرار من ميدان القتال. وحاول الأوروبيون والإنكشاريون، في نفس الوقت استغلال ميزة انحراف قوات المماليك السلطانية لليسار، ونجحوا في النهاية في تطويقهم. فقاموا بالاندفاع حول مؤخرة الجيش المملوكي والهجوم على مؤخرة قوات أوزبك من البدو، الذين فروا من

أمامهم. وكان القتال قد بدأ عند الظهيرة، والآن تميل الشمس نحو المغيب. واستمرت قوات المماليك السلطانية في تقدمها المتسارع، متفوقين بذلك على محاولات القوات الإنكشارية والقوات الأوروبية لمهاجمة مؤخرتهم ووصلوا إلى معسكر العثمانيين وقاموا بنهبه. وكانت المعركة متقلبة لتلك الدرجة، فعلى الرغم من أن قوات أوزبك كانت قد تبعثرت حول ميدان القتال وكان الجيش معرضا لخطر فقدان تماسكه بالكامل. وقرر أوزبك الانسحاب، كما قرر القائد العثماني، علي باشا، نفس الأمر. وكان الليل يسدل أستاره بينما يحاول أوزبك تجميع أشتات جيشه وتنفيذ التراجع الصعب من خلال الممرات الجبلية. وكمن مقاتلو المماليك السلطانية لرجال الأسطول البحري العثماني الذين عادوا إلى الشاطئ بعد مرور العاصفة، وفيما عدا ذلك فقد مضت عملية الانسحاب بهدوء وعاد المماليك بأمان بمحاذاة سفوح الجبال.

ولابد من أن الأمر كان يبدو كالهزيمة بالنسبة للقائد المملوكي، ولكن على الجانب الآخر كان العثمانيون يقومون بتعداد قتلاهم وقرروا أن الجيش قد أصابه الوهن الشديد نتيجة للمعركة لدرجة أن استمرار احتلال قيليقية قد أصبح الآن يتعذر الدفاع عنه. فقد سقط ثلاثون ألف رجل، مقابل خسارة أربعة آلاف مقاتل فقط من المماليك، وقام على باشا بترتيب قوات جيشه للانسحاب والإخلاء من خلال مرتفعات طرسوس بعد أن قام بتطويق معسكره بحمولة المدفعية. وقام أوزبك بإعادة تجميع قواته وتبعهم في الانسحاب بحذر شديد. ثم أحضر مدافع الحصار وبدأ في حصار أضنه التي سوف تستغرق ثلاثة أشهر للانتهاء منها ولكنه لم يمتنع عن بدء حضور احتفالات النصر في القاهرة، والتي استمرت لأسبوع بالكامل.

وكان بايزيد هائجًا في إسطنبول. وتم نفي علي باشا كما تم إعدام الهاربين الذين أُلقي القبض عليهم. واستولى أوزبك في النهاية على أضنه عندما انفجرت

إحدى مستودعات الذخيرة والمهمات العسكرية فيها. كما استطاع أن يجعل فصيلة كاملة من الإنكشارية تنضم إلى المماليك. وقامت هذه الفصيلة بالاستعراض أمام جماهير القاهرة التي التفت لتشاهدها في شغف ثم انضموا بعد ذلك إلى الجيش المملوكي. واندفع أوزبك إلى عمق الأناضول وهو يحرق وينهب كلما أوغل في التقدم. ولم يتوقف إلا في كوارا في سبتمبر ١٤٩٠ لأن جنوده رفضوا التقدم أكثر من ذلك، وكانت مؤنه قد نفدت كما أن طريق العودة لم يكن مأمونًا. وعاد على وجه السرعة إلى حلب ثم إلى دمشق. وقيل إن قايتباي كان غاضبًا من انسحاب قائد جيوشه من الحدود، ولكن كان من المحال على رئيس الدولة توجيه الانتقاد لقائد حقق نجاحا بمثل هذا الحجم، وقام قايتباي بتقليده الوشاح الاحتفالي للبطل عندما عاد إلى القاهرة.

وعاد أوزبك مرة أخرى إلى ميدان القتال في مارس ١٤٩٠ بجيش كان يتطور ببطء. وتم إغراء رجال الحلقة، وهي فرقة فرسان الدرجة الثانية قديمًا، بوعود بزيادة الأجور من أجل أن يصبحوا من حملة القربينات. كما بدأ قايتباي في توظيف الجمال لحملة المسكيت (بندقية عتيقة الطراز) من أجل زيادة سرعة انتشارهم في ميدان القتال، بحيث يترجلون هنالك حيث إنه كان من المحال استخدام البنادق من على سروج الجمال. وندخل هنا في منطقة شائكة لموضوع طال الجدال بشأنه وتتعلق باستخدام البنادق اليدوية والمدفعية في الشرق الأوسط في القرن الخامس عشر. والسؤال الذي يثور هنا لماذا لم تحل البنادق تمامًا محل القوس في تلك الفترة كما حدث بوضوح في فترة لاحقة، ولماذا لم يشرع جيش المماليك في استخدامها؟ ببساطة، ليس من السهل بالفعل إيجاد أي ميزة للبندقية على القوس في تلك الفترة وحتى في عام ١٥١٧ عندما تم تحطيم المماليك نهائيًا بواسطة العثمانيين فإن هزيمتهم كان تتعلق بمدفعية الميدان الكثيفة للعثمانيين بدلاً من بنادق المسكيت الموجهة إليهم. وكان القوس المركب في نفس دقة بنادق المسكيت العادية في ذلك

الوقت بل ويمكن إطلاق أربعة سهام مقابل رصاصة واحدة فيما يتعلق بالزمن المطلوب لإعادة ملء كل منها. كما أنه ليس هناك دخان لينطلق في حالة السهم حتى يمكن أن يحجب الهدف عن الرامي، كما أن السهام تصيب مقاتلي العدو بالعجز على الفور حتى ولو أحدثت جروحًا في الجسد بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للرصاص. كما أن كانت السهام سهلة التصنيع ولا تحتاج إلى قاعدة صناعية متقدمة من أجل تصنيع كميات كبيرة كما هو الحال في الرصاص. وفيما يتعلق بالمدى فإن بنادق المسكيت التي كان يتم استخدامها في موقعة واترلو كان يبلغ مداها ١٣٠ مترًا فقط، بينما كانت سهام المماليك الحربية الخفيفة يمكنها أن تصيب على بعد ٢٥٠ مترًا. والأكثر من ذلك، فإن البندقية في ذلك العصر لم يكن ممكنًا استخدامها من فوق صهوة الحصان، وبشروعهم في استخدام الأسلحة النارية فإن المماليك كانوا قد تنازلوا طواعية عن أعظم أصولهم العسكرية وهي سرعة الحركة.

ولكن لماذا انتصرت البندقية في النهاية في ميدان القتال؟ بالطبع تحسنت الأسلحة النارية، ولكن كان هناك المزيد من الأسباب بشأن ذلك. فالبنادق تساوي بين المقاتل المتمرس والشخص العادي، وكانت الرماية بالسهام هي المجال للمقاتلين ذوي التدريب المتميز وفي ذروة حالاتهم البدنية، فيستغرق الأمر عدة شهور من أجل تطوير قدراتهم لتواكب ما هو مطلوب في ميادين القتال وكان الأمر يستغرق سنوات عديدة ليمتلك الجندى مهارات مقاتلي مماليك السلطان – ولذا فإنه ليس من المدهش على الإطلاق أن كتب الفروسية التي تم تدوينها في عصور المماليك كانت تتعلق مباشرة بالتدريب بالقوس – بينما يمكن تعليم حامل البندقية بدون جهد يُذكر وفي فترة زمنية مضغوطة، وبدون الحاجة إلى بنيان رياضي من جانب الجندي؛ فالمعايير المعتادة للصحة الجسمانية تكفي. ولذا فقد كان حملة المسكيت، عندئذ، من قوات الاحتياط الإضافية، وليس ذلك خطأ في التقدير وتعلقًا

بالماضي من جانبهم ولكن لأن الفرسان المهرة من رماة السهام كانوا لا يزالون اللاعب الرئيسي في ميدان المعركة. ومن الجدير بالملاحظة أنه على الرغم من الفكرة الشائعة بتميز الجنود الإنكشارية كحملة لبنادق المسكيت وحتى في عام ١٥١٠ فإنهم كانوا لا يزالون في مرحلة تغيير من الأقواس المُركبة إلى الأسلحة النارية.

ودخل أوزبك الأناضول عن طريق الأبلستين حتى يتجنب إعاقته في الممرات الضيقة حول بوابات بلاد الشام وشرع في تحطيم كل إمارة قامت بالاعتراف بالسيادة العثمانية. وكانت هناك عمليات اغتصاب وحشية ومذابح للمدنيين امتدت لتصبح حملة من الرعب تستهدف إلى أن تجعل بايزيد يرضخ لفكرة السلام. وعلى الرغم من أن الفكرة كانت مروعة فإنها نجحت. فقد قام بايزيد بإرسال مبعوثه ومعه مفاتيح الحصون التي تحت الاحتلال العثماني في المناطق المملوكية إلى السلطان قايتباي في مايو عام ١٤٩١. وتم إجراء عملية لتبادل الأسرى، كما تم الاعتراف بسيادة المماليك على كل من تخوم الأناضول والأماكن المقدسة في الجزيرة العربية. وعاد السفير إلى إسطنبول مباشرة بعد توقيع اتفاقية تعترف بسيادة المماليك على منطقة الشرق الأوسط. وتم تأمين سلام يعادل حربا باردة في حقيقة الأمر؛ وتستمر طوال عهد بايزيد وقايتباي. وتحرك بايزيد حينئذ وعلى الفور ضد بقايا آثار قبيلة الأق قويونلو في عام ١٤٩٢ وبدون خوف من تدخل المماليك. وكان انتصار قايتباي، في حقيقة الأمر، انتصارا باهظ الثمن، فقد ترك البلاد في حالة من الإنهاك، حتى ولو كانوا منتصرين، وكانت البلاد في حاجة إلى السلام أكثر من حاجة بايزيد إليها.

وكان عام ١٤٩٢ هو عام وباء الطاعون. فقد لقي مائتا ألف شخص مصرعهم في مدينة القاهرة وحدها، وأبلغ العديد عن رؤية الرسول في منامهم وهو

يتنبأ بالدمار إذا لم يتم تصحيح الخطايا التي تقوم طبقة المماليك بارتكابها، وقيل إن الله قد أطلق سراح الجن من أجل معاقبة المنحرفين وفاسدي الأخلاق. وكانت هناك حالة من اليأس تسيطر على البلاد. وانفجرت أعمال شغب شاملة من أجل الطعام وقام بقيادتها الجلبان المماليك، كما أن قايتباي أشرف على الموت بعد أن أطاح به حصان كان يحاول أن يقوم بترويضه. واحتشد أمراء السلطان من أجل الحفاظ على استقرار الحكومة وكانت شجاعة قايتباي في الاستمرار في الحكم بينما كان يبرأ من الكسور المضاعفة التي تعرض لها في ساقه قد بثت روح الشجاعة في عامة الشعب، ولكن ذلك كان دليلا على أنه يوغل في الشيخوخة وأن هناك شكوكا عميقة حول المستقبل. واختطف الوباء الكثير من كبار الأمراء من طبقة الوزراء ودعم من الحظوظ السياسية لقنصوه، وهو أحد قادة حملة عام ١٤٩٠ ضد العثمانيين؛ وكان صعوده سببًا في سيادة روح التشاؤم في مصر. وكان متزوجًا من ابنة أوزبك وكان المتوقع أن يقبض على زمام السلطة بمجرد أن يلفظ السلطان أنفاسه الأخيرة، وعلى الرغم من حقيقة أن قايتباي له وريث، وهو نجله الصغير، الناصر محمد. فقد قام قايتباي بترقية الأمير أق بردي ليكون من مستشاريه الخصوصيين في محاولة منه لجس نبض مدى قوة النفوذ الذي يتمتع به قنصوه ولم يؤثر ذلك على نفوذه. وظهرت درجة من أعراض جنون الشك والاضطهاد على السلطان ذي الثلاثة وثمانين عامًا في عام ١٤٩٤ – وربما كان ذلك نتيجة لفقدان الكثير من الأصدقاء المقربين في الوباء – واستدار تجاه نجله، موجهًا شكوكه تجاهه بأنه يتآمر عليه وقام بإرساله ليقوم بتمشيط تكنات الجلبان.

وبينما تحسنت ظروف مصر المادية فإن حالة قايتباي الصحية بدأت في التدهور، وأخذت الحمى تأكل في جسده. وكانت هناك محاولات لقتل قنصوه

بواسطة الجلبان بتحريض من أق بردي، بينما قام كل من قنصوه وأوزبك بتشجيع طائفة أخرى لقتل أق بردي، وتجمعت قوة من أنصارهم في مسكن أوزبك وهم على أهبة الاستعداد لفعل ذلك. وهددت معركة اعتلاء العرش بتمزيق أوصال الجيش والدولة وكان رد فعل قايتباي لذلك غير معتادًا وفعالاً بشكل يدعو للدهشة. فقد ذهب السلطان إلى منصة استعراض الجيش وأخذ يتلو إعلانًا بسيطًا يطلب فيه أن يتجمع كل الأمراء السلطانية. وأيقظ النداء الكثير من الأحاسيس والمشاعر الخفية تجاه للسلطان المُسن، والقريب من الموت بين كل الرجال وترك الكثيرون منهم هواجس الحرب الأهلية، وعادوا بتفكيرهم إلى الرجل الذي يُعد في نظر الكثيرين منهم في منزلة الأب. وتوارت قوات قنصوه وأوزبك عن الأنظار ولفترة قصيرة انتصرت قيم الفروسية والقيم الجديرة بالاحترام للمماليك على أمور التناطح اليومي في الأمور السياسية. وبينما وضع قنصوة نفسه في منفى اختياري وجلس ينتظر ما تجري به الأقدار، فإن أوزبك لجأ إلى صديقه القديم متدثرًا بملابس بيضاء بعد أن قام بشعائر اغتسال وتطهير لنفسه. وسار بجانب أنصار أق بردي، على الرغم من الخطورة الواضحة لذلك، ووصل إلى السلطان وسأله أن يأذن له أن يعتكف في مكة. وغادر فورًا إلى الجزيرة العربية بمجرد أن أذن له السلطان.

وتأتي الشهامة والفروسية أحيانًا في مقدمة شئون الرجال، وفي الأغلب الأعم تكون حلية تافهة ومبهرجة للتعتيم على دموية الواقع وعاد قنصوه إلى مكائده بعد شهور قليلة فقط من ذلك، وبالتحديد في يوليو ١٤٩٦. وحاول إقناع قايتباي بمنحه تبرئة علنية في حديث للعامة. وبعدئذ وبفترة قصيرة، قام مماليكه باقتحام قصر أق بردي. وحاول قايتباي أن يستخدم نفس الأسلوب الذي استخدمه في قمع الثورة الأولى ولكن هذه المرة لم يستجب لندائه أحد. فقد بدا واضحًا أن المماليك قرروا أنه راقد في ضريحه، من الناحية السياسية على الأقل، وأن الوقت قد حان لاختيار المكان الذي سيكون عليه كل فريق. وجلس السلطان في منصة

الاستعراض لساعات طويلة، وهو لا يستطيع الوقوف إلا بالكاد وهو يجول بناظريه في الميدان الخالي من البشر. وأخيرًا كابد من أجل ركوب فرسه، وعاد إلى القلعة. وكان آخر ما سمعته أذنه قبل أن يدخل في غيبوبته الأخيرة هو أن أق بردي في مخبئه. وبينما يلفظ السلطان أنفاسه الأخيرة في يوم ٥ أغسطس سأله الأمير المخضرم تمراز وهو غارق في غيبوبته بأن يأذن له بوضع نجله الناصر محمد كسلطان، ولم تكن هناك إجابة بالطبع من السلطان المُشرف على الموت. ومضى الأمير قُدمًا، على أي حال ووضع الابن ذا الأربعة عشر عامًا على العرش وبذلك يمكنه أن يكون هو السلطة الحقيقية وقبل أن يتمكن قنصوه من أن يفعل نفس الشيء، ولكنه لم يكن قويًا بما يمكنه من الاحتفاظ بمنصبه، وقبض عليه قنصوه خلال ساعات وقام بقتل معظم مؤيدي أق بردي في خلال يوم آخر.

وفاضت روح السلطان في يوم ٧ أغسطس، وأصيب مكفنوه بالذهول وهم يرون كيف أصبح جسده هزيلاً وضعيفًا. وتم دفنه في ضريح بدون أية مراسم مما كان يُشكل تناقضًا صارخًا مع فخامة مبنى الضريح؛ وكان الجمع المحتشد منهمكًا في مشاهدة الخليفة وهو يقوم بمراسم تنصيب الناصر تحت بصر قنصوه الذي يراقب الموقف بعيون يقظة من أجل حضور دفن السلطان. وليس هناك أدنى شك في أن قايتباي كان رجلاً عظيمًا. فبعد بداية مهتزة قام بالتخلص من التهديدات التركمانية كما قام بإعاقة اندفاع العثمانيين إلى جنوب شرق الأناضول، كما أن قيامه بإعادة تأسيس الجيش بطريقة خيالية منحته العنصر البشري اللازم لتحقيق هذه الانتصارات. ولم يكن خطأه بأي حال من الأحوال أنه لم يكن قادرًا على إيقاف تدهور قوة المماليك؛ فمشكلات الفساد، والتدهور الاقتصادي، وانتشار الوباء، وتعاظم قوة عدوهم الأول، العثمانيين، كلها عوامل تعود إلى ما قبل عصره ولم يكن حتى في مقدور سلطان مثله حكم لفترة طويلة أن يقوم بتصحيحها بدون إصلاحات تأسيسية ضخمة. وبينما كان يمكن لمثل هذه الإصلاحات الضخمة أن

تنقذ مصر، فإنها كان يمكن تقريبًا أن تقوم بتدمير النظام المملوكي، ومع تحول الجند العبيد إلى طبقة أرستقراطية فقد أصبحوا في هذه المرحلة جزءًا لا يتجزأ من المرض الذي يضرب في جسد المجتمع. وكل ما كان في وسع قايتباي أن يفعله هو أن يقوم بالاحتفاظ بأولئك الذين يتسمون بأفضل الصفات الشخصية وبذا يأمل أن يجعل الآخرين يحذو حذوه، ومع شخصيته التي تجعل الدولة متماسكة، بالرغم من المصاعب الجمة التي تواجهها. وأبدى ابن إياس هذا الرأي في الملك الأشرف أبو الناصر قايتباي المحمودي:

كان هادئًا وذا مهابة، ومنضبطًا في لباقته، وقورًا على الدوام، وتشع منه هالة من الجلال في الاحتفالات الرسمية. وذا درجة عالية من الذكاء، راسخا في عدالته، يتسم بالمهارة في تصريف أمور الدولة، وبخاصة في إجازته بطرد الرسميين المتورطين في الفساد. ولكنه دائمًا ما يفكر مليًا قبل تنفيذ أي قرار.
وكان مشهورًا بشجاعته، وفارسا مغوارًا، وحاذقًا في كل فنون الحرب، ولكنه كان مستغرقًا بشهوة حب المال.
وبعد نوبات من الغضب العارم، فإنه يهدا بسرعة. كان غضبه غالبًا ما يتبدد بسرعة – وهي سمة محببة فيه.
وعلى وجه العموم فإن صفاته الطيبة تتفوق على مساوئه؛ لقد كان من أفضل الملوك الأتراك، وعلى الأخص إذا ما قورن بأتباعه. وعلى الرغم مما يغلب عليه من طمع، فإنه كان من أنبل الحكام الشراكسة، وأطهرهم[١٠٦].

---

(106) in Petry, pp. 15-16.

وأظهر الناصر في خلال فترة حكمه القصيرة، بعض ملامح أبيه في صرامة الشخصية وقام بدفع الإصلاحات في الجيش ولكن أدى ذلك إلى القيام باغتياله بالقرب من الجيزة بواسطة قنصوه وبعض الأقطاب الآخرين الذين شعروا بالإهانة من قيامه بترقية أتباعه من حملة بنادق المسكيت النوبيين. فقد وجد السلطان أن حملة الأسلحة النارية سيكونون أكثر كفاءة في الوجه القبلي حيث يستوجب على المماليك أن يقوموا بحملات مستمرة تقريبًا حتى يمكنهم الاحتفاظ بشيء من السيطرة، ولكن اعتقادهم بتفضيله لهم عن الطبقة القديمة أثارت كراهية المماليك للأجانب وقتل ابن قايتباي في ٣١ أكتوبر ١٤٩٨. واعتلى قنصوه العرش، وعلى الرغم من أنه كان أقل شعبية بين الأمراء، وكان من الناحية الواقعية ألعوبة في أيدي الآخرين حتى تمت تنحيته وتنصيب طومان باى بدلاً منه، والذي قام بقصف قلعة القاهرة بالمنجنيقات في شهر يونيو ١٥٠٠. وغادر قنصوه القاهرة متخفيًا وعلى جناح السرعة، ليخلفه أحد أعوان أتباع طومان باى، وهو الأشرف جنبلاط. وقام طومان باى بإعلان نفسه سلطانًا في يناير ١٥٠١ وقام بدفع جنبلاط من المدينة، فقط ليلقى هو أيضًا نفس المصير بواسطة طغمة عسكرية تم تشكيلها على وجه السرعة بعد ثلاثة أشهر فقط. ومرت أحداث وصول البرتغاليين حول رأس الرجاء الصالح وظهورهم في المحيط الهندي بدون أن تثير انتباههم في أثناء هذه الفترة من صنع الملوك في عام ١٤٩٧.

وقامت الطغمة العسكرية بانتخاب الأشرف قنصوه الغوري لاعتلاء العرش. ومن المحتمل أنه اعتبر كسلطان مؤقت فحسب بواسطة الأمراء الذين تصوروا أنهم سلاطين. وكان عمره يربو على الستين عندما جلس على العرش ومر بنفس تجربة إبداء التحفظ الذي قام قايتباي بأدائه، حينما أبدى السلطان المُختار الكثير من الاعتراض على اختياره. ويقدم لنا وصف ابن إياس بأن الغوري كان مفتونًا

بما يمكن أن نتوقعه من رجل في أواخر عمره. "كان مفتونًا بمشاهدة الزهور وأشجار الفاكهة.. وكان يستمتع بزراعة الشجيرات.. كما كان يُطرب لغناء الطيور، ورائحة تفتح البراعم...". ومع ذلك فقد كان قادرًا على تشديد قبضته على صولجان السلطة وبنفس السرعة، وعلى الرغم من أنه كان أكثر قليلاً مما يوثق فيه إلى حد ما قبل أن يصبح جزءا من الحاكم الشرس لطرسوس وملطية أثناء معظم فترات حكم قايتباي وقبل أن يصبح قائدًا للحراس الشخصيين تحت حكم قنصوه. وحتى اسم التنصيب الذي أُطلق عليه الغوري كان يدل على طباقه "تكنات الغوري" ولقد تمتم قائلاً إن اسم الجلوس على العرش لا مبرر له إذا كان السلطان سيكون ألعوبة في أيدي كبار الأمراء. وجاءت أولى خطط التآمر ضد عرشه من طومان باى، السلطان السابق الأكبر سنًا، ولكن تم اكتشاف المؤامرة، وبينما كان طومان باى يقوم بالفرار من المدينة ليلاً سقط من جدار، وانكسر ساقه، وتم ضربه بالفؤوس حتى الموت بواسطة خاصكية السلطان الغوري. وانتبه السلطان للتحذير الذي تمثله هذه المؤامرة؛ ورتب لنفسه لكي يظل على العرش من خلال تحجيم سلطات كبار الأمراء، وكان يأمل في تحقيق هدفه من خلال إنقاص ثرواتهم العائلية لمصلحة الخزانة، وتنفيذ ما يكفى من أعمال القتل الشرعية لأجل منع حبك المؤامرات، ومن خلال تحديث الجيش بينما ينادي بعودة أفراده إلى الانضباط السابق. وعلى الرغم من الهدف الأخير الجدير بالثناء، فإن الغوري قد أثار غضب كل المؤرخين المعاصرين على وجه التقريب. ويمضى وصف ابن إياس قائلاً:

وكانت أخطاوه فادحة.. فقد تولى وصاية الأيتام بلا عدالة، وقام بتعيين الشيوخ فوق الحكام المحليين، ويتقاضى منهم مبالغ ضخمة مقابل مناصبهم ويقومون هم في المقابل بتقدير

ضعفها على حائزي الإقطاعيات. وكان السلطان يقلد حكام بلاد الشام مناصبهم بطريقة مبتكرة عن طريق طلب مبالغ كبيرة سنويًا. وأعاد إحياء الضرائب بطريقة غير مسبوقة لمن سبقوه. وكانت شراهته لا تعرف حدودًا، فقد انحدر إلى مستوى لم يسبق له مثيل من ابتزاز سائقي حيوانات حمل المياه وبستاني القلعة، وإجبارهم على شراء روث الحيوانات الخاصة بهم وتحويل تلك النقود إلى المخصصات الاحتياطية.(١٠٧)

حسنًا، قد تكون بعض الأعمال غير نظيفة ولكنها تُدر مالاً، والغوري في حاجة ماسة إلى النحاس والفضة. فقد تم التخلص من السلطان لبذخه الزائد عن الحد بالتأكيد، فقد قيل إن كل أصبع من أصابع يديه كانت مغطاة بخواتم من الزمرد والياقوت، وإلى ذلك الحد وصلت وظيفة الملك حيث كانت الحلي مرغوبة من أجل جلب خشية واحترام العامة ورفاقه من الملوك. وكانت هناك خطط أخرى للغوري من أجل ابتزاز النقود من الدولة. وكما ناقشنا سابقًا كان هناك سباق تسلح للمدفعية يجري على قدم وساق، وبالرغم من أن المماليك كان لهم قصب السبق – فقد استخدموا مدافع الحصار في فترة مبكرة تعود إلى عام ١٤١٩ – فإنهم بحلول عام ١٥٠٠ أصبحوا متخلفين بمسافة شاسعة خلف العثمانيين وبالذات في مجال مدفعية الميدان المتحركة. وكانت المشكلة معقدة ومتشابكة. فقد كانت المواد المطلوبة لصب المدافع أولاً غير متوافرة في مصر. وكان يجب استيراد النحاس من تجار أوروبا حيث إن المناجم الكبيرة ذات الإنتاج الواسع في منطقة البحر الأبيض المتوسط كانت تقع في تيرول، كما أن الخشب المطلوب للنقل والملح الصخري من

(١٠٧) **in Petry pp 12-1"** صودر إرث ابن إياس عن والده بواسطة الغوري، ولذا فإنه ليس من الصعب التحقق من سبب الحنق الذي اعترى الكاتب.

أجل الذخيرة كانت تستورد من الأناضول ومنطقة البحر الأسود، وهي المناطق التي تقع تحت سيطرة العثمانيين بشكل كبير. والأكثر من ذلك، أن مجمل العملية، وحتى حساب الخامات، كانت باهظة التكلفة نتيجة للمعدلات العالية للفشل في صب المدافع أثناء الاختبارات؛ ولقد قيل إن التقليد الإسلامي بحظر صب الأجراس هو الذي أدى إلى تلك المشاكل الإنتاجية[١٠٨]. وكان في مقدور العثمانيين بطبيعة الحال، القبض على المسيحيين من أجل إجراء تجاربهم، فقد تم صب مدافع محمد الثاني والتي استخدمت في حصار إسطنبول عن طريق أسير بيزنطي، ولكن لم تكن لدى المماليك جبهة أوروبية. وسجل لنا ابن إياس النتائج الكارثية لعملية الصب الرديئة:

> ومضى السلطان.. وفي حضوره قاموا باختبار المدفع الذي قاموا بصبه، وعندما قاموا بإطلاق النار انفجر المدفع بأكمله. وتدفق البرونز في الهواء، ولم يكن أي منها في حالة جيدة. كان هناك ما يقرب من خمسة عشر مدفعًا. وانزعج السلطان للغاية في ذلك اليوم، لقد كان ينتوي أن يحتفل مع الأمراء ويقوم بقضاء يوم من البهجة معهم، ولكن الأمر لم يكن كذلك[١٠٩].

وتحايل السلطان على هذه المشكلة بدرجة ما عن طريق شراء المدافع من أوروبا، ولكن الأثمان كانت باهظة وابتزازية، كما كان مشروعه لبناء ميدان جديد للتدريب من أجل تجديد برامج تدريب الجيش. وكان هناك عبء جديد على

---

(108) Cf.R. Irwin, Gunpowder and Firearms in the Mamluk Sultanate Reconsidered in M. Winter and A. Levanoni, The Mamluks in Egyptian and Syrian Politics and Society, Leiden: EJ Bri ll, 2004, p. 129

(109) in Holt, The Age of the Crusades, p. 199.

السلطان يتعين أن يقوم بتغطيته، فمنذ عام ١٥٠٣ فصاعدًا قام البرتغاليون بإنشاء كوتشين كميناء للهند مما هدد بقطع طريق التجارة لمصر مع الشرق. وكانت هناك حاجة ملحة وسريعة من أجل بناء السفن الحربية من أجل حماية شبه الجزيرة العربية بينما حاول البرتغاليون بعد ذلك تقوية حظر التجارة الذى فشلت القوى الأوروبية في تطبيقه ضد السلطان في البحر الأبيض المتوسط. وقام السلطان الغوري بتقوية دفاعات ميناء جدة بفوج من حملة القربينات وقام بإرسال أسطوله الجديد إلى المحيط الهندي من أجل مساعدة حاكم جوجارات الذي كان يحاول صد البرتغاليين في عام ١٥٠٥. وألحق الأسطول الهزيمة بالأسطول البرتغالي في يناير ١٥٠٨، فقد كان حملة القربينات أكثر من ند لحملة البنادق في السفن البرتغالية، ولكنها عانت من انتكاسة في فبراير ١٥٠٩ على حساب ديو شوال وعادت إلى مصر.

وكان من المأمول البحث عن معاونة بايزيد الثاني في هذه الحرب المقدسة ضد الأوروبيين، وأُسدلت ستائر النسيان على الخلافات المملوكية العثمانية حيث كان بايزيد قبل وفاته في عام ١٥١٢ قد قام بإرسال أخشاب، وحديد، وبارود إلى السلطان الغوري. وتم تطوير الأسطول بتزويده بسفن أكثر تم بناؤها في خليج السويس وخرجت مرة أخرى في عام ١٥١٥ وبها ألفان من البحارة العثمانيين الإضافيين الذين أرسلهم السلطان الجديد سليم. وشقت الحملة طريقها عبر البحر الأحمر فاليمن في يونيو ١٥١٦ واستولت على زبيد وعدن. وتم تأمين اليمن بجهود الأسطول ولكنها انتهت إلى أن تكون محمية عثمانية بموجب حقيقة بسيطة وهي أن الإمبراطورية المملوكية سقطت في يد سليم في عام ١٥١٧؛ وربما كان العثمانيون يدركون تمامًا ما الذي يخططون له عندما قاموا بإرسال البحارة العثمانيين مع المماليك. ومن الصعب تأييد اتهامات ابن إياس ضد السلطان بالحب الجنوني للمال عندما نضعها مقابل النفقات التي يجب أن تتحملها الخزانة العامة؛ وحتى النقد

اللاذع الذي وجهه الكاتب ضد الرسوم العالية للسلطان تعطينا في الحقيقة مؤشرًا قويًا عما كان يحدث للسلطنة في تلك الفترة الحاسمة. وكان والي جدة يقوم بتحصيل عُشر الدخل من تجار الهند، وهو الإجراء الذي كان يؤدي إلى إحجامهم عن الدخول إلى الميناء في الأساس- وهكذا أصبح الميناء عاطلاً على وجه التقريب. وأصبحت بضائعهم نادرة في أسواق مصر، وهجر الناس المدينة. وعلى نفس المنوال فإن موانئ الإسكندرية ودمياط تم هجرها لأن تجار الفرنجة توقفوا عن الدخول إليها. كما اختفت بالمثل البضائع الأوروبية"(١١٠).

وجمع ابن إياس المؤشرات التي تشير إلى تدهور التجارة ولكنه توصل إلى استنتاجات خاطئة. وكان السبب في تدهور التجارة السياسة الجديدة للانفراج في العلاقات بين البندقية مع العثمانيين، وإعادة فتح التجارة مع آسيا عبر الدردنيل، والتجارة الأوروبية عبر المحيط والتي كانت تقوم ببساطة بالمرور عبر رأس الرجاء الصالح. وبذلك تم تجريد مصر من عوائد التجارة. وبالإضافة إلى ذلك، الحدوث المتكرر للوباء، وتفشي الأنانية والفساد بين كبار أقطاب المماليك والتي وصلت إلى درجات مُفزعة حتى إنها دفعت الغوري إلى التهديد بالتخلي عن العرش إذا لم يقم هؤلاء بكبح جماح أطماعهم إلى مستويات أكثر اعتدالاً من التمنع. كما ساد أيضًا نوع من التمرد بين الجلبان لدرجة شنيعة حتى قرر السلطان ألا يقوم بجمع محصوله الخاص بالفرسان السلطانية كما كان يفعل السلاطين عادة حينما شعر أن ولاءهم المشكوك فيه لا يستحق عناء المجهود والإنفاق، بالإضافة إلى عمليات التمرد المستمرة بين التركمان ورجال القبائل البدو. وباختصار فإن كل الشرور القديمة كانت لا تزال كامنة هناك وكانت كافية للإسراع بإحداث أزمة نقدية كانت من الضخامة بحيث تجعل المرء يتساءل عما إذا كان الغوري سيكون قادرًا على إدارة أمور الدولة. وقام بإدخال قسم ولاء جديد على مصحف الخليفة

---

(110) In Petry, pp. 120 - 1.

عثمان بن عفان في محاولة منه لتجديد ولاء الجيش للدولة كما استمر في محاولاته الإصلاحية. وسُجل بفخر في عام ١٥٠٣ أن فيالق الضباط قد تم استكمالها أخيرًا لتصل إلى مجموعات كاملة بلغت ٢٤ أميرًا من أمراء المائة، و٧٥ أميرًا من أمراء الأربعين- في مسح لأرقام الجيش لم يتم تنفيذه منذ سنوات مضت.

وكانت الأمور تنذر بالسوء بطريقة متزايدة في بلاد الشام. وعلى الرغم من جهود الغوري في محاولته كبح جماح الفتنة، فإن حكام حلب ودمشق كانوا يتصرفون وكأنهم حكام مستقلون في الأغلب وبدون الرجوع إلى القاهرة بحلول عام ١٥٠٤. وقاموا باستغلال وصول قايتباي إلى الشيخوخة، وثورات البدو في كل من مصر وبلاد الشام، والأزمة المالية المستمرة في السلطنة من أجل تحركاتهم. وعلى الرغم من أن الغوري احتفظ بذريعة السيطرة على الإقليم فإنه كان يعلم أن ذلك كان مظهرًا زائفًا، وأن بلاد الشام لا يمكن أن يعول عليها في أن تبقى على ولائها له في حالة حدوث أي مواجهة مع العثمانيين أو مع الأعداء الجدد من التركمان إلى الشمال. وحل هذا العدو الجديد محل الأق قويونلو، والتي أخذت في الذبول تدريجيًا بعد وفاة أوزون حسن في عام ١٤٧٨. وكان العدو الجديد عبارة عن تحالف بين القبائل التركمانية الشيعية تم تكوينه في عام ١٥٠١ تحت قيادة شخصية متميزة وجاذبة وهو الشاه إسماعيل الصفوي، الذي بسط قيادته على البدو وذوي العقول المستقلة من القبائل التركمانية الإيرانية الذين يعتبرون نظم الحكومات الثابتة للمماليك والعثمانيين نظمًا ملعونة. كما جذب تحالفه ولاءات البدو الرحل من أذربيجان والمنطقة الشرقية من الجزيرة.

وعُرف الصفويون كتحالف في الوعي المملوكي في عام ١٥٠٢ كأنهم أتوا من لا مكان تقريبًا، وبتقدمهم المتسارع إلى الإمارات الأناضولية الصغيرة التي كانت تفصل بين المماليك والعثمانيين. وقبل أن يتمكن الغوري من حشد قوة للرد، حينئذ، كانوا قد فروا مرة أخرى متراجعين تجاه الشرق، وعاد السلام للمنطقة لما

يقرب من خمس سنوات. وبمجرد نسيانهم، قام الصفويون بتوجيه ضربة أخرى في عام ١٥٠٧ بغزو الأبلستين، ووصلوا إلى أبعد مدى وحتى ملطيــة. ورد الغــوري بقوة. فقام بحشد ألف وخمسمائة مملوك تحت قيادة خمسة من أمراء المائة ، وقوات الاحتياط من البدو، وقوات مشاة من حملة البنادق. ولكن، وبينما تستعد هذه القــوة للتحرك، وصل مبعوثون من الشاه إسماعيل يطلبون العفو لهــذه الهجمــات ضــد الأراضي المملوكية، وزعموا أنها كانت عن طريق الخطأ. وبدا المبعوثون ريفيين أجلافًا وكأنهم في غير مواضعهم وهم داخل قصر القاهرة الأنيق. وربما أثر هــذا الأمر في قرار الغوري بعدم التعامل مع الصفويين بجدية بالغة. وعفا عــن هــذا الهجوم، وعن هجمات أخرى صغيرة قاموا بها داخل الأناضول. وقــام الغــوري، حتى في عام ١٥١٠، عندما تمت الإغارة على المنطقة الواقعة حول البيرة بواسطة رجال الشاة، بإرسال أمير لعشرة كمبعوث له لمعسكر الشاه ليأمرهم بالانسحاب.

وجاء للسلطان بواسطة جواسيسه ما قام بتغيير منظــوره عــن الصــفويين تمامًا: فقد تم إلقاء القبض على مبعوثين أثناء غارة انتقامية داخل أراضــي الشــاه الحدودية وكانت الخطابات معنونة باسم ملوك أوروبا ووجد أنها تحمل مقترحــات بعمل مشترك بين الشاه والغرب ضد كل من المماليــك والعثمــانيين. ووضــعت مراقبة دقيقة وعن كثب على الصفويين، وفي يونيو عام ١٥١١ قام مبعوثه بتســليم هدية للسلطان. وقام الشاه إسماعيل بقتل خان تتار القرم، الدولة التي ورثت القبيلــة الذهبية، في مبارزة ثنائية وقام بتحويل جمجمة رأسه إلى قدح للشراب. وكانت هذه هي هدية الشاه للسلطان الغوري. وأصيب السلطان بالذعر من جراء هذه المعاملــة لأحد حلفاء المماليك التاريخيين ولكنه احتفظ ببرود أعصابه، فقــد كــان يعلــم أن اندفاعهم المستمر داخل الأناضول سيجبر الصفويين عاجلاً علــى الــدخول فــي مواجهة مع العثمانيين وفي ذلك الوقت كانت معاهدة السلام العثمانيــة المملوكيــة صلبة. وربما يقوم العثمانيون بتنفيذ هذا المهمة القذرة بإرسال الشاه إلى المماليــك.

وبالتأكيد كان السلطان العثماني الجديد هو رجل لمثل هذه المهمة. كان السلطان سليم، والذي لُقب على الفور باسم سليم العابس، أكثر شبهًا بجده أكثر من والده وليس من المحتمل أن يلجا إلى الوسائل السلمية طالما كانت الوسائل العسكرية متاحة.

وكان السلام مستتبًا في الفترة من عام ١٥١١ إلى عام ١٥١٤، ولكن الأمور كانت تزداد سوءًا داخل الجيش، وفي العديد من الأمور كانت حياة السلام والخمول هي نقطة الضعف في نظام المماليك، وحينما لا يكون الجندي الرقيق ليس لديه عدو خارجي فإنهم يجعلون من أسيادهم أعداء لهم وتكون الحوافز والرواتب هي سبب وعلة الحرب معهم. وكان السبب الذي يُمسك القوات المملوكية عن إقصاء الغوري هو خشيتهم من حدوث أزمة حكم وتزايد فرص عدم تسلم رواتبهم على الإطلاق في مثل تلك المواقف، وكانت هناك أعمال تمرد لا نهاية لها وأُثير الكثير منها بتحريض من كبار الأمراء. وكانت نقطة الخلاف الهامة هي الفيلق الخامس من المشاة حملة البنادق والتي كان الغوري يقوم بالتوسع فيها لتغطية جبهة البحر الأحمر ضد البرتغال، حيث كان المماليك يعتقدون أن التوسع في هذا الفيلق يحرمهم من الحوافز ومن الأسلحة الجديدة. وهدد السلطان بالتخلي عن العرش في العديد من المرات، حتى إنه في إحدى المرات قال وهو يخاطب الجيش، "إذا كان فيكم من يرغب في العرش، فيمكنني أن أترك مكاني في القلعة له، وأعتكف بالمسجد حيث أرحب بالموت". كان مثل هذا الوعيد يجعلهم يحجمون عن الإطاحة به، ولكن كانت هناك شكوك جادة عما إذا كان الجيش يمكن أبدًا أن يرافق الغوري، أو أي رجل آخر إلى ميدان القتال بالنظام المعتاد. وفي الحقيقة، وإذا ما وضعنا جانبًا شكاوى العسكريين المعتادة، فإن الجيش كان في وضع متهالك في ذلك الوقت. وحتى خاصكية الغوري احتجوا بمرارة للسلطان من أوضاعهم البائسة:

تأخرت أنصبتنا من اللحوم وعلف الماشية لخمسة شهور. ويقوم مخزن الحبوب بتسليم القمح لنا عفنًا لدرجة أن خيولنا تعاف من الاقتراب منه. والمعاشات التي تعطيها لنا لا تكفي لإيجار منزل أو إسطبل للخيل، أو لندفع لعروس، أو للملبس أو للزي.. وكلها مكلفة للغاية. وخلال فترة حكمكم بأكملها لم يتم تزويدنا بالمؤن بطريقة مناسبة. فنحن الآن جوعى وعرايا!(١١١)

واستمرت الدولة الصفوية في النمو، في نفس الوقت، وبحلول عام ١٥١٤ بدأت تُشكل تهديدًا حقيقيًا لكل من العثمانيين في الأناضول والمماليك في بلاد الشام. وبعد أن اطمأن سليم كسلطان، فإنه بدأ في عام ١٥١٤ في غزو الأبلستين على الرغم من أنها محمية مملوكية، وطارد الشاه إسماعيل حتى أذربيجان. وتقابل الطرفان في معركة هائلة في جالديران في عام ١٥١٤ ولقي الشاه هزيمة مريرة وقُتل الكثير من رجاله بواسطة مدفعية الميدان العثمانية. وكانت الأصوات الهائلة التي تنبعث من المدفعية كافية لإثارة الذعر في صفوف فرسان الشاه وتراجعهم. وبالرغم من بعض الصعوبات التي واجهها مع سليم قبل المعركة، فإن السلطان الغوري جاهد للمحافظة على حياد المماليك مما أدى إلى موقعة حربية أدت إلى أن يتكبد سليم ثلاثين ألف قتيل، وبدا لأول وهلة، وكأنه قام بتشتيت شمل الصفويين تمامًا.

ولم يكن الشاه، وعلى الرغم من ذلك، قد انتهى بكثير، وعند هذه النقطة قرر الغوري أن يقوم بهجمته الدبلوماسية المصيرية. وقام بالاتصال بالشاه إسماعيل من أجل تقديم اقتراح بمعاهدة دفاع مشترك ضد سليم مهمومًا بقيام العثمانيين باحتلال الأبلستين والتآكل النهائي للدول العازلة التي كانت تقوم بحماية بلاد الشام.

(111) In Petry, p. 189.

وربما كان يعني فقط أن يمنح سليم فترة للتفكير، ولكن إذا كان الأمر كذلك فقد أخطأ قراءة شخصية السلطان الجديد الذي لا يعرف الوجل تمامًا.

وقام الغوري بحشد قواته في مايو عام ١٥١٦ في شمال بلاد الشام، وذلك ببساطة لكي يعمل كعنصر تهديد لمؤخرة جيش السلطان العثماني حيث كان سليم يتأهب للزحف شرقًا ضد الشاه ولكن سليم لم يكن ليسمح بمثل هذا النوع من التهديد وأرسل للغوري يطلب منه الانسحاب من منطقة الحدود. وربما علم السلطان سليم بالقوة التي تم إرسالها كتهديد له. فقد كان هناك فقط ٩٤٤ مقاتلاً من المماليك السلطانية تحملة كما أن الجيش المصري بأكمله كان مؤلفًا من خمسة آلاف رجل. وتم استكماله بفرقة من فرسان البدو الذين يركبون الجمال، وتم إغلاق آذان هذه الجمال حتى لا تشعر بالذعر من سماع أصوات المدفعية. وكان من الأقوال الشائعة في مصر أن المقاتل المملوكي يساوي ألفًا من مقاتلي المشاة، ولكن كان من الصعوبة بمكان إدراك كيف يمكن لقوة صغيرة كهذه أن تقوم بمجاراة قوات سليم الهائلة والتي يبلغ عددها مائتي ألف رجل. ولم يقم الغوري حتى بإرسال الفيلق الخامس الجيد خشية تعريض الجبهة الجنوبية للخطر، ولكنه قام باختيار بعض رجال المشاة المحليين من بلاد الشام من أجل تدعيم قواته البائسة أثناء مسيرته للشمال. وبدأت المفاوضات ولكن سليم كان يقوم بإرسال إشارات متعارضة. ففي واحدة يخاطب الغوري بوالده ويطلب منه العفو لقيامه باحتلال الأبلستين ثم يتغير أسلوبه إلى العجرفة في التعامل والسخرية من السلطان المملوكي، ولذا فقد شعر السلطان الغوري أن سليم يتلاعب من أجل إضاعة الوقت للتعامل مع الشاه إسماعيل أولاً ثم الاستدارة لضم بلاد الشام. وقام بتشجيعه في هذا الاعتقاد حاكم حلب، خاير بك.

وفعل السلطان الغوري كل ما في وسعه من أجل تجنب المواجهة مع سليم الأول على الأقل حتى تنتهي المواجهة بين سليم والصفويين، وذلك نظرًا للتمرد الذي ظهر بوضوح في الجيش المملوكي الذي تسوده الفوضى، وانتشار أنباء أعمال مروق الأمراء الذين يبحرون من الإسكندرية من أجل الانضمام إلى بلاط سليم الأول، وبالنظر إلى حقيقة أن السلطان من الناحية العملية يجب أن يتعامل بندية مع حاكم دمشق من أجل الحصول على دعمه. وربما كان من الأفضل أن ينسحب إلى داخل بلاد الشام من أجل إجبار العثمانيين على توسيع خطوط اتصالات العثمانيين ولكن دروس الماضي، في حمص عام ١٢٨١، وفي مرج الصفر عام ١٣٠٢ لم يتم الاهتمام بها، وربما لم يكن في مقدورهم. وطالب مماليك حلب في عام ١٢٦٠ من مماليك حمص وحماة أن ينضموا إليهم في تمرد ولكن الإجابة كانت، "نحن مع حاكم مصر، أيا كان هو". أما الآن فالوضع مختلف تمامًا؛ أي انسحاب من شمال بلاد الشام سوف لا يشهد أن تكون مواقعها المُحصنة أن تعمل كشوكة في جنب سليم ولكن الأرجح انشقاقهم والانضمام إليه.

وانهارت المفاوضات في النهاية عندما اعترض العثمانيون طريق رسالة مرسلة من الغوري إلى شاه إسماعيل واستدار سليم حينئذ لمواجهة المماليك. واندلع القتال في مرج دابق، شمالي حلب، في يوم ٢٤ أغسطس ١٥١٦. وقام الغوري بنشر قوات دمشق على ميمنته وقوات حلب على ميسرته. واحتل الجنود المصريون المحنكون قلب الجيش. وأما الجلبان، فعلى العكس من المجندين في السابق، فلم تكن هناك ثقة كافة فيهم لتركهم في المقدمة ولذا فقد كان مكانهم خلف المماليك. أما قوات سليم البالغة الضخامة فقد كانت تتكون من وحدة مدفعية الميدان والتي تمركزت في مؤخرة الجيش بالضبط، وفي الوسط. وقام حملة البنادق بتكديس بنادقهم بجانب بعضها البعض لتكوين حواجز لمنع هجمات الفرسان.

وشنت قوات المماليك السلطانية للغوري الهجمة الأولى بقيادة الأتابك سودون على خطوط العثمانيين وكانت السرعة والضراوة التي اتسمت بها الهجمات جعلت العثمانيين يشعرون بالذهول بينما قام الجنود المصريون المحنكون من قلب الجيش باختراق صفوفهم إلى المدفعية، ملتفين من وراء الحواجز، ويمطرون المقاتلين على المدافع بسهامهم ويقومون بقتل حملة البنادق. واشترك مقاتلو دمشق في هذه الهجمات كما تم أسر سبعة من حملة البيارق لدى العثمانيين بينما سقطت قوات الإنكشارية تحت هجمات الرماح، والسيوف والخناجر. وبدا وقت الظهيرة كما لو كان النصر سيكون حليفًا للمماليك وتقدم الغوري ومعه الجلبان ولكن حينئذ كان كل من سودون وحاكم دمشق، سباي قد لقيا مصرعيهما - ربما بنيران المدفعية وانتهت هجمات الجلبان إلى لا شيء، تاركين المماليك السلطانية ومماليك دمشق يقاتلون بمفردهم وبدون قيادة. واستخدم سليم فترة التهدئة من هجمات المماليك في إعادة تنظيم مقدمة ميمنة جيشه لتتواكب مع فرار خاير بك، حاكم حلب. وكان الغوري يتابع في هلع وهو يرى ميسرة جيشه وهي تتحطم أمام ناظريه. وصرخ الغوري صائحًا، "قاتل وحصتي لك!" ثم خر ساقطًا وهو لا ينطق، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا سكتة دماغية. وأمسك أحد الأمراء ببيرق السلطان ورفعه عاليا عندما سقط السلطان من على ظهر جواده، ولكن الجيش كان ينهار حيث انتشرت أنباء وفاة السلطان وفرار جيش حلب في أرجاء ميدان القتال. وفر الكثير من الجلبان من ميدان القتال ولكن المذبحة التي وقعت لكبار الأمراء والمماليك السلطانية كانت مروعة. وسقط حكام صفد وحمص كما تم سحق فرسان المماليك السلطانية البواسل؛ وكان ميدان القتال قد تغطى بسيوفهم وخناجرهم المزينة بنقوش نافرة من الذهب، والتقط الأمراء العثمانيون الكثير منها وتوارثوها في عائلاتهم لأجيال عديدة كتذكارات ثمينة.

ولم يُستدل على جثمان الغوري علـــى الإطـــلاق، والاحتمـــال الأكبـــر أن خاصكيته قامت بدفنه سرًا. ووجد العثمانيون الخليفة وهو يهيم على وجهـــه وهـــو ذاهل عن ميدان القتال. ثم سقطت حلب بدون أن تراق نقطة دم واحـــدة، وأغلقـــت بواباتها أمام المماليك الفارين وفتحتها أمام العثمانيين. وطـــاردت جماعـــات مـــن المواطنين الجلبان في دمشق وقتلتهم وكانت المدينة في استقبال سليم فـــي أكتـــوبر ١٥١٦. وذهبت الولاءات القديمة والتي سمحت للمماليك بالتمسك بالمدن الســـورية ثم تحريرها أدراج الرياح منذ زمان طويل. وفُقدت الشعارات والرمـــوز الملكيـــة كالتاج وغيره مع وفاة الغوري كما لم يكن هناك خليفة من أجل تتويجه، ولكن فقط طومان باى ابن شقيق الغوري والأكثر وثوقًا به من الغوري بين الأمـــراء، وتـــم استدعائه من الوجه القبلي من أجل تولي العرش في ١١ أكتـــوبر ١٥١٦ ونحـــن واثقون من أن ما قيل عن تردده في اعتلاء العرش – هذه المرة – كان حـــــقيقيًا. ولم يكن سليمًا واثقًا من محاولته غزو مصر. لأنه قد فقد جزءا كبيرًا من قواته في الهجـــمات العنيفـــة التي قـــام بها مقاتلـــو المماليك السلطـــانية المخضرمـــــون، كما أن الزحف عبر سيناء يمكن أن يجعل خطوط اتصالاته ممتدة لمسافات طويلـــة في الوقت الذي لم يقم فيه بتأمين الجانب الشرقي من أعدائه الصفويين. وقام خـــاير بك بتشجيعه بالقيام بالحملة والذي أصبح الآن مستشاره في كل الموضوعات كمـــا أن سيصبح الحاكم الخانع بين يديه. وأطلق عليه سليم لقب "الخائن".

وترك طومان باى العثمانيين حتى وصلوا إلى القاهرة تقريبًا قبل أن يتصدى لهم. وتقابل معهم في الريدانية في يوم ٢٣ يناير ١٥١٧. وكان طومان باى مؤيـــدًا متحمسًا لاستخدام مدفعية الميدان وقام بتجميع كل بندقية وجدها في مصر من أجل الدفاع عن الوطن. وربما وضع ثقة أكثر من اللازم بكثير فيها. وبالتأكيد تســـببت مدافعه في تكبيد العثمانيين خسائر فادحة ولكن تمركزه في خنادق جعل في الإمكان تطويقه بواسطة فرسان العثمانيين والالتفاف عليه. وكان أوزبك قد فعل نفس الأمر

مع العثمانيين في عام ١٤٨٦، وكان يتعين على طومان باى كفارس أن يكون قد وعى الدرس بطريقة أفضل. ويحتاج كل مدفع إلى غسله وتبريده بالخل والماء بين كل عملية إطلاق وأخرى، وكل عملية من هذا القبيل تجعل فرسان العدو يقتربون أكثر فأكثر. ولقي طومان باى هزيمة منكرة ودخل العثمانيون إلى القاهرة، ولكنه فر هاربًا مع قوة أخرى من العرب والمماليك إلى الصحراء. وحاول أن يساوم بالتهديد بتمرد العرب، ولكن سليم كان متصلبًا بأن الاستسلام التام فقط هو المطلوب. وأحاط القلة من المماليك الباقين على قيد الحياة به وطلبوا منه غاضبين أن يقاتلوا مرة أخرى، وللمرة الأخيرة تتبع المقاتلون المماليك بيارق سلطانهم وقاموا بإطلاق وابل من السهام قبل أن يقوموا بشن هجماتهم بتسديد رماحهم. وجرت وقائع المعركة بين أهرام الجيزة وربما كانت أشباح الرجال الذين كانوا دائمًا أعداءً للإليخانات والصليبيين تحوم فوق رأس الملك الأشرف طومان باى بينما كان آخر رجال السلالة في طريقهم للاندثار بواسطة نيران الجنود العبيد الجدد، الجنود الإنكشارية.

الخاتمـــة

حيل الشيطان

نهاية المماليك

انتابت السلطان العثماني مشاعر الغضب عندما وجد أن الناس لا يصدقون وقوع طومان باى في الأسر، وأرسله ليتم عرضه في شوارع القاهرة. وأخذ طومان باى يُحيي الناس وهو يطـوف بشوارع القاهرة طوال الطريق حتى وصل إلى باب زويلة، وكان غير مدرك بما سيكون عليه مصيره.. وعندما علم بأنـه سـيتم شنقه طلب من الناس حوله: "قوموا بقراءة الفاتحة من أجلـى ثلاث مرات". وبسط راحة يديه وأخذ في قراءة الفاتحة ثـلاث مرات والناس يرددون وراءه. ثم التفت إلى جلاده قائلاً: "قـم بإنجاز عملك". وعندما قام بوضع الأنشوطة حول عنقه ورفـع الحبل، فإنما انقطعت وسقطت جثته على مدخل باب زويلـة. وقيل إن الحبل قد انقطع مرتين وسقط هو على الأرض. وعندما مات وفاضت روحه إلى بارئها أخذ الناس في الصراخ والعويل، وكان هناك الكثير من الحزن والأسى لوفاته.

ابن إياس المتوفي عام ١٥٢٤ (١١٢)

وطويت صفحة السلطنة المملوكية بوفاة طومان باى وأقسم سليم على إبادتهم كلية. وكان يتم ضرب أعناق المماليك الذين يتم القبض عليهم في الجيـزة، وأخـذ العثمانيون في البحث عنهم في القاهرة، والقيام بشنق أي مواطن يقـوم بإخفـاء أي مملوك، وباختصار قطع رأس أي مملوك يتم القبض عليه ثم وضع رأسـه علـى

---

(112) In Holt, The Age of the Crusades,

الفاتحة هي أول سورة في القرآن الكريم، وتقرأ كدعاء للمتوفى (المؤلف).

سارية. وقام السلطان بإحداث تغيير مفاجئ، وكان قد تم تعيين خاير بك خديويًا لمصر ونودي بصدور عفو عام. وخرج المماليك من مخابئهم ليتم تعيينهم في نفس الأفواج التي كانوا يقومون بالخدمة فيها ولكنهم كان يتسلمون أقل الرواتب عن أي جندي في الجيش العثماني، وتم إلغاء كل الأعراف والأبهة التي كانت مرتبطة بهم في الماضي، بل وقام خاير بك بنفسه بحلق لحاهم وأمرهم بأن يقوموا بالحلاقة كالعثمانيين. ويبدو أن العار الذي لحق بهم كان شاملاً فقد تم استخدامهم كجامعي ضرائب من الفلاحين وكقوة دفاع محلية، ولكن في مايو عام ١٥١٨ قام العثمانيون باستخدامهم، ولسخرية الأقدار، في إخماد ثورة تمرد للإنكشارية في القاهرة وبدا السلطان في إظهار الاعتماد عليهم بطريقة متزايدة. وبدأ سليم في تغيير سياسته من الإبادة إلى دمجهم، وذلك ببساطة للمساحات الشاسعة من الأراضي التي قام بالاستيلاء عليها مما زاد من الأعباء الواقعة على قواته. وقام بالتعامل بكفاءة مع المشاكل التي ورثها من المماليك مع البرتغاليين والتهديد المستمر ضد بلاد الشام من الفرنجة في شرق البحر الأبيض المتوسط ومن الصفويين.

وتمت إبادة المماليك لآخر رجل في بلاد الشام بواسطة سليمان، ابن سليم وذلك في فبراير ١٥٢١ بعد أن ثاروا ضد حكمه، ولكن بالرغم من ذلك اشترك ٨٠٠ من المماليك المصريين في الغزو الذي قام به نفس السلطان ضد رودس في عام ١٥٢٢، وفي ذلك الوقت كان الكتاب العثمانيين مستعدين للبدء في سرد روايات أسطورية عن مناورات المماليك. ويقرأ أطفال النبلاء من العثمانيين، كجزء من مناهجهم التعليمية، قصصًا عن الأمير الفارسي بيبرس، والذي قام كآخر شاه من الخوارزميين بالانتقام من الخان هولاكو، وعن الأنيق والمعتد بنفسه قلاوون الذي سخر من حظوظ بيبرس السيئة في هيئته. وتحكي تلك القصص كيف أن الجراكسة ينحدرون من سلالة العرب، وكيف أن السلطان الأخير طومان باى، أعطى درسًا للسلطان سليم عن أن البنادق هي أسلحة الجبناء إزاء النبل الذي يتمتع به السيف والقوس. وتم اختزال المواقع الحربية الكبرى للماضي في تصويرها

كمجرد منافسات من القتال الفردي، وبينما تم تمجيد قايتباي، فقد أُسدلت ستائر النسيان على قيامه بإلحاق الهزيمة بالعثمانيين، وأدينت فترة حكم الغوري وعلى الأخص تخليه عن الأساليب البطولية القديمة. وأباح التلفيق وانتشار هذه القصص بين الأرستقراطيين العثمانيين اغتصاب هذا الميراث الأنبل والأعرق من البطولات العسكرية، تمامًا كما فعل الرومان نفس الشيء مع تراث الإغريق. وكانت هناك في السنوات الأخيرة احتفالات مملوكية في إسطنبول؛ وأصبح جمع سيوف سلالة العبيد الجنود من أحدث البدع المحببة فيها، كما أن كتيبات الفروسية اعتبرت مقتنيات عزيزة وتم تذييلها بأختام الطغراء للسلاطين العثمانيين. وهكذا استمر المماليك في وظائف قليلة الشأن في إدارة مصر العثمانية وكشخصيات خيالية في قصص العثمانيين التاريخية، ولكن بينما بدأت الإمبراطورية العثمانية في الانهيار بدأ الأمراء المماليك مرة أخرى في حشد القوة. وبدأت عمليات جلب صغار جدد من جورجيا من خلال تجارة الرقيق التي استعادت نشاطها وتكونت جماعات كبيرة من المماليك مرة أخرى. ونشأ موقف لا يختلف كثيرًا عمَّا كان في الإمبراطورية الإسلامية في القرن التاسع، ولكن مصر كانت تقوم بمداهنة إسطنبول فقط بينما تعمل مستقلة فعليًا عن السلطنة في أغلب الأمور.

وأدى وصول نابليون إلى الشرق الأوسط في عام ١٧٩٨ إلى تحويل المماليك إلى تراث من الماضي، يجتذب فقط عقول المسافرين، والكتاب، والرسامين الأوروبيين، كما تقررت أقدارهم بصفة نهائية. فقد قام جيش نابليون الحديث بتدمير جيش مصر في موقعة الأهرام في بضع ساعات. وتم إجبار الفرنسيين على الرحيل عن طريق حملة بريطانية – عثمانية مشتركة، والتي ذهبت إلى الحرب مصطحبة معهم المماليك. واصطحب نابليون بونابرت معه مملوكًا يُدعى رستم رازمادز كحارس شخصي له. وقام بخدمة الإمبراطور الفرنسي حتى عام ١٨١٤، كما خدمت قوة من المماليك قام نابليون بتكوينها من أسرى المماليك والإنكشارية قبل رحيله. وانضمت جماعة من المماليك للحرس الإمبراطوري وبعد

أن حاربوا بطريقة تدعو للإعجاب في موقعة أوسترليتز مُنحت لمجموعتهم راية؛ قام الرسام الشهير جويا برسم لوحة تصور هجماتهم ضد مادرلين في عام ١٨٠٨ في عمله الذي أتمه عام ١٨١٤. وأخذ نابليون مجموعتين من المماليك في حملته ضد بلجيكا في عام ١٨١٥. وكان هؤلاء الرجال الذين حاربوا في الحملة الأخيرة لنابليون هم آخر قوة للمماليك تقوم بالقتال كوحدة مقاتلة.

وأدت الهجمات البريطانية والعثمانية ضد المماليك في عام ١٨٠٣، وفشل تمرد قام به الأمراء المماليك ضد الوالي العثماني محمد علي في عام ١٨٠٥ إلى قيام قادة المماليك الجورجيين بالكتابة إلى الحكومة الروسية يناشدونها العودة إلى أوطانهم. ولم يكن هناك أي رد من القيصر، والذي بالتأكيد لم يكن راغبًا في عودة الجورجيين المسلحين إلى منطقة كان لا يزال يتعامل فيها لقمع متمردين، كما أصبح واضحًا لدى حكام الشرق الأوسط أن الوسائل القديمة لم يعد لها تأثير. ولقد أصبح واضحًا بجلاء وبمجرد رؤية جيش نابليون وهو يمارس القتال كيف أصبحت الهوة سحيقة بينهم وبين الغرب.

وكانت الرؤية المسيطرة ترى أن المماليك والإنكشارية قد أصبحوا جزءًا من المشكلة وإعاقة لتحديث الجيش الذي يمكن أن يتم، وشاركوا بعضهم نفس المصير. فقد قام السلطان محمد الثاني بذبح فيالق الجنود الإنكشارية الخاصة به في عام ١٨٢٦؛ وتسمح التعاليم الإسلامية باستخدام حيل إبليس من أجل محاربة إبليس، وقرر كلاهما محمد الثاني ومحمد علي، والذي أصبح بحلول عام ١٨١٠ حاكمًا فعليًا مستقلاً لمصر أن النموذج الأوروبي للتسليح هو الإجابة على التحدي الذي تمثله الحملات الصليبية الجديدة.

وتم طرد المماليك نهائيًا من مصر في عام ١٨١١. وقد وجهت الدعوة لأمرائهم للاحتفال مع محمد علي، ولكن بمجرد دخولهم قلعة القاهرة تم إغلاق البوابات وإطلاق النيران عليهم من جنود متمركزين في الأبراج العالية. كما كانت

هناك مذابح إضافية في شوارع القاهرة للمماليك وأسرهم؛ وهرب القليل منهم إلى السودان حيث قاموا بتأسيس دولة صغيرة استمرت في استيراد العبيد كجنود، ولكن تم تدميرهم في النهاية عن طريق حملة عثمانية في عام ١٨٢٠. وميز الانقراض النهائي للجنود العبيد الذين ظهروا في نهاية العصور القديمة بداية الشرق الأوسط الحديث ولكن التاريخ لم يبتلعهم بصفة نهائية. فمصابيح المساجد المملوكية البالغة الجمال والبالغة الرقة، تحمل الآيات القرآنية، "***الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دُري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور***" برهانًا مناسبًا لا يقبل الشك لرجال وصلوا إلى ذروة الكمال في الفنون العسكرية.

ببلیوجرافیا

Al-Sarraf, S., 'Mamluk Furusiyah Literature', *Mamluk Studies Review*, vol 8, no 1, 2004.

Amitai-Preiss, R., 'Mamluk Espionage Among the Mongols and Franks', *Asian and African Studies*, vol 22, 1988.

Amitai-Preiss, R., *Mongols and Mamluks: The Mamluk-Ilkhanid War, 1260–1281*, London: Cambridge University Press, 1995.

Ayalon, D., 'The Mamluk Novice: On his Youthfulness and on his Original Religion', *Revue des Etudes Islamiques*, vol 54, 1986.

Ayalon, D., 'The Military Reforms of Caliph Ál-Mutasim, Their Background and Consequences', in D. Ayalon, *Islam and the Abode of War*, London: Variorum Reprints, 1994.

Ayalon, D., 'Studies on the Structure of the Mamluk Army–III', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 1954.

Boyle, J., 'Dynastic and Political History of the Ilkhans', in J. Boyle (ed.), *The Cambridge History of Iran, Volume Five*, Cambridge: Cambridge University Press, 1968, ch. 4.

Dauvillier, J., 'Guilliame de Roubrouck et les Communautes Chaldeenes d'Asie, in J. Dauvillier, *Histoire et Institutions des Eglises Orientales au Moyen Age*, London: Variorum Reprints, 1983.

France, J., *Victory in the East: A Military History of the First Crusade*, London: Cambridge University Press, 1994.

France, J., 'Technology and Success of the First Crusade', in V. Parry and M. Yapp (eds), *War, Technology and Society in the Middle East*, London: Oxford University Press, 1975.

Har-El, S., *Struggle for Domination in the Middle East: The Ottoman–Mamluk War 1485–91*, Leiden: EJ Brill, 1995.

Hillenbrand, C., *The Crusades: Islamic Perspectives*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 1999.

Holt, P., *The Age of the Crusades: The Near East from the Eleventh Century to 1517*, London: Longman, 1986.

Holt, P., *The Memoirs of a Syrian Prince*, Wiesbaden: Steiner, 1983.

Holt, P., *Early Mamluk Diplomacy 1260-1290: Treaties of Baybars and Kalavun with Christian Rulers*, Leiden: EJ Brill, 1995.

Imber, C., *The Ottoman Empire 1300–1481*, Istanbul: Isis Press, 1990.
Irwin, R., *The Middle East in the Middle Ages: The Early Mamluk Sultanate*, London: Croom Helm, 1986.
Irwin, R., 'Gunpowder and Firearms in the Mamluk Sultanate Reconsidered', in M. Winter and A. Levanoni (eds), *The Mamluks in Egyptian and Syrian Politics and Society*, Leiden: EJ Brill, 2004.
Joinville, Jean de, *The Memoirs of the Lord of Joinville*, translated by E. Wedgewood, New York: Dutton, 1906.
Levanoni, A., *A Turning Point in History: The Third Reign of al-Nasir Muhammad Ibn Kalavun*, Leiden: EJ Brill, 1995.
Lewis, B., *Islam from the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople*, New York: Harper & Row, 1974.
Little, D., 'The Fall of Akka in 690/1291: The Muslim Version', in M. Sharon (ed.), *Studies in Islamic History in Honour of Professor D. Ayalon*, Leiden: EJ Brill, 1986.
Maalouf, A., *The Crusades through Arab Eyes*, translated by J. Rothschild, London: Al- Saqi Books, 1984.
Marozzi, J., *Tamerlane. Sword of Islam, Conqueror of the World*, London: HarperCollins, 2004.
Morgan, D., 'The Mongols in Syria 1260–1300', in P. Edbury (ed.), *Crusade and Settlement*, Cardiff: University of Cardiff Press, 1985.
Morgan, D., *The Mongols*, Oxford: Blackwell, 1990.
Nicolle, D., 'Arms of the Umayyad Era: Military Technology in a Time of Change', in Y. Lev (ed.), *War and Society in the Eastern Mediterranean, 7th to 15th Century*, Leiden: EJ Brill, 1997.
Petry, C., *Twilight of Majesty: The Reigns of the Mamluk Sultans al-Ashraf Qaytbay and Kansawh al-Ghawri in Egypt*, Seattle: University of Washington Press, 1993.
Petrushevsky, I., 'The Socio-economic Condition of Iran under the Ilkhans' in J. Boyle (ed.), *The Cambridge History of Iran. Volume Five*, London: Cambridge University Press, 1968.
Rabie, H., 'The Training of the Mamluk Faris', in V. Parry and M. Yapp (eds), *War, Technology and Society in the Middle East*, London: Oxford University Press, 1975.
Scanlon, G., *A Muslim Manual of War*, Cairo: American University at Cairo, 1961.
Smith, J., 'Mongol Society and Military in the Middle East: Antecedents and Adaptations', in V. Parry and M. Yapp (eds), *War, Technology and Society in the Middle East*, London: Oxford University Press, 1975.

Thorau, P., 'The Battle of Ayn Jalut: a Re-examination', in P. Edbury (ed.), *Crusade and Settlement*, Cardiff: University of Cardiff Press, 1985.

Williams, A., 'Ottoman Military Technology: The Metallurgy of Turkish Armour', in Y. Lev (ed.), *War and Society in the Eastern Mediterranean, 7th to 15th Century*, Leiden: EJ Brill, 1997.

SUGGESTED FURTHER READING

The works used in the construction of this book are the obvious starting point for any reader interested in further reading about the Mamluks, the Mongols, the Ottomans and the other numerous characters that have graced us with their presence in the period covered in these pages. For those readers who wish to pursue their studies a little further, the following works are suggested. Most are readily obtainable but because of the relative immaturity of English-language studies into both the Mamluks and Mongols some could be considered 'specialist'.

Abulafia, D., *Marseilles, Acre and the Mediterranean 1200–1291 in Italy, Sicily and the Mediterranean 1100–1400*, London, 1987.

Alban, J. and Allmand, C., 'Spies and Spying in the Fourteenth Century', in C.T. Allman (ed.), *War, Literature and Politics in the Later Middle Ages*, Liverpool, 1976.

Amitai-Preiss, R. and Morgan. D. (eds), *The Mongol Empire and its Legacy*, Leiden, 2000.

Atil, E., *Renaissance of Islam: Art of the Mamluks*, Washington, DC, 1981.

Boase, T. (ed), *The Cilician Kingdom of Armenia*, Edinburgh, 1978.

Bosworth, C., 'The Political and Dynastic History of the Iranian World 1000–1217', in J. Boyle (ed.), *The Cambridge History of Iran. Volume Five: The Saljuq and Mongol Periods*, Cambridge, 1968.

Boyle, J. (translator), *Ata Malik Juvaini. The History of the World Conqueror*, 2 vols, Manchester, 1958.

Boyle, J. (translator), *Rashid al-Din. The Successors of Genghis Khan*, New York and London, 1971.

Boyle, J., *The Mongol World Empire 1206-1370*, London, 1977.

Budge, E. (ed. and translator), *The Chronography of Gregory Abu'l Faraj, Commonly Known as Bar Hebraeus*, 2 vols, London, 1932.

Cahen, C., 'The Mongols and the Near East', in K. Setton (ed.), *A History of the Crusades, Volume 2*, Madison, NJ, 1969.

Cahen, C., 'The Turkish Invasion: The Selchukids' in K. Setton (ed.), *A History of the Crusades, Volume 1*, Madison, NJ, 1969.
Cahen, C., *Pre-Ottoman Turkey*, translated by Jones-Williams, London, 1968.
Chambers, J., *The Devil's Horsemen: The Mongol Invasion of Europe*, London, 1979.
Cleaves, F. (translator), *The Secret History of the Mongols*, Cambridge, MA, 1982.
Crone, P., *Slaves on Horses: The Evolution of the Islamic Polity*, Cambridge, 1980.
De Rachewiltz, I., *Papal Envoys to the Great Khans*, London, 1971.
Edbury, P. and Rowe, J., *William of Tyre, Historian of the Latin East*, Cambridge, 1988.
Ehrenkreutz, A. 'Strategic Implications of the Slave Trade between Genoa and Mamluk Egypt in the Second Half of the Thirteenth Century', in A. Udovitch (ed.), *The Islamic Middle East 700–1900: Studies in Economic and Social History*, Princeton, 1981.
El-Azhari, T., *The Seljuqs of Syria during the Crusades: 1070–1154*, translated by Winkelhane, Berlin, 1997.
Fink, H. (ed.), *Fulcher of Chartres: A History of the Expedition to Jerusalem 1095–1127*, Tennessee, 1969.
Firro, K., *A History of the Druzes*, Leiden, 1992.
Gabrieli, F., *Arab Historians of the Crusades*, translated by E. Costello, London, 1969.
Glubb, J., *Soldiers of Fortune: The Story of the Mamlukes*, New York, 1973.
Hookham, H., *Tamburlaine the Conqueror*, London, 1962.
Housley, N., *The Later Crusades: From Lyons to Alcazar. 1274–1580*, Oxford, 1992.
Humphreys, R., *From Saladin to the Mongols: The Ayyubids of Damascus 1192–1260*, Albany, NY, 1977.
Inalcik, H., *The Ottoman Empire: The Classical Age 1300–1600*, translated by N. Itzkowitz and C. Imber, London, 1973.
Inalcik, H., *The Ottoman Empire: Conquest, Organisation and Economy*, London. 1985.
Jackson, P., 'The Crisis in the Holy Land in 1260', *English Historical Review*, vol 95, 1980.
Kennedy, H., *The Prophet and the Age of the Caliphates: The Islamic Near East from the Sixth to the Eleventh Century*, London, 1986.
Koprulu, M., 'Life along the Border and the Founding of the Ottoman Empire', in G. Leiser (ed. and translator), *The Origins of the Ottoman Empire*, New York, 1992.

Lindner, R., *Nomads and Ottomans in Medieval Anatolia*, Indiana, 1983.
Little, D., *An Introduction to Mamluk Historiography*, Wiesbaden, 1970.
Morgan, D., 'The Great Yasa of Chingiz Khan and Mongol Law in the Ilkhanate, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, vol 49, no 1, 1986.
Morgan, D., *Medieval Persia*, London, 1988.
Peters, P., *Jihad in Medieval and Modern Islam*, Leiden, 1997.
Pipes, D., *Slave Soldiers and Islam: The Genesis of a Military System*, New Haven, CT, 1981.
Richard, J., 'Une Ambassade Mongole a Paris en 1262', in J. Richard (ed.), *Croises, Missionaires et Voyageurs*, London, 1983.
Saunders, J., *The History of the Mongol Conquests*, London, 1971.
Sivan, E., *L'Islam et la Crosaide: Ideologie et Propagande dans le Reactions Musulmanes aux Croisades. Librairie D'Amerique et D'Orient*, Paris, 1968.
Spuler, B., *History of the Mongols*, London, 1972.
Thorau, P., *The Lion of Egypt: Sultan Baybars and the Near East in the Thirteenth Century*, translated by P. Holt, London and New York, 1992.
Vemadsky, G., 'The Mongols and Russia', in G. Vemadsky (ed.), *A History of Russia, Volume 3*, New Haven, CT, 1966.
Wittek, P., *The Rise of the Ottoman Empire. Royal Asiatic Society Monographs, Volume XXIII*, London, 1967.
Yapp, M., 'The Golden Horde and Its Successors', in P. Holt, A.K.S. Lambton and B. Lewis (eds), *The Cambridge History of Islam*, Cambridge, 1970.

المؤلف في سطور:

جيمس واترسون

- تخرّج في جامعة لندن – كلية الدراسات الشرقية والإفريقية.
- نال شهادة الماجستير من جامعة دندي – اسكتلندا – المملكة المتحدة.
- سافر وعمل في الشرق الأوسط، والولايات المتحدة الأمريكية، والصين لسنوات عديدة، كما قام بزيارة بلاد الشام وإيران لفترات طويلة ولكنه يقيم الآن في توسكاني بإيطاليا، ولا يترك إيطاليا إلا فيما ندر. وهو مؤرخ مُنصف تتسم كتاباته بالحياد واستخدام الأسلوب العلمي في البحث.
- صدر كتابه الثالث "السيوف المقدسة" في عام ٢٠١٠

المترجم في سطور:

يعقوب عبد الرحمن يعقوب

- حاصل على شهادة الترجمة من كلية التعليم المستمر بالجامعة الأمريكية بتقدير عام جيد جدًا - كما حصل على دورات متعددة في المحاسبة باللغة الإنجليزية وكذلك على دورات متقدمة في اللغة الإنجليزية.
- قام بمزاولة أعمال الترجمة مع أحد مراكز الترجمة والنشر الخاصة في مختلف المجالات ولفترة طويلة، كما شارك في أثناء عمله بالمركز في ترجمة العديد من الكتب في مختلف مناحي المعرفة.
- عمل مترجما في بنك القاهرة الشرق الأقصى قبل أن يتم خصخصة البنك، ثم عمل بعدها لفترة كبيرة مترجما مستقلا.
- عمل موظفا في البنك المصري الأمريكي في العديد من أقسام البنك - قبل أن يقوم بتغيير وجهته إلى مجال الترجمة، وأكسبه عمله في مجال البنوك خبرة كبيرة في مجالات الترجمة الاقتصادية والقانونية.

المراجع في سطور:

حاتم الطحاوي

مترجم مصري، دكتوراه في التاريخ، أستاذ بكلية الأداب – قسم التـــاريخ – جامعة الزقازيق.

من ترجماته:

١) نيقولو باربارد، الفتح الإسلامى للقسطنطينية ١٤٥٣م، (دراسة وترجمة وتعليق).
٢) جونز، لحصاد العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م، (سبعة مصادر معاهدة).
٣) ثريا فاروقى، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها.

يحكي هذا الكتاب عن فترة ذهبية في تاريخ العرب والمسلمين، وهي فترة تميزت بتحقيق انتصارات مذهلة، وعلى العديد من الجبهات، وضد إمبراطوريات وقوى عظمى في العصور الوسطى.
ولم تكن تلك الانتصارات العظيمة والمتكررة وليدة الصدفة أو الحظ، ولكنها كانت نتاج عمل جاد ودءوب لرجال عرفوا طريق الأسلوب العلمي للتخطيط والتنفيذ بالفطرة - وقاموا بتنمية مقدراتهم بالتدريب الشاق والعمل المستمر.
وقد وفى المؤلف المماليك حقهم بموضوعية تامة سواء في قدراتهم القتالية الفذة وتنظيمهم وروح الجهاد التي تقمصتهم، وحسن تخطيطهم واستخدامهم لأساليب علمية حديثة يتم تطبيقها في عالم اليوم، مثل التجسس على الأعداء الحاليين بل وعلى الأصدقاء المرشحين للتحول إلى أعداء محتملين، واستخدام الدبلوماسية وعقد المعاهدات وتحديد شروطها بطريقة فذة، بحيث يمكن تحقيق أقصى فائدة ممكنة، وكل ذلك بالفطرة السليمة وبذكاء منقطع النظير.
هذا الكتاب التاريخي الممتع ينصف المماليك الذين قدموا من سهوب آسيا واعتنقوا الإسلام ديانة لهم، ودافعوا عنه دفاعا مجيدا في مواجهة أخطار بالغة كانت تحيط بالإسلام والمسلمين، وكانوا سببا في تغيير خريطة العالم آنذاك، وبالتالي حتى الوقت الحاضر.

تصميم الغلاف: حسين جبيل